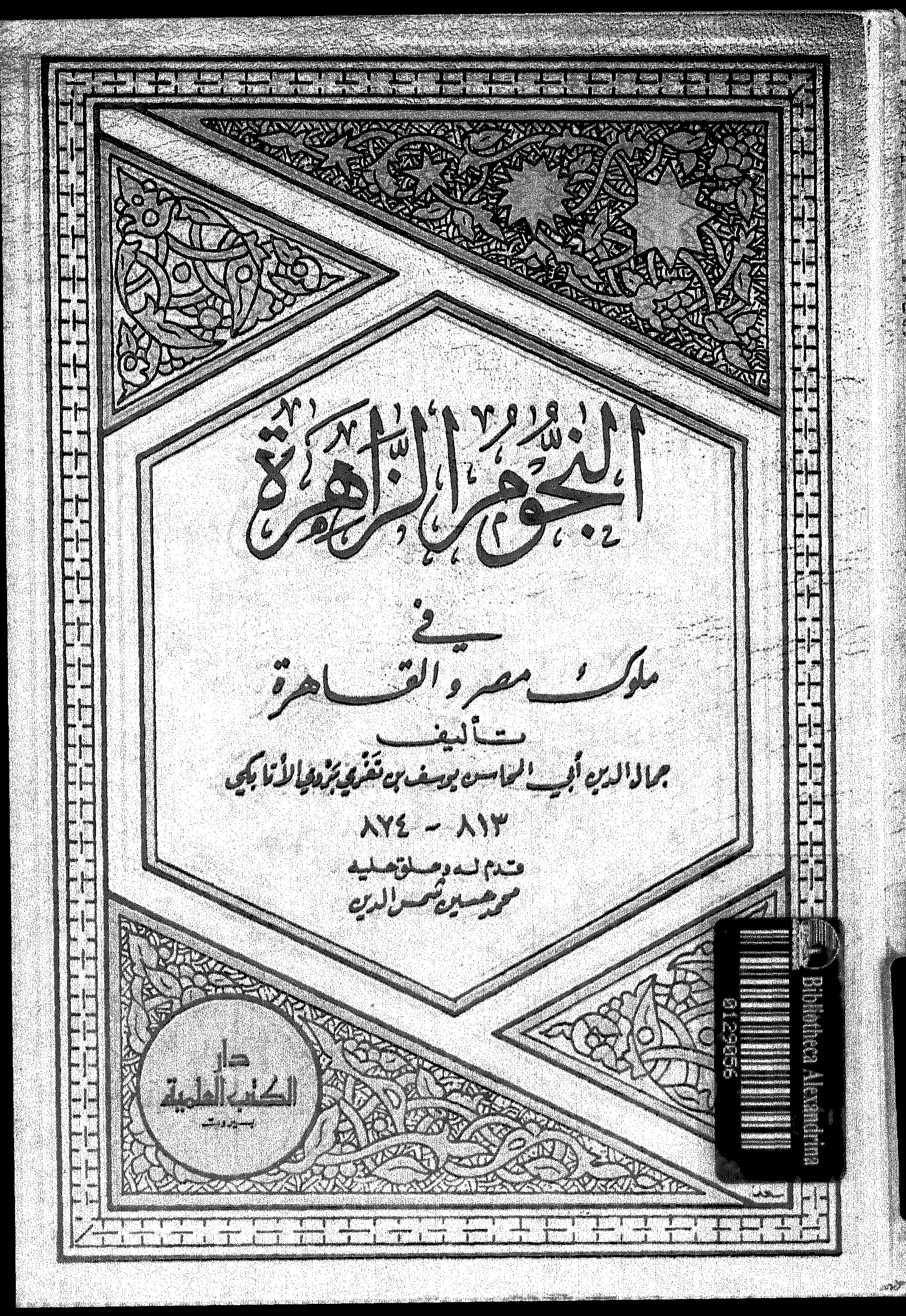
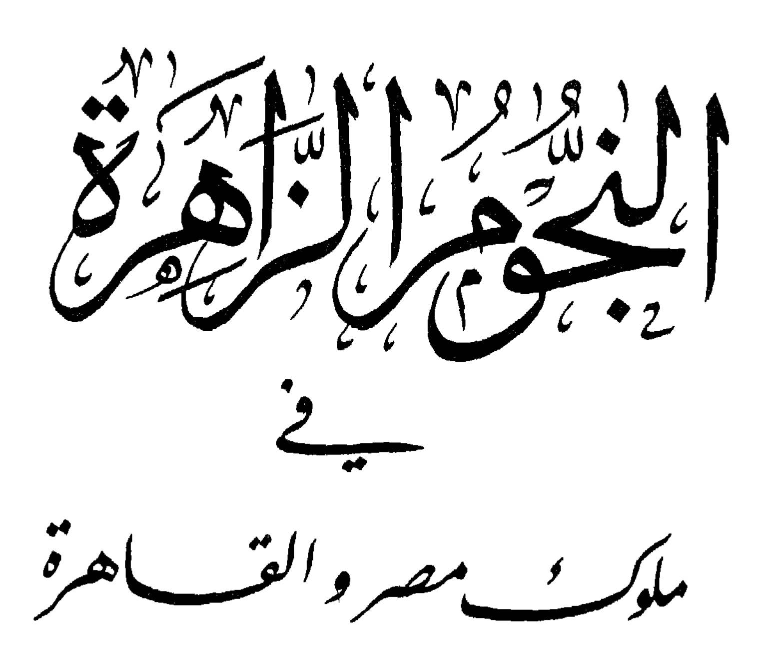

النجوم الزاهرة
في
ملوك مصر والقاهرة
تأليف
جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي
٨١٣ - ٨٧٤
قدم له وعلق عليه
محمد حسين شمس الدين
دار الكتب العلمية
بيروت



تأليف

جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي

٨١٣ - ٨٧٤

قدم له وعلق عليه

محمد حسين شمس الدين

الجزء الخامس عشر

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

يطلب من : دار الكتب العلمية بيروت . لبنان
ص.ب : ١١/٩٤٢٤ تلكس : Nasher 41245 Le
هاتف : ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر سلطنة الملك العزيز يوسف[1]
[ابن السلطان الملك الأشرف بَرْسْباي الدُّقْماقي][2] على مصر

السلطانُ الملك العزيز جمال الدين أبو المحاسن يوسف ابن السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبي نصر بَرْسْباي الدُّقْماقي الظاهري الجاركسي، التاسع من ملوك الجراكسة وأولادهم، والثالث والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية. تسلطن بعد موت أبيه بعهدٍ منه إليه، في آخر يوم السبت ثالث عشر ذي الحجة قبل غروب الشمس بنحو ساعة، ولبس خلعةَ السلطنة من باب الستارة بقلعة الجبل، وقد تكامل حضورُ الخليفة والقضاة والأمراء وأعيان الدولة، وبايعه الخليفةُ المعتضد بالله داؤد وفوَّض عليه خلعةَ السلطنة السواد الخليفتي، وركب من باب الستارة وجميعُ الأمراء مُشاة بين يديه، حتى نزل على باب القصر السلطاني من قلعة الجبل، ودخل إليه وجلس على سرير الملك وعمرُه يومئذ أربع عشرة سنة وسبعة أشهر. وقبَّل الأمراء الأرض بين يديه على العادة ونودي بسلطنته بالقاهرة ومصر. ثم أخذ الأمراء في تجهيز والدِه فجُهّز وغُسّل وكُفّن وصُلّي عليه، ودفن بالصحراء حسبما ذكرناه في ترجمته. ولقّبوه بالملك العزيز، وتمّ أمرُه في المُلك ودُقَّت الكُوسات بالقلعة.

وكان خليفةَ الوقت يومَ سلطنته، المعتضدُ بالله داؤدُ العباسي؛ والقضاة: قاضي القضاة شهابُ الدين أحمد بن عليّ بن حَجَر الشافعي، وقاضي القضاة

---

(١) ترجمته وأخباره في: السلوك: ١٠٥٣/٤؛ ونزهة النفوس والأبدان: ٤٢٢/٣؛ وبدائع الزهور: ٣٣١؛ والضوء اللّامع: ٣٠٣/١٠؛ وشذرات الذهب: ٣٠٩/٧؛ والأعلام: ٢٢١/٨؛ وإنباء الغمر: ١٢/٩ وما بعدها؛ وغيرها من كتب التاريخ والتراجم.

(٢) زيادة للتوضيح.

بدرُ الدين محمود العيني الحنفي، وقاضي القضاة شمسُ الدين محمد البساطي المالكي، وقاضي القضاة محبُّ الدين أحمدُ بن نصر الله البغدادي الحنبلي.

ومن الأمراء أصحاب الوظائف من المقدّمين، وغالبهم كان مجرّداً بالبلاد الشامية. فالذين كانوا بالديار المصرية: الأمير الكبير أتابك العساكر جَقْمَق العَلائي، والأمير قَرَاخُجَا الحسني، والأمير تَنِبَك من بَرْدبك الظاهري، والأمير تَغْرِي بَرْدي البَكْلَمُشي المعروف بالمُؤذي. والذين كانوا بالتجريدة بالبلاد الشامية: مقدّم العساكر الأمير قَرْقَمَاس الشعباني الناصري أمير سلاح، وآقْبَغَا التِّمرازي أمير مجلس، وأُرْكَمَاس الظاهري الدوادار الكبير، وتِمْراز القُرْمُشي الظاهري رأس نوبة النُّوَب، وجانِم الأشرفي الأمير آخور الكبير، ويَشْبَك السُّودوني حاجب الحجاب، وخُجَا سُودون السَّيْفي بلاط الأعرج، وقَرَاجا الأشرفي، لتتمة ثمانية من مقدّمي الألوف. فجملة الحاضرين والمسافرين ثلاثة[1] عشر أميراً من المقدّمين.

وأما مَن كان من أصحاب الوظائف من أمراء الطبلخاناه والعشرات: فشادُّ الشراب خاناه عظيم المماليك الأشرفية إينال الأبوبكري الأشرفي الفقيه العالم، ونائب القلعة تَنِبَك السَّيفي نَوْرُوز الخضريّ المعروف بالجَقْمَقي كلا شيء، والحاجب الثاني أَسَنْبَغَا الناصري المعروف بالطَّياري، والزَّرْدكَاش تَغْري بَرْمَش السيفي يَشْبَك بن أَزْدَمُر؛ فهؤلاء وإن كانوا أمراء طبلخاناه وعشرات فمنازلُهم منازلُ مقدمي الألوف، لأن الأعصار الخالية كان لا يلي كلَّ وظيفة من هذه الوظائف إلّا مقدّم ألف، ويظهر ذلك من لبسهم الخِلَعَ في المواسم وغيرها؛ وكان الدوادار الثاني تَمُرْبَاي السيفي تَمُرْبَغَا المشطوب، ورأس نوبة ثاني طوخ مِن تِمْراز الناصري، والأمير آخور الثاني يخشباي المؤيدي ثم الأشرفي، والخازندار علي باي الساقي الأشرفي وهو أمير عشرة، وأستادّار الصحبة مُغُلْباي[2] [الجَقمقي] أمير

(١) المعدود أعلاه اثنا عشر أميراً فقط. والظاهر أن المؤلّف أسقط المقام الجمالي يوسف ابن السلطان برسباي الذي تولى السلطنة، وكان قبل هذا من جملة الأمراء المقدّمين، وكانت مرتبته رأس ميسرة. وقد عدّ المقريزي الأمراء المقدّمين الثلاثة عشر في بداية أخبار سنة ٨٤٠ هـ، فكانت مطابقة لما أورده أبو المحاسن هنا باستثناء الأمير إينال الأجرود نائب الرّها، فقد أهمله أبو المحاسن وذكر بدلاً منه الأمير قراجا الأشرفي.

(٢) في طبعة كاليفورنيا: «مغلي باي». والضبط والزيادة عن السلوك وطبعة المؤسسة المصرية.

عشرة، والزمام الطواشي الحبشي جوهر الجُلْبَاني اللالا، والخازندار الطواشي الحبشي جوهر القُنقبَائي أمير عشرة أيضاً، ومقدم المماليك الطواشي الرومي خُشْقَدم اليَشْبَكي أمير طبلخاناه، ونائبه فَيْرُوز الرُّكْني أمير عشرة.

ومباشرو الدولة: كاتب السرّ الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله الفُوِّيّ، وناظر الجيش زين الدين عبد الباسط بن خليل الدمشقي، والوزير الصاحب كريم الدين عبد الكريم ابن كاتب المناخ، وناظر الخاص الشريف الصاحب جمال الدين يوسف ابن كاتب جَكَم، والأستادّار جانِبك مملوك عبد الباسط صورةً ـ ومعناها أستاذه عبد الباسط، ولولا مخافة أن أتَّهم بالنسيان لوظيفة كالأستادارية ما ذكرناه هنا ـ ومحتسب القاهرة القاضي الإمام نور الدين علي السُّوَيْفي أحد أئمة السلطان، ووالي[1] القاهرة عمر الشَّوْبَكي.

ومَن عاصرَه من ملوك الأقطار وأمراء الحجاز ونوّاب البلاد الشامية وغيرها: فممالك العجم بيد القان مُعين الدين شاه رُخْ بن تيمورلَنْك، وهو صاحب خُراسان وجُرْجان وخُوارَزْم وما وراء النهر ومازِنْدران وجميع عراق العجم وغالب ممالك الشرق، إلى دلّي من بلاد الهند، وإلى حدود أَذْرَبيجان التي كرسِيُّها مدينة تِبْرِيز؛ وصاحب تبريز يومَذاك إسكندر بن قَرا يوسف، وقد تَشَتَّتَ عنها منهزماً من شاه رُخ، وقُتل في هذه السنة أخوه أَصْبَهَان بن قَرا يوسف صاحب بغداد وغالب عراق العرب، وقد خربت تلك الممالك في أيامه وأيام أخيه شاه محمد؛ وملوك ديار بكر بن وائل عدّة كبيرة، فصاحب مارْدِين وآمِد وأَرْزَنْ وأَرْقَنِين وغيرهم أولاد قَرَايُلك؛ وحصن كَيْفا بيد الملك الكامل صلاح الدين خليل الأيوبي، وقلعة أَكِلّ بيد دُولات شاه الكُرْدي، والجزيرة بيد عمر البختيّ، وإقليم شَمَاخي بيد السلطان خليل، والروم بيد ثلاثة ملوك، أعظمهم السلطان مراد بك بن محمد بن عثمان صاحب بُرْصَا، وأَدْرِنَابُولي[2]، وغيرها.

---

(١) للوقوف على التعريف بالوظائف الإدارية والعسكرية الواردة أعلاه يُنظَر فهرس المصطلحات.

(٢) هي أدرنة.

وبجانبٍ آخر: إسْفَنْديار[١] بن أبي يزيد، وباقي أطراف الروم مع السلطان إبراهيم بن قرمان، مثل لارِنْدة وقونية وغيرهما؛ وبلاد المغرب: فصاحب تونس وبِجَاية وبلاد إفريقية أبو عمرو عثمان بن أبي عبد الله محمد ابن مولاي أبي فارس عبد العزيز الحَفْصي، وبلاد تِلِمْسان والغرب الأوسط: أبو يحيىٰ بن أبي حَمُّود، وبممالك فاس ثلاثة ملوك: أعظمهم صاحب فاس، وهو أبو محمد عبد الحق بن عثمان بن أحمد بن إبراهيم ابن السلطان أبي الحسن المريني، وملك أندلس أبو عبد الله محمد بن الأَيسر ابن الأمير نصر ابن السلطان أبي عبد الله بن نصر المعروف بابن الأحْمر صاحب غِرْنَاطة.

وصاحبُ مكة المشرّفة زينُ الدين أبو زُهَيْر بركات بن حسن بن عَجْلان الحسيني؛ وأميرُ المدينة الشريف إميان بن مانع بن علي الحسيني؛ وأميرُ الينبوع[٢] الشريف عقيل بن وبير[٣] بن نَخْبار. وببلاد اليمن: الظاهر يحيىٰ ابن الملك الأشرف إسماعيل من بني رسول، وهو صاحب تَعِزّ وعدن وزَبِيد وما والاها وصاحبُ صنعاء وبلاد صَعْدة الإمامُ صلاح الدين محمد؛ وبلادُ الفرنج ستُّ عشرة مملكة يطول الشرح في تسميتها؛ وببلاد الحبشة: الحَطِيُّ الكافر ومُحاربُه ملك المسلمين شهابُ الدين أحمد بِدْلاي[٤] ابن السلطان سعد الدين أبي البركات

---

(١) هو مبارز الدين إسفنديار بن بايزيد. توفي سنة ٨٠٥ هـ.

(٢) هي اليَنبُع.

(٣) في الأصول: «زبير». والتصحيح عن السلوك ونزهة النفوس والضوء اللاّمع.

(٤) كان سلطان مملكة عَدَل (أَدَل ـ عدال) الإسلامية بالحبشة. وكانت هذه المملكة مع غيرها من الممالك الإسلامية بالحبشة في صراع مستمر مع الحطّي ملك الحبشة المسيحي، وهو في ذلك الوقت زره يعقوب (ظرأه ياعقوب) الذي حكم من ١٤٣٤ إلى ١٤٦٨ م. وبدلاي المذكور حكم من ٨٣٥ إلى ٨٤٧ هـ (١٤٣١ ـ ١٤٤٣ م). ـ انظر دائرة المعارف الإسلامية: ٢٧٩/١٣ وما بعدها؛ والضوء اللاّمع: ٤/٣ والسلوك: ٩٤٠/٤؛ والإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى للدكتور إبراهيم طرخان: مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد الثامن، ص ٦١. ـ وللمقريزي رسالة هامة بهذا الموضوع اسمها: الإلمام بأخبار مَن بأرض الحبشة من ملوك الإسلام (ط. القاهرة ١٨٩٥ م).

محمد بن أحمد بن علي بن ناصر[١] الدين محمد بن دلحوي[٢] بن منصور بن عمر بن ولَسْمَعْ الجَبَرْتي[٣] الحنفي.

ونوابُ البلاد الشامية: نائب دمشق الأتابك إينال الجَكَمي، ونائب حلب حسين بن أحمد البَهْسَنِي المدعو تَغْري بَرْمَش، ونائبُ طرابلس جُلْبان الأميرُ آخور، وفي معتقده أقوال كثيرة، ونائبُ حماة قاني باي الحمزاوي، ونائبُ صَفَد إينال العلائي الناصري، أعني السلطان الملك الأشرف إينال؛ ونائبُ غزة آقْبَرْدِي القَجْماسي، ومات بعد أيام؛ ونائبُ الكَرك خليلُ بن شاهين؛ ونائبُ القدس طُوغَان العثماني؛ ونائبُ مَلَطْيَة حسن بن أحمد أخو نائبِ حلب؛ وحسن الأكبر ـ انتهى.

قلت: وفائدةُ ما ذكرناه هنا من ذكر أصحاب الوظائف من الأمراء وغيرهم، يظهر بتغيير الجميع وولاية غيرهم بعد مدة يسيرة في أوائل سلطنة الملك الظاهر جَقْمَق، لتعلم تقلّبات الدهر وأن الله على كل شيء قدير.

وأما ذكرُ ملوك الأطراف وغيرهم فهو نوع استطراد لا يخلو من فائدة، وليس فيه خروج ممّا نحن بصدده ـ انتهى.

* * *

ولما تمّ أمرُ السلطانِ الملك العزيز ونودي بسلطنته وبالنفقة على المماليك السلطانية في يوم الاثنين خامس عشر ذي الحجة، لكل مملوك مائة دينار، سكنَ قلقُ الناس وسُرُّوا جميعاً بولايته؛ ولم يقع في ذلك اليوم هرج ولا فتنة ولا حركة، واطمأنت الناس، وباتوا على ذلك وأصبحوا في بيعهم وشرائهم؛ غير أن المماليك صاروا فرقاً[٤] مختلفة، والقالةُ موجودة بينهم في الباطن.

---

(١) في السلوك ودائرة المعارف الإسلامية: «صبر الدين».

(٢) في السلوك: «ونحوي».

(٣) نسبة إلى «جبرت» من مدن الحبشة. وهي نفسها أوفات.

(٤) انقسم المماليك وأمراؤهم فرقتين: المماليك والأمراء الأشرفية وكانوا من أنصار السلطان، والأمراء والمماليك المؤيدية والناصرية ومعهم المماليك السيفية وكانوا مع الأتابكي جقمق. ثم إن الأمير الكبير جقمق ما لبث أن استمال القسم الأكبر من المماليك والأمراء الأشرفية واستبدّ بالحكم وخلع السلطان.

ولمّا كان يومُ الأحد رابع عشر ذي الحجة، حضر الأمراء والخاصْكِيَّةُ للخده بالقصر على العادة، وأنعم السلطانُ الملك العزيز على الخليفة أمير المؤمني المعتضد بالله بجزيرة الصابوني[1] زيادةً على ما بيده، وكُتب إلى البلاد الشام ولجميع المماليك بسلطنته.

ثم في [يوم] الاثنين ابتدأ السلطانُ بنفقة المماليك السلطانية، بعد أن جلس بالمقعد الملاصق لقاعة الدُّهِيشة المطل على الحوش السلطاني، وبجانبه الأم الكبير جَقْمَق العلائي وبقية الأمراء. وشرع السلطانُ في دفع النفقة إلى المماليك السلطانية، لكل واحد مائة دينار، كبيرهم وصغيرهم وجليلهم وحقيرهم بالسويّة فحسُنَ ذلك ببال الناس وكثر الدعاء للسلطان وعطفت القلوب على محبته. ثم عيّ للتوجّه إلى البلاد الشامية للبشارة الأميرَ إينال الأحمدي الظاهري الفقيه أحد أمر العشرات ورأس نوبة، وعلى يده مع البشائر كُتُب للأمراء المجرّدين بالبلاد الشام تتضمن موتَ الملك الأشرف وسلطنةَ ولده الملك العزيز هذا.

ثم قَدِمَ رسول الأميرِ حمزة بن قَرَايُلك صاحبِ ماردين وأَرْزَن وصُحْبت شمسُ الدين القَلَمْطَاوي، ومعهما هدية وكتاب يتضمن دخولَ حمزة المذكور ف طاعة السلطان، وأنه أقام الخطبة وضرب السكّةَ إلى السلطان ببلاده، وأنه صار م جملة نوّاب السلطان، وكان الأمراء المجرّدون كاتَبوه في دخوله في طاعة السلطا فأجاب، وفي جملة الهدية دراهم ودنانير بسكّة السلطان الملك الأشرف بَرْسْباي فخلع على قاصده وأكرمه.

ثم خلع السلطانُ في يوم الثلاثاء سادس عشر ذي الحجة على الأمير طُو مازِي الناصري - ثاني رأس نوبة - باستقراره في نيابة غزة بعد موت آقْبَرْدِ القَجْمَاسي.

---

(١) جزيرة الصابوني: تقع هذه الجزيرة تجاه رباط الآثار (ساحل أثر النبي). وكان نجم الدين أيوب أوقف هذه الجزيرة وقطعة من بركة الحبش، فجعل نصف ذلك على الشيخ الصابوني وأولاده، والنص الآخر على الصوفية. (انظر خطط المقريزي: ٢/ ١٨٥، ٤٢٩).

كلّ ذلك والسلطان يطيل السكوتَ في المواكب السلطانية ولا يتكلم في شيء من الأمور. وصار المتكلمَ في الدولة ثلاثةُ أنفس: الأميرُ الكبير جَقْمَقْ العلائي، والأميرُ إينال الأبوبكري الأشرفي شادّ الشراب خاناه، والزيني عبد الباسط ناظر الجيش؛ فمشى الحال عل ذلك أياماً.

فلما كان يوم السبت العشرين من ذي الحجة، وقع بين الأمير إينال الأبوبكري المذكور وبين جَكَم الخاصْكِي ـ خال الملك العزيز ـ مفاوضة آلت إلى شرّ؛ وابتدأت الفتنة من يومئذ، وعظّم الأمر بينهما مَن له غرض في إثارة الفتن لغرض من الأغراض. وكان سبب الشرّ إنكار جَكَم على إينال لتحكّمه في الدولة، وأمره ونهيه، وكونه صار يبيت بالقلعة. فغضب إينال أيضاً ونزل إلى داره، ومال إليه جماعة كبيرة من إنْيَاتِه بطبقة الأشرفية. ثم نزل عبدُ الباسط إلى داره من الخدمة، فتجمّع عليه جماعة كبيرة من المماليك الأشرفية وأحاطوا به وأوسعوه سبّاً، وربما أراد بعضهم ضربَه والاخراقَ به، لولا ما خلّصه بعض مَن كان معه من أمراء المؤيدية بأن تضرّع للمماليك المذكورين ووعدهم بعمل المصلحة حتى تفرّقوا عنه، وتوجّه إلى داره على أقبح وجه.

واستمر من هذا اليوم الكلمةُ مختلفة وأحوالُ الناس متوقفة، وصار كلٌّ من المماليك الأشرفية يريد أن يكون هو المتكلم في الدولة، ويقدّم إنْياته ويجعلهم خاصْكِيَّة. كلّ ذلك والأميرُ الكبير جَقْمَق سامع لهم ومطيع، وصار يدور معهم كيف ما أرادوا، وإينال المشدُّ يزداد غضبُه ويُكثر من القالة، لتحكم جَكَم في الباطن، والشرّ ساكن في الظاهر، والمملكةُ مضطربة ليس للناس فيها مَن يُرْجَع إلى كلامه.

فلما كان يوم السبت سابع عشرين ذي الحجة أنعم السلطان الملك العزيز على الأتابكِ جَقْمَق العلائي بإقطاعه الذي [كان] بيده في حياة والده، بعد أن سأل السلطانُ الأتابكَ جقمق في ذلك غير مرة، وأنعم بإقطاع الأتابك جقمق على الأمير تِمْراز القُرْمُشي رأس نوبة النُّوب، وهو أحد الأمراء المجرّدين إلى البلاد الشامية، وأنعم بإقطاع تمراز المذكور على تَمُرْباي التمربَغَاوي الدوادار الثاني، والجميع تَقادِمُ ألوفٍ، لكن التفاوت في كثرة الخراج وزيادة المُغَلّ في السنة.

وأنعم بـإقطاع تمـرباي المـذكور علَى الأمير عليّ بـاي الأشـرفي السـاقي الخازندار، وأنعم بإقطاع طوخ مازي الناصري ـ المنتقل إلى نيابة غزة قبل تاريخه على الأمير يخشباي الأشرفي الأمير آخور الثاني، وأنعم بإقطاع يخشباي المذكـو على الأمير يَلْخُجَا مِن مامِش الساقي الناصري رأس نوبة، والجميع أيضاً طبلخاناه.

وأنعم بإقطاع يَلْخُجا الساقي علَى السيفي قـاني باي الجـاركسي وصار أمير عشرة، بعد أن جهد الأتابكُ جَقْمَق في أمره وسعى في ذلك غاية السعي، وأرسل بسببه إلى عبد الباسط وإلى الأمير إينال المشد غيـر مرة حتى تمّ لـه ذلك. وخلع السلطانُ على الأميـر إينال الأبـوبكري المشـد باستقـراره دواداراً ثانيـاً عوضـاً عن تَمُرْباي؛ كل ذلك والقالة موجودة بين جميع العساكر ظاهراً وباطناً.

ثم أصبـح من الغـد في يـوم الأحـد خلع السلطان على الأميـر علي بـاي الخازندار باستقراره شادَّ الشراب خاناه، عوضاً عن إينال الأبو بكري.

ثم في يوم الاثنين استقر دَمُرْداش الأشرفي، أحد أصاغر المماليك الأشرفية واليَ القاهرة عوضاً عن عمر الشُّوبَكي. وانفضّ الموكب ونزل الأتـابكُ إلى جهة بيته. فلما كان في أثناء الطريق اجتمع عليه جماعة كبيرة من الممـاليك الأشـرفية وطلبـوا منـه أرزاقـاً، فـأوعـدهم وخـادعهم وتخلّص منهم، فتـوجهـوا إلى الـزيني عبد الباسط ناظر الجيش فاختفى منهم، وقد صار في أقبح حال منذ مـات الملك الأشرف، من الذلّة والهوان ومما داخله من الخوف من المماليك الأشرفية من كثرة التهديد والوعيد، وقد احتار في أمره وهمّ على الهروب غير مرة.

واستهلّت سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة يـوم الثلاثـاء، وقد ورد الخبـر بقدوم عـربِ لَبيد[١] إلى البحيـرة، فندب السلطانُ تغـري بردي البَكْلَمُشي المؤذي أحد مقدمي الألوف، فخرج من القاهرة في يوم الجمعة رابع المحرّم وصحبته عدة من الممـاليك السلطانيـة. وفي هذا اليـوم خلع السلطانُ على خالـه جَكَم بـاستقـرار

(١) عرب لبيد: بطن من بني زيد بن حرام بن جذام. كانت منازلهم الحوف من الشرقية بالديـار المصرية (معجم قبائل العرب: ١٠٠٩/٣. وانظر مسالك الأبصار: ١٦٩/١ ـ ١٧٤).

خازنداراً كبيراً عوضاً عن علي باي الأشرفي، واستمر على إقطاع جنديته من غير إمرة.

ثم في يوم الاثنين خامس عشر المحرّم نزل الطلبُ إلى شيخ الشيوخ سعد الدين سعد الديري، وخُلع عليه باستقراره قاضيَ قضاة الحنفية بالديار المصرية بعد عزل قاضي القضاة بدر الدين محمود العيني، بعد تمنّع كبير وشروط منها: أنه لا يقبل رسالةَ أحد منهم ـ أعني أكابر الدولة ـ وأنه لا يتجوّه عليه في شيء، وأشياء غير ذلك؛ ونزل إلى داره بالجامع المؤيدي وقد سُرّ الناس بولايته غاية السرور.

وفيه أنعم السلطانُ على سبعة من الخاصكية، لكلٍّ منهم بإمرة عشرة، وهم: قانم من صَفَر خُجَا المؤيَّدي المعروف بالتاجر أحد الدوادارية، وجَكَم النَّوْرُوزي المجنون، وقانِبك الأبوبكري الأشرفي الساقي، وجانِبك الساقي الأشرفي المعروف بقلق سيز، وجانم الأشرفي أحد الدوادارية المعروف برأس نوبة سيّدي، وجرباش الأشرفي رأس نوبة الجمدارية المعروف بمُشِدّ سيّدي، والسابع ما أدري: أهو جَكَم خال الملك العزيز أو هو آقْبرْدِي المظفَّري الظاهري برقوق رأس نوبة الجمدارية[1]؟.

وفيه أيضاً خلع السلطان على مراد قاصد الأمير حمزة بك بن قرايُلك ورسم بسفره وصحبته شمسُ الدين القَلْمْطاوي أحد موقِّعي حلب، وجهّز السلطان صحبتهما مبارَك شاه البريدي وعلى يده جوابُ كتابِ الأمير حمزة بشكره والثناء عليه، وتشريف له بنيابة السلطنة بممالكه، وفرس بقماش ذهب، وهدية هائلة، ما بين قماش سكندري وسلاح وغيره، ونسخة يمين. وأُجيب الأمراءُ المجرّدون أيضاً عن كتبهم، ورسم لهم أن يسرعوا في الحضور إلى الديار المصرية.

وفي هذه الأيام كثر الكلام بين الأمراء والخاصكية بسبب التوجّه إلى البلاد الشامية وحمل تقاليد النوّاب بالاستمرار، إلى أن كان يوم السبت تاسع عشر المحرّم خلع السلطانُ على الأمير أُزْبَك السيفي قاني باي أحد أمراء العشرات ورأس نوبة

(١) في السلوك ونزهة النفوس أن السابع هو جكم خال الملك العزيز.

ـ المعروف بجُحا ـ وعيّن لتقليد الأمير إينال الجَكَمي نائب الشأم، باستمراره على عادته؛ وكان تقدّم أن السلطان خلع على الأمير إينال الفقيه بتوجّهه إلى نائب حلب، وخلع السلطانُ على إينال الخاصكي بتوجّهه إلى الأمير جُلْبان نائب طرابلس، وعلى دُولات باي الخاصْكِي بالتوجّه إلى قاني باي الحمزاوي نائب حماة، وعلى يَشْبَك الخاصكي بالتوجّه إلى إينال العلائي الناصري نائب صَفَد، كلّ ذلك والنوّاب في التجريدة صحبة الأمراء المصريين.

وفي هذا اليوم حلّ بالزيني عبد الباسط أمور غير مرضية من بعض المماليك الأشرفية في وقت الخدمة السلطانية، هذا بعدما نزل به قبل تاريخه في هذه الأيام أنواع من المكاره، ما بين تهديد ولَكْم وإساءة، احتاج من أجلها إلى بذل الأموال لهم ولمَن يحميه منهم ليخلص من شرّهم، فلم يتمّ له ذلك.

ثم في ثالث عشرين المحرّم قَدِمَ ركب الحاج إلى القاهرة، وأمير حاج المحمل آقْبَغَا مِن مامِش الناصري المعروف بالتركماني، أحد أمراء العشرات ورأس نوبة، بعد أن حلّ بالحاج من البلاء ما لا مزيد عليه، من أخذهم وأخذ أموالهم ونهبهم؛ وقد فعلت الأعراب بهم ما فعله التِّمُرِيَّة[1] في أهل البلاد الشامية، ومعظم المصيبة كانت بالركب الغَزّاوي، فلم يلتفت أحد من أهل الدولة لذلك، لشغل كل واحد بما يرومه من الوظائف والإقطاعات وغيرها، ودَعِ الدنيا تخرب ويحصل له مرادُه.

ثم في يوم الثلاثاء تاسع عشرين المحرّم قَدِمَ إلى القاهرة مماليك نوّاب البلاد الشامية، وعلى أيديهم مطالعاتٌ تتضمن أنهم ملكوا مدينة أَرْزَنْكان وأنه خُطب بها باسم السلطان الملك الأشرف بَرْسْباي، ولم يعلموا إذ ذاك بموته.

ثم في يوم الخميس أول صفر عُملت الخدمةُ السلطانية ونزل كل واحد إلى داره. فلما كان عبدُ الباسط بالقرب من باب الوزير تجمّع عليه عدّة من المماليك الأشرفية وتحاوطوه وأوسعوه سَبّاً ووعيداً، وهَمُّوا به، وأراد بعضهم ضربَه، حتى

(١) المراد بالتمرية جيش تيمورلنك.

منعه عنه مَن كان معه من الأمراء، وتخلّص منهم وولى هارباً يريد القلعة، حتى دخلها وهم في أثره فامتنع بها. وأقام بالقلعة يومَه كلَّه وبات بها وهو يطلب الإعفاء من وظيفتي نظر الجيش والأستادارية.

وأصبح السلطانُ من الغد جلس بالحوش السلطاني على الدِّكّة، وطلع الأميرُ الكبير جَقْمَق نظامُ الملك واستدعى عبدَ الباسط إلى حضرة السلطان، والسلطان على عادته من السكات لا يتكلم في شيء من أمور المملكة، وليس ذلك لصغر سنِّه، وإنما هو لأمر يريده الله تعالى. فلما حضر عبدُ الباسط كلّمه الأميرُ الكبير في استمراره على وظيفته، فشكا له ما يحطّ(١) به، فلم يلتفت إلى شكواه وخلع عليه باستمراره، وعلى ملوك جانِبك باستمراره على وظيفته الأستادّارية، ونزلا إلى دورهما ومعهما جماعة كبيرة.

ثم في يوم الأحد رابع صفر ورد في السلطان كتابُ الأمير إينال الجَكَمي نائب الشام بوصوله بالعساكر المصرية والشامية من البلاد الشمالية إلى حلب، وأن الأمير حسين بن أحمد المدعو تَغْرِي بَرْمَش نائب حلب تأخر عنهم لمّا بلغه موتُ الملك الأشرف، وأنه أراد أن يكبس على الأمراء المصريين، فبلغهم ذلك فاحترزوا على نفوسهم منه إلى أن دخلوا إلى حلب.

ثم في يوم السبت عاشر صفر رسم السلطان بأن تقتصر الخدمة السلطانية على أربعة أيام في الجمعة، وأن تكون الخدمة بالقصر فقط عندما يحضر الأتابكُ جَقْمَق وأن تبطل خدمة الحوش لغيبة الأتابك منه. وهذا ابتداء أمر الأتابك جقمق وظهوره في الدولة، لكثرة مَن انضمّ عليه من الطوائف من الأمراء وأعيان المماليك السلطانية.

ثم قَدِمَ كتاب نائب حلب يتضمن رحيل العساكر من حلب إلى دمشق في سادس عشرين المحرّم، وأنه قَدِمَ إلى حلب بعدهم في ثامن عشرينه، وأنه كان تخوّف من الأمراء المصريين أن يقبضوا عليه فلهذا تخلّف عنهم، وأنه في طاعة

---

(١) في بعض الأصول: «يحلّ به» وهي أوضح.

السلطان وتحت أوامره، فلم يجب بشيء لشغل أهل الدولة بما هم فيه من تنافر قلوب بعضهم من بعض. وقد وقع أيضاً بين المماليك الأشرفية وبين خُجداشِهم وأعظمهم الأمير إينال الأبو بكري الدوادار الثاني.

فلما كان يوم الاثنين ثاني عشره تجمّع المماليك الأشرفية بالقلعة يريدون قتْل الأمير إينال الأبو بكري المقدّم ذكره، ففرَّ منهم بحماية بعضهم له، ونزل إلى داره. فوقفوا خارج القصر وسألوا الأمير جَقْمَق بأن يكون هو المستبدّ في الأمر والنهي والتحكّم في الدولة، وأن ترفع يد إينال وغيره من الحكم في المملكة، فأجاب إلى ذلك ووعدهم بكل خير، ونزل. وقد اتسع للأتابك جقمق ـ بهذا الكلام ـ الميدانُ، ووجد لدخوله في المملكة باباً كبيراً؛ فإنه كان عَظُم جَمْعُه قبل ذلك لكنه كان تَخَشّى كثرةَ المماليك الأشرفية، فلما وقع الآن بينهم المباينةُ خفّ عنه أمرُهم قليلاً وقَوِيَ أمرُه؛ كلّ ذلك ولم يظهر منه الميل للوثوب على الملك العزيز بالكلية، غير أنه يوافق القوم في الإنكار على فعل المماليك الأشرفية وكثرة شرورهم لا غير.

ولمّا كان صباح النهار المذكور، وهو يوم الثلاثاء ثالث عشر صفر، وقف جماعة من الأشرفية تحت القلعة بغير سلاح، ووقع بينهم وبين خُجْدَاشِيَّتهم الذين هم من طبقة الأشرفية من إنْيَات إينال وإخوته وقعةٌ هائلة بالدبابيس، ثم انفضّوا وعادوا من الغد في يوم الأربعاء إلى مكانهم بسوق الخيل.

فلما وقع ذلك تحقّق المماليكُ القَرَانيصُ[1] وقوعَ الخُلف بين المماليك الأشرفية، فقاموا عند ذلك وتجمعوا عند الأمير الكبير، ومعهم الأمير إينال المذكور بإنْياته وخُجْدَاشيَّته من المماليك الأشرفية وهم جمع كبير أيضاً، وتكلموا مع الأمير الكبير بالقيام في نصرة إينال المذكور ـ وليس ذلك مرادهم وإنما قصدُهم غير ذلك، لكنهم لم يجدوا مندوحة لغرضهم أحسنَ من هذه الحركة ـ وأظهروا الميل

---

(١) كان هؤلاء القرانيص من مماليك الأمراء السابقين، وكانوا عادة محرومين من الترقية فبقوا في مرتبة أمراء خمساوات، هذا بالرغم من كفاءتهم العسكرية العالية والتي كان يشهد لهم بها الجميع، فكانوا لذلك على عداء مستحكم للمماليك السلطانية في جميع الأوقات.

الكلّي إلى نصرة إينال، وصاروا له أصدقاء وهم في الحقيقة أعدى العِدى. فمال الأتابكُ جَقْمَق إلى نُصرة إينال لكوامِنَ كانت عنده من القوم، وقد صار بهذه القضية في عسكر هائل وجمع كبير من المماليك الظاهرية برقوق وهم خُجْداشيته، والمماليك الناصرية فرج والمماليك المؤيدية شيخ والسَّيْفية وعالم كبير من المماليك الأشرفية أصحاب إينال.

وبقي العسكر قسمين: قسم مع الأمير الكبير جَقْمَق، وهم مَن ذكرنا ومعظم الأمراء من مقدّمي الألوف، وغالب أمراء الطبلخانات والعشرات، ما خلا جماعة من أمراء الأشرفية؛ وقسم آخر بالقلعة عند السلطان الملك العزيز، وهم أكثر المماليك الأشرفية، وعندهم الخليفة والخزائن والزَّرَدْخانة، إلّا أنهم جهّال بمكائد الأخصام ووقائع الحروب، لم تمرّ بهم التجارب ولا مارسوا الوقائع، وأعظم من هذا أنهم لم يقَرِّبوا أحداً من الأكابر وأرباب المعرفة، فضلُّوا وأضلّوا وذهبوا وأذهبوا وأضعفوا بسوء تدبيرهم قواهم، وتركوا الملك باختلاف آرائهم لمَن عداهم، على ما سيأتي بيان ذلك كله في محله.

هذا، وكلٌّ من الطائفتين يدَّعي طاعةَ الملك العزيز، غير أن الخصم هو إينال، وقد التجأ إلى الأمير الكبير جَقْمَق نظام المُلك فقبله الأمير الكبير بمَن معه، وقام في الظاهر بنصرة إينال أتمّ قيام، وفي الحقيقة إنما هو قام بنصرة نفسه، وقد ظهر ذلك لكل أحد حتى لإينال، غير أنه صار يستبعد ذلك لعظم خديعة جقمق له، وأيضاً لأنه أحوجه الدهر أن يكون من حزبه، كما قيل: [الوافر]

وما مِن حُبِّه أحنو عليه ... ولكنْ بُغْضُ قومٍ آخرينا[1]

ولما وقع ذلك استفحل أمر الأتابك، وتكاثف جمعه، ومعظم مَن قام في هذه القضية معه المماليكُ المؤيَّدية، وقد أظهروا ما كان في ضمائرهم من الأحقاد القديمة في الدولة الأشرفية، وأخذوا في الكلام مع الأتابك وتقوية جانبه على الوثوب

---

(١) في طبعة كاليفورنيا: «وما من حبّه أحنو عليه، ولكن من بغض قوم آخرين» بصيغة النثر. وما أثبتناه من طبعة المؤسسة المصرية. وقد أشبعنا الرويّ بإطلاق حركة الحرف الأخير للضرورة الشعرية.

بالمماليك الأشرفية الذين بقلعة الجبل، وهو يتثاقل عن ذلك حتى يتحقق من أمرهم ما يثق به، وصار يعتذر لهم بأعذار كثيرة: منها قلّة المال والسلاح، وأن الذين بقلعة الجبل أقوياء بالقلعة والمال والسلطان والسلاح. فقالوا: هو ما قلت، غير أن هؤلاء جَهلَة لا يدرون الوقائع ولا مقاومة الحروب ولا أمر العواقب، ونحن أعرف بذلك منهم، وجمعُنا يقاتل معك من غير أن تبذل لهم الأموال.

ولا زالوا به حتى أذعن لهم، بعد أن بلغه عن بعضهم أنه يقول عنه: «الأمير الكبير دقن المرأة»، وأشياء غير ذلك، كونه لا يوافقهم على الركوب، وأنهم يقولون: «إن كان الأمير الكبير ما يوافقنا أقمنا لنا أستاذاً غيره».

ولمّا وافقهم الأمير الكبير على الركوب، أشاروا عليه بعدم الطلوع إلى الخدمة السلطانية من الغد في موكب يوم الخميس خامس عشر صفر، فقبل منهم ذلك. وأصبح يوم الخميس المذكور وقد كثر جمعه، وتحوّل من داره التي تجاه الكَبْش على بركة الفيل إلى بيت نوروز الحافظي تجاه مصلّاة المؤمني، وقد اجتمع عليه خلائق من المماليك من سائر الطوائف وعليهم السلاح الكامل وآلة الحرب. وقبل أن يركب الأمير الكبير جَقْمَق عند وضع رجله في الركاب قال: «هذا دقن المرأة بيركب حتى نبصر إيش تفعل الرجال الفحوله» فصاحوا بأجمعهم: «نقاتل بين يديك إلى أن نفنى أو ينصرك الله على مَن يُعاديك».

ثم سار بجموعه حتى وافى البيت المذكور فوقف على باب الدار، وقد اجتمع عليه جمع من المماليك والزُّعْرُ والعامّة، فوعدهم الأميرُ الكبيرُ بالنفقة والإحسان إليهم. كل ذلك ولم يقع إلى الآن قتال. فلما تحقّق المماليكُ الأشرفية ركوبَ الأمير الكبير، ورأوهم من أعلى قلعة الجبل، أخرجوا السلطانَ من الدور إلى القصر المطلّ على الرُّمَيْلة واجتمعوا عليه بالقصر وغيره، وقد لبسوا السلاح أيضاً.

وكان كبراءُ الأشرفية الذين بالقلعة عند الملك العزيز، من أمراء الأشرفية وغيرهم جماعة: منهم الأمير يخشباي الأشرفي الأمير آخور الثاني، وعلي باي شادّ الشراب خاناه وتَنِبَك النُّوْرُوزي المعروف بالجَقْمَقِي نائب قلعة الجبل، وخُشْكَلْدي

من سيّدي بك الناصري رأس نوبة، وكُزُل السُّودوني المعلّم رأس نوبة، وَجكَم الخازندار خال الملك العزيز، وجماعة أُخَر ممّن تأخر في أمسه من المماليك الأشرفية، ومعظم الخاصْكِيَّة الأشرفية، أصحاب الوظائف وغيرهم، ما خلا مَن نزل منهم مع الأمير إينال الأبو بكري. واستعدّوا لقتال الأمير الكبير ومَن معه، وباتوا تلك الليلة، بعد أن تناوشوا في بعض الأحيان بالرمي بالنشاب، ولم يقع قتال في مقابلة.

وأصبحوا يوم الجمعة سادس عشر صفر على ما باتوا عليه. واستمر كل طائفة من الفريقين على تعبيتهم إلى بعد صلاة العصر، فزحف أصحاب الأمير الكبير إلى باب القرافة، وهدموا جانباً من سور ميدان القلعة وغيره، ودخلوا إلى الميدان، فنزل إليهم طائفة من السلطانية ركباناً ومُشاةً وقاتلوهم مواجهةً، حتى هزموهم وأخرجوهم من الميدان. وتراموا بالنشاب ساعة فحال بينهم الليل، وبات كل طائفة منهم على حذر. وتوجّهت الأشرفية الذين بالقلعة، وفتحوا باب الزردخانة السلطانية، وأخذوا من السلاح الذي بها ما أرادوا، ونصبوا مكاحل النفط على سور القلعة، وأخذوا في أُهبة القتال.

حتى أصبحوا يوم السبت سابع عشر صفر، وقد استفحل أمر السلطانية من عصر أمسه، فتجمّعت الجَقْمَقِيَّة وابتدؤوا بقتال السلطانية، فوقع بين الطائفتين قتال بالنشاب والنفوط، فهلك من العامّة خلائق ممّن كان من حزب الأمير جَقْمَق؛ كلّ ذلك وأمر السلطانية يقوى إلى بُعيد الظهر، فلاحَ عليهم الخذلانُ من غير أمر يوجب ذلك، ومشت القضاة بين السلطان والأمير الكبير جَقْمَق غير مرة في الصلح والكفّ عن القتال وحقن دماء المسلمين، وإخماد الفتنة.

هذا وقد ترجّح جهة الأمير الكبير جَقْمَق، وطمعت عساكرُه في السلطانية، فقال الأمير الكبير: «أصطلح بشرط أن يرسل السلطان إليّ بأربعة نفر، وهم: جَكَم خال الملك العزيز الخازندار، وتَنَم الساقي، وأُزْبَك البوّاب، ويَشْبَك الفقيه الأشرفي الدوادار»؛ فأذعن السلطان ومَن عنده لذلك بعد كلام كثير، فنزل الأربعة من القلعة، بعد صلاة العصر من يوم السبت المذكور، مع مَن كان تردّد في

الصلح، وساروا حتى دخلوا بيتَ الأمير الكبير، فحالَ وقع بصره عليهم قبض عليهم واحتفظوا بهم.

وركب الأميرُ الكبير فرسه وساروا معه أعيانُ أصحابه إلى أن صار في وسط الرُّمَيْلة تِجاهَ باب السلسلة، فنزل عن فرسه بعد أن فُرش له ثوب سرج جوخ، وقبّل الأرضَ بين يدي السلطان الملك العزيز لكونه أرسل إليه أخصامه، ثم ركب في أصحابه وعاد إلى بيته بالكبش ومعه المقبوضُ عليهم، إلى أن نزل بداره في موكب جليل إلى الغاية.

وأخذ أمرُ الأميرِ الكبير جَقْمَق من هذا اليوم في زيادة وقوة، وأمْرُ الملكِ العزيز ومماليكِ أبيه الأشرفية في نقص ووهن وإدبار.

وأصبح بكرة يوم الأحد ثامن عشر صفر أرسل الأميرُ الكبير إلى السلطان في طلب جماعة أُخَر من المماليك الأشرفية، فنزل إليه الأميرُ يخشباي الأمير آخُور الثاني، والأميرُ علي باي شادّ الشراب خاناه، وهما من عظماء القوم والمُشار إليهما من القلعيّة الأشرفية، وقبّلا يد الأمير الكبير جَقْمَق، فأكرمهما الأميرُ الكبير ووعدهما بكل خير. ثم أمر في الحال بطلب الأمير الطواشي خُشْقَدَم اليَشْبَكي مقدّم المماليك السلطانية فحضر إليه وقبّل يده، فأمره الأميرُ الكبير أن يتقدّم بنزول جميع مَن في الأطباق من المماليك الأشرفية وهدّده إن لم يفعل ذلك، فاستبعد الناس وقوعَ ذلك لكثرة المماليك الأشرفية وشدّة بأسهم.

فحالما طلع خُشْقَدَم وأمرهم بالنزول أجابه الجميع بالسمع والطاعة. ونزل صبيان طبقة بعد طبقة إلى بيت الأمير الكبير، وقد حضر عنده قضاةُ القضاة الأربعة وأهل الدولة وأعيانها، وحلّفوا الأميرَ الكبير على طاعة السلطان، ثم حلّفوا المماليكَ الأشرفية على طاعة الأمير الكبير، وحكم قاضي القضاة سعدُ الدين بن الديري الحنفي بسفك دم مَن خالف هذا اليمين.

وعند انقضاءِ الحلف، أمر الأمير الكبير بنزول جميع المماليك الأشرفية من أطباقهم بالقلعة إلى إسطبلاتهم، ما خلا المماليك الصغار، فاعتذروا عن قلّة

مساكنهم بالقاهرة، فلم يقبل الأمير الكبير أعذارهم وشدّد عليهم، والناس تظن غير ذلك، فخرجوا. وفي الحال أخذوا في تحويل متاعهم ونزلوا من الأطباق، بعد أن ظن كلّ أحد منهم أنه لا بدّ له من إثارة فتنة وشرّ كبير تسفك فيه دماء كثيرة قبل نزولهم، فلم يقع شيء من ذلك، ونزلوا من غير قتال ولا إكراه؛ وخلت الطباق منهم في أسرع وقت خذلاناً من الله تعالى، وتركوا السلطانَ والخزائن والسلاح والقلعة، ونزلوا من غير أمر يوجب النزول، وهم نحو الألف وخمسمائة نفر، هذا خلاف مَن كان انضمّ عليهم من الناصرية والمؤيدية والسيفية. ولله درّ القائل: [السريع]

ما يفعل الأعداءُ في جاهلٍ ... ما يفعلُ الجاهلُ في نَفْسِه

وتعجب الناسُ من نزولهم، حتى الأمير الكبير جَقْمَق. وصار يتحدث بذلك أوقاتاً في سلطنته؛ فإنه كان أولاً تخوّف منهم أن يقبضوا عليه عند طلوعه إلى القلعة غير مرة، ولهج الناس بذلك كثيراً، وبلغ الأتابكَ أنهم يريدون أن يقبضوا عليه وعلى عبد الباسط وعلى الصاحب جمال الدين ناظر الخاصّ، فقال: وإيش يمنعهم من ذلك؟ وانقطع عن الخدمة السلطانية أياماً، حتى كلّمه أصحابه في الطلوع وشجّعوه وقالوا له: نحن نطلع في خدمتك ولا يصيبك مكروه حتى تذهب أرواحنا. كلّ ذلك قبل أن يقع الشرُّ بين الأمير إينال وخُجْداشِيته؛ فهذا كله ذكرناه لتعرف به شدّة بأس المماليك الأشرفية وكثرة عددهم.

فلما تكامل نزول المماليك الأشرفية من الأطباق إلى حال سبيلهم، [كان](1) هذا أول مبدأ زوال مُلك السلطان الملك العزيز يوسف. ومن يومئذ أخذ الأمير إينال الأبو بكري الأشرفيّ في الندم بما وقع منه من الانفراد عن خُجْداشِيته والانضمام على الأتابك جَقْمَق، حتى إنه صار يبكي في خلواته ويقول: «ليتني كنت حُبست بثغر الإسكندرية، ودام تحكّم ابن أستاذي وخُجْداشِيتي. وما عسى خُجْداشِيتي كانوا يفعلون بي؟». وندم حيث لا ينفع الندم. وربما بلغ الأميرَ الكبير عنه ذلك فأخذ

(١) في الأصل: «وهذا». والزيادة والتعديل لانتظام السياق.

يحلف له أنه لا يريد الوثوب على السلطنة، ولا خلْع الملك العزيز، وأنه لا يريد إلّا أن يكون نظامَ مُلْكِهِ ومدبِّرَ ممالكه، وأشياء غير ذلك.

قلت: وأنا أظن أن الأمير إينال ما طال حبسهُ إلّا بهذا المقتضى، والله أعلم.

ثم في يوم الأحد هذا قَدِمَ الأمير تغري بردي البَكْلَمُشي المؤذي أحد مقدمي الألوف من البحيرة بمَن كان صُحبته من المماليك السلطانية ـ وكان الأتابكُ أرسل يستحثّه في القدوم عليه ليكون من حزبه على قتال الأشرفية، فتقاعد عنه إلى أن انتهى أمر الوقعة وحضر ـ فأخذ الأتابكُ جَقْمَق يوبّخه لعدم حضوره، وهو يعتذر بعدم وصول الخبر إليه ويقبِّلُ يده.

ثم ورد الخبرُ على السلطان بأن العسكر المجرّد من الأمراء وصل إلى دمشق في خامس صفر.

ثم في يوم الثلاثاء العشرين من صفر شفعٍ الملكُ العزيز في خاله جَكَم ورفقته، فأفرج عنهم الأتابكُ جقمق وخلع على كلٍّ منهم كاملية مُخْمَلٍ بفروِ سمورٍ وبمقلبِ سمورٍ.

ثم في يوم الخميس ثاني عشرين صفر طلع الأميرُ الكبير جَقْمَق إلى الخدمة السلطانية ومعه سائر الأمراء وأرباب الدولة، ومنع المماليكَ الأشرفيةَ من الدخول إلى القصر في وقت الخدمة، إلّا مَن له نوبة عند السلطان من أصحاب الوظائف، وكان الأتابكُ جَقْمَق شَرَط عليهم ذلك عند تحليفهم.

وحضر الأميرُ الكبير الخدمة، وخلع عليه السلطانُ تشريفاً عظيماً باستمراره على حاله. ونزل من وقته إلى باب السلسلة، وسكن الحراقة من الإسطبل السلطاني بعد أن نقل إليها قماشَه ورَخْتَه[1] في أمسه، وبعد أن أمر الأميرَ يخشباي الأميرَ آخُور

---

(١) الرخت: كلمة فارسية لها معانٍ كثيرة منها: متاع البيت من أثاث ورِياش، والمتاع الخاص من ثياب الأمراء والسلاطين وقماشهم. ومنها طقم الحصان وعدّة لجامه، وكان يقال: حصان مرخّت، أي مطهّم تطهيمة عالية. وكان الخدم المنوطون بحفظ الأثاث والعناية به في القصور المملوكية يعرفون بالرختوانية، ومفردها الرختوان. (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل: ١١٣).

الثاني بالنزول من الإسطبل إلى بيته قبل تاريخه. فنزل يخشباي إلى داره، وكانت دار قُطْلُوبَغَا الكَرَكي التي تجاه دار مَنْجَك اليوسفي بالقرب من الجامع الحسيني، وجلس وأغلق عليه باب الدار، ومنع الناس من التردّد إليه، وصار كالمرسم عليه؛ وهذا أيضاً من أعجب العجب، كون الشخص يكون على إقطاعه ووظيفته ويصير على هذه المثابة.

وسكن الأميرُ الكبير بالسلسلة وتصرف في أمور المملكة من غير مشارك، واستبدّ بتدبير أحوال السلطنة من ولاية الوظائف والإنعام بالإقطاعات والإمريات على مَن يريد ويختار، فصار الملكُ العزيز ليس له من السلطنة إلّا مجرد الاسم فقط. فعظم ذلك على المماليك الأشرفية، وأنكروا سكنى الأميرِ الكبير بباب السلسلة، واتفقوا ووقفوا في جمع كبير بالرُّمَيْلة وأكثروا من الكلام في ذلك، ثم انفضّوا من غير طائل وفي أملهم أن الأمراء إذا قَدِموا من سفرهم أنكروا على الأمير الكبير ما فعله وقاموا بنصرة الملك العزيز، وانتظروا ذلك.

وأخذ الأتابكُ جَقْمَق في تحصين باب السلسلة والقلعة وأشحنهما بالسلاح والرجال، وصارت الأعيانُ من كل طائفة تبيت عنده بباب السلسلة في كل ليلة، والأمراءُ والأعيان تتردد إلى خدمته. وتُركت الخدمة السلطانية، واحتجّ الأمير الكبير بتركها أنه بلغه أن المماليك الأشرفية اتفقوا على قتله إذا طلع إلى الخدمة السلطانية، وجعل ذلك عذراً له عن عدم حضور الخدمة. وصار هو المخدوم والمشار إليه، وتردّد مباشرو الدولة إلى بابه وسائر الناس، وتلاشى أمرُ السلطانِ الملك العزيز إلى الغاية.

ولهج الناس بسلطنة الأتابك جَقْمَق، وشاع ذلك بين الناس. وصار الأتابكُ كلما بلغه ذلك أنكره وأسكت القائل بذلك ولسانُ حاله ينشد: [الكامل]

لا تَنْطقنَّ بحادثٍ فلربما نطقَ اللسانُ بحادثٍ فيكونُ

هذا والأتابكُ جقمق متخوّف في الباطن من الأمراء المجرّدين، لكونهم جمعاً كبيراً وفيهم جماعة من حواشي الملك الأشرف ومماليكه، مثل أركماس الظاهري الدوادار الكبير، وتِمْراز القُرْمُشي رأس نوبة النُّوَب، وجانِم الأشرفي الأمير آخُور

الكبير، وقراجا الأشرفي، وخُجَا سُودون السَّيْفي بلاط الأعرج، وفيهم أيضاً مَن تحدّثه نفسه بالوثوب على الأمر وهو الأمير قرقماس الشعباني الناصري أمير سلاح المعروف بأهرام ضَاغ[1]؛ فلهذا صار الأتابك جقمق يقدّم رِجلاً ويؤخر أخرى.

ثم قَدِمَ الخبر بخروج الأمراء من مدينة غزة إلى جهة الديار المصرية، وأن خُجا سُودون البلاطي أحد مقدّمي الألوف تأخر عنهم على عادته في كل سفرة، فندب الأتابكُ السيفيَّ دِمِرْداش الحسني الظاهري برقوق الخاصكي بالتوجّه إلى غزّة، وعلى يده مرسوم شريف بتوجّه خُجا سُودون إلى القدس بطالاً، فمضى دمرداش المذكور وفعل ما نُدِبَ إليه.

فلما كان يوم الأربعاء خامس شهر ربيع الأول وصل الأمراء إلى الديار المصرية، وطلعوا الجميعُ إلى الأتابك جقمق، ما خلا الأمير يَشْبَك السُّودوني حاجب الحجاب، فإنه قَدِمَ القاهرة في الليل مريضاً في مِحَفّة إلى داره. ولم ينزل الأتابكُ إلى تلقّي الأمراء المذكورين؛ وكان أرسل إليهم يخوّفهم من المماليك الأشرفية، وذكر لهم أنهم يريدون الركوب عليهم يوم دخولهم، فدخلوا الجميع بأطلابهم. ولما طلعوا إلى جَقْمَق قام لهم واعتنقهم وأكرمهم غاية الإكرام.

وأرسل إلى الملك العزيز أنه يخرج ويجلس بشباك القصر حتى يقبِّلوا له الأمراءُ الأرضَ من الإسطبل السلطاني ولا يطلع إليه أحد، ففعل الملكُ العزيز ذلك وجلس بشباك القصر حتى أخذ الأتابكُ جقمق الأمراءَ وسار بهم من الحراقة يريد الإسطبل السلطاني والجميع مشاة، وقد جلس السلطانُ الملك العزيز بشباك القصر، فوقف الأمراء تحت شباك القصر وأومؤوا برؤوسهم كأنهم قبَّلوا له الأرض. وأحضر إليهم التشاريف السلطانية في الحال فلبسوها، وقبَّلوا الأرض ثانياً كالمرة الأولى، وعادوا راجعين في خدمة الأمير الكبير حتى طلعوا معه إلى الحرَّاقة، ثم سلّموا عليه وعادوا وركبوا خيولهم وتوجّهوا إلى دورهم.

وكنتُ لمّا لاقيتُ الأميرَ أقْبَغَا التِّمْرازي أمير مجلس سألني عن أحوال الأتابك

(١) راجع ص٢٣٠ من الجزء الرابع عشر، حاشية (١).

جقمق، فقلت له كلاماً متحصّله أنه ليس بينه وبين السلطنة إلّا أن تُضرَب له السكّة ويُخطَب باسمه، فاستبعد ذلك لقوة بأس المماليك الأشرفية وعظم شوكتهم، فلما نزل من القلعة وعليه الخلعة قلت له قبل أن يصل إلى داره: كيف رأيتَ جقمق؟ قال: سلطانٌ على رغم الأنف. ومعنى قوله: «على رغم الأنف» لأنه كان بينهما حضوض[1] أنفس قديمة.

ثم أصبحوا يوم الخميس سادس شهر ربيع الأول حضروا الجميع إلى عند الأتابك جَقْمَق بباب السلسلة، وجلس الأتابك في الصدر وكلٌّ من الأمراء على يمينه وشماله، إلّا قَرْقَمَاس أمير سلاح فإنه زاحم الأتابك جقمق في مجلسه وجلس معه على فراشه، والأميرُ جَقْمَق يجذبه إلى عنده ويخدعه بأنه لا يفعل شيئاً إلّا بمشورته، وأنه قوّى أمرَه بقدومه، وأنه شيخ كبير عاجز عن الحركة واقتحام الأهوال، إلّا إن كان بقوة قَرْقَمَاس المذكور. كلّ ذلك وهما جلوس على المرتبة، فانخدع قَرْقَمَاس وطابت نفسهُ بما سمعه من الأتابك جَقْمَق، أنه ربما إن تحرّك بعد ذلك بحركة تمت له لضعف جقمق عن مقاومته.

هذا وقد برز الطلب لجماعة من الأشرفية وغيرهم، وجميع مَن هو بالقلعة من الأعيان، فلما حضروا أشار قَرْقَمَاس لجَماعة من الرؤوس نُوب وأمراء جندار ممّن حضر المجلس أن اقبضوا على هؤلاء.

وأول ما بدأ برفيقه الأمير جانِم الأشرفي الأمير آخور الكبير، ثم أشار لواحد بعد واحد إلى أن قبضوا على جماعة كبيرة من الأمراء والخاصْكِيَّة، وهم: الأميرُ جانِم المقدّم ذكره، ويخشباي الأمير آخور الثاني، وعلي باي شادّ الشراب خاناه، وتَنِبَك السيفي نَوْرُوز الخضري المعروف بالجقمقي نائب قلعة الجبل، وخُشْقَدَم الطواشي الرومي اليَشْبَكي مقدّم المماليك، ونائبه الطواشي فيروز الرُّكْني الرومي أيضاً، وخشكلدي من سَيِّدي بك الناصري أحد أمراء العشرات ورأس نوبة، وجَكَم خال الملك العزيز، وجَرِبَاش الأشرفي أحد أمراء العشرات المعروف بمشدّ سيّدي،

(١) كذا في الأصول. والحَضُوضَى: البُعْد. (معجم متن اللغة).

وجانِبك قَلَقْ سِيز الساقي أحد أمراء العشرات؛ ومن الخاصكية: تَنَم الساقي، وأُزْبَك البوّاب، ويَشْبَك الفقيه ـ وكلٌّ من هؤلاء الثلاثة أحد الأربعة المقدّم ذكرهم ـ وتَنِبَك الفيسي المؤيدي رأس نوبة الجَمَدَارِيَّة، وأَرْغُون شاه الساقي، وبِيرَم خُجَا أمير مشوي، ودِمِرْداش الأشرفي والي القاهرة، وبايزير خال الملك العزيز، وقَيَّدوا الجميع.

وفي الحال خلع على الأمير تَمُرْباي التَّمُرْبَغَاوي أحد مقدّمي الألوف باستقراره في نيابة الإسكندرية عوضاً عن الزيني عبد الرحمن بن الكُوَيْز بحكم عزله، وأُمر بالسفر إلى الإسكندرية من يومه، وخلع على قَرَاجَا العمري الخاصْكي الناصري باستقراره في ولاية القاهرة عوضاً عن دِمِرْداش الأشرفي بحكم القبض عليه.

ثم ندب الأميرُ الكبير الأميرَ تَنِبَك البَرْدَبكي أحد مقدمي الألوف، والأمير أقطوه الموساوي أحد أمراء العشرات، البرقوقيين، في عدّة من المماليك السلطانية، أن يطلعوا إلى القلعة ويقيموا بها لحفظها. وكان تَنِبَك المذكور وَلِيَ نيابةَ القلعة قبل تاريخه سنينَ كثيرة في الدولة الأشرفية، فطلع إلى القلعة وسكن بمكانه أولاً على العادة.

ثم انفضَّ الموكب وقد تزايد عظمةُ الأمير الكبير جَقْمَق، وهابته النفوس بما فعله قَرْقَماس بين يديه من القبض على الأمراء المذكورين. وفهم الناس أنه فعل ذلك خدمةً للأمير الكبير، وكان غرض قَرْقَمَاس غير ذلك، فإنه رام نفع نفسه فنفع غيره، فكان حاله كقول مَن قال: «مَعَ الخواطِىء سهمٌ [صائبٌ][(١)]» [أو كقولهم][(٢)]: «ربَّ رميةٍ من غير رامٍ».

---

(١) زيادة عن جمهرة الأمثال للعسكري: ٢/٢٦٩.

(٢) زيادة يقتضيها صواب ترتيب السياق. وقد ورد القولان في طبعة المؤسسة المصرية بسياق شعري على النحو التالي:

مع الخواطىء سهمٌ صائب رُبَّ رمية من غير رام

والقولان يردان في كتب الأمثال منفصلين. ـ قارن أيضاً بمجمع الأمثال للميداني، والمستقصى للزمخشري.

ونزل الأمراء إلى دورهم، وقد استخفّ الناس عقلَ قَرْقَمَاس وخفَّتَه وطَيْشَه في سرعة ما فعله، كل ذلك لاقتحامه على حب الرئاسة. ونزل قرقماس إلى داره، وفي زعمه أن جميع مَن هو بخدمة الأمير الكبير ينقلبون عن الأمير الكبير إليه، ويتردّدون إلى بابه لأنه هو كان الحاكم في هذا اليوم، ولم يدر أن القلوب نفرت منه لتحقّقهم ما يظنّوه من كِبره وجبروته وبطشه، وقد اعتادوا بلين الأمير الكبير، وبأخذه لخواطرهم في هذه المدة، وتمسكه عن قبض مَن كان لهم غرض في قبضه، وقد صاروا له كالمماليك والخدم لطول ترددهم إليه في باب السلسلة وغيرها، وقد انتهى أمره وحصل لهم ما كان في أملهم. وأيضاً أنهم لما رأوا قَرْقَماس فعل ما فعل لم يشكُّوا في أمره أنه من جملة مَن يقوم بنصرة الأتابك وأنه كواحد منهم، فلم يطرق أحد منهم بابَه ولم يدخل إليه في ذلك اليوم إلا مَن يلوذ به من حواشه ومماليكه.

وسافر تَمُرْباي نائب الإسكندرية من الغد في يوم الجمعة. وأصبح في يوم السبت ثامن شهر ربيع الأول أُنزل من باب السلسلة مَن تقدّم ذكرُه من الأمراء الخَاصْكِيَّة الممسوكين على البِغال بالقيود إلى سجن الإسكندرية، وقد اجتمع لرؤيتهم خلائق لا تحصى وهم قسمان: قسم باكٍ عليهم، وقسم شامت لتقاعدهم عن القتال في خدمة ابن أستاذهم الملك العزيز يوسف، وأيضاً لما كان يقع منهم في أيام أستاذهم من التكبّر والجبروت.

ثم أرسل الأميرُ الكبير في اليوم المذكور إلى الأمراء القادمين من التجريدة بمال كبير له صورة، لا سيما ما حمله إلى قَرْقَمَاس فإنه كان جملة مستكثرة.

ثم في يوم الأحد تاسع شهر ربيع الأول خلع على الزيني عبد اللطيف الطواشي الرومي المَنْجَكي المعروف بالعثماني أحد الجَمَدَارِيّة باستقراره مقدمَ المماليك السلطانية، وأنعم عليه بإمرة عشرة لا غير، وهو إقطاع النيابة الذي كان بيد فَيْرُوز الرُّكْني نائب مقدم المماليك، وكانت الخلعة عليه بين يدي العزيز بعثه الأميرُ الكبير إليه وأمره أن يخلع عليه، واستقرّ في نيابة المقدم جَوْهَر المَنَجَكي الحبشي أحد خدام الأطباق الضعفاء الحال ولم تسبق له رئاسة قبل ذلك.

ثم في يوم الاثنين عاشره ركب السلطانُ الملك العزيز من القلعة ونزل إلى الميدان، ومعه الزيني عبد الباسط ناظر الجيش وجماعة أخرى من خواصّه الأصاغر، وركب الأميرُ الكبير من الحرَّاقَة وفي خدمته جميع الأمراء مشاةً ما عدا أَرْكَمَاس الظاهري الدوادار الكبير وآقْبَغَا التِّمْرازي أمير مجلس، وساروا الثلاثةُ على خيولهم من الإسطبل السلطاني حتى نزلوا إلى الميدان وبه السلطانُ يسير.

فعندما رأوا الأمراءُ الملكَ العزيز ترجّلوا عن خيولهم وقبّلوا الأرض، وتقدّم الأميرُ الكبير جَقْمَق وقبَّل رِجلَ السلطان في الركاب، ثم بعده جميعُ الأمراء فعلوا مثلَ فعله. ثم تقدّم الأمير يَشْبَك السُّودوني حاجب الحجاب قبَّل الأرض، وخُلع عليه خلعة السفر لأنه كان انقطع عن رفقته لتوعّك كان به، وطلع في هذا اليوم؛ ثم انصرف الجميع عائدين في خدمة الأمير الكبير إلى أن أوصلوه إلى سلم الحراقة، ووقفوا له هناك حتى سلَّم عليهم، وعادوا إلى دورهم.

وكان سبب تأخّر قَرْقَماس عن الطلوع في هذا اليوم والذي قبله، أمور: منها أنه كان في نفسه الوثوب على الأمر، وفَعل ما فعل من مسك الأمراء وغيرهم ليُروّج أمرُه بذلك، فلم ينتج أمره وتقهقر وزادت عظمةُ الأتابك جَقْمَق، فعزَّ عليه ذلك في الباطن، وكان في ظنه أنه لا بدّ أن يملك الديار المصرية من يوم توجُّه إلى مكة وحَكَمها. فلما عُرِفَ منه ذلك تقرّب إليه جماعة من الذين يوهمون الناس أنهم صلحاء، ولهم اطّلاع على المغيّبات، وصاروا يبشّرونه بسلطنة مصر، وتخبره جماعة أُخَر بمنامات تدلّ على قصده فينعم عليهم بأشياء كثيرة. ثم كلما نظَر مَن يدّعي معرفةَ علم النجوم يسأله عمّا في خاطره ـ وقد أُشيع عنه حُبّ الرئاسة ـ فيبشّره الرَّمّال أو المنجّم أيضاً بما يسرّه من قِبله وحسب اجتهاده لأخذ دراهمه. فكان قَرْقَماس ينتظر موتَ الملك الأشرف يوماً بيوم، فاتفق موتُ الملكِ الأشرف بَرْسْباي وهو مسافر، وإلى أن يحضر انتظم أمر الأتابك جَقْمَق وتمّ، فلم يلتفت إلى ما رأى من أمر جَقْمَق بما سبق عنده أنه لا بدّ له من السلطنة، وأخذ يسلك طريقاً تصادف ما هو قصده.

فدخل القاهرة مُطلباً[١]، فلم يلتفت إليه أحد. وطلع إلى الأتابك جَقْمَق وامتنع من طلوع القلعة إلى الملك العزيز حتى قبّل الأرض من الإسطبل خوفاً من أن يُقبض عليه، يريد بذلك أن ينتبه إليه الناس، فلم ينظر إليه أحد. ثم أخذ في مسك الأمراء، حتى يعظم في النفوس، فلم يقع ذلك. فانقطع بداره عن الطلوع إلى الأتابك مدةَ أيام، وتعلّل بأنه بلغه عن الأمير الكبير وحواشيه ما غيَّر خاطره، يُظهر ذلك لتتسامع بغضبه الناس ويأتوه ليثور بهم، فلم ينضمّ إليه أحد؛ فاستدرك فارطه واستمر بداره إلى هذا اليوم.

فلما عاد الأتابكُ من عند الملك العزيز إلى سكنه بالحَرّاقة من باب السلسلة، أرسل إلى الأميرِ قَرْقَماس المذكور الأميرَ تِمراز القُرْمُشي رأس نوبة النُّوّاب، وقَرَاجَا الأشرفي أحدَ مقدّمي الألوف، والزيني عبدَ الباسط ناظر الجيش، يسألوه عن سبب انقطاعه عن الطلوع إلى الأمير الكبير في هذه الأيام، فذكر لهم أنه بلغه عن حواشي الأمير الكبير من المؤيَّدية أنهم يتّهموه بالركوب وإثارة الفتن، وأنه يريد يتسلطن، ولم يكن له علم بشيء من ذلك. فما زالوا به حتى ركب معهم، وطلع إلى الأمير الكبير بالحرّاقة من الإسطبل السلطاني، فقام الأميرُ الكبير واعتنقه وأخذ بيده ودخلا مع أعيان الحاضرين إلى مبيت الحرَّاقة، وجلسا في خلوة وتعاتبا قليلاً. وأخذ الأميرُ الكبير يقول له إن قَرْقَمَاس عنده في مقام روحه، وإنه لم يتصل إلى هذا الموصل إلاّ بقوّته وكونه معه؛ وأخذ في مخادعته والأخذ بخاطره، إلى أن تحقّق قرقماس أنه لا يأتيه ما يكره من قِبَل الأتابك، إلى أن يدبّر لنفسه ما يوصله إلى غرضه. ثم حلف له الأتابك على هذا المعنى جميعه وبكى واعتنقه، وخرجا من المبيت وقد صفا ما بينهما ظاهراً، والباطن فلا يعلم ما فيه إلاّ الله تعالى.

وهو أن قَرْقَمَاس لم يطلع في هذا اليوم إلى الأتابك إلاّ بعد أن عجز عمّا في خاطره، فاحتاج إلى المداهنة حتى يطول أمرُه إلى أن يحصل له مرادُه. ولم يخفِ

(١) اي على رأس طُلْبه استعداداً للقتال. والطُّلْب هو الفرقة العسكرية. ـ راجع فهرس المصطلحات.

ذلك عن الأتابك جَقْمَق، غير أنه رأى أنه لا يتم أمرُه فيما يروم إلّا بموافقة قَرْقَماس له أولاً، ثم بعد ذلك يفعل ما بدا له.

وعندما قام قرقماس من مجلس الأتابك ليتوجّه إلى داره، قدّم له الاتابكُ فرساً بقماش ذهب من مراكيبه، فركبه قرقماس ونزل إلى داره، ومعه أيضاً الأميرُ تِمْراز رأس نوبة النُّوَاب، وقراجا، وهما في خدمته إلى داره، فأركب قرقماسُ كلاًّ منهما فرساً بقماش ذهب.

ثم أخذه القلق وأخذ يدبّر في تأليف المماليك الأشرفية عليه، فرأى أنه لا يتمّ له ذلك بالعطاء ولا بالملق، لكثرتهم، وإنما يتم له ذلك بسلطنة الأتابك جَقْمَق، لينفر عنه مَن كان من حزبه من المماليك الأشرفية وينضمّوا عليه؛ وكان هذا حدساً صائباً، ووقع له ما أراد، غير أنه استعجل لأمر يريده الله.

فأخذ قرقماس من يومذاك يحسّن للأتابك جَقْمَق توليتَه السلطنةَ وخلْع الملك العزيز. ولا زال يلحّ عليه في ذلك وهو يلين تارة ويتوقف تارة؛ وكان هذا الأمر في خاطر الأتابكِ وأصحابه، غير أنه كان يستعظم الأمرَ ويخاف من نفور قرقماس عنه، إذا فعل ذلك. وأخذ ينتظر فرصة للوثوب بعد حين، فحرّك الله تعالى قرقماسَ حتى سأله في ذلك وألحّ عليه لما في غرضه في أيسر مدة، لتعلم أن الله على كل شيء قدير.

ومن يومئذ هان الأمر على الأتابك وأخذ في أسباب السلطنة، وكتب يطلب صهرَه القاضي كمالَ الدين محمد بن البارِزِي من دمشق.

ثم أصبح يوم الخميس ثالث عشر شهر ربيع الأول عُملت الخدمةُ السلطانية وحضرها الأميرُ الكبير جَقْمَق والأميرُ قَرْقَماس أمير سلاح المذكور، وعامّةُ الأمراء وأربابُ الدولة على العادة.

وكانت الخدمةُ السلطانية قد تُركت من مدة أيام، فأجراهم السلطانُ الملك العزيز على عادته من السُّكات وعدم الكلام، وانفضّ الموكب.

ثم طلع الأميرُ قرقماس من الغد في يوم الجمعة وحضر الصلاةَ مع السلطان بالمقصورة من جامع القلعة، ولم يطلع الأتابكُ جَقْمَق. ونزل قرقماس ولم يتكلم مع السلطان كلمة واحدة.

ثم في يوم السبت عُملت الخدمةُ أيضاً بالقصر على العادة، وحضر الأمير الكبير.

ثم في يوم الاثنين عُملت الخدمةُ أيضاً.

كلُّ ذلك بتدبير قرقماس؛ وهو أنه لمّا علم أن الأميرَ الكبير جقمق تمّ أمرُه ولم يبقَ له منازع يعيقه عن السلطنة، أخذ في عمل الخدمة حتى يجد نفساً من الملك العزيز أو من أحد من حواشيه، حتى تصيرَ له مندوحةٌ لمطاولةِ الأتابك على السلطنة، لأنه ندم على ما تفوَّه به ولم يجد لنفسه قوةً حتى يرجع عن قوله، لقوة شوكة الأتابك وكثرة أعوانه ممّن اجتمع عليه من الطوائف، لا سيما الطائفة المؤيَّدية، فإنهم صاروا عصباً له وغَيْرِيَّةً على قرقماس، لما كان بين قرقماس وبين الأمير دُولات المحمودي المؤيدي من العداوة قديماً، لسببٍ السُّكاتُ عنه أليق، ودُولات هو يومذاك عينُ المؤيدية ورئيسهم، غير أن جميعَ طائفة الناصرية كانتْ مع قرقماس في الباطن لكونه خُجْدَاشَهم، ولكن هم أيضاً ممّن كان انضمّ على الأتابك وصار لهم به إلمام كبير، فلم يُظهِروا الميلَ لقرقماس في الظاهر مخافةَ أن لا يتمّ أمره وينحطّ قدْرُهم عند الأتابك؛ فصاروا يلاحظونه بالقلب والخاطر لا بالفعل والقيام معه، والأتابكُ [جَقْمَق] يعرف جميع ذلك، غير أنه يتجاهل عليهم تجاهلَ العارف، لقضاء حاجته - انتهى.

ولما عُملت الخدمة في هذه الأيام ولم يحصل لقرقماس غرَضُه، عاد إلى رأيه الأول من الكلام في سلطنة الأتابك جقمق. وألحّ عليه حتى أجابه صريحاً. وكان في هذه الأيام كلِّها كلما طلع الأمراء إلى الخدمة السلطانية، ينزل الجميع من القصر بعد انقضاء الخدمة إلى الأمير جقمق ويأكلون السِّماط عنده.

فلما كان آخر خدمة عُملت عند الملك العزيز يوسف في يوم الاثنين سابع

عشر شهر ربيع الأول، نزل قرقماس من عند السلطان مع جملة الأمراء، واجتمع بالأمير الكبير وألحّ عليه بأنه يتسلطن في اليوم المذكور، فلم يوافقه جقمق على ذلك وواعده على يوم الأربعاء تاسع عشر شهر ربيع الأول.

ووافقه جميعُ الأمراء على خلع الملك العزيز وسلطنته، إلا آقْبَغا التِّمْرازي فإنه أشار عليه أن يؤخّر ذلك ويتجرّد إلى البلاد الشامية ويمهّدها، كما فعل الملك الظاهر طَطَر، ثم يتسلطن، مخافةً من عصيان النوّاب بالبلاد الشامية عليه عقيب سلطنته، قبل أن يرسخ قدمه؛ فردَّ قولَه قرقماس، وأشار بسلطنته في يوم الأربعاء، ووافقه على ذلك جماعةُ المؤيدية، فتمّ الأمر على ما قاله قرقماس.

وكان الحزم ما قاله آقْبَغَا التِّمرازي؛ وبيانه أنه لولا [أنَّ] سعدَ الملك الظاهر جَقْمَق حرَّك قرقماس للركوب في غير وقته، لكان قرقماس انتصر عليه لكثرة مَن كان انضمّ عليه من المماليك الأشرفية وغيرهم؛ وأيضاً لولا استعجالُ إينال الجَكَمي في صدمته العساكر المصرية، لكان تمّ أمره لِعِظم ميل الناس إليه.

وأما تَغْري بَرْمَشْ نائب حلب فكان مَسْكُه على غير القياس؛ فإنه كان تركمانيّاً ووافقه جماعة كبيرة من التركمان، مع قوته وكثرة ماله، فكان يمكنه أن يُتعب الملكَ الظاهرَ جقمق بتلك البلاد طولَ عمره، فلهذا أشار آقْبَغَا التِّمْرازي بسفره قبل سلطنته. وقد حسب البعيدَ ونظر في العواقب، فلم يسمع الملكُ الظاهر له وتسلطن، وقاسى بعد ذلك شدائد وأهوالاً، أشرف منها غير مرة على زوال مُلكه، لولا مساعدة المقادير وخدمة السعد، لما سبق له في القدم.

ولمّا كان يوم الأربعاء تاسع عشر شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة خُلع الملك العزيزُ يوسف من الملك، وتسلطن الأميرُ الكبيرُ جَقْمَق العلائي، وتلقّب بالملك الظاهر، حسبما يأتي ذكره في أوائل سلطنته. وكانت مدةُ سلطنة الملك العزيز على مصر أربعة وتسعين يوماً. وزال بخلعه الدولةُ الأشرفية، وتمزقت مماليك أبيه وتشتتت في البلاد سنين، وحُبس أعيانهم.

ولم يكن للملك العزيز في السلطنة إلّا مجرد الاسم فقط، ولم تطل أيامه ولا

تحكَّم في الأمور لتُشكر أفعاله أو تذمّ، وإنما كان آلةً في المُلك والمتصرفُ غيره، لصغر سنّه وعدم أهليّة مماليك أبيه.

ولمّا خُلع الملك العزيز، أُدخل إلى الدور السلطانية واحتُفظ به وسكن بقاعة البَرْبَرِيَّة أشهراً، حتى تَسَحَّبَ منها ونزل إلى القاهرة واختفى أياماً كثيرة، حتى ظُفر به وحُبس بالقلعة أياماً قليلة، ثم نقل إلى سجن الإسكندرية، حسبما يأتي ذكر ذلك كله مفصّلاً في ترجمة الملك الظاهر جَقْمَق إن شاء الله تعالى.

واستمر الملك العزيز بسجن الإسكندرية على أجمل حال وأحسن طريقة من طلب العلم وفعل الخير إلى يومنا هذا؛ أحسن الله عاقبته بمحمد وآله. وهو ثاني سلطان لقّب بالملك العزيز من ملوك مصر، والأول: العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، والثاني: العزيز هذا. وهو أيضاً ثاني مَن سُمّي يوسف من ملوك مصر، فالأول السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، والثاني هذا، والله تعالى أعظم.

ذكر سلطنة الملك الظاهر [أبي سعيد] جَقْمَق[1] على مصر

السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد جَقْمَق العلائي الظاهري الجركسي، وهو الرابع والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية، والعاشر من الجراكسة وأولادهم. تسلطن بعد خلع الملك العزيز يوسف ابن الملك الأشرف بَرْسباي، باتفاق الأمراء وأعيان المملكة على سلطنته.

ولمّا تمّ أمره استُدعي الخليفةُ المعتضدُ بالله داؤد والقضاةُ الأربعة والأمير قَرْقَماس أمير سلاح وسائر الأمراء وجميع أعيان الدولة إلى الحَرّاقة بباب السلسلة من الإسطبل السلطاني، وجلس كلّ واحد في مجلسه. فافتتح الأمير قرقماس بالكلام مع الخليفة والقضاة بأن قال: «السلطان صغير، والأحوال ضائعة لعدم اجتماع الكلمة في واحد بعينه. ولا بدّ من سلطان ينظر في مصالح المسلمين وينفرد بالكلمة، ولم يكن يصلح لهذا الأمر سوى الأمير الكبير جَقْمَق هذا». فقال جقمق: «هذا لا يتمّ إلّا برضا الأمراء والجماعة». فصاح الجميع: «نحن راضون بالأمير الكبير». فعند ذلك مدّ الخليفةُ يده وبايعه بالسلطنة؛ ثم بايعه القضاةُ والأمراء على العادة.

ثم قام من فوره إلى مبيت الحَرَّاقَة، ولبس الخلعة الخليفتية السوداء، وتقلّد بالسيف، وخرج ركب فرساً أُعدّ له بأُبّهة السلطنة وشعار الملك، وحُملت على

---

(١) ترجمته وأخباره في: السلوك: ١٠٨٦/٤ وما بعدها، وذلك حتى نهاية أخبار سنة ٨٤٤ هـ، وبدائع الزهور: ٣٣٢ - ٣٤٣؛ وإنباء الغمر: ٣٩/٩ وما بعدها حتى آخر المحرّم من سنة ٨٥٠ هـ؛ والضوء اللّامع: ٧١/٣؛ وحوادث الدهور: ٣٤٩/٢؛ وشذرات الذهب: ٢٩١/٧؛ والأعلام: ١٣٢/٢؛ ودائرة المعارف الإسلامية: ١٧٤/١٢ - ١٧٥.

رأسه القبّة والطير، حملها الأمير قَرْقَمَاس أمير سلاح، والأمراء مشاة بين يديه، وسار إلى أن طلع إلى القصر السلطاني بقلعة الجبل، وجلس على تخت الملك، وقبَّل الأمراء الأرض بين يديه على العادة.

وكان جلوسه على تخت الملك في يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة، على مضيٍّ سبع عشرة درجة من النهار المذكور، والطالعُ برجُ الميزان بعشر درجات وخمس وعشرين دقيقة، وكانت الشمسُ في السادس والعشرين من السُّنْبُلَة، والقمر في العاشر من الجَوْزاء، وزُحَل في الثاني والعشرين من الحَمَل، والمشتري في السابع عشر من القوس، والمرّيخ في الخامس من الميزان، والزهرة في الحادي عشر من الأسد، وعطارد في الرابع عشر من السنبلة، والرأس في الثاني من الميزان.

* * *

ذكر أصل الملك الظاهر جقمق وقدومه إلى مصر ونسبته بالعلائي ثم بالظاهري

فنقول: كان جاركسيَّ الجنس، وأُخذ من بلاده صغيراً فاشتراه خواجا كَزْلَكْ (وكَزْلِكْ بفتح الكاف وسكون الزاي وفتح اللام وكسرها وسكون الكاف الثانية). وجلبه خواجا كزْلك المذكور إلى الديار المصرية فابتاعه منه الأتابك إينال اليوسفي، وقيل ولدُه أمير علي بن إينال المذكور وهو الأصحّ، وربّاه عنده، وأرسله مع والدته إلى الحجّ. ثم عاد جَقْمَق إلى القاهرة في خدمة والدة أمير علي المذكور، وكانت والدة أمير علي متزوجة بشخص من الأجناد من أمير آخورية السلطان يسمى نَغْتَاي. (ونَغْتَاي بفتح النون والغين المعجمة، وبعدهما تاء مفتوحة وألف وياء ساكنة).

ولمّا قَدِمَ جَقْمَق إلى القاهرة أقام بها مدة يسيرة، وتعارف مع أخيه جاركس القاسمي المُصارِع، وكان جاركس يوم ذاك من أعيان خاصكية أستاذه الملك الظاهر

برقوق، فكلّم جاركسُ الملكَ الظاهرَ برقوقاً في أخذ جَقْمَق هذا من أستاذه أمير علي بن إينال، فطلبه الملك الظاهر منه في سرحة سرياقوس، وأخذه وأعطاه لأخيه جاركس، إنْياً بطبقة الزمام من قلعة الجبل. وقد اختلفت الأقوال في أمر عتقه: فمن الناس مَن قال إن أمير علي كان أعتقه قبل أن يطلبه الملكُ الظاهر منه، فلما طلبه الملك الظاهر سكت أمير علي عن عتقه لتنال جَقْمَق السعادة بأن يكون من جملة مشتروات الملك الظاهر، وكان كذلك. وهذا القول هو الأقوى والمتواتر بين الناس ولما يأتي بيانه.

ومن الناس مَن قال إنه كان في الرقّ، وقدّمه أمير علي إلى الملك الظاهر لما طلبه منه، ولو كان حرّاً يوم ذاك لاعتذر بعتقه. وهذا أيضاً مقبول، غير أن الذي يقوِّي القولَ الأول يحتجّ بأن الملك الظاهر جَقْمَق هذا لما كان أمير طبلخاناه وخازنداراً في الدولة المؤيدية شيخ، أخذ الشهابي أحمد بن أمير علي بن إينال اليوسفي وهو صغير، ووقف به إلى السلطان الملك المؤيد، وسأل السلطانَ فيه ليكون من جملة المماليك السلطانية، فسأل المؤيد عن أحمد المذكور فقال جقمق: «يا خَوَنْد، هذا ابن أُستاذي أمير علي»، فقال المؤيد: «ومن أين يكون هذا ابن أُستاذك؟ الملكُ الظاهرُ أعتقك بحضرتنا الجميع، وأخرج لك خيلاً على العادة». فقال جقمق: «نعم هو كما قال السلطان، غير أن أمير علي كان أعتقني قبل ذلك، وسكت عن عتقي لما طلبني الملك الظاهر منه». فغضب الملك المؤيد من ذلك ووبّخه، كونَه أنكر عتاقَة الملك الظاهر له واعترف بعتاقة أمير علي؛ ولم يُنزل لذلك أحمدَ المذكور في جملة المماليك السلطانية، فأخذه جقمق عنده وتولّى تربيته.

قلت: وعندي اعتراض آخر، وهو أنه يمكن أن الملك الظاهر كان هو الذي أعتقه، وإنما أراد الملك الظاهر جَقْمَق بقوله إن أمير علي أعتقه، ليعظُم الأمر على الملك المؤيد، ليُنزِل أحمدَ المذكور في جملة المماليك السلطانية، لكثرة حنوّه على أحمد المذكور، ولم يدرِ أن الملك المؤيد يغضبه ذلك، فإنه يقال في الأمثال: «صاحب الحاجة أعمى لا يريد إلّا قضاءها». وكان الملك الظاهر جَقْمَق

في طبعه الرأفة والشفقة على أيتام الأجانب، فكيف الأقارب ؟ ولا أستبعد ذلك - انتهى.

* * *

ذكر ما وقع له من ابتداء أمره إلى أن تسلطن

فنقول: واستمر جَقْمَق هذا عند أخيه بطبقة الزِّمَام مدةً يسيرةً، وأعتقه الملكُ الظاهر برقوق، وأخرج له خيلاً وقماشاً على العادة بمفرده؛ وهو أن بعضَ المماليك السلطانية من طبقة الزمام المذكورة توفي، فقام جاركس في مساعدة أخيه جَقْمَق هذا حتى أخذ له جامكيّتَه وخيلَه. وأعتقه الملك الظاهر، ثم جعله بعد قليل خَاصْكِيّاً، كلّ ذلك بسفارة أخيه جاركس المذكور. واستمر جَقْمَقُ خاصكيّاً إلى أن مات الظاهر برقوق، وصار ساقياً في سلطنة الملك الناصر فرج، ثم تأمّر عشرةً، إلى أن خرج أخوه جاركس عن طاعة الملك الناصر فرج فأمسك السلطانُ جَقْمَقَ هذا، وحبسه بواسطة عصيان أخيه، فدام في السجن إلى أن شفع فيه الوالدُ وجمال الدين يوسف الأستادّار وأطلق من السجن. ثم قُتل جاركس فانكفَّ جقمق هذا عن الدولة بتلطّف، إلى أن قُتل الملك الناصر، وملَك شيخُ المحمودي الديارَ المصرية، فأنعم عليه بإمرة عشرة، ثم نقله بعد سلطنته بمدة إلى إمرة طبلخاناه، ثم جعله خازنداراً كبيراً بعد انتقال الأمير يونس الركني إلى نيابة غزة. ثم نُقل إلى إمرةِ مائةٍ وتقدمةِ ألفٍ في دولة المظفّر أحمد ابن الملك المؤيَّد شيخ. ثم صار حاجبَ الحجّاب بعد الأمير طَرَبَاي، في أواخر الدولة الصالحية محمد أو في أوائل الدولة الأشرفية بَرْسْباي. ثم نُقل إلى الأمير آخورية الكبرى عوضاً عن الأمير قصروه من تِمراز، بحكم انتقال قصروه إلى نيابة طرابُلُس في أوائل صفر من سنة ست وعشرين وثمانمائة، وتولى الحجوبية من بعده الأميرُ جَرِبَاش الكريمي المعروف بقاشق. ثم نقل من الأمير آخورية إلى إمرة سلاح بعد إينال الجَكَمي، واستقر عوضَه في الأمير آخورية الأميرُ حسينُ بن أحمد البَهَسْني التركماني المدعو تَغْرِي بَرْمَش. ودام على ذلك سنين إلى أن نُقل إلى أتابكية العساكر بالديار المصرية، عوضاً عن إينال الجكمي أيضاً بحكم انتقال الجكمي إلى نيابة حلب، بعد عزل

قَرْقَماس الشعباني وقدومه على إقطاع إينال الجكمي مقدمَ ألف بالقاهرة. فاستمر أتابكاً إلى أن مات الملك الأشرف بَرْسْباي في ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وثمانمائة، بعد أن أوصى جَقْمَقَ على ولده وجعله مدبِّرَ مملكته، إلى أن صار من أمره ما رقّاه إلى السلطنة. وقد ذكرنا ذلك كلّه مفصّلاً، غير أننا أعدناه هنا لينتظم سياق الكلام مع سياقه - انتهى.

ولنَعُد الآن إلى ما كنّا فيه:

ولمّا جلس الملكُ الظاهر جَقْمَقُ على تخت الملك وتمّ أمرُه، وخلع على الخليفة وعلى الأمير قَرْقَماس وقيَّد لهما فرسين بقماش ذهب، ولُقّب بالملك الظاهر أبي سعيد جقمق. ثم نودي في الحال بالقاهرة ومصر بسلطنته والدعاءِ له، وأن النفقةَ لكل ملوك من المماليك السلطانية مائةُ دينار، فابتهج الناسُ بسلطنته. ثم أمر السلطانُ فقُبض على الطواشي صفيِّ الدين جوهر الجُلْباني الحبشي لَالَا الملكِ العزيز، وهو يومئذ زِمَامُ الدارِ السلطاني، وخلع على الزّيني فَيْرُوز الجاركسي الطواشي الرومي باستقراره زِماماً عوضاً عن جوهر المذكور.

ثم أصبح في يوم الخميس العشرين من شهر ربيع الأول المذكور خلع على الأمير قَرْقماس الشعباني الناصري - أمير سلاح المعروف بأهرام ضاغ - باستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية عوضاً عن نفسه وخلع على الأمير آقْبَغَا التِّمْرازي أمير مجلس باستقراره أميرَ سلاح عوضاً عن قرقماس المذكور؛ وخلع على الأمير يَشْبَك السُّودوني حاجبِ الحجّاب باستقراره أميرَ مجلس عوضاً عن آقبغا التمرازي. وكان السلطانُ خيَّر تمرازَ القُرْمُشي رأسَ نوبةِ النوب في وظيفة أمير مجلس أو الأمير آخورية الكبرى، فمال إلى الأمير آخورية الكبرى، فخلع عليه بها عوضاً عن الأمير جانم الأشرفي بحكم حبسه بثغر الإسكندرية. وخلع على أرْكَماس الظاهري الدوادار الكبير باستمراره على وظيفة الدوادارية، وعلى الأمير قَرَاخُجَا الحَسَني الظاهري باستقراره رأسَ نوبة النوب عوضاً عن تمراز القرمشي، وعلى الأمير تَغري بَرْدِي البَكْلَمُشِي المُؤْذِي باستقراره حاجبَ الحجّاب عوضاً عن يَشْبَك السُّودوني، وعلى الأمير تَنِبَك البُرْدبَكي أحدِ أمراء الألوف باستقراره في نيابة قلعة الجبل، ثانيَ

مرةٍ عوضاً عن تَنِبَك النّوْرُوزي الجقمقي؛ وخلع على الأمير قَرَاجَا الأشرفي فَوْقانِيّاً، وهو آخر مَن بقي من مقدّمي الألوف. وباقي الإقطاعات شاغرة إلى الآن عن أصحابها. وكتب بحضور الأمير جَرِبَاش الكريمي قاشق من ثغر دمياط، وكان له به سنين كثيرة بطالاً. ثم خلع السلطانُ على دُولات باي المحمودي الساقي المؤيدي ـ أحدِ أمراء العشرات ورأس نوبة ـ باستقراره أميرَ آخور ثانياً، عوضاً عن يَخْشباي المقبوض عليه قبل تاريخه، وعلى الأمير تَنَم من عبد الرزّاق المؤيدي ـ أحدِ أمراء العشرات ورأس نوبة ـ باستقراره محتسبَ القاهرة عوضاً عن الإمام نور الدين السويفي، وعلى قاني باي الجاركسي ـ الذي تأمّر قبل تاريخه بمدة يسيرة ـ باستقراره شادَّ الشراب خاناه عوضاً عن علي باي الأشرفي بحكم القبض عليه، واستمر على إمرة عشرة؛ وعلى الأمير قاني باي الأبوبكري الأشرفي الساقي باستقراره خازنداراً عوضاً عن جَكَم خال العزيز بحكم القبض عليه أيضاً.

ثم أنعم السلطان على جماعة كثيرة جداً باستقرارهم أمراءَ عشراتٍ يطول الشرح في ذكرهم، لأنها دولة أُقيمت بعد ذهاب دولة، وتغيرَ جميع مَن كان من أرباب الوظائف الذين كانوا في الدولة الأشرفية من الخاصكية وغيرهم، واستقرَّ جماعةٌ كبيرة رؤوسَ نُوَب، منهم من خُلع عليه قبل أن يلبس فَوْقانيَّ الإمرة، وهو إلى الآن بحياصةِ ذهبٍ. ونالت السعادة جميع المماليك المؤيدية الأصاغر، بحيث إن بعضهم كان فقيراً يعيش بالتَّكَدِّي فأخذ إقطاعاً هائلاً واستقر بوّاباً دفعة واحدة، وأشياء كثيرة من هذا ذكرناها في غير هذا المحل.

ثم في يوم الاثنين رابع عشرين شهر ربيع الأول المذكور، جلس السلطان الملك الظاهر جَقْمَق بالمقعد المطل على الحوش، تجاه باب الحوش المذكور، وابتدأ فيه بنفقة المماليك السلطانية لكل واحد مائةُ دينار، واستمرت النفقةُ فيهم في كل يوم موكب، إلى أن انتهى أمرهم فيها.

ثم في يوم الثلاثاء خامس عشرينه وصل الأمير جَرِبَاش قاشق من ثغر دمياط فأنعم عليه بإمرةِ مائة وتقدمةِ ألفٍ بالقاهرة.

ثم في يوم الخميس سابع عشرينه عمل السلطانُ المولد النبوي بالحوش على العادة، وزاد فيه زيادات حسنة من كثرة الأسمِطة والحلاوات؛ وانفضّ الجميع بعد صلاة المغرب.

ثم في يوم السبت تاسع عشرينه تجمع تحت القلعة نحوُ ألف مملوك من مماليك الأمراء، يريدون النفقة كما نُفق على المماليك السلطانية، فأمر لهم السلطان بنفقة، فنُفقت فيهم؛ ولم يكن لذلك عادة قبل تاريخه.

ثم في يوم الاثنين ثالث شهر ربيع الآخر قبض السلطان تاج الدين عبد الوهاب الأَسْلَمي ـ المدعو بالخطير ـ ناظر الإسطبل السلطاني وعلى ولديه؛ والثلاثة أشكال عجيبة.

وفيه كانت مبادىء وقعة قَرْقَماس مع الملك الظاهر جَقْمَق. وخبره أنه لمّا كان يوم الثلاثاء المذكور، ثار جماعة كبيرة من المماليك القرانيص، ممّن كان قام مع الملك الظاهر جقمق على المماليك الأشرفية، وطلبوا زيادة جَوَامِكِهم ورواتب لحمهم، ووقفوا تحت القلعة، فأرسل إليهم السلطان يعدهم بعمل المصلحة، فلم يرضوا بذلك. وأصبحوا من الغد في يوم الأربعاء رابع شهر ربيع الآخر على مواقفهم. وركب السلطانُ ولعبَ الكرة بالحوش السلطاني مع الأتابك قرقماس الشعباني وغيره من الأمراء إلى أن انتهى لعبهم، فأسرَّ بعض مَن تأمّر من المماليك المؤيَّدية إلى السلطان بأن الأتابك قرقماس يريد الركوبَ على السلطان، فنهره السلطانُ واستبعد وقوع ذلك من قرقماس، لا سيما في هذا اليوم.

هذا وقد كثر جمعُ المماليك السلطانية من الأشرفية وغيرهم، ووقفوا تحت القلعة كما كانوا في أمسه، ثم وقفوا عند باب المدرّج أحد أبواب القلعة، وصاروا كلما نزل أمير من الخدمة السلطانية اجتمعوا به وكلّموه في عمل مصالحهم. ووقع لهم ذلك مع جماعة كبيرة من الأمراء، إلى أن نزل الأتابكُ قرقماس فأحاطوا به وحدّثوه في ذلك، وأغلظوا في حق السلطان، فوعدهم قرقماس بأنه يتحدّث بسببهم مع السلطان، وبَشَّ لهم وألانَ معهم في الكلام، فطمعوا فيه وأبوا أن يمكّنوه من

الرجوع إلى السلطان، وكلّموه في الركوب على السلطان وهم يوافقوه على ذلك، فأخذ يمتنع تمنّعاً ليس بذاك.

وظهر من كلامه في القرائن أنه يريد كثرة مَن يكون معه، وأن ذلك لا يكون في هذا اليوم. فلما فهموا منه ذلك تحرّكت كوامن المماليك الأشرفية من الملك الظاهر جَقْمَق، وانتهزوا الفرصة وقصدوا الركوب ووقوع الحرب في الحال، بجهل وعدم دربة بالوقائع والحروب، وأخذوه ومضوا وهم في خدمته إلى بيته، وكان سكنُه بمِلكه بالقرب من المدابغ خارجَ باب زويلة. وتلاحق بهم جماعة كثيرة من أعيان المماليك السلطانية وبعض الأمراء وعليهم السلاح، وراودوه على الركوب فلم يعجبه ذلك، وقال لهم ما معناه أن له أصحاباً وخُجْداشِية كثيرة وجماعة من أكابر الأمراء لهم معه ميل وغرض، «فاصبروا إلى باكر النهار من الغد لنتشاور معهم في أمرنا هذا وفيما نفعله»، فامتنعوا من ذلك وأظهروا له إن لم يركب في هذا اليوم لم يوافقوه بعد ذلك.

وكان جمعهُم قد كثر إلى الغاية، ولكن غالبهم المماليك الأشرفية. وكان الذي قال له ذلك الأمير مُغُلْباي الجَقْمَقي أستادار الصحبة على لسان بعض أصحابه، وقيل إن قَرْقَماس أراد بهذا الكلام توقفهم حتى يتفرقوا عنه ثم يصعد هو إلى القلعة ويُعلم السلطان بذلك. وعندي أن الصحيح أنه لم يُرِد بقوله هذا إلّا تحكيمَ أمره حتى يأتوه من الغد بجموعهم، ويأخذوه غصباً كما فعل القوم بالملك الظاهر جَقْمَق، ويجتمع عليه حواشيه وأصحابه ـ وأنا أعرف بحاله من غيري. فأبوا عليه وألحّوا في ركوبه في الوقت، وخوّفوه تفرُّق مَن اجتمع عليه في هذا اليوم، وكانوا خلائق كثيرة إلى الغاية. فنظر عند ذلك في أمره، فلم يجد بدّاً من موافقتهم وركوبه معهم في هذا اليوم لما في نفسه من الوثوب على السلطنة والاستبداد بالأمر؛ وكان فيه طيش وخفّة في صفة عقل ورزانة، لا يفهم منه ذلك إلّا مَن له ذوق ومعرفة بنقد الرجال. وخاف قَرْقَماس إن لم يركب في هذا اليوم وأراد الركوب بعد ذلك، لا يوافقه أحد من هؤلاء، فينحلُّ بذلك بَرْمُه ويطول عليه الأمر، لعظم ما كان داخله الحسد للملك الظاهر جَقْمَق، ولله درُّ القائل: «الحاسد ظالم في

صفة مظلوم مُبْتَلًى غيرُ مرحـوم». وأحسن من هذا قـول القائـل، وهو لسـان حال الملك الظاهر جقمق: [الطويل]

وَكُـلٌّ أُداريـه على حَسْبِ حـالـه سوى حاسـدي فَهْيَ التي لا أنالُهـا
وكيف يـداري المرءُ حـاسـدَ نعمـةٍ إذا كـان لا يـرضيـه إلاّ زوالُهـا

فعند ذلك قام ولبس آلة الحرب هو ومماليكه، وركب من وقته قريب الظهر من يوم الأربعاء رابع شهر ربيع الآخر المذكور، وخرج من بيته بعساكر عـظيمة، ومعـه أمراء العشرات: الأمير أُزْبَك السيفي قاني باي نائب الشام المعـروف بأزبـك جحا، والأمير جانم الأشرفي المعروف برأس نوبة سيّدي، وكلاهما أمير عشرة. وقـد وافقه غيرُهما مثل الأمير قـراجا الأشـرفي أحد مقـدّمي الألوف، والأميـر مُغُلْباي الجَقْمَقي أستادار الصحبة، ووعداه أنهما يوافياه بمماليكهما بالرملة.

وخرج الأميرُ قَـرْقَماس من بيتـه بمجموعـه فوافيتُـه خارج بـاب زويلة من غير ميعاد، وسرت معه، وصحبته عساكر كثيرة من الأشرفية وغيرهم، وأنا بجانبه. فتأملتُ في أمره فلم يعجبني حاله، لاضطراب عساكره ولعدم مَن يرأسهم من أعيـان الأمراء ممّن مرّتْ بهم التجارب، وأيضاً لكثرة قلقه في مسيره وعدم ثباته في كلامـه. وظهر لي منه أيضاً أنه لم يعجبه ما هو فيـه من اختلاف كلمـة مَن هو معـه من المماليـك السلطانية وآرائهم المفلوكة[1] وكثرة هرجهم، ثم صار يقول في مسيـره: «الله ينصر الحق»، فيقول آخر: «الله ينصـر الملكَ العزيـز يوسفـ»»، ويقـول آخر: «الله ينصـر الأميرَ قرقماس»، ومنهم مَن قال: «الله ينصر السلطان»، ولم أدْرِ أيَّ سلطانٍ قصد؛ كل ذلك في تلك المسافة القريبة من بيته إلى الرملة.

ثم كشف قَرْقَماس رأسَه وصاح: «الله ينصر الحق» غيرَ مـرة، فتعجبت أنا من دعائه، لأيٍّ حق يريد؟ فلما أن كشف رأسه تفاءل الناس بخذلانه، وظهر لي منه أيضاً أنـه كان يتخـوّف من المماليـك الأشرفيـة، لما بلغني بعـد ذلك أنـه بلغه في اليـوم

(١) كذا. وفي بعض الأصول: «المنلولة» وهي أوضح.

المذكور أنهم إذا انتصروا على الملك الظاهر جَقْمَق وملكوا القلعةَ ضربوا رقبة قَرقماس، فنفر خاطرُه من ذلك. وكأنه بلغه ذلك بعد ركوبه وشروعه فيما هو فيه، فبقي لا يمكنه إلّا الإتمام، لأن الشروع ملزم؛ والمقصود أنه سار إلى أن وصل قريباً من جامع السلطان حسن، فوافاه الأميرُ قراجا بطُلْبِه ومماليكه وعليهم السلاح، والأمير مُغُلْباي الجقمقي، وسارا معه من تحت مدرسة السلطان حسن إلى بيت قوصون تجاه باب السلسلة، وكان يسكنه يوم ذاك الأميرُ أَرْكماس الظاهري الدوادارُ الكبير، وقد أغلقه مماليكُ أركماس المذكور، فقصد قَرْقماس المذكور عبورَ البيت المذكور فوجده مغلقاً. ثم دخله بعد أمور، فإذا بأَرْكَماس الظاهري قد خرج من بابِ سِرٍّ البيت المذكور، ومضى إلى حال سبيله محمولاً لعجزه عن الحركة لوجعٍ كان يعتريه برجليه، وأيضاً لم يكن من هذا القبيل.

وملَك قرقماسُ البيتَ ودخله، وأخذ فيما يفعله مع عساكر السلطان من القتال وغيره، فلم ينتظم له أمرٌ ولا رُتّب له طُلْبٌ من كثرة الغوغاء والهرج، حتى إن باب السلسلة كان مفتوحاً منذ قدم قَرْقماس إلى الرملة وأخذ بيت أركماس الظاهري، والأميرُ تِمراز القُرُمُشي الأميرُ آخور الكبير لم يلتفت إلى غلقه ولا تحرّك من مجلسه ولا ألبس أحداً من مماليكه السلاح، ومن عظم تراخيه في ذلك نسبوه للممالأة مع قَرْقماس ـ ولا يبعُد ذلك. ومع هذا كله لم يلتفت أحدٌ من أصحاب قَرْقماس إلى أخذ باب السلسلة، ولا سار أحد إلى جهته جملةً كافية، لعظم اضطرابهم وقلّة سعدهم. كل ذلك والسلطانُ الملكُ الظاهر إلى الآن بالقلعة في أُناس قليلة من خواصّه، وهو لا يصدِّق ما قيل له في حق قَرْقَماس، إلى أن حضر قرقماسُ إلى الرملة وملك بيتَ قوصون[1]؛ فعند ذلك ركب [السلطان] من الحوش السلطاني ونزل في أمرائه الصغار وخاصْكِيَّته إلى باب السلسلة وجلس بالمقعد المطلّ على الرميلة، وقد صحب معه فرساً عليه قماش ذهب يوهم به أنه لأجل قرقماس إذا طلع إليه طائعاً،

(١) بيت قوصون أو إسطبل قوصون أو قصر قوصون بجوار مدرسة السلطان حسن، وله باب تجاه باب السلسلة الذي يتوصّل منه إلى الإسطبل السلطاني وقلعة الجبل. وكان هذا القصر مسكناً لكبار الأمراء، خاصّة أمير الأمراء الأتابك الكبير، منذ أيام الناصر محمد بن قلاوون. (انظر خطط المقريزي: ٢/٧٢).

وأن قرقماس أرسل يقول له إنه يريد أن يفرّ من المماليك الأشرفية ويطلع إلى القلعة، فأمسك بهذه الحركة جماعة كبيرة عن التوجّه إلى قرقماس من خجداشيته وأصحابه. وكان هذا الذي فعله الملكُ الظاهر من أكبر المصالح؛ فإن كان على حقيقته فقد نفع، وإن كان حيلة من الملك الظاهر جقمق فكانت في غاية الحُسْن ومن أجود الحِيَل.

ولمّا جلس الملكُ الظاهر بالمقعد من الإسطبل السلطاني المطلّ على الرميلة، نزلت جماعة من خاصْكِيِّته مشاةً وعليهم السلاحُ وناوشوا القرقماسية بالقتال قليلاً. ثم أمر السلطانُ فنودي: «مَن كان من حزب السلطان فليتوجّه إلى بيت الأمير آقْبَغَا التِّمْرازي أمير سلاح»، وكان سكن آقْبَغَا المذكور بقصر بَكْتَمُر الساقي بالقرب من الكَبْش تجاه مدرسة سِنْجَر الجاولي[1]. فلما سمع الأمراءُ والمماليكُ المناداةَ ذهبوا إلى بيت الأمير آقْبَغَا التِّمْرازي، فاجتمع عنده خلائق وجماعة كبيرة من الأمراء. فممّن اجتمع عنده من مقدّمي الألوف: الأمير قَرَاخُجَا الحَسَني رأس نوبة النوب، وحاجب الحجّاب تَغْري بَرْدي البَكْلَمُشي المؤذي، ومن الطبلخاناه وغيرهم: الأمير أَسَنْبَغَا الطَّيَّاري وعدّة كبيرة.

ثم أرسل آقْبَغَا التمرازي رأسَ نوبته لكشف خبر قَرْقَماس ومَن وافقه من الأمراء، فتوجّه المذكور وعاد إليه بالخبر أنه ليس معه من الأمراء إلا قراجا وأُزْبَك جُحَا ومُغُلْباي الجَقْمَقي وجانِم الأشرفي. فقال آقْبَغَا: «إذن فلا شيء». وركب فرسه وركب الأمراء معه بمَن انضمّ عليهم من المماليك السلطانية، وساروا إلى أن وصلوا إلى صليبة أحمد بن طولون عند الخانقاه الشيخونية، ووقفوا هناك وتشاوروا في مرورهم إلى باب السلسلة، وقد ملأت عساكر قرقماس الرميلة؛ فمن الناس مَن قال: «نتوجّه من على المشهد النَّفِيسي إلى باب القرافة ثم نطلع إلى القلعة»، ومنهم مَن قال غير ذلك. وبينا هم في ذلك، ورد عليهم الخبر أن الأمير قَرَاجَا ومُغُلْباي

---

(١) مدرسة سنجر الجاولي: ذكرها المقريزي باسم المدرسة الجاولية. أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولي سنة ٧٢٣ هـ ورتّب بها درساً للصوفية وأوقف عليها الأوقاف. (خطط المقريزي: ٢/٣٩٨).

الجقمقي خرجا من عسكر قَرْقَماس ولحقا بـالسلطان؛ فعند ذلـك قوي عـزم الأمراء على الطلوع إلى القلعة من سُوَيْقة مُنْعِم[١]، فساروا بمَن معهم إلى أن صاروا بآخر سويقة منعم فحرّكوا خيولهم يداً واحدة، إلى أن وصلوا إلى القلعة، بعد أن كبا بآقْبَغَا التِّمْرازي فرسه، ثم قام به ولم يفارق السـرج. وطلعوا الجميـع إلى القلعة، وقبّلوا الأرض بين يدي السلطان، فأكرمهم السلطان غاية الإكرام ونـدبهم لقتال قـرقماس. فنزلوا من وقتهم بأطلابهم ومماليكهم، وقد انضم معهم جميع أمراء الألوف وغيرها. وصَفَّ آقْبَغَا عساكرَه والأطلابَ الذين معه؛ وقبل أن يعبِّي عساكـرَ السلطان صدمَتْـه القرقماسيةُ من غير تَعْبية ولا مصافَفَة، لأن قرقماس لمّا وقف تجاه باب السلسلة لم يقدر على تَعْبية عساكره لكثرة المماليك وقلّة مَن معه من الأمراء، ووقف هو بينهم في الوسط، ولم يكن لمعسكره قلب ولا مَيمنة ولا مَيسرة، وذلـك لقلّة معرفـة أصحابـه بممارسة الحروب وتعبية العساكر. وكان ذلك من أكبر الأسباب في هزيمة قرقماس، فإنه تعب في موقفه ذلك اليوم غـاية التعب، فصـار تارةً يكـرُّ في الميمنة وتـارة في الميسرة وتارة يقاتل بنفسه حتى أثخن جراحه، وتارة يعود إلى سنجقه. ولم يقع ذلك لعساكر السلطان، فإن غالبهم كانوا أمراء ألوف وطبلخانات وعشرات؛ فأمـا مقدّمـو الألوف فوقفت أطلابُهم تحت القلعة تجاه قرقماس، كلُّ طُلْب على حدته، فصـاروا كالتعْبِيَة.

وبرزت الأمراء والخاصْكِيَّة لقتال قرقماس، طائفةً بعد أخرى، هذا مع معرفتهم بمكائد الحروب وأحوال الوَقائع، وآقْبَغَا التمرازي في اجتهاد يعبـي العساكرَ السلطانية ميمنةً وميسرةً وقلباً وجناحين. وكـان قصده تعبيـة المجنَّح فلم يمهله القـرقماسيـة، وبادروه بالقتال والنزال من غير إذن قرقماس، فتصادم الفريقان غيرَ مرة، والهزيمةُ فيها على السلطانية، وتداول ذلك بينهم مراراً كثيرة، واشتد القتال وفَشَت الجراحاتُ في الطائفتين، وقُتل الأمير جَكَم النَّوْرُوزي أحد أمراء العشـرات بوسط الـرملة، وهو من حزب السلطان. كل ذلك ومنادي قَرْقَماس ينادي في الناس: «مَن يأتي قرقماس من

(١) تقع هذه السويقة بين الصليبة والرميلة تحت قلعة الجبل. ومكانها اليوم شارع شيخـون بقسم الخليفة بالقاهرة.

المماليك السلطانية فله مائتا دينار، ومَن يـأتيه من الـزُّعْر فله عشـرون دينار»، فكثـر جمعُه من الزُّعْر والعامّة. فأخذ الملكُ الظاهر جقمق ينثر الذهب على الزُّعْر فمالـوا إليه بأجمعهم، وقال لسان حالهم: «دِرَّة معجَّلة ولا دُرَّة مؤجَّلة».

ثم أمر السلطان بمنادٍ فنادى من أعلى سور القلعة: «مَن كان في طاعة السلطان فليحضر وله الأمان كائن مَن كـان وله كـذا وكذا»، وأوعـد بأشيـاء كثيرة. كـل ذلك والقتالُ في أشد ما يكون. ولم يكن غير ساعة جيدة إلا وأخـذ عسكر قـرقماس في تقهقر، وتوجّهت الناسُ إلى السلطان شيئاً بعد شيء. وكان جماعةٌ من أصحابنا من الناصرية وقفوا عند الصُّوَّة من تحت الطبلخاناه السلطانية حتى يروا ما يكون من أمرِ خُشْداشِهم الأتابكِ قَرْقَماس، وهواهم وميلهم إليه، فإنه قيل في الأعصار الخالية: «لا أفْلَح مَن هُجِيتْ قبيلتُه»؛ فلما رأوا أمر قَرْقَماس في إدبار، وأخذ أصحابه في التفرّق عنه، انحازوا بأجمعهم إلى جهة باب السلسلة، وأظهر كل واحد منهم أنه كان ممّن قـاتل قَـرْقَماس. ولم يَخْفَ ذلـك على الملك الظاهـر، لكنه لم يَسَعْـه يوم ذاك إلّا السكات، وبالله لقد رأيتُ الأميرَ آقْبَغَا التركمـاني الناصـري وهو يـدقّ بزُخْمته على طلبه، ويندب الناس لأخذ قرقماس بعد أن أشرف على الهزيمة، وعَبْـرته قـد خنقته حتى إنه لا يستطيع الكلام من ذلك.

ولمّـا كان بين الـظهر والعصـر أخذ قـرقماس في إدبـار، واضمحلّت عساكـره وذهبت أصحابه، وجُرح هو في وجهه ويده، وكلّ وتعب، وانفلَّت عنه جموعه، وصار الرجل من أصحابه يغيّر لبسه ثم يـطلع في الحال إلى القلعـة حتى ينظره السلطان، هذا والرّمي عليه من أعلى القلعة مترادف بالسهام والنفوط.

وكـان أصحاب قـرقماس في أول حضـوره إلى الرميلة اقتحمـوا باب مـدرسة السلطان حسن فلم يقـدروا على فتحه، فـأحرقـوه ودخلوا المـدرسـة وصعـدوا على سطحها وأرموا على السلطان بالنشاب والكفيات، إلى أن أبادوا القلعيين[1]، ومع هذا كله وأمرُ قرقماس في إدبار.

---

(١) أي أهل القلعة.

وقبل أن تقع الهزيمة على عساكر قرقماس من الذين ثبتوا معه، فرّ هو في العاجل، فانهزم عند ذلك عسكره بعد أن ثبتوا بعد ذهابه ساعة، ثم انقلبوا وولّوا الأدبار. فما أذّن العصر إلّا وقد تمت الهزيمة بعد أن جُرح خلائق من الطائفتين. فكان ممّن جُرح من أعيان السلطانية: الأمير آقْبَغَا التِّمْرازي أمير سلاح، والأمير تَغْري بردي المؤذي حاجب الحجّاب برمح أُخرق شدقه، لزم منه الفراشَ مدة طويلة وَأشرف على الموت، والأمير أَسَنْبُغَا الطياري أيضاً من طعنة رمح أصابه في ضلعه، وجماعة كثيرة من الخاصكية والمماليك يطول الشرح في تسميتهم.

وعندما انهزمت عساكرُ قَرْقَمَاس أخذوا سَنْجَقَه وطلعوا به إلى السلطان. وفرّ قرقماسُ فلم يُعرف أين ذهب؛ فتوهَّم السلطانُ أنه توجَّه إلى جهة الشام، فندب الأميرَ آقْبَغَا التِّمْرازي في جماعةٍ إلى جهة الخانقاه، فسار إلى أن قارب المَرْج والزيَّات، فلم يجد في طريقه أثرَ أحد من العساكر، فعلم أن قرقماسَ اختفى بالقاهرة، فعاد.

وأما الزُّعْر، فإنهم لمّا رأوا الهزيمةَ على القَرقماسية أخذوا في نهبهم، ثم توجّهوا إلى داره فنهبوها وأخذوا جميع ما فيها. وفي الحال سكنت الفتنةُ وفتحت الدكاكين، ونودي بالأمان والبيع والشراء. وأخذ أهلُ الحرس في تتبّع قَرْقماس وحواشيه، وندب السلطانُ أيضاً جماعةً من خواصّه في الفحص عن أمره. وما أمسى الليلُ حتى ذهب أَثر الفتنة كأنها لم تكن، وبات الناس في أمن وسلام.

وأما السلطانُ فإنه لمّا تحقق هزيمةَ قَرْقماس، قام من مجلسه بمقعد الإسطبل وطلع إلى القلعة مؤيداً منصوراً كأول يوم تسلطن، فإنه كان في بُحْرانٍ[1] كبير من أمرِ قَرْقماس وشِدّة بأسِه وعِظم شوكته وجلالته في النفوس. وقد كان الملكُ الظاهر يتحقّق أن قرقماس لا بدّ له من الركوب عليه، لحبّه للرئاسة وتَشَعُّب رأسه بالسلطنة، ولا يمكنه القبض عليع لاضطراب أمره كما هي أوائل الدول؛ فكان السلطانُ يريد

---

(١) البُحران: التغيّر الذي يحدث للعليل فجأة في الأمراض الحميّة الحادّة، ويصحبه عرق غزير وانخفاض سريع في الحرارة. (المعجم الوسيط ومعجم متن اللغة).

مطاولتَه من يوم إلى يوم، إلى أن يتمكّن منه بأمر من الأمور، فعجَّل الله له أمرَه بعد شدّة هالَتْه عقبها فَرَجٌ وأمْن.

ولما أصبح يوم الخميس خامس شهر ربيع الآخر، عُملت الخدمةُ السلطانية بالقصر السلطاني، وطلع القضاةُ والأعيان وهَنّؤوه بالنصر والظفر، وقد وَقف على باب القصر جماعة من أُمراء المؤيدية الرؤوس نُوَب، مثل جانِبِك المحمودي، وعلي باي العجمي، وأمثالهما، ومنعوا المماليك الأشرفية من الدخول إلى الخدمة السلطانية؛ وصار كل واحد منهم يضرب المملوك من الأشرفية على رأسه وأكتافه بالعصي حتى يمنعه من الدخول، هذا بعد أن يُوسِعه سبّاً وتوبيخاً، وقطع رواتب جماعة كثيرة منهم.

ثم أمر السلطانُ القضاةَ، فجلسوا بجامع القلعة، بسبب قطع سلالم مآذن [مدرسة] السلطان حسن، فحكم قاضي القضاة شمسُ الدين محمد بن البساطي المالكي بقطعها، وألزم الناظرَ على المدرسة بقطعه السلالم المذكورة، فقطعت في الحال.

ثم أمر السلطانُ بالفحص عن قَرْقماس، ونودي عليه بشوارع القاهرة، وهدَّد مَن أخفاه، فظفر به من الغد في يوم الجمعة سادس شهر ربيع الآخر. وكان من خبره أنه لما انهزم سار وحده إلى جهة الرَّصَد(١)، وقيل معه واحد من حواشيه، فأقام به نهارَه، ثم عاد من ليلته ـ وهي ليلة الخميس ـ إلى جهة الجزيرة، ثم مضى منها إلى بستانه بالقرب من موردة الجبس(٢) وقد ضاقت عليه الدنيا بأسرها، وكاد يهلك من الجوع والعطش. فلما رأى ما حلّ به، بعث إلى الزيني عبد الباسط يعرّفه بمكانه، ويأخذ له أماناً من السلطان. فركب عبدُ الباسط في الحال وطلع إلى السلطان في بُكرة يوم الجمعة المذكور، وعرّفه بأمر قَرقْماس، فندب السلطانُ ولدَه المقامَ الناصري محمداً

(١) الرُّصد: مكان مرتفع كان يشرف على بركة الحبش. وكان يقال له قديماً الجرف، وسُمّي الرصد لأن الأفضل بن بدر الجمالي الوزير الفاطمي أقام فوقه كرة لرصد الكواكب. (خطط المقريزي: ١/١٢٥).

(٢) موردة الجبس: موضع على فم الخليج المصري، كانت المراكب تفرغ فيه ما تحمله من جبس وبلاط، ولذلك سُمّي موردة الجبس أو موردة البلاط. ـ راجع فهرس الأماكن.

للنزول إليه، فركب وسار في خدمته عبدُ الباسط حتى أتوا إلى موضع كان فيه قرقماس.

حدَّثني المقامُ الناصري محمد[1] المذكور، قال: لمّا دخلتُ على قَرْقماس قام إليّ وانحطّ يقبّل قدمي، فمنعته من ذلك فغلبني وقبّل قدمي، ثم يدي. ثم شرع يتخضّع إليَّ ويتضرّع، وقد علاه الذلّ والصغار، ولم أرَ في عمري رجلاً ذَلَّ كذلّته، ولا جزع جزَعَه. وأخذت أُسكّن روعه، وجعلتُ في عنقه منديلَ الأمان الذي أرسله والدي إليه. فقبّل يدي ثانياً ثم أراد الدخولَ تحت ذيلي، فلم أُمكّنه من ذلك إجلالاً له. ثم خرجنا من ذلك المجلس وركبنا وأركبناه فرساً من جَنَائِبي، ومضينا به إلى القلعة، وهو في طول طريقه يبكي ويتضرّع إليَّ بحيث إنه رقَّ عليه قلبي. وكلما مررنا به على أحد من العامّة، شتمه ووبّخه، وأسمعه من المكروه ما لا مزيد عليه، حتى لو أمكنهم رَجْمه لرجموه.

هذا ما حكاه المقامُ الناصري. ولما أن وصل قَرْقماس إلى القلعة، وبلغ السلطانَ وصولُه، جلس على عادته. فحال ما مثل بين يديه خرّ على وجهه يقبّل الأرض. ثم قام ومشى قليلاً، ثم خرّ وقبّل الأرض ثانياً. هذا ووجهُه كلون الزعفران من الصغار وشدّة الخوف. فلما قرب من السلطان أراد أن يقبّل رِجلَه، فمنعوه أربابُ الوظائف من ذلك. ثم أخذ يتضرّع، فلم يُطِل السلطان وقوفَه ووعده بخير على هينته. ثم أمر به، فأُخِذَ وأُدخِلَ إلى مكان بالحوش، فقُيِّد في الحال، وهو يشكو الجوع، وذكر أنه من يوم الوقعة ما استطعتم بطعام، فأُتي له بطعام فأكله، وقد زال عنه تلك الأبّهة والحشمة من عظم ما داخله من الخوف والذلّ، ولهجت العامّة تقول في الطرقات: «الفقر والإفلاس ولا ذلّتك يا قَرْقَماس». قلت: وما أبلغ قول القائل في معناه: [الوافر]

---

(١) كان المقام الناصر محمد بن جقمق هذا صديقاً حميماً للمؤلف، ومن أجله صنّف أبو المحاسن هذا الكتاب الذي بين أيدينا. وقد توطّدت الصداقة بينهما خاصة بعد زواج الأمير محمد بن جقمق بابنة أُخت أبي المحاسن.

أرى الـدنيـا تقـول بمـلء فِيهـا   حـذارِ حـذارِ تَـوْبيخـي وفَتْكـي
ولا يَـغْـرُرْكُـمْ مـنّي ابـتسـامٌ   فقَـوْلي مضحـكٌ والفعـلُ مُبْكي

وأبلغ من هذا قول أبي نواس: [الطويل]

إذا امتحن الـدنيـا لبيبٌ تكشَّفـت   لـه عن عَـدُوٍّ في ثيـاب صـديق

ولما أُمسك قَرْقماس المذكور تمَّ سرورُ السلطان، وهدأ سِرُّه، وأخذ في مسك جماعة من أعيان الأشرفية، فأمسك في يوم واحد أزيد من ستين خاصِكِيّاً من أعيان المماليك الأشرفية، وحبس الجميع بالبرج من قلعة الجبل.

ثم في يوم السبت سابع ربيع الآخر، خلع السلطان على الأمير آقبغَا التِّمْرازي أمير سلاح، باستقراره أتابكَ العساكر[١] عوضاً عن قَرْقَماس المقدّم ذكره. وخلع على يَشْبَك السُّودوني أمير مجلس باستقراره أميرَ سلاح عوضاً عن آقْبغَا التِّمْرازي، وعلى الأمير جَرِباش قاشق باستقراره أميرَ مجلس عوضاً عن يَشْبك المذكور. وفي هذا اليوم أيضاً أُنزل بالأمير قَـرْقَماس الشعبـاني المقدّم ذكـره مقيّداً من القلعـة على بغل على العادة إلى الإسكندرية، بعد أن سمع من العامّة مكروهاً كثيراً إلى الغاية؛ كلّ ذلك لأنـه كان لمّـا وَلِيَ الحجوبيـة بالـديار المصـريـة، شـدَّد على النـاس وعـاقب على المُسكِرات العقوباتِ الخارجةَ عن الحدّ؛ فإنه كان في ظلم وجبروت، فلما أن وقع له ما وقع، صار مَن كان في نفسه شيء انتقم منه في هذا اليوم، ويوم طلوعه، فنعـوذ بالله من زوال النِعَم.

ثم في يوم الاثنين تاسعه، قرىء عهدُ السلطان الملك الظاهر جَقْمق، بالقصر السلطاني من قلعة الجبل، وقد حضر الخليفةُ أميرُ المومنين أبو الفتح داؤد، والقضاةُ

(١) ذكر ابن إياس في بدائع الزهور أن السلطان خلع أيضاً على آقبغا التّمرازي باستقراره نـائب السلطنة بالإضافة إلى أتابكية العساكر. وأضاف موضحاً حال هذه الوظيفة في تلك الأيـام: «... وصار يحكم بين الناس، وعلى بابه رأس نوبة ونقباء، وهو آخر مَن تولّى نيابة السلطنة بالديار المصرية. وكانت هذه الوظيفة قد بطلت من أيام محمد بن قلاوون، وكانت أكبر من الأتابكية، ويخرج النائب الإقطاعات الخفيّة من غير مشورة السلطان.

الأربعةُ، وتولّى قراءتَه كاتبُ السرّ الصاحبُ بدر الدين حسن بن نصر الله؛ وكان العهدُ من إنشاء القاضي شرفِ الدين الأشقر نائب كاتب السرّ. ولما انتهى كاتبُ السرّ من قراءة العهد، خلع السلطانُ على الخليفةِ والقضاة، وعلى كاتب السرّ ونائبهِ شرفِ الدين المذكور، وانفضّ الموكب.

ثم في يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الآخر، أنعم السلطانُ على الأمير قَرَاجا الأشرفي أحدِ مقدّمي الألوف، بإقطاع الأتابكِ آقبَغا التِّمْرازي، بحكم انتقال آقْبَغا على إقطاع الأتابك قَرْقَماس الذي هو برسم مَن يكون أتابكَ العساكر؛ وكان السلطانُ زادَ قَرْقَماسَ تقدمةً أخرى، زيادةً على إقطاع الأتابكية يترضّاه بذلك، فلم يُنْعِم السلطانُ بالزيادة على آقْبَغا، بل أنعم بها على بعض الأمراء. وأنعم السلطانُ بتقدمة قَرَاجا على الأمير أُلْطُنْبَغا المَرْقبي المؤيدي، الذي كان وَلِي حجوبيةَ الحجّاب في الدولة المؤيدية، وكان له مدة طويلة بطّالاً، ثم صار أميرَ عشرة. وأنعم السلطان بإمرةِ مائةٍ وتقدمة ألفٍ على الأمير إينال الأبوبكري الأشرفي، عوضاً عن قَرْقَماس، وهذه التقدمةُ التي كانت مع قَرْقماس زيادةً على إقطاع الأتابكية المقدّم ذكرها. وأنعم بإقطاع إينال ووظيفته الدوادارية الثانية على الأمير أَسنْبَغا الطيَّاري الحاجب الثاني.

وفيه حضر المقرُّ الكمالي محمد بن البارِزي من دمشق بطلب، بعد أن تلقّاه جميعُ أعيان الديار المصرية. وأصبح من الغد في يوم الثلاثاء سابع عشر ربيع الآخر المذكور، خلع السلطانُ عليه باستقراره في كتابةِ السرّ الشريفِ بالديار المصرية، عوضاً عن الصاحب بدر الدين بن نصر الله بحكم عزله؛ وهذه ولايةُ كمال الدين المذكور لوظيفة كتابة السرّ ثالثَ مرة، وهي أعظم ولاياته، لأنه صار صهرَ السلطان وكاتبَ سرّه.

وفي يوم الثلاثاء هذا، خلع السلطانُ على الأميرِ أَسَنْبَغا الطيَّاري بالدوادارية الثانية، وخلع على الأمير يَلْبَغا البهائي الظاهري أحدِ أمراء العشرات، باستقراره حاجباً ثانياً، عوضاً عن أَسَنْبَغا الطيَّاري.

ثم في يوم الخميس تاسع عشره، خلع السلطانُ على الأمير إينال الأبو بكري

الأشرفي باستقراره أميرَ حاجِّ المحمل، وأنعم عليه بعشرة آلاف دينار. هذا والقبضُ على المماليك الأشرفية مستمر في كل يوم، وكل مَن قُبض عليه منهم، أخرج إقطاعُه ووظيفتُه، وحُبس بالبرج من القلعة؛ وقد عَيَّن السلطانُ جماعةً منهم للنفي إلى الواحات[١].

ثم في يوم الأربعاء خامس عشرينه، أخرجَ السلطانُ جماعةً كبيرة من المماليك الأشرفية من برج القلعة، وأمر بنفيهم إلى الواحات؛ فخرجوا من القاهرة من يومهم، وكانوا عدَّةً كبيرة.

ثم في يوم السبت خامس جمادى الأولى، رسم السلطانُ بالإفراج عن الأميرِ خُشْقَدَم الطَّوَاشي اليَشْبكي مقدّم المماليك كان، ونائبه فَيرُوز الرُّكْني، من سجن الإسكندرية، ورسم لها بالتوجّه إلى دمياط على حمل خمسة عشر ألف دينار.

وفيه ورد كتابُ الأميرِ حسين بن أحمد، المدعو تَغْري بَرْمَشْ نائب حلب، عَلَى السلطان، يتضمن أنه مقيم عَلَى طاعة السلطان، وأنه لبس التشريفَ المجهّز لـه، وقبّل الأرض؛ فلم يكترث الملكُ الظاهر بذلك، وكتب مُلَطَّفات[٢] إلى أُمراء حلب بالقبض عليه إن أمكنهم ذلك.

ثم في ثامن جمَادى الأولى، استقر الشريفُ صخرة بن مقبل بن نخبار، في إمرة اليَنْبُع، عوضاً عن الشريف عقيل بن زبير بن نخبار.

ثم في يوم الخميس عاشره، استقر زينُ الدين يحيىٰ ابن كاتب حلوان الأَشْقَر، المعروف بقريب ابن أبي الفرج، ناظرَ الإسطبل السلطاني، عَلَى مال بذله في ذلك، بعد سعي كبير؛ وخلع السلطانُ أيضاً على محمدٍ الصغير، مُعلِّم النُّشَّاب، أحدِ ندماء السلطان، باستقراره في نيابة دمياط، بَعد عَزْل الأمير أَسَنْبَاي الزّردكاش الظاهري.

ثم في يوم الثلاثاء خامس عشر جمادى الأولى المذكور، طلب السلطانُ الشيخَ

---

(١) راجع فهرس الأماكن.

(٢) الملطفات: رسائل يبعث بها السلطان إلى الأمراء للمدح والترضية. ـ راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

حسن العجمي، أحدَ ندماء الملك الأشرف بَرْسْباي، فلما مَثل بين يديه، تقدّم الشيخُ حسن ليقبّل يدَ السلطان فضربه السلطانُ بيده على خدّه لَطْشَةً كاد أن يسقط منها إلى الأرض، ثم أمر به فعُرِّي وضُرب بالمقارع ضرباً مبرحاً، وشهر بالقاهرة، ثم سُجن ببعض الحبُوس، وذلك لسوءِ سيرة حسن المذكور وقلّةِ أدبه مع الأمراء في أيام الملك الأشرف بَرْسْباي. وكان أصل هذا حسن من أوباش الأعاجم المولّدة من الجَغْتاي، واتصل بالملك الأشرف بعد سلطنته بسنين، ونادَمه واختصّ به، فنالتْه السعادة، وعَمَّر له الملكُ الأشرفُ زاويةً بالصحراء بالقرب من تربة الملك الظاهر برقوق، وأوقف عليها وقفاً جيداً. وكان حسنُ المذكور، في أيام أستاذه الملك الأشرف، يدخل إلى أكابر الأمراء ويكلّفهم ويأخذ منهم ما أراد من غير تحشّم وعدم اكتراث بهم، فكأنه طرق الملكَ الظاهرَ جَقْمَق وفعل معه ذلك، فأسرَّها الملكُ الظاهر له إلى وقتها، مع ذنوب أُخَر، حتى فعل معه ما فعل؛ ثم نفاه إلى قوص، فدام به إلى أن مات فيما أظن.

ثم جَهَّز السلطانُ الأميرَ سُودُون المحمدي، وخلع عليه بنظر مكة المشرّفة، وندبه أيضاً لقتال عرب بَلِيّ[1]، وصُحبته جماعةٌ من المماليك السلطانية؛ وعرب بَلِيّ هؤلاء هم الذين فعلوا بالحجّاج ما فعلوه في موسم السنة الخالية. ونَدَب بعدَه أيضاً الشهابي أحمَد بن إينال اليوسفي، أحدَ أمراءِ العشرات، لإصلاح مناهل الحجاز وتقويةً لسُودون المحمدي. ثم خلع السلطانُ على الأمير أقبغا مِن مامِش التركماني الناصري، أحد أمراء العشرات ورأس نوبة، باستقراره في نيابة الكَرك، بعد عَزْل الصاحب خليل بن شاهين الشَّيْخي، وانتقالِه إلى أتابكية صَفَد.

---

(١) بَلِيّ: قبيلة عظيمة من قضاعة، تنتسب إلى بليّ بن عمرو بن الحافي بن قضاعة. وموطنهم الأصلي بين المدينة ووادي القرى. وقد انتشرت هذه القبيلة في بلاد الحجاز ومصر والشام. أما بلي مصر فكانت منازلها من سوهاي إلى قريب قمولة، ومن عقبة قاو الخراب إلى عيذاب. وكانت بلي أيضاً موكلة بحفظ قسم من طريق الركب المصري المتوجه إلى مكة وهو القسم الممتد من الدأماء إلى أكْدَى. (معجم قبائل العرب القديمة والحديثة: ١/١٠٤ ـ ١٠٧؛ ومسالك الأبصار: ١/١٥٨، ١٨٧؛ ونهاية الأرب في معرفة أنساب العرب: ١٧٠). ـ والمراد بقوله «لقتال عرب بلي» قتال بلي المنتشرة على طريق الركب المصري وليس بلي الحجاز.

ثم في يوم الخميس أول شهر رجب، أنفق السلطانُ في المماليك السلطانية نفقةَ الكسوة؛ وكانت عادتهم أن يدفع لكل واحد منهم خمسمائة درهم من الفلوس، فلما قرب أوان تفرِقة الكسوة، وقفوا في يوم الاثنين ثامن عشرين جمادى الآخرة وطلبوا أن ينفق فيهم عن ثمن الكسوة عشرةَ دنانير لكل واحد؛ فما زالوا به حتى أُنفق فيهم ألف درهم الواحد، ولكل خاصْكِي ألفاً وخمسمائة.

وفيه رسم السلطانُ، بأن يكون نوّابُ القاضي الشافعي خمسةَ عشر، ونوابُ الحنفي عشرةً، ونوّابُ المالكي والحنبلي أربعةً أربعةً، ووقع ذلك أياماً، ثم عادوا إلى ما كانوا عليه.

* * *

ذكر قتل قرقماس الشعباني الناصري المقدّم ذكره

ولمّا كان يوم الخميس ثامن شهر رجب، جمع السلطانُ القضاةَ بالقصر، بعد الخدمة السلطانية، وادّعى القاضي علاءُ الدين علي بن أَقْبرس، أحدُ نُوّاب الحكم الشافعية، عند القاضي المالكي شمسِ الدين البِسَاطي، على الأميرِ قَرْقمَاس المذكور بأنه خرج عن الطاعة وحارب اللّهَ ورسولَه، وأن بقاءه بالسجن مَفْسدة وإثارة فتنة، وأن في قتله مصلحة؛ وشهد بخروجه عن الطاعة ومحاربته جماعةٌ من أكابر الأمراء، فحكم البِسَاطي بموجب ذلك، فقيل له: «ما موجبه؟» فقال: «القتل»، وانفضّ المجلس. فندب السلطانُ طوغانَ السيفيَّ آقْبَرْدي المِنْقار أحد الخاصْكِيَّة لقتله، فسافر طوغانُ إلى الإسكندرية، ودفع لنائبها ما على يده من المحضر المكتتب على قَرْقَماس، وحُكْم القاضي المالكيِّ بقتله، فأخرجه النائبُ من السجن، فقرىء عليه حُكم القاضي، وسُئِل عن الحكم المذكور، فأعذر.

حدَّثني طوغانُ المذكور بعد عوده من الإسكندرية، قال: لمّا وصلتُ إلى الإسكندرية، ودفعتُ إلى الأمير تَمُرْبابي التَّمُرْبَغَاوي نائبِ الإسكندرية ما كان على يدي من المراسيم السلطانية وغيرها بقتل قَرْقَماس، فأمر به تَمُرْبَاي فأُخرج من سجنه بقيده إلى بين يدي النائب. فقام النائبُ وأجلسه مكانه، وسأله في الأعذار، فأعذر،

وقد امتلأ المجلسُ بالناس، وصار النائبُ يستحي أن يأمره بالقيام، حتى تكلم بعضُ مَن حضر بانفضاض المجلس، وقد حضر المَشَاعِلِيُّ[1] والوالي، وأُقيم قَرْقَماس، وأُخذ لتُضرب رقبتُه، فجزع جزعاً عظيماً وشرع يقول لي: «يا أخي يا طوغان، تضرب رقبتي في هذا الملأ؟» وكرّر ذلك غيرَ مرة. فقلت له: «يا خَوَنْد، أنا عبدٌ مأمورٌ، والشرعُ حكم بذلك». فَقُدِّم وأُجلس على ركبتيه، وأخرَج المشاعِلِيُّ سيفاً من غير قِراب، بل كان ملفوفاً بحاشية من حواشي الجوخ التي لا يُنتفع بها، فلما رأيتُ ذلك، قلت للمشاعليِّ: «إيش هذا السيف الوحِش»؟ قال: «لا، بل هو سيف جيد». ثم أخذ المشاعليّ السيفَ المذكور وضرب به رقبةَ قَرْقَماس، فقطعت من رقبته مقدار نصف قيراط لا غير؛ وعند وقوع الضربة في رقبة قَرْقماس صاح صيحةً واحدة مات فيها من عظم الوهم. ثم ضربه المشاعليُّ أُخرى ثم ثالثةً، وفي الثالثة حَزّها حَزّاً حتى تخلّصت. كلُّ ذلك وقَرْقَماس لا يتكلم ولا يتحرّك، سوى الصيحة الأولى، فعلمتُ بذلك أنه مات في الضربة الأولى، من عِظم ما داخله من الوهم؛ وكان ذلك في يوم الاثنين ثاني عشر شهر رجب من سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة. ومات قَرْقماس وسنُّه نيِّف على الخمسين سنة تخميناً، ويأتي بقيةُ أحواله عند ذكر الوفيات من هذا الكتاب إن شَاء الله تعالى.

ثم في يوم الاثنين ثاني عشر شهر رجب، خلع السلطانُ على الأميرِ يَلْبَغا البَهائي الظاهري برقوق، أحد أُمراء الطَّبلخانات وثاني حاجب، باستقراره في نيابة الإسكندرية، عوضاً عن الأمير تَمُرْباي التَّمُرْبَغاوي بحُكم عَزْله. ثم نَدَبَ السلطانُ الأميرَ يَشْبك السُّودوني الأميرَ سلاح، لسفرِ الصعيد، وعيَّن معه عدّةً كبيرةً من المماليك الأشرفية نجدةً لمَن تقدَّم قبلَه لقتالِ عربِ الصعيد؛ وخرج في يوم الاثنين ثاني شهر رمضان بمَن معه من المماليك الأشرفية.

ثم في يوم الاثنين تاسع شهر رمضان، قَدِمَ الأميرُ الطَّوَاشِي خُشْقَدَمُ اليَشْبَكي، ونَائبُه فيرُوز الرُّكني الرومي، من ثغر دمياط، وأمرهما السلطانُ بالتوجّه إلى المدينة النبوية صحبةَ ركبِ الحاجِّ ليقيما بها.

---

(١) المشاعلي هو الجلّاد. ـ راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

ثم في يوم الأَربعاء حادي عشر شهر رمضان المذكور، ورد على السلطان كتا
الأميرِ قاني باي الحمزاوي، نائبِ حماة، يتضمن ورودَ الأميرِ بَرْدبك العجم
الجَكمي، حاجبِ الحجّاب بحلب، عليه وصُحبته من أُمراء حلب أميران، بع
هزيمتهم من الأميرِ تَغْري بَرْمش نائبِ حلب، بعد خروجه عن طاعة السلط
وعصيانه. وكان أُشِيع خبرُ عِصيانه إشاعات، فلما وَرد هذا الخبر، تحقّقَ كلُّ أ
صحةَ ما أُشيع.

وكان من خبر عصيانه أن تَغْري بَرْمَش المذكور كان له من يوم مات الملا
الأشرفُ بَرْسْباي، أخذ في أسباب الخروج، واحترز على نفسه في عَوْده صُح
العساكرِ إلى حلب غايةَ الاحتراز، حتى إنه لم يدخل حلب إلّا بعد خروج العسا
المصرية منها بعد أيام. ولمّا دخل حلب شرع في تدبير أمره والنظر في ما يفع
لنفسه. ولم يكن له غرض في طلب الملك لمعرفته أن القومَ لا يرضونه لذلك؛ غ
أنه يعلم أنهم لا يدَعونه في نيابة حلب إن أمكنهم ذلك، لكونه تركمانياً، غي
الجنس[1]. وتحقّق هذا، فأخذ في [عمل] مصلحة نفسه، واستدعى أُمراءَ التركما
للقيام معه، فأجابه جماعة كبيرة، وانضمّ عليه خلائق.

وكان تَغْري بَرمش من رجال الدهر، عارفاً بتدبير أموره، جيدَ التصرف
وعنده عقل ومكر وحدس صائب، وتدبير جيد، وهمّة عالية، على أنه كان لا يعرف
المسألةَ الواحدةَ في دين الله، مع جمودةٍ في مجالسته وخشونة ألفاظٍ تظهر منه كم
هي عادةُ أوباش التركمان، وجميعُ جهده ومعرفته كانت في أمور دنياه لا غير، م
جبن وبخل، إلّا في مستحَقِّه.

فلما استفحل أمرُه بمَن وافقه من أمراء التركمان في الباطن، وبكثرة مماليك
وخدمه، مع ما كان حصَّله من الأموال، وبلغه مع ذلك أن الملَطَّفات السلطاني
وردت على أُمراء حلب في القبض عليه، رأى أنه يُظهر ما استكتمه من الخروج

(١) أي من غير جنس الجراكسة. والمراد بـ«القوم» قبل هذا أمراء الجراكسة. ذلك أن هذه الدولة المملوكي
كانت بيد الجراكسة، كما كانت الدولة المملوكية الأولى (البحرية) بيد الترك والتركمان.

عن الطاعة، ويملك حلب وأعمالَها طول عمره، لما دبره أنه إذا غَلب عليها وكثرت عساكرُه بها، يحصِّنها ويقيم بها، فإن جاءه عسكر هو قبيله، قاتله، وإن كانت الأخرى، انهزم أمامه بعد تحصين قلعتها، وتوجّه إلى جهة بلاد التركمان، إلى أن يعود عنها مَن أتاها من العساكر، ولم يبقَ بها إلّا مَن استُنيب بها، وقَدِمها[1] تَغْري بَرْمَش وملَكها منه، كما كان يفعله شيخٌ ونَوْروز مع الملك الناصر فرج بن برقوق، مع أن تغري برمش هذا كان أرسخَ منهما قدماً بتلك البلاد، لكونه كان تركمانياً، وله أموال جمّة، وأكثر دهاءً ومكراً، وإن كان شيخٌ ونَوْرُوز أعظمَ في النفوس وأشجع، فليس هذا محلَّ شجاعة وعظمة، وإنما هو محل تشويش وتنكيد. وتأييدُ ما قلتُه أن الملكَ الظاهرَ جَقْمَق قلق لعصيان تَغْري بَرْمَش هذا أكثرَ من عصيانِ الأميرِ إينال الجكَمي نائب الشام الآتي ذكره. وأرسل الملكُ الظاهرُ خلفي وكلّمني في المحضر المكتَتَب في حق تغري برمش هذا قديماً، من قتله لبعض مماليك الوالد، لما كان تغري برمش المذكور بخدمة الوالد، على ما سيأتي بيانه في ذكر وفيات هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، وكلّمني الملكُ الظاهرُ في أمر تغري برمش بسبب المحضر وغيره، فلحظتُ منه ما ذكرتُه من تخوّفه من طول أمرِ تغري برمش المذكور معه ـ انتهى.

وكان أول ما بدأ به تَغري بَرْمَش أنه أخذ يستميل الأمير حَطَط نائب قلعة حلب، فلم يتمّ له ذلك. فأخذ يدبّر على أَخْذ القلعةِ بالحيل، فأحسَّ حَطَط وكلّم أمراءَ حلب بسببه، واتفقوا على قتاله، وبادروه وركبوا عليه بعد أمور وقعت يطول شرحُها. ورمى عليه حَطَط من أعلى قلعةِ حلب، وركب الأميرُ بَرْدبك العجمي الجكمي حاجبُ حلب، والأميرُ قطج من تِمْراز أتابِكُ حلب، وجماعةُ أُمراءِ حلب وعساكرُها، وواقعوه، فصدمهم بمماليكه صدمة بَدّد شملَهم فيها، وانهزموا وتشتتوا. فتوجّه قطج إلى جهة البِيرة[2] فيما أظن، وتوجّه بَرْدبك العجمي ومعه أيضاً جماعةٌ إلى حماة، وكانت الوقعة في ليلة الجمعة ثامن عشرين شعبان، ودخل بَردبك حماة

(١) المراد: ويأتيها تغري برمش ويملكها منه. ـ ولا يخفى ما في أسلوب المؤلّف وعباراته من ركاكة.

(٢) مدينة البيرة على نهر الفرات.

في آخر يوم السبت سلخ شعبان. هذا ما كان من أمر تَغْري بَرْمش، ويأتي بيانُ أمر هذه الوقعة في كتاب تَغْري برمش المذكور إلى السلطان فيما بعد.

وأما ما كان من أمر السلطان، فإنه لمّا بلغه خبرُ عصيانه، طلب الأمراءَ وعمل معهم مشورةً بسببه؛ فوقع الاتفاقُ بعزْلِه عن نيابة حلب، وتوليةِ غيرِه، ثم ينتظر السلطانُ بعد ذلك ما يرد عليه من الأخبار من البلاد الشامية، لما كان أُشيع بالقاهرة أن الأميرَ إينال الجكمي هو الذي أشار لتغري برمش المذكور بالخروج عن الطاعة، وأنه موافِقُه في الباطن، فلذلك لم يعيِّن السلطانُ أحداً من العساكر المصرية، ولا نوّاب البلاد الشامية، لقتال تَغْري برمش.

فلما كان يوم الخميس ثاني عشر شهر رمضان المذكور، كتب السلطانُ بنقل الأميرِ جُلْبان أميرِ آخور نائب طرابلس، إلى نيابة حلب، عوضاً عن تَغْري بَرْمش المذكور، وأن يستقر الأميرُ قاني باي الحمزاوي نائبُ حماة المقدّمُ ذكره في نيابة طرابلس عوضاً عن جُلْبَان، وأن يستقر بَرْدبك العجمي الجَكَمِي حاجبُ حجّابِ حلب، المقدّمُ ذكره في نيابة حماة، عوضاً عن قاني باي الحمزاوي.

وتوجَّه الأميرُ علي باي العجمي المؤيدي، أحدُ أمراء العشرات، ورأس نوبة، بتقليد جُلْبَان وتشريفه بنيابة حلب، وتقليد بَرْدبك العجمي بنيابة حماة؛ وبَرْدبك المذكور هو خال علي باي المتوجّه وجالِبُه وبه يُعرف بالعجمي، على شُهرة خاله المذكور.

وتوجّه الأميرُ جانِبَك المحمودي المؤيدي، أحدُ أمراء العشرات ورأسُ نوبة، بتقليد الأميرِ قاني باي الحمزاوي وتشريفِهِ بنيابة طرابلس، وعلي باي وجانِبَك هما يوم ذاك عَقْدُ المملكة وحَلُّها. وبقي السلطانُ في قلق بسبب إينال الجَكمي نائب الشام، لكونِه أُشيع أن سُودونَ أخا إينال الجَكَمي، منذ قَدِمَ من عند إينال إلى القاهرة، يستميل الناسَ إليه. وكان السلطانُ لمّا تسلطن أرسل سُودون المذكور إلى جميع نوّاب البلاد الشاميةَ ـ وكانت العادةُ جرت أنه يتوجّه لكل نائب أميرٌ يبشّره بجلوس السلطان على تخت المُلك ـ كلُّ ذلك مراعاةً لخاطر أخيه إينال الجكمي.

وكان السلطان أيضاً أرسل إلى إينال المذكور بخلعةٍ ثانية مع الأمير ناصر الدين محمد بن إبراهيم بن مَنْجَك باستمراره على نيابة دِمَشق.

فلما كان يوم الاثنين سادس عشر شهر رمضان، ورد الخبرُ على السلطان من الأمير طوخ مازِي الناصري نائب غزة بأن الأميرَ ناصر الدين محمد بن مَنْجَك المقدَّمَ ذكرُه، لما وصل من عند السلطان بما على يده من الخلعة إلى جسر يعقوب، بعث إليه إينال الجَكَميّ ساعياً يستحثّه على سرعة القدوم إلى دمشق، ثم أردفه بآخر حتى قَدِمَ ابن مَنْجَك إلى دمشق في يوم السبت سابع شهر رمضان المذكور؛ وخرج إينالُ إلى لقائه، ولبس التَّشريفَ السلطانيَّ المجهّزَ إليه على يد ابن مَنْجَك، وقبَّل الأرض، وركب الفرسَ المحضرَ معه أيضاً، ودخل إلى دمشق في موكب جليل، ونزل بدار السعادة[١]، فاطمأن أهل دمشق بذلك، فإنه كان قد أُشيع أيضاً بدمشق بعصيان نائبها المذكور.

فلما كان يوم الاثنين تاسعه، ركب الأميرُ إينالُ الجكمي الموكبَ على العادة، ودخل إلى دار السعادة، وجميعُ أمراء دمشق وسائرُ المباشرين بين يديه، وقد اطمأن كلُّ أحد بأن مَلِكَ الأمراءِ[٢] مستمرٌّ على الطاعة. فما هو إلّا أن استقر في مجلسه أشار بالقبض على أعيان أمراءِ دمشق، فأغلق البابَ وقبض على جميع الأمراء والمباشرين؛ وكان القائمَ في قبض الأمراء الأميرُ قاني باي الأبوبكري الناصري أتابكُ دمشق، وقانْصُوه النَّوْرُوزي أحدُ مقدّمي دمشق. والمقبوضُ عليهم أجلُّهم: الأميرُ بَرْسْباي الحاجبُ وعدّةٌ كبيرة أُخَر يأتي ذكرُهم. قال: وإن علي باي العجمي وجانِبَك المحمودي المتوجهَيْن بتقليد نائبِ حلب وطرابلس وصلا إلى غزة وأقاما بها.

---

(١) دار السعادة هي المقرّ الرسمي لنائب الشام.

(٢) ملك الأمراء: كان هذا اللقب يُطلق على أكابر الأمراء من نوّاب السلطنة بالمماليك، أي كأن الملقّب يقوم بين الأمراء مقام الملك في التصرّف والتنفيذ. وأكثر ما يخاطب النوّاب بهذا اللقب في المكاتبات غير السلطانية، لأن السلطان لم يكن يخاطب أحداً بهذا اللقب. (صبح الأعشى: ٥/٤٥٥؛ والألقاب الإسلامية: ٥٠٢).

فلما سمع السلطانُ هذا الخبرَ، اضطرب وتشوَّش غايةَ التَّشْويش، لأنه كـان عليه أدهى وأمرّ. وجمَع الأمراءَ واستشارَهم في أمر إينـال وتغري بَـرْمَش فأشـاروا الجميع بسفره. وتذكَّر السلطانُ قولَ آقبغا التَّمْرَازي لمّا أشار عليه قبل سلطنته أن يتوجَّه إلى البلاد الشامية ثم يتسلطن، فلم تُفِده التذكرةُ الآن. وانفضّ الموكبُ على أن السلطانَ يسافر لقتال المذكورين.

ثم في يوم الأربعاء، ورد الخبرُ على السلطان أن الأميرَ قـطج أتابـكَ حلب وصل أيضاً إلى حماة، وأن تَغْري بَرْمَش أخذ مدينةَ عين تاب وقلعتها، وأن عدّةً مَن قبض عليه الأميرُ إينال الجَكَمي من أمراء دمشق تسعة عشر أميراً، وأنه قبض أيضاً على جمـال الدين يـوسف بن الصفّي الكَرَكي نـاظر جيش دمشق، وعلى القـاضي بهاء الدين محمد بن حجي كاتب سـرّ دمشق، وأن علي باي وجـانِبك المحمـودي توجَّها من غزة إلى الأمير إينال الناصري العلائي نائبِ صَفَد.

ثم في يوم الخميس عشرينه، ورد على السلطانِ كتابُ الأمير تغري بَـرْمَش نائبِ حلب مؤرخاً بثاني شهر رمضان، يتضمن أنه في يـوم الثالث والعشـرين من شعبان لبس الأميرُ حَطَط نائبُ القلعة ومَن معه بالقلعة السـلاحَ، وقامـوا على سور القلعـة ونصبوا المكـاحلَ وغيـرها، وأمـروا مَن تحت القلعة مِن أربـاب المعـايش وسكانِ الحوانيت بالنقلة من هناك، وأنه لمّا رأى ذلك، بعث يسأل حَطَط عن سبب هذا فلم يجبه. إلى أن كان ليلة التاسـع والعشرين منـه ركب الأميرُ قُـطْج أتابـكُ العساكر والأميرُ بَرْدبك الحاجب في عدّة أُمراء لابسين السلاح ووقفوا تحت القلعة، فبعث إليهم جماعةً من عسكره، فكانت بين الفريقين وقعةٌ هائلة انهزم فيها قطج، وأنـه[1] باقٍ على طـاعةِ السلطان، وأنـه بعث يسـأل حـطَطَ ثـانيـاً عن سبب هـذه الحركة، فأجاب بأن الأميرَ بَرْدبك الحـاجبَ ورد عليه مـرسومُ السلطانِ بـالركـوب عليك وأَخذك. وجهّز تَغْري بَرْمَش أيضاً محضراً ثانياً على قضاةِ حلب بمعنى مـا ذكـره، وأنه بـاقٍ على طاعـة السلطان، وأنه لم يتعـرّض إلى القلعـة، فلم يعـوّل

(١) الضمير عائد على تغري برمش صاحب الرسالة.

السلطانُ على كتابه ولا على ما ذكره لِما سبقَ عنده من خروجه عن الطاعة ـ انتهى ما تضمنه كتاب تَغْري بَرْمَش.

ثم ورد على السلطانِ كتابُ الأميرِ فارس نائبِ قلعة دمشق، بأن الأميرَ إينال الجَكَمي أمرَ فنُودي بدمشق بالأمان والاطمئنان والدعاء للسلطان الملك العزيز يوسف، وأن القاضيَ تقيَّ الدين بنَ قاضي شهبة، قاضيَ قضاةِ دمشق، دعا للملك العزيز على منبر جامع بني أُمية في يوم الجمعة، وأن الخطبةَ بقلعة دمشق باقيةٌ باسم السلطانِ الملكِ الظاهر جَقْمَق؛ كل ذلك والسلطانُ قد آتّفق رأْيُه على إخراج تجريدة إلى البلاد الشامية.

ثم في يوم السبت حادي عشرين شهر رمضان، استقر القاضي بدرُ الدين محمدُ ابن قاضي القضاة ناصرِ الدين أحمد التِّنّسي أحدِ خلفاء الحُكْم المالكية قاضيَ قضاةِ الديار المصرية، بعد موت العلّامةِ شمس الدين محمد بن أحمد البِسَاطي.

ثم أصبح السلطانُ من الغد في يوم الأحد ابتدأ بعرض المماليك السلطانية، وعيَّن من الخاصْكِية ثلاثمائةٍ وعشرين خاصكياً، لسفر الشام مع مَن يأتي ذكرُه من أُمراء الألوف وغيرهم.

ثم في يوم الاثنين ثالث عشرينه، خلع السلطانُ على الأمير الكبير آقْبَغا التِّمْرازي باستقراره في نيابة دمشق، عوضاً عن إينال الجَكَمي بحُكم عصيانه، على كَرْه منه وتمنُّع كبير.

ثم في يوم الثلاثاء أيضاً عرض السلطانُ الخاصْكِيَّة وعيّن منهم للسفر ثلاثَمائة وثلاثين خاصْكِياً، لتتمّة ستمائة وستّين خاصْكِيّاً، ثم نقّص منهم خمسةً بعد أيام.

ثم في يوم الأربعاء خامس عشرينه عيّن السلطانُ للسفر من أُمرَاءِ الألوف: قَرَاخُجَا الحَسَني رأسَ نوبة النوب، وتَمُرْبَاي السَّيْفِي تَمُرْبَغَا المشطوب[1]، ومن

---

(١) في السلوك: «تمراي الظاهري طَطَر».

أمراء الطبلخانات: الأميرَ طوخ من تِمْراز الناصري رأسَ نوبة ثاني، وهو مُسَفِّر الأتابكِ آقْبَغَا التِّمْرَازي؛ ومن أمراء العشرات عشرةً، وهم: أقطوه الموساوي، وقد صار أميرَ طبلخاناه، وتَنَم من عبد الرازق المؤيدي محتسب القاهرة ورأسَ نوبة، ثم أعفي بعد ذلك، ويَشْبَك من أُزْوبَاي الناصري رأسَ نوبة، وبايزير من صَفَر خُجا الأشرفي رأس نوبة، وآقْبَرْدي الأشرفي أمير آخور ثالث، وقيز طوغان[1] العلائي، وسُودون الإينالي المؤيدي المعروف بقَراقَاس[2] رأس نوبة، وسُودون العجمي النوروزي رأس نوبة، وسُودون النوروزي السلاح دار رأس نوبة، وجانِبَك النوروزي رأس نوبة، وخُشْكلدي الناصري البَهْلَوان.

ثم ورد الخبرُ على السلطان من الأمير طوغان العثماني نائب القدس بأن إينال الجَكَمي أطلقَ الأمراءَ الذين قبض عليهم قبل تاريخه، وحلَّفهم للملك العزيز يوسف، وذلك بشفاعة قاني باي الناصري البَهْلَوان أتابك دمشق. فحزر أهل المعرفة أن أمر إينال الجَكَمي لا يتم، لتضييعه الحزمَ فيما فعل من الإفراج عن الأمراء بعد أن تأكدت الوحشةُ بينهم، ومع ما كان بينه وبين الأمير بَرْسباي الحاجب من حُضُوض[3] الأنفس قديماً. ونفرت القلوب بذلك عن إينال الجَكَمي، وأول مَن نفر عنه تَغْرِي بَرْمَش نائب حلب، وقال في نفسه عن إينال المذكور: «هذا في الحقيقة ليس بخارج عن الطاعة، وإنما قصد بالإشاعة عنه أنه عاصٍ حتى أقدم عليه ويقبض عليَّ تَقَرُّباً لخاطر السلطان». وهو معذور في ذلك، فإن مثل هؤلاء ما كان يفرج عنهم بشفاعة ولا لشفقة عليهم، وقد قصد ما قصد، ولله درّ المتنبي في قوله: [الكامل]

لا يَخْدَعَنَّك مِن عدوّك دمْعُهُ ... وارحم شبابَك من عدوٍّ تَرْحَمُ
لا يَسْلَمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذى ... حتى يُراقَ على جوانِبه الدَّمُ

---

(١) في السلوك: «وطوغان السيفي ألان». ولعلّ لفظ «العلائي» الوارد هنا هو تحريف للفظ «العلاني»، لأن علّان هو ألان.

(٢) في السلوك: «قرقاش».

(٣) في الأصل: «حظوظ». وقد وردت سابقاً بالصيغة التي أثبتناها. والحضوض: البُعد والتنافر.

ومن يومئذ أخذ أمرُ إينال الجَكَمي في الاضمحلال قليلاً، واستخفّ كل أحدٍ عقلَه وتعجّب من سوء تدبيره، وكاد أخوه سُودون العجمي أن يموت قهراً لما بلغه عن أخيه إينال ذلك، وهو يوم ذاك من جملة أمراء العشرات بالديار المصرية.

ثم ورد الخبرُ على السلطان بأن الأمير إينال العلائي الناصري نائب صَفَد خرج منها، وسار حتى نزل بالرَّمْلَة في سابع عشر شهر رمضان، بعدما أرسل إليه إينالُ الجَكَمي يدعوه لموافقته، وأعلمه أيضاً أنه ما قام في هذا الأمر إلّا وقد وافقه نوّاب المماليك، وأركانُ الدولة وعظماء أمراء مصر، فلم يلتفت إينال العلائي لكلامه، ثم خشي أن يُكْبَس بصَفَد، فخرج منها بعد أن جعل حريمه بقلعة صفَد، وسار حتى نزل الرملةَ؛ فسُرَّ السلطانُ بذلك وكتب إليه بالثناء والشكر.

ثم في يوم الخميس سابع عشرين شهر رمضان المذكور أنفق السلطانُ في العسكرِ المجرّدِ إلى الشأم ـ وعدّتهم ما بين خاصكِيّ ومملوك: ستمائة واثنان وخمسون نفراً ـ كلّ واحد ثمانين ديناراً.

ثم قَدِمَ الخبر بأن الأمير جُلْبَان، المستقر في نيابة حلب، وصل إلى الرملة في يوم الاثنين ثالث عشرين شهر رمضان فارّاً من تَغْري بَرْمَش نائب حلب. وكان من خبر تغري برمش نائب حلب أنه لما قَوِيَ أمرُه وبلغه عصيانُ إينال الجَكَمي أيضاً، عظُم أمرُه واستدعى التركمان إلى حلب، فقَدِمَ عليه منهم جماعة كبيرة إلى الغاية؛ ثم عمل مكْحلَة[1] عظيمة من نحاس، ليرمي بها على قلعة حلب. وأخذ مع هذا كله يستميل جماعة من أهل قلعة حلب فمالوا له في الباطن، وواعدوه على تسليم القلعة له، وهو مع ذلك مستمر في حصار القلعة المذكورة، والنقْب في جُدر القلعة عَمّال، والقتالُ بينه وبينهم في كل يوم يزداد، إلى أن بلغ الأميرَ حَطَط نائب قلعة حلب عمّن وافق تَغْري بَرْمَش المذكورَ من أهل القلعة، فقبض على الجميع، وأخذ بعضهم وجعله في المنجنيق ورمى به على تَغْري بَرْمَش، ثم قَتل جماعةً منهم وجعل رؤوسهم على سور قلعة حلب. فلم يكترث تَغْري بَرْمَش بذلك واستمر على ما هو

(١) المكحلة: هي المدفع الذى يُرمَى عنه بالنفط. ـ انظر أيضاً فهرس المصطلحات: مكاحل البارود.

عليه من حصار القلعة حتى أشرف على أخذها، فخوّفه بعضُ أصحابه من وثوب أهل مدينة حلب عليه وأشاروا عليه بأن ينادي لهم بالأمان، فأمر بذلك.

وكان بلغ أهلَ حلب أن تَغْري بَرْمَش يريد [أن] يأمر التركمانَ بنهب حلب، فلما نودي بالأمان تحقّقوا ما كان قيل من نهب حلب، وألقى الله في نفوسهم أن يركبوا عليه ويقاتلوه قبل أن يأمر بنهبهم. فثارت العامّة وأهل حلب بأجمعهم بقسيّهم وسلاحهم على حين غَفلة، وساروا يداً واحدة واحتاطوا بدار السعادة وبه النائب تَغْري بَرْمَش وقد تقدّم أن تَغْري بَرْمَش المذكور كان جباناً غيرَ ثابت في الحروب، ضعيفَ القلب عند ملاقاة العدو، وليس فيه سوى جودة التدبير وحُسْن السياسة بحسب الحال. وبالنسبة لأمثاله من الجَهلَة فعندما بلغه وثوب أهل حلب عليه لم يثبت، وذهب فارّاً يريد الخروجَ من المدينة، وسار حتى وقف خارج السور في نحو الأربعين فارساً تَخْميناً، وقد نهبت العامّةُ جميع ما كان له بدار السعادة من الخيول والأموال والسلاح، وامتدت أيديهم إلى مماليك تَغْري بَرْمَش وأتباعه يقتلونهم وينهبونهم.

وكان له المماليكُ الكثيرة المُتَجَمِّلة في لبسهم وسلاحهم، غير أنهم كانوا على مذهب أستاذهم في الجبن والخَوَر وعدم الثبات في القتال، ولم يظهر لأحد منهم نتيجة في هذا اليوم ولا في يوم مصافَفته للعسكر المصري، بل هرب غالبهم وجاء إلى العساكر المصرية قبل وقوع القتال، وتركوا أستاذهم في مثل ذلك اليوم مع عظم إحسانه لهم، وتَخَوُّلهم في النِّعَم. وكانت هذه الوقعة في يوم الثلاثاء عاشر شهر رمضان، بعدما كان تَغْري بَرْمَش حاصر القلعة ثلاثة عشر يوماً. وتلاحق عدة من أصحاب تغري برمش ومماليكه به، ولم يجد له قوة للعود إلى حلب لقتال أهلها، فسار بمَن معه يريد طرابلس، وانضم إليه الأمير طُرْعلي بن صقل سيز التركماني بأصحابه. فلما قارب طرابلس لم يثبت الأمير جلبان، وانهزم من طرابلس في العاجل إلى نحو الرملة حتى قدمها، وانضمّ على مَن كان بالرَّمْلة من النوّاب وغيرهم. وكان جلبان أيضاً من مقولة تَغْري بَرْمَش في القتال، غير أن أمره كان في ستر لأمور لا تَخْفَى على أحد. فدقّت البشائرُ لذلك، وسُرّ السلطان بهذا الخبر،

وتعجّب الناس من نكبة تَغْري بَرْمَش المذكور، مع قوة أمره وكثرة جموعه.

ولما وصل جلبانُ إلى الرَّمْلة واجتمع بالأمير إينال العلائي نائب صَفَد، والأمير طُوخ مازي نائب غزة، والأمير طُوغان العثماني نائب القدس، اتفقوا على مكاتبة السلطان، فكتبوا له يستدعونه للسير بنفسه، بعد تجهيز العساكر بين يديه سريعاً. وكان قَدِمَ بهذا الخبر صَرْغَتْمُش السيفي تَغْرِي بَرْدِي أحد مماليك الوالد، وهو يوم ذاك دوادار الأمير جُلبان، فخلع عليه السلطان في يوم الأحد تاسع عشرينه باستقراره دوادارَ السلطان بحلب، عوضاً عن سُودون النَّوْرُوزي بحكم انتقاله إلى حُجُوبية حلب، بعد بَرْدبك العجمي المنتقل إلى نيابة حماة.

ثم في هذا اليوم قَدِمَ الأمير جانِبَك المحمودي المتوجّه بتقليد قاني باي الحمزاوي بنيابة طرابلس، بعد أن وصل إلى الرَّمْلة ولم يتمكن من التوجّه إلى حماة خوفاً من إينال الجَكَمي، فأثار عند قدومه إلى القاهرة شروراً كبيرة؛ فإنه زعم أنه ظفر بكتب جماعة من الأمراء وغيرهم إلى العصاة ببلاد الشام، أوقف عليها السلطانَ، فتعجّب السلطانُ من ذلك غاية العجب، فإنه كان من يوم جلس على تخت الملك ويده ممدودة بالإحسان لكل أحد، حتى إنه ترقّى في أيامه إلى الوظائف السَنِيّة والإقطاعات الهائلة جماعة من الأَوْباش لم يكن لهم ذكر بين الناس قبل ذلك، وفيهم مَن لم أَره قبل تاريخه ولا أعرف شكله جملة كافية، وصار منهم السّقاة، ورؤوس نُوَب الجَمَدَارِيَّة، وبَجْمَقْدارِيَّة[1]، وسلاح دارية، وغير ذلك، وأثرى منهم جماعة ممّن كان غالب معيشته بالشحاذة والتّكَدِّي، لكثرة ما أغدق عليهم الملكُ الظاهر جَقْمَق بالعطاء، وصار ينعم عليهم بالأقمشة الفاخرة، حتى إنه وهب لبعضهم الكوامل[2] المخمل المنقوشة بأطواق السَّمُّور وبالطرز الزركش العريضة، وهو مستمر على ما هو عليه ليوم تاريخه؛ فلما وقف على الكتب قال:

---

(١) أي بشمقدارية. والبشمقدار هو الذي يحمل نعل السلطان أو الأمير. ـ راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

(٢) الكوامل والكامليات: واحدتها كاملية، وهي ثوب ضيّق الأكمام يُلبَس فوق القباء، به فتحة من منتصف الظهر حتى أسفل حافّة الذيل. ويبطّن بفرو سمّور وتُعمَل له قلابات من فرو السمّور أيضاً فيقال: كاملية بفرو سمّور بمقلب سمّور. (الملابس المملوكية: ١٥).

هذه مفتعلة، ولم ينتقم على أحد، وأخذ فيما هو فيه من تجهيز العساكر.

فرار الملك العزيز

ثم أصبح من الغد في يوم الاثنين سلخه عُملت الخدمةُ بالقصر على العادة؛ وبينما هو في ذلك بلغه من الأمير قَرَاخُجَا الحَسَني رأس نَوْبة النوب فرارُ الملك العزيز يوسف من محبسه بدور قلعة الجبل ـ أعني سكنه، فإنه كان سكن بقاعة البربرية من الحريم السلطاني ـ فاستبعد السلطانُ ذلك، وندب بعضَ خواصّه أن يتوجّه إلى الأمير فَيْروز الزمام[1] ويسأله عن صحة هذا الخبر. فمضى المذكورُ لفيروز وسأله عن لسان السلطان، فأنكر فيروز ذلك، ودخل من وقته فلم يجد العزيزَ في مكانه، ووجد نَقْباً بقاعة البربرية يُتوصل منه إلى المطبخ السلطاني، فعاد القاصدُ بصحة الخبر على السلطان. فلما تحقّق السلطانُ ذهابَ الملكِ العزيز كادت روحهُ أن تزهق، وعظم عليه الخبر، ونسي ما كان فيه من أمر إينال الجَكَمي وتَغْري بَرْمَش. وعرّف السلطانُ الأمراءَ وأكابرَ الدولة بذلك، فما منهم إلّا مَن ظهر عليه الخوف والفزع. وماجت المملكة، وكثر الكلام، واختلفت الأقاويل في أمر الملك العزيز وفراره، وفي أين توجّه.

وكان من خبر العزيز ـ على اختلاف النقول ـ أن الملكَ العزيز لمّا حُبس بقاعة البربرية من الدور السلطانية، أقرَّ الملكُ الظاهرُ عنده دادتَه سِرَّ النَّديم الحبشية ومعها عدّة جوار أُخَر سراريّ الملك العزيز، ومرضعته أيضاً، ورسم لمرضعته أنها تخرج إلى حيث شاءت، وجعل القائمَ في خدمة الملك العزيز لقضاء حوائجه طواشيّاً هندياً من عتقاء أمه خَوَنْد جُلْبَان يسمى صَنْدلاً، وسِنُّه دون العشرين سنة. فصار صندل المذكور يتقاضى حوائجَ العزيز، ويقبض له ما رُتِّب له من النفقة من أوقاف أبيه، فاحتوى صَنْدلُ على جميع أمور الملك العزيز، وعرف جميع أحواله.

وكان عند الطواشي يقظة ومعرفة، وبقي كلما بلغه عن الملك العزيز شيء

(١) هو الزمام دار أو الزنان دار الموكل بحفظ الحريم. ويكون من الطواشية، أي الخصيان.

يبلغه له. فأُشيع بالقاهرة أن السلطانَ يريد يرسل الملك العزيز إلى سجن الإسكندرية، ثم أُشيع أنه يريد [أن] يكحله(١)؛ فبلّغه صندل المذكور جميع ذلك، فخاف العزيز خوفاً عظيماً. ثم بلغه أن بعضَ علماء العصر أفتى بقتل العزيز صيانةً لدماء المسلمين، من كونه مخلوعاً عن الملك وله شوكة، والملك الظاهر متولٍّ ولم يكن له شوكة، فإن أُبقي على العزيز ربما تثور شوكتُه ويقاتل السلطانَ، فيقع بذلك الفساد وتسفك دماء كثيرة من المسلمين(٢).

فلما بلغ العزيزَ ذلك ـ على ما قيل ـ حار في أمره، فحسّن له صندلُ المذكور الفِرار، فاستبعد العزيزُ وقوعَ ذلك، ثم وافقه. وكان للملك العزيز طباخ يسمى إبراهيم من أيام والده، فداخله صندلُ في الكلام بفرار العزيز، فأجابه إبراهيمُ المذكور أنه ينهض بذلك، ويقدر على خروجه من القلعة بحيلة يدبّرها. ثم أمر إبراهيمُ الطباخُ صندلاً أن ينقب من داخل القلعة نقباً يصل إلى المطبخ المذكور، وأن إبراهيم ينقب من خارج المطبخ مقابِلَه. فأمر العزيزُ جواريه بالنقب من داخل القلعة مساعدةً للطباخ، حتى تهيأ ذلك. وتمّ هذا، وصندلُ يتحدّث مع جماعة من المماليك الأشرفية في مساعدة الملك العزيز إذا خرج ونزل من القلعة، فمال إلى ذلك جماعة: منهم طُوغان الزَّرَدْكاش، وأُزْدَمُر مُشِدّ الملك العزيز أيام أبيه، في آخرين من المماليك الأشرفية، وبذلوا لصندل الطاعةَ في ذلك، ورَغَّبُوه في نزول الملك العزيز إليهم، واستحثّوه على ذلك.

وتكلم طوغانُ الزَّرَدْكاش مع جماعة أُخَر من الأشرفية، فمال الجميع إلى نزوله إليهم، مع عدم الاتفاق مع أكابر الأشرفية، ولا تشاوروا في ذلك، بل صاروا يحرّضون صندلاً على نزوله، ولم يعيّنوا له مكاناً يجلس فيه إلى أن يفعلوا له ما هو

---

(١) عقوبة التكحيل هي أن يوضع في عيني المحكوم عليه مرود محمًّى فتفقأ عيناه ويذهب بصره.

(٢) هذا مثال على فتاوى فقهاء السلاطين في العصر المملوكي. وقد درج الفقهاء على اعتبار سلطنة ذي الشوكة شرعية مقابل الحاكم الذي لا سلطة ولا شوكة له، وذلك تحت شعار حفظ وحدة الأمة السياسية والانتظام العامّ. وها هم يفتون بعكس ذلك إرضاءً للسلطان القائم. ولا شك أنهم سيفتون بفساد حكم جقمق إذا ما تيسَّر للعزيز أن يكسب المعركة.

قصدهم، فلم يُعرّف صندلُ العزيزَ ذلك، بل صار يمليه بخلاف الـواقع، إلى أن انتهى النقبُ المذكور.

فلما كان الإفطار من ليلة الاثنين سِلخ شهر رمضان من سنة اثنتين وأربعين، والناسُ في شغل بالصلاة والفطر، أخرج الطبّاخُ الملكَ العـزيزَ من النقب عـريانـاً مكشوفَ الرأس، فألبسه الطبّاخُ من ثيابه ثوباً مملوءاً بسواد القدور والأوساخ، وحَمّله قدراً فيه طعام، وقيل صَحْناً فيه منفوع الطبّاخين من الطعام، يوهم الطبّاخُ بذلك أنه صبيُّه، ثم جعل على يده خافقيّةً فيها طعام، وغيَّر وجهَ الملكِ العزيز ويديه بالزفر وسواد القدور.

وخرجا جميعاً من غير هـرج ولا اضطراب ولا خـوف حتى وصلا إلى بـاب القلعة، فوافاهم الأمراءُ والخاصكِية وقـد خرجـوا بعد إفـطارهـم من عند السلطان. فلما رأى إبراهيمُ الطبّاخُ الأمراءَ والخاصكيّـة خاف أن يفـطن به أحـد[1]، لجمال وجهه وحُسْن سمته ولِما عليه من الرَّوْنَق، فضربه ضربةً بيده وسبّه، يريد بذلك أنه صبيُّه، ويستحثّه على سرعة الحركة والمشي، ليردَّ الوهمَ عنه بذلك. فأسرع الملكُ العزيز في المشي، وسارا حتى نزلا من قلعة الجبل، فإذا صندلُ وطوغانُ الزَّرَدْكاش وأُزْدَمُر مُشِدُّ العزيزِ في آخرين واقفين في انتظاره. فحال ما رأوه قبّلوا يده وأخذوه إلى دار بعضهم، فأنكر العزيزُ ذلك منهم، ونهر صندلاً الطّواشي، وقال: «ما على هذا أُنزلت»؛ وكان في ظن العزيز أنه ساعةَ ما ينزل إليهم، يأخذوه ويركبون به إلى جهـة قبّة النصـر أو غيرهـا بمجموعهم، ويقـاتلون السلطانَ الملك الظاهـر، حتى يملكوا منه القلعة، على ما كان صندلُ يقول له مثل ذلك.

وأراد العزيزُ العَوْدَ إلى مكانه بالقلعة فلم يمكنه ذلك. وقام طوغانُ في منعه ووعده بقيام جميع خُشْداشِيَّتهِ من الأشرفية بنصرته، وأنهم اتفقوا على ذلك، وأنهم إلى الآن لم يصدّقوا بنزول الملك العزيز، فإذا علموا ذلك اجتمع الكلُّ في القيام بنصرة الملك العزيز، فإن لم يفعلوا ذلك أخذه هو وسار به إلى بلاد الصعيد، عند

(١) الضمير عائد على الملك العزيز.

الأمير يَشْبَك السُّودوني أمير سلاح المجرد قبل تاريخه لقتال عرب الصعيد؛ وكان صحبة يشبك جماعة كبيرة من المماليك الأشرفية نحو سبعمائة مملوك، مع ميل يَشْبَك إلى الأشرفية في الباطن، لكونه كان ممّن أنشأه الملك الأشرف بَرْسباي ورقّاه.

ثم افترقوا، واختفى الملكُ العزيز ومعه صندل وأُزْدَمُر وإبراهيم الطبّاخ في مكانٍ ليلتَه، ثم تنقّل في عدّة أماكن أُخَر. وأخذ طُوغانُ في الكلام مع خُجْداشِيته الأشرفية في القيام بنصرة ابن أُستاذهم الملك العزيز، فاعتلّوا بأن غالبَهم قد توجّه إلى بلاد الصعيد ولم يُجيبوا له دعوة. فلما علم منهم ذلك ركب هجناً وسار إلى بلاد الصعيد لإعلام الأمير يَشبك والمماليك الأشرفية بنزول الملك العزيز إليه. ودخل جماعة كبيرة منهم إلى الأمير إينال الأبوبكري الأشرفي، وكلّموه في القيام بنصرة ابن أستاذه، فخاف العواقب ولم يوافقهم، وتسحّب من داره على بغل ثم نزل ماشياً واختفى.

هذا ما بلغنا من أفواه الناس، فإني لم أجتمع مع إينال المذكور بعد ذلك؛ هذا والسلطانُ وحاشيته قد عظم قلقهم، وصار السلطانُ لا يعلم أين ذهب الملك العزيز، ولم يشك هو وغيره أن الأميرَ إينال الأبوبكري أخذ العزيزَ على هجنه المجهّزة لسفر الحجاز، فإنه كان وَلِيَ إمرةَ الحاجِّ، وسار إلى الأمير إينال الجَكَمي. قلت: ولو فعل إينالُ ذلك لكان تمّ له ما قصد، لكثرة هجنه ورواحله وعظم حواشيه من خُجْداشِية وغيرهم، وكان ذلك هو الرأي، فحسَّن الله له غير ذلك، حتى يصل كل موعود إلى ما وُعد.

كل ذلك في يوم سلخ رمضان. فلما كان الليلُ، وهي ليلة عيد الفطر التي تَسَحَّبَ فيها إينالُ المذكور، تفرّقت المماليكُ المؤيدية وغيرهم إلى طرقات القاهرة، ودار منهم طائفة كبيرة حول القلعة وبالقرب من بيت إينال المذكور، مخافةَ أن يخرج إينالُ في الليل بالملك العزيز. وكثر هرجُ الناس في تلك الليلة وتخوَّفُوا من وقوع فتنة من الغد. ومضت تلك الليلة على أبشع وجه من اضطراب الناس وتخوّفهم، وأصبح السلطانُ صلّى صلاةَ العيد بجامع القلعة وهو على تخوّف، وقد

وقف جماعة بالسلاح مصلّتاً على رأسه حتى قضى صلاته. وخطب قاضي القضاة شهابُ الدين بن حجر وأوجز في خطبته، كما أسرع في صلاته. وعندما فرغ من الخطبة، وصل الخبرُ للسلطان بأن الأمير إينال تسحّب في الليل، فعظم الخطب. فلما علم السلطان بتسحُّبِ إينال أمر فنودي بالقاهرة أن لا يتخلّف أحد من المماليك عن الخدمة، وهدّد مَن تخلّف بالقتل. فلما طلعوا قبض على جماعة من المماليك الأشرفية. ثم نودي أيضاً في الناس بإصلاح الدروب وغلقهم أبوابَ دورهم، وأن لا يخرج أحد من بيته بعد عشاء الآخرة، وصارت أبوابُ القاهرة تُغلَق قبل عادة إغلاقها من الليل، فكانت ليلة هذا العيد ويومه وثانيه من الأيام النكدة البشعة[1].

ثم في يوم الخميس ثالث شوّال خلع السلطان على الأمير تَنِبَك البَرْدبَكي، أحد مقدّمي الألوف باستقراره أميرَ حاجِّ المحل، عوضاً عن إينال المذكور، بحكم تسحّبه؛ وخلع على قراجا الناصري الخاصكي البوّاب باستقراره واليَ القاهرة، بعد عزل علاء الدين علي بن الطَّبْلاوي؛ وخلع على الأمير ممجق النّوْرُوزي أحد أمراء العشرات باستقراره في نيابة قلعة الجبل عوضاً عن تَنِبَك المستقر في إمرة حاجّ المحمل. وفيه أيضاً أمسك السلطانُ جماعةً كبيرة من المماليك الأشرفية.

ثم في يوم الجمعة رابع شوّال سار عسكر من الخاصكية إلى جهة الغربية، تزيد عدّتهم على سبعين فارساً، لمسك الأمير قراجا الأشرفي أحد مقدّمي الألوف، وكان وَلِيَ كشف الجسور[2] بالغربية. فسار العسكرُ المذكور إلى جهة المحلة،

(١) ذكر ابن إياس أن السلطان الظاهر جقمق لما استولى على الحكم لم يكن يريد معاملة الملك العزيز بقسوة، لذلك أمر بأن يسكن بدار الحريم في القلعة ومعه حواشيه وخدمه، كما كان جقمق يريد أن يزوّجه ويُبقيه في القاهرة. ولكن الملك العزيز لم يسلم من مماليك أبيه ـ على حدّ تعبير ابن إياس ـ وحسّنوا له الهروب حتى هرب، وقد دخلوا في خطيئته برأيهم المعكوس. وفي هذه الواقعة يقول بعض الشعراء:

ولم يدخلوه السجن إلاّ مخافة ... من العين أن تطرا على ذلك الحسن
وقلنا له شاركتَ في الحسنِ يوسفاً ... فشاركه أيضاً في الدخول إلى السجن

(٢) راجع فهرس المصطلحات: الكاشف.

وبلغ قراجا ذلك فخرج إليهم وسلّم نفسه، فأخذ وقيد وحمل إلى الإسكندرية فسجن بها.

وأما السلطان فإنه أصبح في يوم السبت خامس شوّال عزل الأميرَ أَرْكَماس الظاهري عن الدوادارية الكبرى، وأُخذت خيوله وخيول الأمير قراجا المقدّم ذكره.

ثم في يوم الاثنين سابع شوّال نودي بأن مَن وجد أحداً من غرماء السلطان وطلع به فله خمسمائة دينار وإقطاع، ومَن غُمز عليه أنه أخفى أحداً منهم حُلّ مالُه ودمُه؛ هذا والمؤيديةُ قد تجرّدت للفحص عن الملك العزيز وعن المماليك الأشرفية في جميع الأماكن، وقبضوا على جماعة من غلمانهم حتى دلّوهم على أماكن بعضهم، وصاروا يكبسون الدُّور والترب وديارات[1] النصارى والبساتين وضواحي القاهرة ومصر، ويمرّون في الليل في الأزقّة متنكّرين، فإنهم صاروا هم أكثر تخوّفاً من السلطان على نفوسهم.

وسبب ذلك أن طائفةَ المماليك المؤيدية كانوا قاموا مع السلطان الملك الظاهر في أمر سلطنته أتمّ قيام، مع مَن ساعدهم من جميع الطوائف، غير أنهم كانوا هم أشدّ بأساً في ذلك؛ فلما تسلطن الملكُ الظاهر عرف لهم ذلك ورقّاهم وقرّبهم، حتى صاروا هم عَقْدَ المملكة وحَلَّها وتحكموا في الدولة، وأخرجوا المماليك الأشرفية من الديار المصرية إلى السجون وإلى الثغور وإلى البلاد، وأهانوهم بعد عزّهم واتّضع جانبهم بعد رفعتهم.

فلما وقع لهم ذلك جدّوا في الإغراء بالملك العزيز وقتله خوفَ العواقب،

---

(١) الديارات أو الأديرة: جمع دير، وهو المبنى المُعدّ لسكنى الراهبات أو الرهبان. وكانت مصر مهد الرهبانية والديرية إذ قامت فيها حياة الأديرة منذ القرن الثالث أو الرابع الميلادي ثم انتشرت في البلاد الأخرى مما كان له أثر كبير في الحياة الدينية والعلمية والفكرية في العالم. وأُقيمت في صحارى مصر مئات الأديرة، وكلها تخرّبت ولم يبقَ منها إلا أديرة قليلة لا زالت تُقام بها الصلوات، ومنها تسعة فقط يسكنها الرهبان وخمسة تسكنها الراهبات. وأهم الأديرة بمصر: دير كاترين بسيناء، ودير بولا بالبحر الأحمر، ودير أنطونيوس بالبحر الأحمر، ودير برموسى بوادي النطرون، والدير الأبيض بسوهاج، ودير سمعان بأسوان، وغيرها. (انظر الموسوعة العربية الميسّرة: ٨٣٠ - ٨٣١).

فلم يسمع لهم السلطانُ. فحسَّنوا له أن يكحله فلم يوافق أيضاً على ذلك. فلما ثار الأمير إينال الجَكَمي نائب الشأم ودعا للملك العزيز، وكان تَغْري بَرْمَش نائب حلب أيضاً أعظم ميلاً للملك العزيز لكونه نَشْءَ والده الملك الأشرف برسْباي، تحقّقت المؤيدية أنهم مقتولون أشرّ قِتلة، إنْ مَلَكَ العزيز ثانياً وصار لشوكته دولة. فحرّضوا عند ذلك السلطانَ على قتله، واستفتوا العلماء في ذلك فكتب بعضهم على قدر ما أنهى له في الفتوى، وامتنع البعض. ثم اشتهر بالقاهرة أنه إذا فرغ شهرُ رمضان يفعل بالعزيز ما هو القصد، وتكلم الناس بذلك. واتفق فرارُ العزيز، إما لما بلغه هذا الخبر أو لمعنى آخر، وأكثر قول الناس إنه لم يفرّ إلّا لما خامر قلبه من الخوف، والله أعلم.

ثم لما بلغ إينالَ الأشرفي خبر العزيز وتسحّبه، واستدعته خُجْدَاشِيَّتُه بالقيام في نصرة ابن أستاذه فلم يوافق، وخاف إن طلع القلعةَ من الغد يُمسَك، اختفى. فلما أصبح النهار وبلغ السلطانَ والناسَ فرارُ العزيز وتسحُّب إينال، لم يشكّ الناس في أن إينال أخذ العزيزَ ومضى إلى إينال الجَكَمي. ثم اختلفت الأقوال، فعند ذلك علموا المؤيديةُ أنهم أشرفوا على الهلاك، وأنهم ركبوا الأخطار فيما فعلوه في أمر الملك العزيز، فحينئذ جدّوا في الفحص عن أمره، لبقاء مهجتهم لا لنصرة الملك الظاهر جَقْمَق. وصار الملكُ الظاهرُ يأخذ النارَ بيد غيره، وهو فيما هو فيه من تجهيز العساكر لقتال الجَكَمي وتغري بَرْمَش.

ثم في يوم الثلاثاء ثامن شوّال أنعم السلطان بإقطاع الأمير قَرَاجَا الأشرفي على ولدِه المقامِ الناصري محمد، وصار محمد المذكورُ من جملة أمراء الألوف، وأُجلس تحت الأمير جَرِبَاش الكريمي أمير مجلس؛ وهذا بخلاف العادة، فإن العادةَ جرت من دولة الملك الظاهرِ برقوق إلى يومنا هذا، أن ابنَ السلطانِ لا يجلس إلّا رأسَ الميسرة فوق أمير سلاح، فكلّمه الأمراء في ذلك فلم يرضَ. وما فعل الملكُ الظاهر هذا الأمر وأمثاله إلّا لعدم ثبات ملكه ولاضطراب دولته، بسبب خروج النوّاب عن الطاعة، وأيضاً تسحُّبِ العزيز - انتهى.

ثم أنعم السلطانُ بإقطاع إينال الأشرفي الأبوبكري على الأمير جَرِباش الكريمي قاشق، وأنعم بإقطاع جرباش على الأمير شادبك الجَكَمي المعزول عن نيابة الرُّها، وهو يومَ ذاك أحدُ أمراء الطبلخاناة؛ وإقطاع جَرِباش والذي أخذه كلاهما تقدمة ألف، غير أن الخراج يتفاوت بينهما. وأنعم السلطان بإقطاع أُرْكَمَاس الظاهري على الأمير أَسَنْبَغَا الطيّاري الدوادار الثاني، وأنعم بإقطاع شادبك على الأمير جَرِباش المحمدي الناظري المعروف بكُرْد[1]، وأنعم بإقطاع الأمير أَسَنْبَغَا الطيَّاري على الأمير دُولات باي المؤيدي الأمير آخور الثاني، وكلاهما طبلخاناة. كل ذلك والقبض على الأشرفية مستمر، مع الكتابة إلى الأعمال بأخذ الطرقات عليهم برّاً وبحراً، والسلطانُ يستحثّ آقْبَغَا التِّمْرازِي نائب الشام على السفر في كل قليل.

فلما كان يوم الخميس عاشر شوَّال برز آقْبَغَا التِّمرازِي بمَن معه من القاهرة إلى الرَّيدانية، بعد أن خلع عليه السلطانُ خلعة السفر. فلما لبسها وجاء إلى السلطان ليقبّل يده، قام له السلطانُ واعتنقه، فمسك آقْبَغَا يده وقال له: «يا خَوَنْد، لا تُغيّر نِيَّتَك»، فقال السلطان: «لا والله». ثم تأخر بخلعته ووقف على ميمنة السلطان، لأن السلطانَ كان شرط له أن لا يخرج عنه إقطاع الأتابكية ووظيفتها إلى أن ينظر في أمر الجَكَمي ما سيكون، فلهذا المقتضى وقف آقْبَغَا في منزلة الأتابكية على ميمنة السلطان، وكان حقه الوقوف على الميسرة كما هي عادة منازل نوّاب دمشق، مع أن الأمير يَشْبَك السُّودوني أمير سلاح ترشّح للأتابكِيَّة وهو مجرد ببلاد الصعيد، وأُخرجت وظيفة إمرة سلاح عنه في هذا اليوم، ولكن بغياب يَشْبَك فالأتابكية شاغرة.

ثم خلع السلطانُ بحضرة آقْبَغَا المذكور على الأمير تِمْراز القُرْمُشي الأمير آخور الكبير باستقراره أميرَ سلاح عوضاً عن يَشْبَك السُّودوني، وقد رشّح يشبك للأتابكية عوضاً عن آقْبَغَا التِّمْرازي المذكور. وخلع على الأمير قراخُجا الحَسني

---

(١) وتكتب أحياناً «كرت»، ومعناها كثير الشعر. (الضوء اللاّمع).

رأس نوبة النوب باستقراره أميرَ آخور كبيراً عوضاً عن تمراز القُرْمُشي وهو يومَ ذاك مقدّم العساكر؛ وأمر السلطانُ ولدَه المقامَ الناصري محمداً بسكنى الحرّاقة من باب السلسلة، إلى أن يعود الأميرُ قراخُجا الحسني من سفره بالبلاد الشامية، ونزل تمراز القُرْمُشي من باب السلسلة في يومه.

وخلع السلطانُ على الأمير تَغْرِي بَرْدي البَكْلَمُشِي المعروف بالمؤذي، حاجب الحجّاب، باستقراره دواداراً كبيراً عوضاً عن أَرْكَمَاس الظاهري. واستقر الأميرُ تَنِبَك البَرْدبَكي أميرُ حاج المحمل حاجبَ الحجّاب، غير أنه لم يلبس خلعة الحجوبية في هذا اليوم. ثم خلع السلطان على الأمير تَمُرْباي التَّمُرْبَغَاوي المعزول عن نيابة الإسكندرية باستقراره رأسَ نوبةِ النُّوَب عوضاً عن قَرَاخُجا الحسني بحكم انتقاله أميرَ آخور؛ وتَمُرْباي هذا أيضاً ممّن عُيّن لسفر التجريدة.

ثم خلع السلطان على دُولات باي المحمودي الساقي المؤيدي الأمير آخور الثاني باستقراره دواداراً ثانياً عوضاً عن أَسَنْبَغَا الطيَّاري؛ وخلع السلطان على الأمير جَرِبَاش المحمدي كُرْد باستقراره أميرَ آخور ثانياً بعد دُولات باي المؤيدي، فامتنع جَرِبَاش المذكور من قبول ذلك لكونه يلي الأمير آخورية الثانية عن دُولات باي وهو أقلّ منه رتبة، حتى استعطفه السلطان وقرّره على رتبته. ونزل آقْبَغا وقَراخُجا وتَمُرباي ـ الجميع بخلعهم ـ إلى مخيمهم بالرَّيْدانِيَّة حسبما تقدم ذكرُه، ثم تبعتهم العساكرُ المجرّدة من المماليك السلطانية وأمراء الطَّبْلَخانات والعشرات وغيرهم.

وفي هذا اليوم قَدِمَ الأمير يونس الرُّكْني الأعور، أحد مقدّمي الألوف بدمشق، فارّاً من إينال الجَكَمي، فأكرمه السلطان وأنعم عليه بزيادة جيدة على إقطاعه وتَقْدِمَتِه بدمشق.

وأقام آقْبَغَا التِّمْرازي بالرَّيدانية إلى يوم السبت ثاني عشر شوال، فرحل منها واستقل بالمسير إلى الشام.

وفي يوم السبت هذا نفى السلطانُ إمامَ الملكِ الأشرف نورَ الدين عليّاً السويفي إلى دمياط.

ثم في يوم الاثنين رابع عشر شوّال رحل الأمير قَرَاخُجَا الحسني الأميرُ آخور الكبير، والأميرُ تَمُرْباي التَّمُرْبغَاوي رأسُ نوبة النُّوَب بمَن معهما من الأمراء والمماليك السلطانية من الرِّيدانية إلى جهة الشام.

وفيه ورد الخبر على السلطان بأن إينالَ الجَكَمي برز بمخيمه من مدينة دمشق إلى ظاهرها. فلما كان يوم الخميس ثالث شوّال المذكور، عزم هو على الخروج من المدينة بنفسه إلى مخيمه ليسير بمَن معه إلى نحو الديار المصرية. فبينما هو في ذلك ركب عليه الأميرُ قاني باي الأبوبكري الناصري البَهْلوان أتابكُ دمشق، وكان ممّن وافق الجَكَمي على العصيان وحسّن له ذلك ثم تركه ومال إلى جهة السلطان، وركب معه الأمير بَرْسباي الناصري حاجبُ الحجّاب بدمشق وجميع أمراء دمشق وعساكرها، ولم يبقَ مع إينال من أعيان أمراء دمشق إلّا جماعة يسيرة، مثل الأمير قَنْصُوه النَّوْرُوزي أحد مقدّمي الألوف بدمشق، والأمير تَنَم العَلائي المؤيدي الدوادار، أحد أمراء الطبلخانات بدمشق، والأمير بيرم صوفي أحد الطبلخاناة بدمشق أيضاً، والأمير مَسْرُوق أخو الملك الظاهر طَطَر، وجماعة أُخَر يسيرة جداً، أعيانهم من ذكرناه.

فلما بلغ إينالَ الجَكَمي ركوبَ هؤلاء عليه، مال عليهم وقاتلهم، فلم يثبتوا له وانهزموا أقبح هزيمة. ثم تراجعوا فحمل عليهم فانكسروا وتمزقوا شذر مذر. وطلع قاني باي البَهْلوان إلى قلعة دمشق في جماعة كبيرة من الأمراء، وتوجّه غيرُهم إلى عدة أماكن. وكان سبب مخالفة قاني باي وغيره لإينال الجَكَمي بعد موافقتهم له، أن السلطان أرسل مُلَطّفات إلى قاني باي المذكور وغيره من أمراء دمشق يستميلهم إليه، ووعدهم بأشياء كثيرة، فلما سمعوا ذلك مالوا إليه وتركوا ما كان بينهم وبين إينال الجَكَمي من العهود والمواثيق، ولم يستعبوا ذلك لكون أن هذا الغدر صار عادة لمَن تقدمهم.

ولما كتب السلطان المُلَطَّفات المذكورة، أرسلها إلى الأمير خُشْكَلْدِي السيفي يَشْبَك بن أزْدَمُر، وهو يوم ذاك نائب قلعة صَفَد، فبعث بها خُشكَلْدِي المذكور على

يد نصراني إلى بهاء الدين محمد بن حجي كاتب سرّ دمشق، ففرّقها بهاءُ الدين على أربابها. فحال ما وقفوا عليها مالوا بأجمعهم إلاّ مَن ذكرناه ممّن ثبت مع إينال، وقالوا: نحن وافقناه، فلا نبرح عنه إلى الممات أو يقضي الله أمراً كان مفعولاً. وكان أكثر مَن وعد من أمراء دمشق الأمير سُودون أخو مامَش المؤيدي، والأمير تَنَم العلائي المؤيدي من خجْداشِيهما[١] المؤيدية، فلم يلتفتوا إلى كتبهم واستقبحوا الغدر والخيانة، فلله درُّهما.

وأنا أقول: أما طاعة السلطان فهي واجبة على كل أحد، والعصيان ومخالفة السلطان لا يجوز ولا يستحسن. لكن أيضاً يقبح بالرجل أن يدخل إلى ملك ويحسِّن له العصيان والثَّوَران، ولا يزال به حتى يقع في ذلك، بعد أن يعطيه العهودَ والمواثيقَ على موافقته والقيام بنصرته، ثم يتركه بعد تورّطه ودخوله في ذلك، لأجل النَّزْر اليسير من حطام أو لتناوله ولاية من الولايات؛ وعندي أن هذا لا يقع إلاّ من نَذل ساقط الهمّة والمروءة لا نخوة له، والأنفس الكريمة تأبى ذلك ولو مسّهم الضرّ، والرجل الفَحْل هو الثابت على قوله، والمقرُّ على طاعة سلطانه حفظاً لدينه ودنياه، فإن لم يكن ذلك وأطاع شيطانه وركب هواه، فليتمّ على ما قصده من ركوب الأهوال واقتحام الخطوب وهجوم الحروب، فإما وإما؛ وما أحسن قول عنترة في ذلك حيث يقول: [الوافر]

أرومُ من المعالي مُنتَهاها ... ولا أرضى بمنزلةٍ دَنيَّه
فإمَّا أن أُشَال على العَوالي ... وإمّا أن توسِّدَني المنِيَّه

فلما وصل هذا الخبر إلى السلطان، سُرَّ بذلك ودقّت البشائر بالديار المصرية.

ثم ورد الخبر على السلطان من بلاد الصعيد أن الأمير يَشْبَك أمير سلاح انتهى بمَن معه من العساكر السلطانية في طلب عرب هَوّارة[٢] إلى مدينة إسنا، فلم يقع

---

(١) كذا في الأصول. وقد جرت عادة الكتاب على جمع لفظ «خجداش» على خجداشية أو خجداشين.

(٢) عرب هوّارة: من قبائل مصر. كانت منازلهم بالبحيرة، ومن الإسكندرية غرباً إلى العقبة الكبيرة من برقة. قال القلقشندي: ولم يزل أمرهم على ذلك إلى آخر المائة الثامنة في دولة الظاهر برقوق حيث =

بهم، وأنه رجع بالعساكر إلى مدينة هُوّ[(١)]، فقدم عليه بها من المشايخ الصلحاء جماعة ومعهم طائفة من مشايخ هوارة، راغبين في دخول الطاعة للسلطان وحلفوا على ذلك، وأنه قَدِمَ عليهم بعد ذلك في يوم الأحد سادس شوّال طُوغانُ الأشرفي الزَّرَدْكاش، أَحد الدوادارية الصغار، ودعا العسكَر إلى طاعة الملك العزيز والقيام بنصرته، وذكر لهم أنه خرج من محبسه بقلعة الجبل ونزل إلى القاهرة، واجتمع عليه جماعة من مماليك أبيه، وأنه رآه بعينه ووعده بالوثوب معه هو وخُجْدَاشِيَّته الأشرفية، وأنه أمره أن يختفي فاختفى حتى ينتظم أمرُه بعود مماليك أبيه من بلاد الصعيد. ثم حرّضهم طُوغانُ على ذلك فمال منهم طائفة وتخوّفت طائفة. واضطرب العسكر قليلاً إلى أن اجتمع الجميع على طاعة السلطان بعد أمور صدرت، وحلَفوا أنهم مقيمون على الطاعة. فدقّت البشائر لذلك، وخلع على الواصل بهذا الخبر، وأُجيب الأميرُ يَشْبك بالشكر، وبحمل طُوغان المذكور في الحديد.

وكان عَلِمَ السلطانُ قبل ذلك بتوجُّه طُوغان المذكور إلى بلاد الصعيد، وكتب إلى الأمير يَشْبَك وإلى حكّام الصعيد بحمله في الحديد. ثم ورد الخبرُ بعد ذلك من الأمير يَشْبك بأنه نازل على مدينة سُيوط[(٢)]، وأن يونس الخاصّكي ورد عليه بمرسوم شريف يتضمن القبض على طوغان المذكور، وأن المماليك الأشرفية لم يمكِّنوه من ذلك، فكثر قلق السلطان والدولة لورود هذا الخبر وخشوا وقوع فتنة، ظنّاً من المماليك الأشرفية أنهم من هذا القبيل؛ ورسم السلطان في هذا اليوم بخروج الأمير أَرْكَمَاس ـ المعزول عن الدوادارية قبل تاريخه ـ إلى ثغر دمياط بطّالاً.

ثم أخذ السلطانُ وحواشيه في الفحص عن الملك العزيز، وكُبِست عدة أماكن

= غلبهم على البحيرة زنارة وحلفاؤها وبقية عرب البحيرة فخرجوا منها إلى صعيد مصر ونزلوا بالأعمال الإخميمية في جرجة وما حولها. وقد قوي أمرهم حتى انتشروا في معظم الوجه القبلي فيما بين قوص إلى الأعمال البهنساوية. ـ وقد اختلف في أصلهم، فقيل إنهم ينتسبون إلى عرب الحجاز، وقيل إنهم بطن من البربر. (نهاية الأرب للقلقشندي: ٣٩٠؛ ومعجم قبائل العرب القديمة والحديثة: ٣/١٢٣٠).

(١) هُوّ: بلدة بالصعيد الأعلى من عمل قوص. (معجم البلدان).

(٢) يقال: سيوط وأسيوط.

وقُبِض على جماعة من المماليك الأشرفية. وتزايد تحريض السلطان في طلب العزيز، وقاسى الناس بسبب ذلك شدائد. وكثرت الأراجيف بخروج الأمير يَشْبَك أمير سلاح ومَن معه من المماليك الأشرفية عن طاعة السلطان، وأنهم عادوا يريدون القاهرة، فمُنعت المراكب من التعدية في النيل بكثير من الناس المتّهمة بالخروج على السلطان، هذا مع عِظم التفتيش على العزيز، والكبس على البيوت والبساتين والتُّرَب. وغُلقت بعض أبواب القاهرة نهاراً، وأخذ أهل الدولة في الاستعداد للحرب. هذا مع ما بالبلاد الشامية من الفتنة العظيمة من خروج نائب الشام ونائب حلب. وصار السلطانُ في هذه الأيام في أشد ما يكون من القلق والتخوّف؛ وتكلّم الناس بزوال ملكه.

فلما كان يوم السبت تاسع عشره برز أميرُ حاجِّ المحمل الأميرُ تَنِبَك بالمحمل، وبعد خروجه من القاهرة قَدِمَ الخبر بالقبض على طُوغان الزَّرَدْكاش وحَمْله في الحديد؛ ووصل طُوغان المذكور في آخر النهار المذكور، وكان أُشيع الخبر بمسكه قبل ذلك فلم يصدِّقه أحد، استبعاداً من تسليم خُجْدَاشِيَّته له مع كثرتهم وشدّة بأسهم.

وكان من خبر طوغان أنه لما نزل الملكُ العزيز من قلعة الجبل واجتمع به ووعده بالقيام معه، توجّه إلى الأمير إينال الأبو بكري الأشرفي فلم يحصل منه على طائل. فمضى هو وجماعة إلى خُجْدَاشِيَّتهم الأشرفية ووعدهم بالوثوب على الملك الظاهر والقيام بنصرة ابن أستاذهم، فأجاب منهم طائفة كبيرة، غير أنهم اعتذروا بغياب أعيانهم ببلاد الصعيد في التجريدة صُحبة الأمير يَشْبَك، وأنهم في قلّة لأن معظمهم بالصعيد، وطلبوا منه أن يرسل يُعْلم خُجْدَاشِيَّتهم بذلك، فلم يجد لأحد منهم قوة للتوجّه، فقام هو بذلك بعد أن تحقّق منهم الوثوب، وخرج من القاهرة على الهجن.

وبلغ السلطانَ خبرُه، فكتب بالقبض عليه في الطريق فلم يدركه أحد. وسار حتى وصل إلى خُجْدَاشيته واجتمع بهم حسبما تقدّم ذكره. غير أنه أراد قضاء

حاجته، فأملى لخجداشيته أخباراً في حق العزيز غير صحيحة يريد بذلك تَمييز أمره، فمالوا إلى كلامه. فورد عليهم بعد ذلك الأخبار من المسافرين وغيرهم بهروب إينال واختفاء الملك العزيز، على غير ما قاله له طُوغان، وأن الفحص على الملك العزيز في كل يوم مستمر، فعند ذلك اختلفت كلمتهم على القيام بأمر العزيز، وعلموا أن غالب كلام طُوغان غير صحيح.

هذا والأميرُ يَشْبَك يستميلهم إلى طاعة السلطان، ويخوِّفهم عاقبةَ مخالفة السلطان، حتى أفضى به وبهم أن جمع عليه الكاشف بالوجه القبلي وعدّة كبيرة من عربان الطاعة وهمّ بمحاربتهم، فلم يكن لهم طاقة بمحاربته مع ما تبيَّن لهم من فساد أمرهم واختلاف كلام طُوغان، فأسلموه بعد أن كانوا انقلبوا جميعُهم للخروج معه. وهو أن طُوغان لما جَدَّ في مسيره حتى وصل إليهم، أعلمهم بأن الملك العزيز خرج من سجنه ونزل من القلعة، واجتمع عليه خلائق من الأشرفية وغيرهم، وأنه محاصِر للملك الظاهر جَقْمَق بقلعة الجبل، فهيّج هذا الكلام خواطرَهم وتحرّكت كوامنهم، وأجمعوا على القيام بنصرة ابن أستاذهم، ومال إليهم كل أحد حتى الأمير يَشْبَك في الباطن.

وكادت الفتنة تقوم، ويُظهر كل أحد الميلَ للملك العزيز، فترادفت كتب السلطان والقُصّاد بغير ما قاله طُوغان، فتوقَّفوا عمّا كانوا عزموا عليه. ولا زال أمرُ الملك العزيز يتّضح لهم، حتى أسفرت القضية على أنه مختفٍ، وأن إينال تسحّب. فعند ذلك رجع كل أحد عمّا كان في ضميره وأظهر طاعة السلطان، وأسلموا طُوغان فَقُيِّد وحُمل إلى القاهرة.

ولما طلع طوغان إلى القلعة حُبس بها وأُجري عليه أنواع العقوبة والعذاب المتلف، وكسروا غالب أعضائه بالمعاصير، وعوقب معه ثلاثة نفر من الخاصكية، فلم يقرّ أحد منهم على غير ما قاله طُوغان، أنَّ العزيز لمّا نزل من القلعة ومعه إبراهيم الطبّاخ، وقف بمكان بالمصنع[1] بالقربَ من قلعة الجبل، واجتمع عدّة من

(١) ذكر المقريزي أن المصنع خط من أخطاط القاهرة تحت القلعة. (السلوك: ١١٥٢/٤). والمصنع مكان =

المماليك الأشرفية ـ وسمّاهم، فكان غالبهم ممّن لا يُعرف ـ فأجمع رأيهم بأن يسيروا إلى الشام بالعزيز، ثم انصرفوا عن هذا الرأي عجزاً، وتوجّه طوغان ليأتي بالمماليك الأشرفية من بلاد الصعيد. فلما تحقّق السلطان ذلك، كفّ عن عقوبة طُوغان بعد أن تلف، وأخرجه في يوم الثلاثاء ثاني عشرين شوّال محمولاً، لعجزه عن الحركة من شدّة العقوبة، ومعه خير بك الأشرفي وقد عوقب أيضاً، وحملا إلى الرُّمَيْلة عند باب الميدان، من تحت القلعة ووُسِّط طوغان هناك، وأُعيد خير بك من داخل القلعة ثم وُسِّط بعد أيام.

وكان أمر طوغان هذا من أعجب العجب؛ فإنه كان في دولة أستاذه الأشرف زَرَدْكَاشاً، فلما مات الأشرف، خالف خُجْداشيَّتَه وانتمى إلى الملك الظاهر جَقْمَق قبل سلطنته، مع الأمير إينال الأشرفي، وصار خصّيصاً عند الملك الظاهر، وولّاه دواداراً وصار مقرّباً عنده. ثم استحال عن السلطان ودبَّر عليه، وأخرج الملكَ العزيزَ، وقام في أمره من غير موافقة أحد من أعيان خجداشيته ولا مشاورة أحد من أرباب العقول. ولم يكن هو من هذا القبيل من سائر الوجوه، فكان من فعله وتدبيره ما ساقه إلى حتفه وتدميره. وكان طُوغان المذكور طوالاً غير لائق في طوله، وعنده طيش وخفّة، مع جهل وعدم تثبّت في أموره. ولم يكن من أعيان الأشرفية، ولا ممّن يُلتفت إليه في الدولة ـ انتهى.

ثم في يوم الأربعاء ثالث عشرين شوّال قُبض على سرّ النديم الحبشية دادة[1] الملك العزيز بعدما كُبس عليها بعدّة أماكن، وعوقب بسببها خلائق، فلم يعترضها السلطان بسوء بل قرّرها على الملك العزيز، فأعلمته أنه مختفٍ بالقاهرة.

ثم قبض على صَنْدَل الطوَاشي وقرّره السلطان أيضاً، فقال كما قالت الدادة،

= كالحوض يجمع فيه ماء المطر (القاموس المحيط) ولعلّه هو المراد، وبه سمّيت تلك المحلّة من القاهرة تحت القلعة. فقد ذكر المقريزي أيضاً (خطط: ٢/٢٢٩) أن الظاهر بيبرس كان قد عمل مصنعاً بجوار زاوية تقي الدين رجب التي بالرميلة تحت القلعة، وكان الماء ينقل زمن الناصر محمد بن قلاوون من هذا المصنع إلى بئر الاصطبل بالقلعة.

(١) الدادة هي المربّية. ويقال للمربّي: اللآلا.

فتحقّق السلطان منهما أن الملكَ العزيز وإينال لم يخرجا من القاهرة، وأن الذي أُشيع من خروجهما غير صحيح، وأن الملكَ العزيز لم يجتمع مع إينال البتّة، وأنه كان هو وصندلُ هذا وطبّاخهُ إبراهيمُ ومُشِدُّه أُزْدَمُر من غير زيادة على ذلك، والملك العزيز ينتقل بهم من مكان إلى مكان، وأن صندلاً فارقه من منذ أربعة أيام، وقد طرده أُزْدَمُر المذكور لأمر وقع بينهما. فلما قصد صندلُ مفارقَتهم دفع له العزيزُ خمسين ديناراً، ففارقهم صندل وصار يتردّد إلى بيوت أصحابه في زيّ امرأة، حتى دخل على بعض أصحابه من النسوة في الليل فآوَتْه حتى أصبح، فدلّ عليه زوجُها حتى أُمسك وعوقب، حتى أقرّ على جميع ما ذكرناه، وأنه الآن لا يعرف مكان العزيز. فسجنه السلطان، وهمّ بعقوبة الدادة فشفعت فيها خَوَنْد مُغْل بنتُ البارِزي زوجة السلطان، وتسلمتها من السلطان من غير عقوبة وتمّت[1] عندها.

فخفَّ عن السلطان ما كان به قليلاً من أمر الملك العزيز، فإنه كان ظن كلَّ الظن أن إينال أخذه وتوجّه إلى إينال الجَكَمي بدمشق؛ ثم قُبض على مرضعة الملك العزيز وزوجها وعلى جماعة أُخَر من الرجال والنساء ممّن كان من جواري الأشرف ومعارفهنّ، وممّن اتُّهِم بأنه معرفة أُزْدَمُر وإبراهيم الطبّاخ.

ثم في يوم الخميس رابع عشرين شوّال عزل السلطانُ الطَّوَاشيَّ فَيْرُوزَ الجاركسيَّ عن الزمامية لكونه تهاون في أمر الملك العزيز حتى تسحّب من الدور السلطانية، وعيّن السلطانُ عوضَه زِماماً الطواشي جوهراً القُنُقْبَائي الخازندار، مضافاً إلى الخازندارية.

وفي ليلة الجمعة ويوم الجمعة كَبست المؤيدية على مواضع كثيرة بالقاهرة وظواهرها، ومضوا إلى دور الصاحب أمين الدين إبراهيم بن الهَيْصَم وكبسوا عليه وعلى جيرانه في طلب الأمير إينال الأشرفي والملك العزيز، فلم يجدوا أحداً. وهرب الصاحبُ أمين الدين، ثم ظهر وخلع عليه بعد ذلك. واشتدّ طلبُ السلطان على الملك العزيز، وهدّد مَن أخفاه بأنواع العذاب والنَّكال، فشمل الخوفُ غالبَ الناس.

---

(١) أي بقيت واستمرت عندها. وهذا اللفظ بهذا المعنى كثير الاستعمال لدى المؤلّف.

ثم في يوم السبت سادس عشرين شوّال خلع السلطان على جوهر الخازندار باستقراره زماماً عوضاً عن فيروز الجاركسي بحكم عزله مضافاً للخازندارية، والفحصُ على الملكِ العزيز مستمر في كل يوم وليلة، وقد دخل الناسَ من الرعب والخوف ما لا مزيد عليه بسببه، إلى أن كشف الله هذا البلاء عن الناس، وقُبض على الملك العزيز يوسف في ليلة الأحد سابع عشرين شوّال، واطمأن كل أحد على نفسه وماله بظهور الملك العزيز والقبض عليه.

وكان من خبر الملك العزيز أنه لما اشتدّ الطلبُ عليه ضاقت عليه الأرض، وكان له من يوم فرّ من القلعة وهو ينتقل من مكان إلى مكان، لا سيما لما كثر الفحص عنه تخوّف غاية الخوف، حتى ألجأه ذلك إلى الانفراد مع أزْدَمُر لا غير، ليخفَّ بذلك أمرُهما على مَن أخفاهما، ومع هذا تُعُلِّبا أيْن يذهبان. واحتاج الملكُ العزيز أن أرسلَ إلى خاله الأمير بِيبرَسْ الأشرفي، أحد أمراء العشرات ورأس نوبة، بأنه يريد المجيءَ إليه في الليل ويختفي عنده، على ما قيل، فواعده بيبرَسْ على أن يأتيه ليلاً.

ثم خاف بيبرس عاقبة أمره، فإنه كان الملكُ الظاهرُ جَقْمَق اختصّ به، وأمّره دون إخوته وأكرمه غايةَ الإكرام. ورأى بِيبَرْس أنه لا يحسُن به أن يقبض عليه ويطلع به إلى السلطان، فأعلم جارَه يَلْبَاي الإينالي المؤيدي أحد أمراء العشرات ورأس نوبة بمجيء الملك العزيز إليه في الليلة المذكورة، وأعلمه أيضاً أنه يمرّ من موضع كذا وكذا. فخرج يَلْبَاي في الليل متنكّراً، ومعه اثنان من خُجْدَاشِيَّته المؤيدية، وترصّد للعزيز بُخُطِّ زُقاق حلب بعد عشاء الآخرة؛ وبينما هم في ذلك إذ مرّ بهم العزيزُ ومعه أزْدَمُر مُشِدُّه، وهما في هيئة مَغْرِبِيَّيْن، فوثب يَلْبَاي بأزدمر ليقبض عليه فامتنع منه ودفع عن نفسه، فضربه يلباي أدْمَى وجهه وأعانه عليه رفقَتُه، حتى قُبض عليه وعلى الملك العزيز، وكان على الملك العزيز جُبّة صوفٍ من لبس المغاربة. وطلعوا بهما في الحال إلى باب السلسلة ثم إلى السلطان، والملكُ العزيزُ حافٍ بغير نعل في رجليه، وقد أخذه بعض المؤيدية بأطواقه يسحبه على ما قيل، فإني لم أحضر المجلس تلك الساعة. فلما مثلَ العزيزُ بين يدي السلطان أُوقِف ساعةً، ثم أمر به

السلطانُ فأُخذ إلى مكان في القلعة وسُجن به إلى أن أصبح. وطلع الأمراء وأرباب الدولة إلى الخِدمة على العادة، ودقّت البشائر لقبض الملك العزيز، وسُرَّ السلطانُ بذلك سروراً عظيماً، وخفّ عنه الأمرُ كثيراً بالنسبة إلى ما كان فيه.

ثم أخذ السلطانُ الملكَ العزيزَ إلى زوجته خَوَنْد البارِزِيّة بقاعة العواميد، وأسلمها العزيزَ وأمرها أن تجعله في المخدع المُعدّ لمبيت السلطان بالقاعة المذكورة، وأن تتولى أمرَ أكله وشربه وحاجاته بنفسها. فأُقام العزيزُ على ذلك مدةً إلى أن نقله السلطانُ في ليلة الأربعاء ثامن ذي القعدة إلى مكان بالحوش وضيّق عليه، ومُنع من جميع خدمه، ثم سيّره إلى سجن الإسكندرية، حسبما يأتي ذكره.

وأمر السلطانُ بأَزْدَمُر فسُجن بالبرج من قلعة الجبل، مع جماعة من خُجْداشِيَّته الأشرفية، ووُجد مع الملك العزيز من الذهب ثمانمائة دينار، أعطى السلطانُ منها إلى يَلْباي خمسمائة دينار، وإلى رفيقيه مائة دينار، ثم فرّق الباقي من ذلك على مَن حضر. ثم أنعم السلطان على يَلْبَاي المذكور بقرية سَرْياقوس[1] زيادةً على ما بيده، وصار من جملة أمراء الطبلخانات. وهدأ سِرُّ السلطان من جهة الملك العزيز، والتفت إلى أخبار إينال الجَكَمي، وتَغْري بَرْمَش.

ثم في يوم الثلاثاء تاسع عشرينه، ظهر الأميرُ إينال الأبوبكري الأشرفي من اختفائه. وكان من خبره أنه من يوم تَسحّب الملك العزيز خاف القبضَ عليه، فاختفى إلى أن ظهر الملك العزيز فخفّ عنه ما داخله من الوهم بسبب الملك العزيز، وقد علم أن السلطانَ ظهر له أنه لم يجتمع مع الملك العزيز ولا قام بنصرته، وأن اختفاءه كان نوعاً من مهابة السلطان. فلما كان ليلة الثلاثاء المذكورة توجّه إلى الأمير جَرِبَاش الكريمي المعروف بقاشق أمير مجلس، وترامى عليه واستجار به، وهو يظن أن في السُّويداء رجالاً[2]، فأجاره وهو يظن أن السلطانَ يقبل شفاعته.

---

(١) سرياقوس: قرية من الأعمال القليوبية. وقد اشتهرت بخانقاه سرياقوس التي بناها الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٥ هـ، كما اشتهرت بأنها مكان للنزهة والصيد، فكان أكثر السلاطين يتوجهون إليها في أوقات محددة من السنة عُرِفَت بسرحة سرياقوس.

(٢) السويداء: مدينة معروفة بسوريا. والمثل يُضرَب لمَن تتوخى منه خيراً وعوناً فيخيب أملك.

وكان معظم ظهور إينال المذكور لِما بلغه من اختفائه عن السلطان من الثناء عليه وبسط عذره في اختفائه، وأنه باختفائه سكنت الفتنة، فغرّه هذا الكلام، وأيضاً أنه استند للأمير جَرِبَاش أمير مجلس وخُجْداش السلطان، فأخذه الأمير جَرِباش من الغد في يوم الثلاثاء المذكور وطلع إلى القلعة. وقد بلغ السلطانَ خبرُ إينال وظهوره ثم طلوعه مع جَرِبَاش، فحالَ ما وقع بصر السلطان على إينال أمر به فقُبض عليه، وقُيْد وسُجن بمكان بالقلعة حتى يُحمل إلى الإسكندرية؛ هذا والأميرُ جَرِبَاش يكرر تقبيل يد السلطان ورجله في أن يُشَفِّعه فيه ويدعه بطَّالاً ببعض الثغور، فلم يلتفت السلطان إلى شفاعته ونزل جَرِبَاش إلى داره خجلاً مفضوحاً من حاشيته وأصحابه، ومن يومئذ انحطَّ قدره إلى أن مات. على أنه صاهر السلطانَ بعد ذلك وصار حماه، ومع هذا كله لم يكن له صولة في الدولة. وأخرج السلطانُ إينالَ من يومه إلى سجن الإسكندرية، وبها أعداؤه من خُجْداشِيَّته، فكان شُماتتُهم به أعظم عليه من حبسه.

وأخذ السلطانُ بعد ذلك يتشوَّف إلى أخبار عسكره المجرَّد إلى قتال إينال الجَكَمي وغيره. فلما كان يوم الأربعاء ثامن ذي القعدة ورَد على السلطان كتابُ الأمير آلابَغَا حاجب غزة يتضمن قتال عسكر السلطان مع إينال الجَكَمي نائب الشام، في يوم الأربعاء مستهلّ ذي القعدة، وانهزامَ إينال الجَكَمي، فأخذت الناسُ في هذا الخبر وأعطوا، غير أنه دقّت البشائر وسُرّ السلطان بذلك.

ثم أصبح من الغد في يوم الخميس ورَد الخبرُ بمسْك إينال الجَكَمي، فدقّت البشائر أيضاً. غير أن السلطان في انتظار كتاب آقْبَغَا التِّمْرازِي؛ فورد عليه كتابه في يوم الجمعة عاشر ذي القعدة، وذكر واقعة العسكر مع إينال الجَكَمي، وملخصها أن العساكر السلطانية المتوجهة من الديار المصرية والمتجمعة بالرَّملة من النوّاب والعساكر، ساروا جميعاً من الرملة أمام الأمير قَرَاخُجا الحسني ومَن معه من الأمراء والمماليك السلطانية، كالجاليش، لكن بالقرب منهم، حتى نزلوا بمنزلة الخَرِبَة(١)

(١) هناك أربع قرى بالقرب من الرملة تُعرف باسم الخربة وهي: خربة البويرة إلى الجنوب الشرقي من الرملة، وتبعد إلى الشمال من طريق رام الله ـ الرملة مسافة ٣ كلم تقريباً. والثانية خربة بيت فار على =

في يوم الأربعاء مستهل ذي القعدة وقد قدموا بين أيديهم كشافةً على عادة العساكر، فعادت الكشافةُ وأخبروا بقرب إينال الجَكَمي منهم. فركبوا في الحال بعد أن عبُّوا أطلابهم، وهم ستّة نوّاب: آقْبَغَا التَّمرازِي نائب الشام، وجُلْبان الذي استقر نائبَ حلب، وإينال العلائي نائب صَفَد ـ أعني الملك الأشرف ـ وطُوخ مازِي نائب غزة، وطُوغان العثماني نائب القدس، وخليل بن شاهين وقد استقرّ نائب مَلَطِيَة.

وساروا بمَن اجتمع عليهم من العَشِير والعربان جالِيشاً، حتى وصلوا إلى مضيق قرب[1] الحرّة، وإذا بجاليش إينال الجَكَمي فيه الأمير قانْصُوه النَّوْرُوزي أحد مقدّمي الألوف بدمشق، ونائب بَعْلَبَكْ، وكاشف حُورَان، ومحمد الأسود بن القاق شيخ العَشير[2]، ويَرْعَلي[3] الدُّكْري أمير التركمان، وطُرْعَلِي[4] بن سقل سيز التركماني، وكثير من العربان والعَشير، والجميع دون الألف فارس. وصدموا النوّاب المذكورة فكانت بينهم وقعة كبيرة، انهزم فيها الأطْلابُ السّتّةُ بعد أن أردفهم إينالُ الجَكَمي بنفسه، وركب أقفيةَ القوم، وكان من الشجعان المشهورة، إلى أن أوصلهم إلى السّنجقَ السلطاني، وتحته الأمير قَراخُجا الحسني الأمير آخور، والأميرُ تَمُرْباي رأس نوبة النوب بمَن معهما من الأمراء والعساكر المصرية، والسنجق بيد الأمير سُودون العجمي النَّورُوزي أحد أمراء العشرات ورأس نوبة؛ وقد تخلّت عن إينال أصحابُه ومدّوا أيديهم إلى النهب في أطلاب النوّاب لما انهزموا أمام العسكر الشامي.

وبقي إينالُ في أناس قليلة، فحطّ بهم على العسكر المصري، فثبتوا له وقاتلوه ساعةً وقد تفرّقت عنه أصحابه بسبب النهب فلم يجد مساعداً، فانهزم بعد أن قُتل من الفريقين جماعة كبيرة جداً، ولم يُقتل من الأعيان غير الأمير صَرْغَتْمُش أحد مماليك

= مسافة ١٥ كلم جنوبي الجنوب الشرقي للرملة. والثالثة خربة زكريا إلى الشرق من الرملة. والرابعة خربة الضهيرية في شرق الشمال الشرقي لمدينة الرملة وتبعد نحو ٤ كلم إلى الشرق من اللدّ. (انظر الموسوعة الفلسطينية: ٢/٣٣٣ ـ ٣٣٦).

(١) في السلوك: «مضيق قرن الحرّة».
(٢) في السلوك: «ومحمد الأسود ابن القان، وشيخ العشير».
(٣) في السلوك: «وفر علي الدكري».
(٤) في السلوك: «وخليل بن طور علي بن سقل سيز».

الوالد، الذي كان دوادارَ الأمير جُلْبان، ثم استقر دوادارَ السلطان بحلب، وجُرح خلق كثير. وقُبض في الوقعة على الأمير تَنَم العَلائي المؤيدي، وعلى الأمير بِيرَم صوفي التركماني، وعلى الأمير خير بك القوامي ومحمد بن قانْصُوه النَّوْرُوزي وجماعة أُخَر. وحال بينهم الليل. فلما أصبح العسكرُ يوم الخميس ثاني ذي القعدة ورد الخبر عليهم من دمشق بالقبض على إينال الجَكَمي من قرية حَرَسْتَا من عمل دمشق فدقّت البشائر لذلك، وتفرّقت أخصاءُ السلطان للأعيان بالبشارة، وزال ثُلثا ما كان بالسلطان من أمر الملكِ العزيز وإينال، وبقي تَغْري بَرْمَش.

وكان من خبر مَسْك إينال الجَكَمي أنه لمّا انكسر من العسكر المصري، ساق في نفر يسير إلى أن وصل حَرَسْتا وقد تلفت خيوله لبُعد المسافة، ونزل بها وقد جهده التعب والجوع، واختفى بها في مزرعة. وأرسل بعضَ خدمه ليأتيه بطعام، ففطن به رجل وعرّف شيخَ البلد، فأرسل شيخُ البلد إلى نائب قلعة دمشق بالخبر. فخرج من دمشق في طلبه جانِبَك دوارار بَرْسْباي حاجب حجّاب دمشق، ومعه جماعة أُخَر؛ وطرقوه بالقرية على حين غفلة، فقام ودفع عن نفسه بكل ما تصل قدرته إليه، فتكاثروا عليه وطعنه بعضهم في جنبه، ورماه آخر أصاب وجهه، ثم مسكوه وجيء به إلى دمشق على فرسه، وقد وقف الفرس من العيّ فلم يصل إلى قلعة دمشق إلاّ بعد العصر، والناس في جموع كثيرة لرؤيته ما بين باكٍ وحزين، وسُجن بقلعة دمشق مقيَّداً. وأصبح دخل آقْبَغا التِّمْرازي إلى دمشق في باكر نهار الجمعة ثالث ذي القعدة، ومعه العساكر بسلاحهم ونزل بدار السعادة؛ ولم يبتهج أهل دمشق بقدومه لعظم ميلهم لإينال الجَكَمي، وإن كان آقْبَغَا المذكور صهري[1] فالواقع ما ذكرناه.

ومع هذا وقع يومَ دخوله إلى دمشق حادثةٌ غريبة، وهي أن بَلَبانَ شيخ كَرَك نُوح[2]، واسمه محمد وولده محمد أيضاً، قَدِمَا إلى دمشق بجموعهما من العَشير

(١) كان الأمير آقبغا التّمرازي زوجاً لأخت أبي المحاسن الصغرى شقراء. وأنجبت شقراء من آقبغا التّمرازي ابنة تزوجها فيما بعد الأمير محمد ابن السلطان جقمق. (المؤرّخ ابن تغري بردي: ٦٣).

(٢) كرك نوح: هي اليوم بلدة الكرك جنوبي مدينة بعلبك. وكانت في العصر المملوكي قاعدة نيابة البقاع العزيزي. (منطلق تاريخ لبنان: ١٣١).

نصرةً لعساكر السلطان - وبَلَبَانُ المذكور فلاح الأمير بَرْسباي الحاجب - كأكابر المُدَرّكين[١]، فلم يصل بَلَبَان المذكور حتى انقضت الوقعة، فتأسّف على ذلك لما كان بينه وبين إينال الجَكَمي من المباينة مراعاةً لأستاذه بَرْسباي المذكور، فعاد إلى دمشق في خدمة آقْبَغا التِّمْرازِي، إلى أن دخل التِّمْرازي إلى دار السعادة وذهب كل أمير إلى حال سبيله.

فعاد بَلَبَانُ المذكور فيمن عاد، حتى كان عند المصلَّى، والعامّة قد ملأت الطرقات وهم في كآبة لفَقْد إينال الجَكَمي ولما وقع له، فصاح شخص من العامّة بواحد من العَشِير من أعوان بَلَبَان يقول: «أبا بكر! أبا بكر!»، وتبعه غيره يكرّرون ذلك مراراً عديدة يريدون نكايةَ بَلَبان، فإنهم يُرْمَوْن بالرّفض[٢]. فلما كثر ذلك من العامّة، ضرب بعضُ العَشِير واحداً من العامّة، فعند ذلك تجمعوا عليه وأرموه عن فرسه ليقتلوه، فاجتمع أصحابه ليخلّصوه من العامّة، وقبل أن يخلّصوه بادره العامّةُ وذبحوه، وتناولوا الحجارة يرمون بها بَلَبَانَ وأعوانه، وكانوا في كثرة نحو الخمسمائة نفر وأكثر، فتوغل بَلَبَانُ بين أصحابه ولم يقدر أن يفوز بنفسه، فتكاثروا عليه وألقوه إلى الأرض عن فرسه وذبحوه، ثم أخذوا ابنَه محمداً أيضاً وذبحوه، ووضعوا أيديهم في أصحاب بَلَبَان إلى أن أسرفوا في القتل. ولم يكن لذلك سبب ولا دسيسة من أحد ولا أمر من السلطان، فوقع هذا الأمر ولم يقدر أحد على القيام بأخذ ثأره لاضطراب المملكة، وراحت على مَن راحت إلى يومنا هذا. قلت: لا جرم، إنما وقع له ببركة الشيخين، فقُوصِص بذلك في الدنيا، وله في الأخرى أعظم قصاص، نَكالاً من الله على رفضه وقُبْح سريرته[٣].

---

(١) المدرّكون: ويقال أرباب الأدراك؛ وهم المكلّفون بالحراسة وحفظ الأمن. وكان عربان الطاعة من عشائر البلاد الشامية يكلّفون بمثل هذه الأعمال.

(٢) المراد أنهم من الشيعة. والمؤلّف يطلق على جميع الفِرَق الشيعية اسم الرافضة أو الروافض. والعشائر المُشار إليها أعلاه كانت من الشيعة الإمامية الجعفرية، أي على مذهب الإمام جعفر الصادق.

(٣) لا يليق بمؤرّخ كبير مثل أبي المحاسن إطلاق مثل هذه الأحكام بدافع من العصبية المذهبية، بحيث يبتعد كثيراً عن موقع المؤرّخ المتبصّر في الأحداث ويتخذ موقف المحازب المتعصّب. ولسنا بحاجة إلى مزيد من =

ثم في يوم الأحد ثاني عشر ذي القعدة، كُتب بقتل إينال الجَكَمي بسجنه بقلعة دمشق، بعد تقريره على أمواله وذخائره، وبقتل جماعة من أصحابه ممّن قُبض عليه في الوقعة.

وفي هذه الأيام رسم السلطانُ بعقوبة جَكَم خال الملكِ العزيزِ بسجنه بالإسكندرية، حتى يعترف بمتحصّل الملك العزيز في أيام أبيه، من إقطاعه وحماياته[1] ومستأجراته، فأجابهم عن ذلك كله؛ وكان السلطانُ استولى على جميع ما للعزيز عند جدّته لأمه من المال والقماش والفصوص، وكان شيئاً كثيراً. وأمر السلطانُ أيضاً بعقوبة يَخْشْباي الأمير آخور الثاني بسجن الإسكندرية أيضاً، بعد أن أراد السلطانُ قتلَه بحكم الشرع، من كونه سبّ شريفاً ببلاد الصعيد في أيام أستاذه الملك الأشرف؛ فبادر يَخْشْباي حتى حكم قاضٍ شافعي بحقن دمه، ووقع بسبب ذلك أمور، وعَقْد مجلس بالقضاة والفقهاء، ذُكر ذلك كلُّه في الحوادث[2]. ولما وقع اليأس من قتله، رسم بعقوبته حتى يعترف بما لَه من الأموال، فعوقب أشدّ عقوبة بحيث إنه لم يبقَ إلّا موته.

ثم قدم الخبرُ على السلطان، بأن العساكر توجهت من دمشق، في حادي عشر ذي القعدة إلى حلب، بعد أن عاد طُوغان نائب القدس إلى القدس، وتأخر آقبغا التِّمْرازي نائب الشام به. وكان الذي توجّه من النوّاب إلى حلب صحبة العساكر المصرية: جُلبَان نائب حلب وقاني باي الحمزاوي نائب طرابلس، وهو إلى الآن بحماة، غير أنه تهيأ للاجتماع بالعساكر المصرية وعنده أيضاً الأمير بُردبك العجمي

= التعليق على موقفه هذا، ولكن يحسن بنا أن نورد تعقيباً للمقريزي على نفس الحادثة للمقارنة. قال المقريزي، بعد أن أورد وقائع الحادثة نفسها: «ولم ينتطح في قتلهم عنزان ولا تحرّك لهم اثنان، فكان ذلك من الحوادث الشنعة. وما أراه إلّا أمراً له ما بعده، ولله عاقبة الأمور». ـ السلوك: ٤/ ١١٣٩.

(١) الحمايات: مكوس يفرضها الأمير أو السلطان على بعض الأراضي والمتاجر والمراكب والأرزاق. وقد أطلق عليها هذا الاسم لقيام الأمير بحماية الشخص الذي يدفع ذلك المكس المقرّر. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ١١٠).

(٢) المراد كتاب المؤلّف «حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور» وقد ذيّل فيه على السلوك للمقريزي.

الذي استقر في نيابة حماة، وقد قدّمه إلى حلب؛ وسار من النوّاب أيضاً الأمير إينالُ العلائي الناصري نائب صَفَد، والأمير طوخ مازِي نائب غزة.

وقدم الخبرُ أيضاً أنه قُبض بدمشق على يَرْعَلي الدُّكْري وشُنق، وأن تغري بَرْمش نائب حلب كان نزل على حلب وصحبته الأمير طُرْعَلي بن سقل سيز، والأمير علي باي بار بن إينال بجمائعهما من التركمان، والأمير غادر بن نُعَيْر بعرَبِه من آل مُهَنّا، والأمير فَرج وإبراهيم ولدا صَوْجِي، والأمير محمود ابن الدُّكْري أيضاً بجمائعهم من التركمان، وعدّة الجميع نحو ثلاثة آلاف فارس، وأن تَغْرِي بَرْمَشْ خيّم بالجَوْهَرِي[١] وبعث بعدة كبيرة إلى خارج باب المقام[٢]، فخرج إليه الأمير بُرْدبَكْ العجمي، الذي وَلي نيابةَ حماة، وقد قدم حلب من أيام، ومعه جماعة من أمراء حلب ومن تركمان الطاعة، ومن العامّة، فكانت بينهم وقعة هائلة، قُتل فيها وجرح جماعة كثيرة من الفريقين، وعاد كلٌّ منهما إلى مكانه.

ثم التقى الجمعان ثانياً في يوم الجمعة خامس عشرين شوّال على باب النَّيْرَبْ[٣] واقتتلوا يوماً وليلة قتالاً شديداً، قُتل فيه عدّة كبيرة من الناس، وجرح نائب حماة، وطائفة من أمراء حلب، ثم رجع كل فريق إلى موضعه. ورحل تَغْري بَرْمَش من موضعه في يوم الأحد سابع عشرينه، ونزل بالميدان، والحرب مستمر، والعامّةُ تبذل جهدَها في قتاله، إلى أن كان يوم الخميس ثاني ذي القعدة أحضر تَغْري بَرْمَش آلاتِ الحصار من مَكَاحِلِ النِّفْطِ والسلالم والجَنَوِيّات[٤] إلى باب الفرج، ونصب صيوانَه تجاهَ سور حلب، وجَدَّ في قتال الحلبيين.

---

(١) الجوهري: من منتزهات حلب. وهو عبارة عن بستان قديم من وقف الأمير حسام الدين محمود شحنة حلب. (الدرّ المنتخب: ٢٥٥).

(٢) باب المقام: أحد أبواب حلب السبعة وهي: باب النيرب، وباب قنسرين، وباب المقام، وباب الأربعين، وباب النصر، وباب الجنان، وباب أنطاكية. (صبح الأعشى: ١١٧/٤). ـ قارن أيضاً بمعجم البلدان: ٢٨٦/٢، والروض المِعطار: ١٩٦، والدرّ المنتخب: ٣٩ ـ ٤٦.

(٣) راجع الحاشية السابقة.

(٤) الجنويّات: جمع جنويّة، وهي النقّالة التي تُستخدَم لنقل الجرحى والموتى. ـ راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

هذا وأهلُ حلب يد واحدة على قتاله طولَ النهار مع ليلة الجمعة بطولها، وأهلُ حلب يتضرّعون ويدعون الله تعالى. فلما أصبح نهار الجمعة، رحل تَغْري بَرْمَش عن مكانه، وعاد إلى الميدان، بعد أن كانت القضاةُ وشيوخُ العلم والصلاح وقفوا بالمصاحف والرَّبْعات على رؤوسهم، وهُم ينادون من فوق الأسوار: «الغزاة معاشر الناس في العدو، فإنه مَن قُتل منكم كان في الجنة، ومَن قُتل من العدو صار إلى النار»، في كلام كثير يحرّضون بذلك العامّة على القتال، ويقوّون عزائمهم على الثبات، إلى أن رحل تَغْري بَرْمَش بمَن معه من الميدان إلى الجهة الشمالية، في يوم الأحد خامس ذي القعدة، بعد ما رَعَت مواشيهم زروعَ الناس وبساتينَهم وكرومهم، وقطعوها ونهبوا القرى التي حول المدينة، وأخْرَبوا غالب العمارات التي كانت خارج سور حلب، وقطعوا القناة التي تدخل إلى مدينة حلب من ثلاثة أماكن. وكان أشدَّ الناس في قتال تَغْري بَرْمَش أهلُ بانَقُوسا[١]. هذا بعد أن ظفر تَغْري بَرْمَش بجماعة من الحلبيين في بعض قتاله، فقطع أيدي الجميع، وبالغ في الإضرار بالناس. وأنا أقول: لو كان لتَغْري بَرْمَش على أهل حلب دولة، لفعل فيهم أعظمَ من فعل تَيْمُورلَنْك، لقِلّة دينه وجبروته ولحنقه من أهل حلب؛ وأنا أعرَفُ بحاله من غيري لكونه طالت أيامُه في خدمة الوالد سنين، ثم قَتل أغَاتَه[٢] من مماليك الوالد، وفرّ كما سنحكيه في وفاته من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

ولمّا بلغ هذا الخبرُ الملكَ الظاهر، قلق قلقاً عظيماً لما وقع لرعيّته من أهل حلب. فلم يكن إلاّ أياماً قليلة وقَدِمَ الخبر في يوم السبت خامس عشرين ذي القعدة بكَسرة تَغْري بَرْمَش المذكور، فدُقّت البشائر لذلك، وعظُم سرور السلطان، غير أنه تَشَوَّشَ لعدم مَسْكه وخاف عاقبةَ أمره. وكان من خبره أن العسكر المصري بمَن معه من العسكر الشامي، لمّا ساروا من دمشق إلى جهة حلب، وافاهم الأميرُ قاني باي الحمزاوي وغيرُه وصاروا جمعاً واحداً، فلقيهم تَغْري بَرْمَش المذكور بجموعه التي

(١) بانقوسا وبانقوساء: حارة كبيرة ظاهر حلب من جهة الشرق والشمال، وبها جوامع ومساجد وحمّامات وخانات. (الدرّ المنتخب: ٤٤).

(٢) أي رئيسه وسيّده وشيخه. ـ راجع فهرس المصطلحات.

كانت معه قريباً من حماة، في يوم الجمعة سابع عشر ذي القعدة، وقد صفَّ عساكره من التركمان وغيرهم، حتى ملؤوا الفضاء. فحال ما وقع بصرُ عسكره على العساكر السلطانية، أخذوا في الانهزام من غير مصافَفة، بل بعضُ تناوش من صغائر الطائفتين، وولّوا الأدبار.

ومدّت العساكرُ السلطانية أيديها إلى عساكر تَغْري بَرْمَش، فغنموا منهم غنائم لا تحصَى كثرةً، منها نحو المائتي ألف رأس من الغنم، سوى ما تمزق، ونُهب جميعُ وِطاق[1] تَغْري بَرْمَش وماله، وانهزم هو في جماعة يسيرة من خواصّه إلى جهة التركمان الصَّوْجِيَّة[2]، على ما نذكره من قصته في ذي الحجة من هذه السنة.

ثم في يوم الاثنين سابع عشرين ذي القعدة، قَدِمَ النَّجّاب[3] برأس الأمير إينال الجَكَمي، وكان قَتْله بقلعة دمشق في ليلة الاثنين عشرين ذي القعدة، فشُهرت الرأس على رمح، ونودي عليه: «هذا جزاء مَن حارب الله ورسوله»، ثم عُلّقت على باب زَوِيلة. وقُتل معه الأمير تَنَم العلائي المؤيدي، وكان تَنَم المذكور أدوباً حشماً وقوراً، وأما إينال الجَكَمي فيأتي التعريف بحاله في الوفيات على العادة.

وفي هذه الأيام، حُكم بقتل الأمير يَخْشْباي الأشرفي الأمير آخور الثاني؛ وقد تقدّم أنه ادّعي عليه أنه سبّ شريفاً، ولعن والديه، وأن بعض نوّاب الشافعي حكم بحقن دمه، وسكن الحال مدة أشهر، ثم طلب السلطانُ من القاضي المالكي قتلَه، فاحتجّ بحكم الشافعي بحقن دمه، فعُورض بأن المطلوبَ الآن من الدعوى عليه غير المحكوم فيه بحقن الدم، فصمّم المالكي بأنهما قضية واحدة، ووافقه غير واحد من المالكية؛ ووقع أمور حكاها غيرُ واحد من المؤرخين، إلى أن قُتل يَخْشْباي المذكورُ حسبما يأتي ذكره.

ثم ورَد على السلطان في يوم الأحد ثالث ذي الحجة مطالعةُ الأمير جُلْبَان نائب

---

(١) الوطاق: هو الخيمة الكبيرة تعدّ للسلطان أو الأمير. وهو أيضاً المعسكر. ـ راجع فهرس المصطلحات.

(٢) أي أتباع صوجي التركماني.

(٣) النجّاب هو البريدي الذي يحمل الرسائل.

حلب، وقرينها مطالعات بقية الأمراء والنوّاب، تتضمن أن تَغْري بَـرْمَش، لما انهـزم على حماة، مضى نحو الجبل الأقرع وقد فارقه الغادِرُ بن نُعَيْـر، فقبض عليه أحمـد وقـاسم ولدا صَـوْجِي، وقبض معه على دواداره كَمَشْبَغَـا، وخازنـداره يونس، وعلى الأميـر طُرْعَلي بن سقـل سيز والأميـر صارم الـدين إبراهيم بن الهَـذَباني نـائب قلعـة صِهْيُون[1]، وكتبوا بذلك إلى نائب حلب، فورد الخبر بذلك على العسكر، وهم على خان طُومان، في يوم الاثنين العشرين من ذي القعدة.

فجهّز الأميرُ جُلْبانُ عند ذلك الأميرَ بُرْدْبَك العجمي نائب حماة، والأميرَ إينال العلائي نائبَ صَفَد، والأميرَ طُوخ مازِي نائب غزة، والأميرَ قطج أتابك حلب، والأمير سُودون النَّوْرُوزي حاجب حجّاب حلب، لإحضار المذكـورين. ورحل جُلْبـان بمَن بقي معه يريد حلب، فدخلها في يوم الثلاثاء حادي عشرين ذي القعدة المذكـورة. وسار بُرْدبك العجمي نائب حماة بمَن معه إلى أن تسلّم تَغْري بَرْمَش ومَن ذكرنا ممّن قُبض عليه من أصحابه وأتوا بهم. فسُمِّر طُرْعلي بن سقل سيز تسميرَ سلامَة، وسُمِّر الهَذَباني ورفقتُه تسميرَ عَطَب[2]. وساروا بهم، وتَغْري بَرْمَش راكب على فرس بقيد حـديد، حتى دخلوا بـه مـدينـة حلب، وهـو ينـادي عليهم في يـوم الخميس ثـالث عشرينه، وقد اجتمع من أعـدائه الحلبيين خـلائق لا يعلم عدّتَهـا إلّا الله، وهم من التَّخْليق[3] بالزعفران والتهانىء في أمر كبير. وصاروا يُسْمعون تَغْري بَرْمَش المذكور من المكروه والسّب والتوبيخ وإظهار الشماتة به أموراً كثيرة، حتى أوْقفوهم تحت قلعة حلب، وَوُسِّط الهَذَباني ورفيقُه، وتسلّم تَغْري بَرْمَش وطُرْعَلي الأميرُ حَطَط نائب قلعة حلب.

فانظر إلى هذا القِصَاص، وهو أن تَغْري بَرْمَش لم يكن له في الدنيا عدو أعظمَ

---

(١) قلعة صهيون: كانت من أعمال طرابلس الشام. وهي قلعة حصينة مبنية على صخر أصمّ في ذيل جبل يظهر من اللاذقية وبينهما مرحلة. (صبح الأعشى: ٤/ ١٥٠، ط. دار الكتب العلمية).

(٢) التسمير: هو صلب المعاقب بواسطة المسامير على جدار أو خشب وتجرى عليه ألوان من التعذيب. فإن كان المراد من العقوبة هلاكه سمّي «تسمير عطب»، وإن كان خلاف ذلك سمّي «تسمير سلامة».

(٣) التخليق: التطيّب بالخلوق، وهو الطيب وأكثره من الزعفران.

من بُرْدُبَك العجمي وحَطَط، ثم عامّة حلب، وقد تمكّن الثلاثةُ منه؛ فأما بُرْدُبَك فإنه تسلّمه وتحكّم فيه من وقت أخذه من أولاد صَوْجي إلى أن أوصله إلى قلعة حلب؛ وأما حَطَط فإنه تحكّم فيه من وقت تسلّمه من بُرْدُبَك العجمي إلى أن قتل بين يديه؛ وأما عامّة أهل حلب فإنهم بلغوا منه مرادَهم من إسماعه المكروهَ والشماتة به، والتفرّج عليه يوم قتله، فنعوذ بالله من زوال النِّعَم وشماتة الأعداء.

وأما السلطانُ الملكُ الظاهر، فإنه لمّا بلغه القبضُ على تَغْرِي بَرْمَش، كاد أن يطير فرحاً، وعلم أنه الآن بقي في السلطنة بغير نكَد ولا تشويش. ودُقّت البشائر لذلك ثلاثةَ أيام. وكتب بقتل تَغْري بَرْمَش بعد عقوبته ليقرّ على أمواله، فعوقب، فأقرّ على شيء من ماله، نحو الخمسين ألف دينار؛ ثم أُنزل ونودي عليه إلى تحت قلعة حلب، وضربت عنقه. وقتل معه أيضاً طُرْعلي بن سقل سيز. وصفا الوقت للملك الظاهر، وخلا له الجو من غير منازع؛ والتفت الآن إلى مَن له عنده رأس قديمة يكافئه عليها من خير وشر.

فأول ما بدأ به في يوم الخميس ثامن عشرين ذي الحجة أن قُبض على زين الدين عبد الباسط بن خليل الدمشقي ناظر الجيش وعلى مملوكه جانِبَك الأستادار، وعلى عدة كبيرة من حواشيه، وأُحيط بدور الجميع، وكُتب بإيقاع الحوطة[1] على جميع مالِه بالشام والحجاز والإسكندرية، فزال بمَسْكه غُمّة كبيرة عن الناس؛ فإنه كان غير محبّب للناس حتى ولا إلى أصحابه، لبادرة كانت فيه، وسوء خلق وبطش مع سفه وبذاءة لسان.

ثم في يوم السبت سلخ ذي الحجة من سنة اثنتين وأربعين، خلع السلطان على القاضي محبّ الدين بن الأشقر باستقراره في وظيفة نظر الجيش، عوضاً عن عبد الباسط؛ وخلع على الناصري محمد بن عبد الرزاق بن أبي الفرج، نقيب الجيش، باستقراره أستاداراً عوضاً عن جانِبَك الزيني عبد الباسط. وابن الأشقر المذكور وابن أبي الفرج، كلٌّ منهما كان من أصحاب عبد الباسط. قلت: عَوْدٌ

(١) الحوطة: الحجز.

وانعطافٌ على ما ذكرناه، أنه كان يكرهه حتى أعزُّ أصحابه، ولولا ذاك ما وليا عنه هؤلاء وظائفه في حياته، وإن كانا تمنّعا عند الولاية، فهذا باب تجمّل ليس على حقيقته، ولا يخفى ذلك على مَن له ذوق سليم، فإننا لا نعرف أحداً ولي وظيفة غصباً كائناً مَن كان.

وفي يوم السبت المذكور قدم رأس تَغْرِي بَرْمَش، فطِيفَ بها، ثم عُلّقت على باب زويلة[١] أياماً.

وفرغت هذه السنة، أعني سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة، بعد أن كان فيها حوادث كثيرة وعدّة وقائع حسبما ذكرناه.

واستهلّت سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة والسلطانُ مصمّم على أنه لا يقنع منه[٢] بأقلّ من ألف ألف دينار، ويهدّده بالعقوبة، ويُعدِّد له ذنوبه، حتى قال في بعض مجالسه بحضرتي: «والله أُشَنْكله بشِنكال، مثلما كانت تعمل الجغتية[٣]. هذا أخرب مملكة مصر. كان إذا كلّمه أحد من أعيان الأمراء صفَّر له بفمه في وجهه» وأشياء كثيرة من ذلك.

ثم في يوم الاثنين ثاني محرّم سنة ثلاث وأربعين، خلع السلطانُ على القاضي وليّ الدين محمد السَّفْطي مفتي[٤] دار العدل، وأحد ندماء السلطان وخواصّه، باستقراره في نظر الكسوة مضافاً لما بيده من وكالة بيت المال ـ فإن شرْط الواقف أن

---

(١) هو أعظم أبواب القاهرة. وقد جرت العادة في عصر المماليك أن تعلّق رؤوس الخارجين على السلطة ممّن يظفر بهم السلطان على هذا الباب حتى يراها عامّة الناس ويعتبروا بما حدث. ولعلّ منشأ هذه العادة يعود إلى تشاؤم أهل القاهرة من هذا الباب، وكانوا يعتقدون أن مَن مرّ به لا تُقضى له حاجة بسبب تجمّع آلات المنكر وأهل البطالة من المغنّين والمغنّيات هناك. ـ انظر خطط المقريزي: ١/٣٨٠.

(٢) الضمير عائد على زين الدين عبد الباسط ناظر الجيش المعزول.

(٣) أي جماعة جغتاي بن جنكيزخان.

(٤) إفتاء دار العدل: كان يشغل هذه الوظيفة أربعة كلٌّ منهم يمثّل مذهباً من المذاهب الأربعة، وجلوسهم في دار العدل دون قضاة العسكر. أما في الشام فكان بها مفتيان، أحدهما شافعي والآخر حنفي، وولايتهما بتوقيع عن النائب. (صبح الأعشى: ٤/٣٦، ١٩٨) وعن وكالة بيت المال ونظر الكسوة راجع فهرس المصطلحات.

يكون وكيلُ بيت المال ناظر الكسوة ـ عوضاً عن عبد الباسط. قلت: ووليُّ الدين أيضاً كان من أصحابه.

ثم خلع السلطان على فتح الدين محمد بن المحرقي باستقراره ناظرَ الجَوَالي[1]، عوضاً عن عبد الباسط؛ وكان فتحُ الدين المذكور من حواشي الملك الظاهر أيضاً.

ثم في يوم الأربعاء حادي عشر المحرّم أفرج عن جانِبَك الزيني عبد الباسط، بعد أن حُوسب في بيت تَغْري بَرْدي المؤذي الدوادار الكبير، وقد شُطِّب عليه بمبلغ ألف ألف وثلاثمائة ألف درهم، وَجَبَتْ عليه للديوان، وذلك سوى العشرة آلاف دينار، التي ألزم بها.

ثم في سلخ المحرّم، قَدِمَ الأمير يَشْبَك السُّودُوني أمير سلاح من بلاد الصعيد بمَن معه من المماليك الأشرفية وغيرهم، فخلع السلطانُ عليه باستقراره أتابكَ العساكر بالديار المصرية، عوضاً عن آقْبَغا التِّمْرازِي بحكم انتقاله إلى نيابة دمشق. وكان يَشْبَك أُنعم عليه بالإقطاع والوظيفة من يوم ذاك، غير أنه كان غائباً ببلاد الصعيد هذه المدة الطويلة، فلما حضر خُلع عليه بالأتابكية.

ثم في يوم الاثنين أول صفر، قدم الأمير قاني باي الأبو بكري الناصري المعروف بالبَهْلوان، أتابك دمشق، إلى القاهرة، وخلع السلطانُ عليه باستقراره في نيابة صَفَد، عوضاً عن الأمير إينال العلائي الناصري بحكم عزل إينال المذكور، واستقراره من جملة مقدّمي الألوف بديار مصر، ورسم باستقرار الأمير إينال الششماني الناصري أحد مقدّمي الألوف بدمشق، في الأتابكية، عوضاً عن قاني باي البَهْلَوان.

ثم في يوم السبت سادس صفر، قَدِمَ إلى القاهرة الأمراءُ المجرّدون إلى الشام بمَن معهم من المماليك السلطانية، فخلع السلطان على الأمير قَرَاخُجا الحسني الأمير آخور، وعلى الأمير تَمُرْباي التَّمُرْبَغَاوِي رأس نوبة النوب، وعلى جميع مَن بقي من

---

(١) الجوالي: هي ما يؤخذ من أهل الذمّة من الجزية المقرّرة على رقابهم سنوياً.

رفقتهما من أمراء الطبلخانات والعشرات؛ وسكَن قَرَاخُجا بباب السلسلة.

وفي هذه الأيام غضب السلطانُ على عبد الباسط ونقله في يوم الخميس حادي عشر صفر من المقعد الذي على باب الهجرة، المطلّ على الحوش من قلعة الجبل، إلى البرج عند باب القلعة. وكان سبب ذلك أنه من يوم حبسَه السلطانُ لم يُهِنه بضرب ولا بعقوبة، والناس تتردد إليه، وهو مطالبه بألف ألف دينار. وقد تكلم بينه وبين السلطان المقرُّ[1] الكمالي محمد بن البارِزِي، صهرُ السلطان وكاتبُ سرّه، وراجع السلطانَ في أمره مراراً عديدة، وعبدُ الباسط يورد للسلطان من أثمان ما يُباع له، حتى وقف طلب السلطان بعد عناية ابن البارِزِي به على أربعمائة ألف دينار، وأبى السلطانُ أن يضع عنه منها شيئاً، وعبدُ الباسط يريد أن يحطَّ عنه من ذلك شيئاً آخر. وترامى على ابن البارِزِي المذكور، واعترف بالتقصير في حقه في الدولة الأشرفية، فلم يُحْوِجه ابن البارزي لذلك، بل شمَّر ساعداً طويلاً لمساعدته، حتى صار أمره إلى هنا بغير عقوبة ولا إهانة.

فلما كان يوم الخميس المذكور، تكلم مع السلطان ابنُ البارزي وجماعةً كبيرة من أعيان الدولة في أمر عبد الباسط، وسألوه الحطيطة من الأربعمائة ألف دينار، فغضب السلطان من ذلك، وأمر به فأُخرج إلى البرج على حالة غير مرضية، ومضى من المقعد ماشياً إلى البرج المذكور، وسجنوه به. ورسم السلطان له أن يدفع للمُرَسِّمِين[2] عليه، لمَّا كان بالمقعد، وهم ثمانية من الخاصّكية، مبلغ ألفي دينار ومائتي دينار، ودفعها لهم. وبينما هو في ذلك، دخل عليه الوالي وأمره أن يقلع جميع ما عليه من الثياب، فإنه نُقل للسلطان أن معه الاسم الأعظم أو أنه يسحر السلطان، فإنه كان كلما أراد عقوبتَه صرفه الله عنه، فخلع جميع ما كان عليه من الثياب والعمامة، ومضى بها الوالي وبما في أصابع يديه من الخواتم، فوُجد في

(١) المقرّ: من أرفع الألقاب في العصر المملوكي، ويأتي بعد لقب المقام. وكان يطلق على كبار الموظفين من مدنيين (أرباب قلم) وعسكريين (أرباب سيف) مثل أعيان الوزراء وكتّاب السرّ وناظر الجيش وناظر الدولة ومَن في معناهم. (انظر الألقاب الإسلامية: ٤٨٩).
(٢) أي الحرّاس الذين يُوكل إليهم مراقبته والاحتياط عليه.

عمامته قطعةُ أديم، ذُكِرَ أنها من نعل النبيّ ﷺ، ثم وُجدت في عمامته أوراق فيها أدعية ونحوها؛ وأخذ المقرُّ الكمالي في القيام معه، حتى كان من أمره ما سنذكره.

ثم في يوم السبت ثالث عشر صفر، قَدِمَ الأميرُ إينال العلائي الناصري المعزول عن نيابة صَفَد، وقد استقر من جملة مقدّمي الألوف بالديار المصرية، وقَدِمَ معه الأميرُ طُوغان العثماني نائبُ القدس، والأميرُ طوخ الأبو بكري المؤيدي أتابَك غزة ـ وقد صار من جملة مقدّمي الألوف بدمشق، على إقطاع مُغُلْباي الجَقْمَقِي بعد القبض عليه ـ وخلع السلطانُ على الجميع وأُركبوا خيولاً بقماش ذهب.

ثم في رابع عشر صفر، رسم السلطانُ بإحضار الأمراء المسجونين وغيرهم بثغر الإسكندرية إلى مدينة بلبيس، ليُحملوا إلى الحبوس بالبلاد الشامية، ونَدب الأميرَ أَسَنْبَغَا الطَّيَّاري أحد أمراء الألوف بالديار المصرية لإحضارهم، وهم: الأمير جانِم أخو الأشرف الأمير آخور، وإينال الأبو بكري الأشرفي، وعلى باي شادّ الشراب خاناه الأشرفي، وأُزْبَك السيفي قاني باي رأس نوبة المعروف بجُحا، وجَكَم الخازندار خال العزيز، وجَرِباش، وجانِبَك قلق سيز. ومن الخاصّكية: تَنَمْ الساقي، وبِيبرس الساقي، ويَشْبَك الدوادار، وأُزْبَك البوّاب، وبايزير خال العزيز، وجميع هؤلاء أشرفية؛ وتَنِبَك الإينالي المؤيدي الفيسي، وبيرم خُجا الناصري أمير مشوي، وجماعة أُخَر لم يحضرني الآن أسماؤهم، ولم يبقَ بسجن الإسكندرية سوى الأمير قَراجَا الأشرفي، أحد مقدّمي الألوف كان؛ وخرج الأمير أَسَنْبَغَا من يومه.

وفي هذا اليوم سافر الأمير قاني باي البهلوان نائب صَفَد إلى محل كفالته بها، بعدما أنعم السلطانُ عليه بمال جزيل. وسافر الطَّيَّاري إلى الإسكندرية، وأخذ المذكورين وعاد بهم إلى بلبيس في ثاني عشرين صفر، والجميع بالحديد. غير أن الأمير أَسَنْبَغَا تلطّف بهم وأحسن في خطابهم ومسيرهم إلى الغاية، بخلاف مَن تولى تسفيرَهم من بلبيس إلى محل سجنهم؛ فأفرج السلطانُ منهم عن بيرم خُجَا أمير مشوي، ونُفي إلى طرابلس، وأخرج السلطانُ من البرج بقلعة الجبل اثنين أضافهما إلى هؤلاء، ورسم أن يتوجّه منهم سبعةُ نفر إلى قلعة صَفَد، ليُسجنوا بها، وهم إينال

الأشرفي أحد مقدّمي الألوف، وعلي باي المُشِدّ الأشرفي، وأُزْبَك جُحا، وجَرِباش مُشِدّ سيِّدي، وتَنِبَك الفيسي، وخُزْمان وقاني باي اليوسفي، ومُسَفِّر هؤلاء الأمير سمام الحسني الناصري أحد أمراء العشرات، وأن يتوجّه ثلاثةٌ منهم إلى قلعة الصُبَيْبَة[1] ليُسجنوا بها، وهم: الأمير جانِم أمير آخور، وبايزير خال العزيز، ويَشْبك بشق، ومُسفِّرهم، هم ومَن يمضي إلى حبس المَرْقب الآتي ذكرُهم: إينال أخو قَشْتَم المؤيدي أحد أمراء العشرات. والمتوجهون إلى حبس المَرْقَب خمسة وهم: جانِبَك قلق سيز، وتَنَم الساقي، وجَكَم خال العزيز ويَشْبَك الفقيه، وأُزْبَك البوّاب، والجميعُ أشرفية، وساروا بهم في حالة غير مرضية.

ثم في سابع عشرين صفر، قَدِمَ الأميرُ طُوخ مازِي نائبُ غزة، فخلع السلطانُ عليه باستمراره وأكرمه.

وفي تاسع عشرينه، نقل زين الدين عبد الباسط من محبسه بالبرج إلى موضع يشرف على باب القلعة، بسفارة ابن البارِزي وأُخته خَوَنْد زوجة السلطان، ووعده السلطانُ بخير، بعدما كان وعده بالعقوبة.

ثم في يوم الاثنين سادس شهر ربيع الأول، خلع السلطانُ على الأمير طُوخ مازِي نائب غزة خلعةَ السفر، وتوجّه من يومه عائداً إلى محل كفالته.

ثم في ليلة السبت حادي عشره، أُخرج الملكُ العزيز يوسف من محبسه بالقلعة، وأُركب فرساً، ومعه جماعة كبيرة ومضوا به، حتى أنزل في الحَرَّاقَة[2]، وساروا به حتى حُبس بثغر الإسكندرية إلى يومنا هذا. ومسفِّره جانِبَك القرماني أحد أمراء العشرات. ورسم أن يصرف له من مال أوقاف العزيز ألف دينار. وحُمل مع الملك العزيز ثلاثُ جَوَارٍ لخدمته، ورُتّب له في كل يوم ألفُ درهم، من أوقاف أبيه. وكان لخروجه يوم مَهول من بكاء جواري أبيه وأُمه، وتجمّعن بعد خروجه بالصحراء

(١) قلعة الصبيبة: هي قلعة حصينة في بانياس من مدن الجولان من أعمال دمشق. (صبح الأعشى: ١٠٨/٤).

(٢) الحراقة: سفينة حربية. ـ راجع فهرس المصطلحات.

في تربة أُمه خَوَنْد جُلْبان، وعملن عزاء كيوم مات الأشرف وبكين وأبكين.

ثم في حادي عشر شهر ربيع الأول المذكور آسْتَقَرَّ شمسُ الدين أبـو النصر[١] نصر الله المعروف بالوِزَّة، نـاظر الإسـطبل السلطاني، بعـد عزْل زينِ الـدين يحيىٰ الأشقر قريب ابن أبي الفرج.

قلت: وأيّ فخر أو سابق رئاسة لمَن يُعزل بهذا الوزّة عن وظيفته!.

ثم في يوم الأحد تاسع عشر شهر ربيع الأول، سارت تجريدة في النيل تريـد ثغر رشيد. وقد ورد الخبرُ بأن أربعة شَوَانٍ[٢] للفرنـج قاربت رشيـد، وأخذت منهـا أبقـاراً وغيرهـا، فأخـرج السلطانُ لذلـك الأميرَ أَسَنْبَغَـا الطيـاري، والأَميـرَ شـادبـك الجَكَمي، وهمـا من أمراء الألـوف بالـديار المصـرية، وحَمـل السلطان لكلٍّ منهمـا خمسمائة دينار. وعندما نزلا إلى المركب في بحر النيل، احترقت مركبُ الطِّياري من مدفع نَفْط رموا به، فعاد عليهم ناره، وأحرق شيئاً مما كان معهم، وأصاب بعضهم، فألقى الطِّياري نفسه في البحر، حتى نجا من النار، ثم طلع وركب السفينة وسار.

وفي أواخر شهر ربيع الأول هذا رسم السلطانُ بتوجّه زين الـدين عبد البـاسط إلى الحجاز بأهله وعياله، وسافر في يوم الثلاثاء ثاني عشر شهر ربيع الآخر، بعد أن خلع السلطانُ عليه في يوم سفره، وعلى مُعْتقه جانِبَك الأستادار، ونزل من القلعة إلى مخيَّمه بالريدانية، بعد أن حمل إلى الخزانة السلطانية مائتي ألف دينار وخمسين ألف دينار ذهباً عينـاً سوى مـا أخذ لـه من الخيول والجِمـال، وسور تحف جليلة قـدّمها للسلطان وغيره؛ ثم رحل عبدُ الباسط من الرَّيْدانية يريد الحجاز، في خامس عشره، ونزل ببِركة الحاجّ، وأقام بها أيضاً إلى ليلة ثامن عشره.

ثم في خامس عشرين شهر ربيع الآخر قدم الأميرُ تِمْراز المؤيدي أحدُ حجّاب دمشق بسيف الأميرِ آقْبَغَا التِّمْرازِي، وقد مات فجـاءة في يوم السبت سـادس عشره.

---

(١) في مخطوط أيا صوفيا والضوء اللاّمع: «أبو المنصور».

(٢) الشواني: من السفن الحربية الكبيرة. ـ راجع فهرس المصطلحات.

فرسم السلطانُ للأمير جُلْبَان نائبِ حلب باستقراره في نيابة دمشق، وأن ينتقل الأميرُ قاني باي الحمزاوي نائبُ طرابلس إلى نيابة حلب، وأن ينتقل الأميرُ بَرْسْباي الناصري حاجبُ حجّاب دمشق إلى نيابة طرابلس، ويستقرّ عوضَه في حجوبية دمشق سُودون النَّوْرُوزي حاجبُ حجّاب حلب، وينتقل حاجبُ حماة الأميرُ سُودون المؤيدي إلى حجوبية حُجّاب حلب، وأن يستقر الأميرُ جمال الدين يوسف بن قلدر نائبُ خَرْتَ بِرْت[1] في نيابة مَلَطْيَة بعد عزْل الأمير خليل بن شاهين الشيخي عنها، ويستقر خليل أحد أمراء الألوف بدمشق، عوضاً عن الأمير أَلْطُنْبُغَا الشريفي، ويستقر الشريفي أتابك حلب، عوضاً عن قطج مِن تِمْراز، وأن يحضر قطج المذكور إلى القاهرة إلى أن ينحلّ[2] له إقطاع؛ وجُهّزت تقاليدُ الجميع ومناشيرُهم في سابع عشرينه؛ ورسم للأمير دُولات باي المحمودي الساقي المؤيدي الدوادار الثاني أن يكون مُسَفِّرَ جُلْبَان نائب الشام، وأن يكون الأميرُ أُرُنْبَغَا اليونسي الناصري مُسَفِّرقاني باي الحمزاوي، نائب حلب، وأن يكون سُودون المحمودي المؤيدي المعروف بأتمكجي، مُسَفِّر بَرْسباي نائب طرابلس؛ وخلع على الجميع في يوم تاسع عشرين شهر ربيع الآخر.

ثم في يوم السبت خامس عشر جمادى الأولى، استقر الأميرُ مازِي الظاهري بَرْقُوق أحدُ أمراء دمشق، في نيابة الكَرَك عوضاً عن آقْبَغَا التركماني الناصري بحكم مَسْك آقْبَغَا المذكور وحبسه بسجن الكَرَك.

وفي عشرينه خلع السلطانُ على الأمير أَسَنْبَغَا الطَّياري أحد مقدّمي الألوف، باستقراره في نيابة الإسكندرية، عوضاً عن يَلْبَغَا البهائي الظاهري برقوق بحكم وفاته، زيادةً على ما بيده من تقدمة ألف بمصر. وطلب السلطانُ الأمير قَراجَا الأشرفي من سجن الإسكندرية، فحضر في يوم الاثنين ثاني جمادى الآخرة، فخلع عليه السلطانُ

(١) خرت برت: وتُرسَم خرتبرت، وخربرت. وهي مدينة في وسط تركية إلى الشرق فيها. وسمّاها العرب حصن زياد. (بلدان الخلافة الشرقية: ١٤٩).

(٢) أي إلى أن يصير بالإمكان منحه إقطاعاً من الإقطاعات التي تنحلّ عن أصحابها بسبب الوفاة أو العزل أو غير ذلك. وكانت هذه الإقطاعات ترجع إلى الدولة وتسمى المرتجعات، ويشرف عليها ديوان خاص يسمى ديوان المرتجع. ـ راجع أيضاً فهرس المصطلحات: ديوان المرتجع.

باستقراره أتابَكَ حلب، وبطل أمر الشريفي، واستمر على إقطاعه بدمشق.

ثم في يوم الخميس ثاني عشر جمادى الآخرة، عمل السلطانُ الموكبَ بالقصر وأحضر رسول القانِ معينِ الدين شاه رُخْ بن تَيْمُورلَنْك، فحضر الرسولُ وناول الكتابَ الـذي على يـده، وإذا فيـه أنـه بلغـه مـوت الملك الأشـرف وجلوس السلطان على تخت الملك، فأراد أن يتحقّق علمَ ذلك، فأرسل هذا الكتاب؛ فخلع السلطانُ عليه وأكرمه وأنزله بمكانه الذي كان أنزل فيه، فإنه كان وصل في أول يـوم من جمادى الأولى، ورسم السلطانُ بكتابة جوابه[1].

ثم في يوم الاثنين رابع شهر رجب، أُدير المحمل على العادة، وزاد السلطانُ في عـدة الصبيان الـذين يلعبون بـالرمـح، الصغار، عـدة كبيرة، ولم يقـع في أيام المحمل بحمد الله ما يُنْكَر من الشناعات التي كانت تقع من المماليك الأشرفية.

وفي هذا اليوم أيضاً، خلع السلطانُ على الأمير طُوخ الأبوبكري المؤيدي أحد أمراء الألوف بدمشق، وكان قبلُ أتابَك غزة، باستقراره في نيابة غزة، بعد موت الأمير طُوخ مازِي الناصري، فولي طوخ عوضاً عن طوخ، وأنعم بتقدمة طوخ بدمشق على الأمير تِمْراز المؤيدي الحاجب الثاني بدمشق.

ثم في يوم السبت حادي عشر شعبان، استقـرّ القاضي بهـاءُ الدين محمـد بن حجّي في نظر جيش دمشق، عوضاً عن سراج الـدين عمر بن السَّفّـاح، ورسم لابن السفّاح بنظر جيش حلب.

ثم في يوم الثلاثاء ثامن عشر شوّال، خرج أميرُ حاجّ المحمل الأميـرُ شادبـك الجَكَمي، أحد مقدّمي الألوف، بالمحمل، وأمرُ حـاج الركب الأول سمـام الحسني الناصري، أحد أمراء العشرات.

---

(١) عرفت العلاقات فيما بين القان شاه رخ بن تيمورلنك وسلطان مصر تحسّناً ملموساً أيام السلطان جقمق. وقد سمح جقمق لشاه رخ أن يرسل كسوة للكعبة الأمر الذي كان قد حال دونه مراراً الأشرف برسباي لأن كسوة الكعبة شرف اختصّ به سلطان مصر منذ القِدَم.

ثم في يوم الثلاثاء خامس عشرين شوّال، قَدِمَ الأميرُ ناصر الدين بك، واسمه محمد بن دُلْغَادُر نائب أَبْلُسْتَيْن، إلى الديار المصرية، بعدما تلقّاه المطبخُ السلطاني، وجهّزت له الإقامات في طول طريقه؛ ثم سارت عدّة من أعيان الدولة إلى لقائه، ومعهم الخيول والخلع وله ولأعيان مَن معه من أولاده وأصحابه. فلما دخل إلى القاهرة وطلع إلى القلعة، ومثل بين يدي السلطان وقبّل الأرض، خَلَع عليه السلطانُ خلعةً باستمراره على نيابة أَبُلُسْتَيْن على عادته، وأُنزل في بيت بالقرب من القلعة؛ وبالغ السلطان في الاحتفال بأمره والاعتناء به، وشمله بالإنعامات الكثيرة. وكان ناصر الدين بك المذكور له سنين كثيرة لم يدخل تحت طاعة سلطان، وإن دخل فلم يطأ بساطه، فلما سمع بسلطنة الملك الظاهر هذا، وبحُسْن سيرته، قَدِمَ، وأقدم معه ابنتَه التي كانت تحت جانِبَك الصُّوفي، وعدّةً من نسائه، فعقد السلطانُ عقدَه عَلَى ابنته المذكورة التي كانت تحت جانِبَك الصُّوفي، ولها من جانِبَك المذكور بنت، لها من العمر نحو ثلاث سنين، بعد أن حمل إليها المهرَ ألفَ دينار، وعدّة كثيرة من الشقق الحرير وغيرها.

وفي هذا الشهر أراد السلطانُ أن تكون تصرفاتُه في أمر جُدَّة على مقتضى فتاوى أهل العلم، لعلمه أن شاه رخ بن تَيْمُور كان يعيب على الملك الأشرف بَرْسْباي لأخذه بجُدّة من التجّار عُشور أموالهم وأن ذلك من المكس المحرّم؛ فكتب بعض الفقهاء سؤالاً على غرض السلطان، يتضمن أن التجّار المذكورين كانوا يردون إلى بندر عَدَن من بلاد اليمن فيُظْلَمُون بأخذ أكثر أموالهم، وأنهم رغبوا في القدوم إلى بندر جُدَّة ليحتموا بالسلطان؛ وسألوا أن يدفعوا عُشر أموالهم، فهل يجوز أخذ ذلك منهم؟ فإن السلطان يحتاج إلى صرف مال كثير في عسكر يبعثه إلى مكة في كل سنة. فكتب قضاةُ القضاة الأربعة بجواز أخذه وصرفه في المصالح. فأنكر الشيخُ تقيُّ الدين[١] على القضاة في كتابتهم على الفتاوى المذكورة، وانطلق لسانه بما شاء الله أن يقوله في حقهم ـ انتهى.

---

(١) أي الشيخ تقي الدين المقريزي. وانظر رأي المقريزي مفصّلاً بهذا الصدد في السلوك: ١١٨٨/٤.

ثم في يوم الخميس ثامن عشر ذي القعدة، قدم الأميرُ إينال الششماني الناصري، أتابَك دمشق، والأميرُ أَلْطُنْبَغَا الشريفي الناصري أحد مقدّمي الألوف بدمشق، وطلعا إلى القلعة، وخلع السلطانُ عليهما وأكرمهما. وفيها أيضاً خلع السلطانُ على الأمير ناصر الدين بك بن دُلْغَادُر خلعةَ السفر، وسافر يوم الاثنين تاسع عشرين ذي القعدة، بعد أن بلغت النفقةُ عليه من الإنعامات ثلاثين ألف دينار.

ثم في يوم الأربعاء سابع[1] ذي الحجة، نودي بمنع المعاملة بالدراهم الأشرفية من الفضة، وأن تكون المعاملةُ بالدراهم الظاهرية الجَقْمَقِيَّةُ، وهدّد مَن خالف ذلك، فاضطرب الناس لتوقّف أحوالهم. فنودي في آخر النهار بأن الفضة الأشرفية تدفع للصيارف بسعرها، وهو كل درهم بعشرين درهماً من الفلوس، وأن تكون الدراهمُ الظاهرية كل درهم بأربعة وعشرين درهماً، وجعلت عدداً لا وزناً. فمنها ما هو نصف درهم عنه اثنا عشر درهماً، ومنها ما هو ربع درهم فيصرف بستّة دراهم، على أن كل دينار من الأشرفية بمائتين وخمسة وثمانين درهماً [من الفلوس][2].

ثم في يوم الثلاثاء، خلع السلطانُ على غَرْس الدين خليل بن أحمد بن علي السخاوي، أحد حواشي السلطان أيامَ إمرته، باستقراره في نظر القدس والخليل. والسخاوي هذا أصلُه من عوّام القدس السوقة، وقَدِمَ القاهرةَ، وخدم بعضَ التجّار، وترقّى، وركب الحمارَ، ثم ركب بعد مدة طويلة بغلةً بنصف رَحْل على عادة العوّام، ورأيتُه أنا على تلك الهيئة، ثم انتهى إلى خدمة السلطان، وهو يومَ ذاك أحد مقدّمي الألوف، واختصّ به، حتى تحدّث في إقطاعه، ودام في خدمته إلى أن تسلطن وعظم أمره عند مَن هو دونه، إلى أن وَلِيَ في هذا اليوم نظرَ القدس والخليل.

ثم في يوم الخميس ثامن المحرّم من سنة أربع وأربعين، خلع السلطانُ على الأمير قِيز طُوغان العلائي، أحد أمراء العشرات وأمير آخور ثاني، باستقراره أستاداراً،

---

(١) في السلوك: «الأربعاء سادس عشر ذي الحجة».

(٢) زيادة عن السلوك للمقريزي. وقد أوضح المقريزي مطوّلاً وضع النقود في تلك الأيام وأنواعها وقيمة كلٍّ منها وكيفية التعامل بها، فانظر السلوك: ٤/١١٩٠ - ١١٩١.

عوضاً عن محمد بن أبي الفرج، بحكم عزله والقبض عليه وحبسه بالقلعة إلى يوم الأحد حادي عشره، فتسلّمه الوزيرُ كريم الدين ابن كاتب المناخ.

ثم في يوم السبت رابع عشرين المحرّم، خلع السلطانُ على زين الدين يحيىٰ الأشقر قريب ابن أبي الفرج، باستقراره في نظر ديوان المُفْرَد[١] عوضاً عن عبدِ العظيم بن صدقة، بحكم مَسْكه، ونُقل ابن أبي الفرج من تسليم الوزير، وسُلِّم هو وعبدُ العظيم للأمير قيز طُوغان الأستادار، فأغرَى زينُ الدين قيزَ طُوغان بابن أبي الفرج وعبد العظيم، حتى أخذ ابنَ أبي الفرج وعاقبه وأفحش في عقوبته في الملأ من الناس، من غير احتشام ولا تَجَمُّل، بل طرحه على الأرض وضربه ضرباً مبرحاً، ووقع له معه أمور، إلى أن أُطلق وأُعيد إلى نقابة الجيش بعد أن نفي، ثم أُعيد؛ ومن يومئذ ظهر اسمُ زين الدين وعُرف في الدولة، وكان هذا مبدأ ترقّيه حسبما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وفي هذه الأيام وقع الاهتمامُ بتجهيز تجريدة في البحر لغزو الفرنج[٢]، وكتب السلطانُ عدّةً من المماليك السلطانية، وعليهم الأميرُ تَغْري بَرْمَش الزَّرَدْكاش، والسيفي يونس الأمير آخور، وسافروا من ساحل بولاق في يوم الاثنين تاسع شهر ربيع

(١) أُنشيء هذا الديوان في الأصل أيام الظاهر برقوق بهدف صرف مرتّبات المماليك السلطانية من جامكيات (رواتب) وعلّيق وكسوة. وقد أفردت لهذا الديوان بعض الإقطاعات لذلك سُمّي بالديوان المفرد. وهو بذلك يعتبر ديواناً خاصّاً بالسلطان. وانسجاماً مع سياسة سلاطين المماليك في جعل كلّ ما هو للدولة خاصّاً بهم، فقد اتّسعت سلطة هذا الديوان تدريجياً حتى صار في أواخر الدولة المملوكية يشرف على خراج الإقطاعات والأوقاف والرزق. وقد بلغت البلاد المفردة لهذا الديوان نحو ١٦٠ بلداً، فضلاً عن الرسوم التي كانت تُجبَى له من الولاة والكشّاف وغيرهم. (انظر صبح الأعشى: ٤٥٧/٣؛ زبدة كشف الممالك: ١٧؛ التحفة السَنِيّة: ١٩١).

(٢) المراد غزو جزيرة رودس. وكانت تحت سيطرة فرسان القدّيس يوحنا (الأسبتارية) وهم من بقايا الحملات الصليبية. ـ راجع فهرس المصطلحات: الأسبتارية والداوية.
وكان عدد الذين جهّزهم السلطان جقمق لهذه الغزوة مائتين من الأجناد. غير أنه انضمّ إليهم ـ كما قال المقريزي ـ طوائف من أوغاد العامّة وأراذل العبيد المفسدين ومن الزعر والمجرمين حتى بلغوا ألفاً أو يزيدون. ولم ينفق في المماليك مال على العادة. (السلوك: ١٢٠٥/٤).

الأول. وكان جملة ما انحدر من ساحل بولاق خمسة عشر غُرَاباً فيها المماليكُ السلطانية والمُطوِّعة. وسببُ هذه التجريدة كثرةُ عَيْثِ الفرنج في البحر، وأخذُها مراكب التجّار؛ وهذه أول بعثة بعثها الملكُ الظاهر من الغزاة.

ثم في يوم السبت سادس عشرين شهر ربيع الآخر، قَدِمَ إلى القاهرة رسلُ القانِ معينِ الدين شاه رُخ بن تَيْمُور لَنْك، ملِك الشرق، وقد زُيِّنت القاهرة لقدومهم، وخرج المقامُ الناصري محمد ابن السلطان إلى لقائهم، واجتمع الناس لرؤيتهم، فكان لدخولهم يوم مشهود لم يعهد بمثله لقدوم رُسُل في الدول المتقدمة؛ وأُنزلوا بدار أُعِدّت لهم، إلى يوم الاثنين ثامن عشرينه، فتوجّهوا من الدار المذكورة إلى القلعة، بعد أن شقّوا القاهرة، وهي مزينة بأحسن زينة، والشموع وغيرها تُشعل، وقد اجتمع عالِم عظيم لرؤيتهم، وأُوقفت العساكرُ من تحت القلعة إلى باب القصر في وقت الخدمة من باكر النهار المذكور. فلما مثَل الرّسُلُ بين يدي السلطان، قُرىء كتابُ شاه رخ، فكان يتضمن السلامَ والتهنئةَ بجلوس السلطان على تخت المُلْك؛ ثم قُدِّمت هديتُه وهي: مائة فصّ فَيْروز، وإحدى وثمانون قطعة من حرير، وعدّة ثياب وفرو ومِسك وثلاثون بُخْتِيّاً من الجِمال وغير ذلك، مما يبلغ قيمته خمسة آلاف دينار. وأُعيد الرُّسُلُ إلى منازلهم، وأُجري عليهم الرواتب الهائلة في كل يوم. ثم قُلعت الزينة في يوم الثلاثاء سلخه. وكان الناس تفننوا في زينة القاهرة، ونصبوا بها القلاع[1]، وفي ظنّهم أنها تتمادى أياماً، فانقضى أمرها بسرعة.

ثم في يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى ورد الخبرُ على السلطان بنصرة[2] الغزّاة المجرّدين إلى قتال الفِرنْج.

ثم في يوم الاثنين عشرين جمادى الأولى، خلع السلطانُ على القاضي بدرِ الدين أبي المحاسن محمد بن ناصر الدين محمد ابن الشيخ شرف الدين

---

(١) هي قلاع خشبية كانت تُقام في الشوارع ويتفنّن الناس في صنعها وزخرفتها، وذلك في أيام الاحتفالات وخاصّة المواكب الملوكية. ـ راجع أيضاً فهرس المصطلحات: القلاع.

(٢) لم يكن هذا الخبر صحيحاً لأن هذه الغزوة باءت بالفشل. ـ انظر ما سيأتي.

عبد المنعم البغدادي، أحد نوّاب الحكم الحنابلة، باستقراره قاضيَ قضاة الحنابلة بالديار المصرية، بعد موت شيخ الإسلام محبّ الدين أحمد بن نصر الله البغدادي.

ثم في يوم الثلاثاء حادي عشرين جمادى الأولى المذكور، قَدِمَ الغزاة. وكان من خبرهم أنهم انحدروا في النيل إلى دِمْياط، ثم ركبوا منه البحر، وساروا إلى جزيرة قُبْرُس، فقام لهم متملّكُها بالإقامات، وساروا إلى العَلاَيَا، فأمدَّهم صاحبُها بغُرَابَيْن، فيهما المقاتلةُ، ومضوا إلى رُودِس، وقد استعدّ أهلُها لقتالهم، فكانت بينهم محاربةٌ طولَ يومهم، لم ينتصف المسلمون فيها، وقُتل منهم اثنا عشر من المماليك، وجُرح كثير، وقُتل من الفرنج أيضاً جماعة كثيرة. فلما خلص المسلمون من قتالهم بعد جهد، مرّوا بقرية من قرى رُودِس فقتلوا وأسروا ونهبوا ما فيها، وعادوا إلى دِمْياط وأعلموا السلطانَ بأنه لم يكن لهم طاقةٌ بأهل رُودِس.

ثم في يوم الثلاثاء ثامن عشرين جمادى الأولى المذكور، خلع على خواجا كلال رسول شاه رُخ خلعةَ السفر، وقد اعتُني بها عناية لم يتقدّم بمثلها لرسول في زماننا هذا؛ وهي حرير مُخَمَّل بوجْهَيْن: أحمد وأخضر، وطُرُز زَرْكَش، فيه خمسمائة مثقال من ذهب، وأركب فرساً بسرجٍ ذهب، وكُنْبُوش زَرْكَش، في كلٍّ منهما خمسمائة دينار، وجُهّزت صُحبته هدية ما بين ثياب حرير سكندري، وسرج وكُنْبوش ذهب، وسيوف مُسَقَّطَة بذهب، وغير ذلك مما تبلغ قيمته سبعة آلاف دينار؛ هذا بعد أن بلغت النفقةُ من السلطان على الرسول المذكور ورفقته نحو خمسة عشر ألف دينار، سوى الهدية المذكورة.

ثم في يوم السبت ثاني جمادى الآخرة، وقع بين القاضي حميد الدين الحنفي وبين شهاب الدين أحمد بن إسماعيل بن عثمان الكوراني الشافعي مخاصمة، وآل أمرُهما إلى الوقوف بين يدي السلطان؛ فغضب السلطانُ لحميد الدين وضربَ الشهابَ الكوراني وأهانه، ورسم بنفيه إلى دمشق، ثم إلى البلاد المشرقيّة، فخرج على أقبح وجه. وكان هذا الكوراني قَدِمَ القاهرةَ قبيل سنة أربعين وثمانمائة، في فاقة عظيمة من الفقر والإفلاس، واتصل بباب المَقَرّ الكمالي ابن البارِزِي فوالاه بالإحسان

على عادة ترفقه بأهل العلم، ونوّه بـذكره، حتى عـرفه النـاس، وتردّد إلى الأكـابر، وصار له وظائف ومرتبات، فلم يحفظ لسانَه لطيشٍ كان فيه، حتى وقع له ما حكيناه.

ثم في يوم الخميس رابع عشر جمادى الآخرة، قَدِمَ الأميرُ جُلْبان نـائبُ الشأم إلى القاهرة، ونزل السلطانُ إلى لقائه بمطعم الطَّير[1] خارج القاهرة، وهو أولُ رَكبةٍ ركبها بعد سلطنته بالموكب، وخلع السلطانُ على جُلْبان المذكور خلعـةَ الاستمرار، وعاد السلطانُ إلى القلعة وهو في خدمته.

ثم في يـوم الاثنين عاشـر شهر رجب، أنعم السلطانُ بـإقطاع الأميـر أَلْطُنْبَغـا المرقبي المؤيدي. وتقدمته على الأمير طوخ مِن تِمْراز الناصري الرأس نوبة الثاني، بعد موتـه؛ وأنعم بإقـطاع طوخ وهـو إمرة أربعين، على قـاني باي الجـاركسي شادّ الشراب خاناه.

ثم في يوم الاثنين أول شعبان، أُضيف نظرُ دار الضرب، للمقرّ الجمالي ناظر الخواص الشريف، كما كانت العادة القديمة، وذلك بعد موت جوهر القُنُقْبائي الزِّمام والخازندار.

ثم في يـوم السبت سـادســه، خلع السلطانُ علي الـطَّوَاشي هــلال الـرومي الظاهري برقوق، شادّ الحوش السلطاني، باستقراره زِماماً، عوضاً عن جوهر المقدّم ذكره، على مال كثير بذله في ذلك.

ثم في يوم الأحد سابعه خلع علي الزيني عبد الـرحمن بن علم الدين داوُد بن الكُوَيز باستقراره أستادارَ الذخيرة[2]، وخُلع علي الطواشي الحبشي جوهر التِّمْـرَازي الجَمَدَار باستقراره خازنداراً، كلاهما عوضاً عن جوهر المذكور.

ثم في يوم السبت عشرين شعبان ركب السلطانُ من قلعة الجبـل بغير قمـاش الموكب، لكن بجميع أمرائه وخـاصّكيته، ونـزل في أُبّهة عـظيمة، وسار على خليج

(١) مطعم الطير المخصّصة للصيد، وكان بالريدانية. ـ راجع فهرس المصطلحات.
(٢) الذخيرة: هي الأملاك المنقولة الخاصّة بالسلطان. ـ راجع فهرس المصطلحات.

الزَّعفران خارج القاهرة، ونزل هناك بمخيَّمه، ومدّت له أَسْمِطة جليلة وأنواع كثيرة من الحلوى والفواكه. ثم ركب بعد صلاة الظهر وعاد إلى القلعة، بعد أن دخل من باب النصر، وشَقّ القاهرةَ، وابتهج الناس به كثيراً. وهذه أول مرة شَقّ فيها القاهرة بعد سلطنته. وكان هذا الموكب جميعه بغير قماش الموكب؛ ولم يكن ذلك في سالف الأعصار؛ وأول مَن فعل ذلك وترخَّص في النزول من القلعة بغير كَلْفَتَاه[1] ولا قماش، الملك الناصر فرج، ثم اقتدى به الملك المؤيد شيخ، ثم مَن جاء بعدهما.

وفي هذا الشهر، تكلّم زينُ الدين يحيىٰ الأشقر ناظر الديوان المُفْرَد مع الأمير قِيزطُوغان العلائي الأستادار، بأنه يكلم السلطانَ في إخراج جميع الرِّزَق الأحباسية والجيشية التي بالجيزة وضواحي القاهرة، وحسَّن له ذلك، حتى تكلم قِيزطُوغان المذكور في ذلك مع السلطان وألحّ عليه. ومال السلطان لإخراج جميع الرِّزَق المذكورة، إلى أن كلّمه في ذلك جماعة من الأعيان ورجّعوه عن هذه الفعلة القبيحة، فاستقر الحال على أنه يجبى من الرزق المذكورة في كل سنة عن كل فدّان مائة درهم من الفلوس، فجُبِيَت. واستمرت إلى يومنا هذا في صحيفة زين الدين المذكور، لأنه هو الدالُّ عليها، والدالُّ على الخير كفاعله وكذلك الشَّر.

ثم في يوم الثلاثاء أول شهر رمضان ورد الخبر على السلطان بالقبض على الأمير قَنْصُوه النّوْرُوزي، وكان له من يوم وقعة الجَكَمي في اختفاء، فرسم بسجنه بقلعة دمشق. وقانصوه هذا من أعيان الأمراء المشهورين بالشجاعة وحُسْن الرمي بالنُّشّاب، غير أنه من كبار المخاميل الفلاسة المديونين.

ثم في يوم السبت ثاني عشر شهر رمضان خلع السلطانُ على القاضي معين الدين عبد اللطيف ابن القاضي شرفَ الدين أبي بكر، سبط العجمي، باستقراره في نيابة كتابة السرّ بعد وفاة أبيه.

ثم في يوم الاثنين تاسع عشر شوّال برز أميرُ حاجِّ المحمل الأميرُ تَمُرْباي رأس

---

(١) الكلفتاه أو الكلوتة: غطاء للرأس. ـ انظر فهرس المصطلحات.

نوبة النوب، بالمحمل، وأميرُ الركب الأول سُودون الإينالي المؤيدي، المعروف بقَرَاقَاس، أمير عشرة. وحجّ في هذه السنة ثلاثةٌ من أمراء الألوف: تَمُرْباي المقدّم ذكره، والأمير تمراز القُرُمُشِي أمير سلاح، والأمير طُوخ من تِمْراز الناصري، وسبعة أمراء أُخَر، ما بين عشرات وطبلخانات. وتوجّه تِمْراز أمير سلاح بالجميع رَكْباً وحْدَه قبل الركب الأول، كما سافر في السنة الماضية الأميرُ جَرِبَاش الكَرِيمي قاشق أمير مجلس، وصُحبته ابنتُه زوجةُ السلطان الملك الظاهر.

ثم في يوم السبت سابع ذي القعدة قَدِمَ إلى القاهرة الأميرُ قاني باي الحمزاوي نائب حلب باستدعاء، فركب السلطانُ إلى ملاقاته بمطعم الطير، وخلع عليه باستمراره على كفالته.

وفي أواخر هذا الشهر طرد السلطانُ أَيْتَمُش الخضريَّ الظاهري، أحدَ الأمراء البَطَّالة، من مجلسه، ومنعه من الاجتماع به؛ وهذه ثاني مرة أهانه السلطانُ وطرده. وأما ما وقع لأَيْتَمُش المذكور قبل ذلك في دولة الأشرف بَرْسْباي من البهدلة والنفي فكثير، وهو مع ذلك لا ينقطع عن الترداد للأمراء وأرباب الدولة بوجه أقوى من الحجر.

وفي هذه السنة، أعني سنة أربع وأربعين وثمانمائة، جُدّد بالقاهرة وظواهرها عدّةُ جوامع؛ منها جامع الصالح طلائع[1] بن رُزِّيك خارج باب زَوِيلَة، قام بتجديده رجل من الباعة يقال له عبد الوهاب العيْني؛ ومنها مشهد السيدة رقيّة، قريباً من المشهد النَّفِيسي[2]، جدّده الشريفُ بدر الدين حسين بن أبي بكر الحسيني، نقيب الأشراف؛ وجُدّد أيضاً جامع الفاكهيين[3] بالقاهرة، وجامع الفَخْر[4] بخُط سُوَيْقة الموفّق بالقرب من بولاق؛ وجدّد أيضاً جامع الصارم[5] أيضاً، بالقرب من بولاق؛

---

(١) انظر خطط المقريزي: ٢/٢٩٣ - ٢٩٤.

(٢) خطط المقريزي: ٢/٤٤٠. ـ ولم يذكر المقريزي في خططه مشهد السيدة رقيّة.

(٣) خطط: ٢/٢٩٣.

(٤) خطط: ٢/٣١١.

(٥) خطط: ٢/٣٢٥.

وأنشأ أيضاً جوهر المَنْجَكي نـائبُ مقدّم الممـاليك، جـامعاً بـالرُّمَيْلة، تجـاه مصلاة المُؤمني، وعمارته بـالفقيري بحسب الحـال؛ وأنشأ تَغْـرِي بَرْدي المؤذي البَكْلَمُشي الدَّوَادار جامعاً بخُط الصَّلِيبية على الشارع الأعظم.

قلت: الناس على دين مليكهم، وهو أنه لمّا كانت الملوكُ السالفة تهوى النزه والطرب، عمرت في أيامهم بولاق وبِركةُ الـرَّطْلي وغيرهمـا من الأماكن، وقَـدِمَ إلى القاهرة كل أستاذ صاحب آلة من المطربين وأمثالهم من المغاني والملاهي، إلى أن تسلطن الملكُ الظاهر جَقْمَق، وسار في سلطنته على قدم هائل من العبادة والعفّة عن المنكرات والفروج، وأخذ في مقت مَن يتعاطى المُسكِرات من أمرائه وأرباب دولته، فعند ذلك تاب أكثرهم، وتَصَوْلَح وتزهَّد، وصار كل أحد منهم يتقرّب إلى خاطره بنوع من أنواع المعروف؛ فمنهم مَن صار يُكثِر من الحج، ومنهم مَن تاب وأقلع عمّا كان فيه، ومنهم مَن بنى المساجد والجوامع، ولم يبقَ في دولته ممّن استمر على ما كان عليه إلاّ جماعة يسيرة؛ ومع هذا كان أحدهم إذا فعل شيئاً من ذلك، فعله سرّاً مـع تخوّف ورعب زائد، يرجفه في تلك الحالة صفير الصافر وخفق الرياح، فللَّه درّه من ملك، في عفّته وعبادته وكرمه.

ثم في يوم السبت ثالث شهر ربيع الأول من سنة خمس وأربعين وثمانمائة خلع السلطانُ علَى يار عَلي بن نصر الله الخراساني العجمي الطويل باستقراره في حِسبـة القاهرة، مضافاً لما بيده من حِسبة مصر القديمة عوضاً عن قاضي القضاة بدر الدين محمود العيني الحنفي بحكم عزله.

ثم في يوم الخميس ثامن شهر ربيع الأول المذكور كانت مبايعةُ الخليفة أميـر المؤمنين سليمان ابن الخليفة المتوكل على الله أبي عبد الله محمد بالخلافة، بعد وفاة أخيه المعتضدِ داؤد، بعهدٍ منه إليه، ولُقّب بالمستكفي بالله أبي الربيع سليمان.

ثم في يـوم الاثنين سادس عشـر جُمادى الأولى خلع السلطانُ على الشـريف عليّ بن حسن بن عَجْلان باستقراره في إمرة مكة، عوضاً عن أخيه بـركات بن حسن بحكم عزله، لعدم حضوره إلى الديار المصـرية؛ وعيّن السلطانُ مـع الشريف عليّ

المـذكور خمسين مملوكـاً من المماليك السلطانية، وعليهم الأمير يَشْبَك الصُّوفي المؤيدي أحد أمراء العشرات ورأس نوبة، لمساعدة عليّ المـذكور على قتـال أخيه الشريف بركات؛ وسافر الشريفُ عليّ من القـاهرة في يـوم الخميس رابع عشـرين جمادى الآخرة.

ثم في يوم الاثنين سادس شهـر رجب قَدِمَ إلى القـاهرة الأمير بَرْسْبـاي نائب طرابلس، ونزل السلطانُ إلى مطعم الطيور خارج القـاهرة، وتلقّـاه وخلع عليه على العادة.

ثم يوم الثلاثاء سابع شهر رجب، أمسـك السلطانُ الأميرَ قيـز طُوغـان العلائي الأستادار، وقبض معه على زين الدين يحيـىٰ ناظر ديوان المفـرد، وسلّمهما لـلأمير دولات باي المحمودي المؤيدي الدوادار الثاني.

ثم خلع السلطان في يوم الخميس سادس عشره على الزيني عبـد الرحمن بن الكُوَيز باستقراره أستاداراً، عوضاً عن قِيز طُـوغان، وخلع على زين الـدين المذكـور باستقراره على وظيفة نظر المفرد على عادته. وأنعم السلطان على الأمير قيز طوغـان بإمرة مائة وتقدمة ألف بحلب، وخرج في يوم السبت خامس عشرينه.

ثم في يوم الاثنين سابع عشرينه خلع السلطانُ على الشهابي أحمد بن علي بن إينال اليوسفي، أحد أمراء العشرات، باستقراره في نيابة الإسكندرية، بعد عزل الأمير أُسنبغا الناصري الطَّيّاري عنها، وقدومه إلى القاهرة على عادته أميرَ مائة ومقدّم ألف.

ثم في يوم السبت أول شهر رمضان قَدِمَ الشيـخُ شمسُ الدين محمـد الخافي الحنفي من مدينة سَمَرْقَنْد، قاصداً الحج ـ وهو أحد أعيان فقهـاء القان شـاه رُخ بن تيمور، وولده أُلُوغ بك صاحب سمرقند واجتمع بالسلطان، فأكرمه وأنعم عليه بأشياء كثيرة.

ثم في يـوم الخميس ثامن عشـر شوّال بـرز أميرُ حـاجِّ المحمل تَغْـرِي بَرْمَش السيفي يَشْبَك بن أَزْدَمُر الزّرْدْكاش بالمحمل إلى بـركة الحـاج دفعة واحـدة ـ وكانت

العادة أن أميرَ حاجِّ المحمل يبرز من القاهرة إلى الرِّيْدَانية ثم يتوجّه في ثانيه إلى بركة الحاج ـ وأمير حاج الركب الأول الأمير يونس السيفي آقْبَاي، أحد أمراء العشرات المعروف بالبوّاب.

ثم في يوم الثلاثاء ثالث عشرين شوّال، أمسك السلطانُ الأميرَ جانِبَك المحمودي المؤيدي، أحد أمراء العشرات ورأس نوبة، وحبسه بالبرج من قلعة الجبل. وكان السلطانُ قصد مسكه قبل ذلك، فخشي عاقبَة خُجْداشِيَّته، فلما زاد جانِبَك المذكور عن الحدّ في التكلّم في الدولة ومداخلة السلطان في جميع أموره، بعدم دُرْبَة وقلّة لباقة، مع حدّة وطيش وخفّة وسوء خلق، أمسكه في هذا اليوم، وقصد بذلك حركةً تظهر من خُجْدَاشيَّته المؤيدية، فلم يتحرك ساكن، بل خاف أكثرهم، وحَسُن حاله مع السلطان، وانكفّ أكثرهم عن مداخلة السلطان؛ وأنعم السلطانُ بإمرته على خُجْدَاشِه خير بك الأشقر المؤيدي أحد الدوادارية الصغار؛ ولم يكن خير بك المذكور ممّن ترشّح للإمرة. ومِن يومئذ عَظُم أمرُ السلطان في مُلكه، وهابته الناس، وانقطع عن مداخلته جماعة كبيرة، ثم حُمل جانِبَك المذكور إلى سجن الإسكندرية فسجن به.

هذا والسلطانُ في اهتمامِ تجريدةٍ لغزو رُودِس، وعيّن عدّة كبيرة من المماليك السلطانية والأمراء، ومقدّم الجميع اثنان من مقدّمي الألوف: الأمير إينال العلائي الناصري، المعزول عن نيابة صَفَد، والأمير تَمُرْباي رأس نوبة النوب. وسافروا الجميع من ساحل بولاق، في محرّم سنة ست وأربعين، ومعهم عدّة كبيرة من المُطّوِّعَة، بأبهج زيّ من العدد والسلاح؛ وكان لسفرهم بساحل بولاق يوم مشهود، إلّا أنهم عادوا في أثناء السنة، ولم ينالوا من رودس غرضاً، بعد أن أخربوا قَشْتِيل[١] حسبما يأتي ذكره في الغزوة الثالثة الكبرى.

---

(١) قشتيل: chateauroux أو الحصن الأشهب. وهي جزيرة صغيرة بجوار ساحل آسيا الصغرى الجنوبي. وكانت تابعة للفرسان الإسبتارية المتسلطين على رودس. (النجوم، طبعة كاليفورنيا، ج ٧، ص ١٢٢، حاشية؛ وطبعة المؤسسة المصرية، ج ١٥، ص ٣٥٢، حاشية).

وبعد سفرهم وقع حادثة شنعة؛ وهي أنه لمّا كان يوم الاثنين سادس عشر صفر، وثب جماعة كبيرة من مماليك السلطان الأجلاب، من مشترواته الذين بالأطباق من القلعة، وطلعوا إلى أسطحة أطباقهم، ومنعوا الأمراء وغيرهم من الأعيان من طلوع الخدمة، وأفحشوا في ذلك إلى أن خرجوا عن الحدّ، ونزلوا إلى الرحبة عند باب النحاس، وكسروا باب الزَّرَدْخَاناه السلطانية، وضربوا جماعة من أهل الزردخاناه، وأخذوا منها سلاحاً كثيراً، ووقع منهم أمور قبيحة في حق أستاذهم الملك الظاهر، ولهجوا بخلعه من المُلك. وهمّ السلطانُ لقتالهم، ثم فتر عزمُه عن ذلك شفقةً عليهم، لا خوفاً منهم. ثم سكنت الفتنة بعد أمور وقعت بين السلطان وبينهم.

ثم في يوم الخميس عاشر شهر ربيع الأول، قَدِمَ الأميرُ مازِي الظاهري برقوق نائب الكَرَك، وطلع إلى القلعة، وخُلع عليه باستمراره.

ثم في يوم الاثنين حادي عشرين شهر ربيع الأول المذكور، خلع السلطانُ على مملوكِهِ قَرَاجَا الظاهري الخازندار، باستقراره خازنداراً كبيراً، عوضاً عن الأمير قانِبَك الأبو بكري الأشرفي الساقي، بحكم مرضه بداء الأَسَد[1]، نسأل الله العفو والعافية.

وفيه أيضاً استقر ابنُ الحاضري قاضي قضاة الحنفية بحلب بعد عزل مُحِبّ الدين محمد بن الشِّحْنة، لسوء سيرته.

ثم في يوم الأحد ثاني عشر شهر ربيع الآخر، قَدِمَ الأميرُ سُودون المحمدي من مكّة المشرّفة إلى القاهرة، وهو مجرَّح في مواضع من بدنه، من قتال كان بين الشريف عليّ صاحب مكة وبين أخيه بركات، انتصر فيه الشريفُ عليّ، وانهزم بركات إلى القبر.

ثم في يوم الأحد سادس عشرين شهر ربيع الآخر المذكور، أمسك السلطانُ الزيني عبدَ الرحمن بن الكُوَيْز، وعزله عن الأستادارية. ثم أصبح من الغد خلع على زينِ الدين يحيىٰ ناظر الديوان المُفْرَد باستقراره أستاداراً، عوضاً عن ابن الكُوَيْز المذكور.

---

(١) داء الأسد: صنف من الجذام، سمّي بذلك لمشابهة وجه صاحبه وجه الأسد. (المعجم الوسيط).

وكان من خبر زين الدين هذا أنه كان كثيراً ما يَلي الوظائفَ بـالبَذْل ثم يُعـزل عنها بسرعة، وقد تجمّد عليه جمل من الديون؛ وكان خصمه في وظيفة نظر الديوان المُفْرَد عبد العظيم بن صدقة الأسلمي، وغريمه في نظر الإسطبل شمس الدين الوِزّة. ولا زال زينُ الدين المذكور في بحبوحة من الفقر والذلّ والإفلاس، إلى أن وَلي الأمير قِيز طُوغـان الأستادارية، فاختـار زينَ الدين هـذا لنـظر الـديـوان المُفْـرَد، وضَـرب عبد العظيم وأهانه، كونه كـان من جملة أصحاب محمـد بن أبي الفرج، وركنَ إلى زين الدين هذا، وصار المعوّلُ عليه بديوان المُفْرَد؛ فاستفحل أمرُه، وقضى ديونَـه. فحدّثته نفسه بالأستادارية، لمصداق المثل السـائر: «لا تمـوت النفس الخبيثة حتى تسيء لمَن أحسن إليها». فأخذ زينُ الدين يدبّر على الأميـر طُوغـان في الباطن، ويُمْلي له المفسودَ، بأن يحسّن له الإقالةَ من الوظيفة، حتى يعـظُم أمرُه، من سؤال السلطانِ له باستقراره في الوظيفة، ويُظهِر له بذلك النُّصح، إلى أن انفعل له طُوغان وسـأل الإقـالـةَ، فـأقـالـه السلطانُ، وخلع على الـزيني عبـد الـرحمن بن الكُـوَيْـز بالأستادارية.

واستمر زينُ الدين على وظيفةِ نظر ديوان المُفْرَد، وقد تفتّحت له أبـواب أخْذ الأستادارية، لسهولة ابن الكُوَيْز وخروج قِيز طُوغان من مصر، فإنه كان لا يحسن به المرافعة في طُوغان ولا السعي عليه بوجه من الوجوه، فسلَكَ في ذلك ما هو أقرب لبلوغ قصده، بعزل طُوغان وولاية ابن الكُوَيْز، حتى تمّ له ذلك، ولبس الأسْتَادَّارِيَّة ونُعت بـالأمير، لكنـه لم يَتَزَيَّـا بِزيِّ الجنـد، بل استمـر على لبسـه أولاً: العمـامـة والفرجية، فصار في الوظيفة غيرَ لائق، كونه أستـاداراً وهو بـزيّ الكَتَبة، وأميـراً ولا يعرف باللغة التركية، ورئيساً وليس فيه شيم الرئاسة؛ وكانت ولايته وسعادته غلطة من غلطات الدهر، وذلك لفقد الأماثل. [فكان كما قيل: الكامل]

خلت الـرِّقـاعُ من الـرِّخـاخ فَـفَـرْزَنَتْ فـيهـا الـبَيَـاذِق[1]
وتصـاهَلتْ عُـرْجُ الـحميـر فقلتُ: مـن عُـدْمِ السَّـوابِـق

(١) الرخاخ: جمع رخّ، وهو القلعة في لعبة الشطرنج. وفرزان الشطرنج هو الوزير، والبيذق هو الجندي.

وفيه خلع السلطانُ على الأمير أَقْبَرْدِي المظفري الظاهري برقوق، أحد أمراء العشرات ورأس نوبة، ونَدبه للتوجّه إلى مكّة المشرّفة، وصُحبته من المماليك السلطانية خمسون مملوكاً، ليستعين بهم الشريفُ عليّ صاحب مكة على مَن خالفه، وسافر بعد أيام رجبيّة.

ثم في يوم الخميس أول جمادى الأولى، أمسك السلطانُ الصفوي جوهراً التِّمْرازي الخازندار، ورسم عليه عند تَغْري بَرْمَش الجلالي المؤيدي الفقيه نائب قلعة الجبل، وطالبه السلطانُ بمال كبير. وخلع السلطانُ على الطَّوَاشي فيروز الرومي النَّوْرُوزي رأس نوبة الجَمَدَارية، باستقراره خازنداراً، عوضاً عن جوهر المذكور؛ وتأسّف الناسُ كثيراً على عزل جوهر التِّمْرازي، فإنه كان سار في الوظيفة أحسنَ سيرة، وترقّب الناسُ بولاية فيروز هذا أموراً كثيرة.

ثم في يوم الاثنين سادس عشرينه، استقر فيروزُ النَّوْرُوزي المذكور زِماماً، مضافاً للخازندارية بعد عزل هلال الطَّوَاشي عنها.

ثم في يوم الخميس ثالث عشر جمادى الآخرة، خلع السلطانُ على الأمير إينال العلائي الناصري باستقراره دواداراً كبيراً، بعد موت الأمير تَغْري بَرْدي المؤذي البَكْلَمُشي، وأنعم بتقدمة تَغْرِي بَرْدِي المذكور على الأمير قَاني باي الجركسي، واستمر على وظيفة شَدِّ الشراب خاناه، مع تقدمة ألف؛ وأنعم بطبلخاناه قاني باي على جانِبَك القِرْماني الظاهريّ برقوق رأس نوبة، وأنعم بإقطاع جانِبَك على أَيْتَمُشْ بن عبد الله من أُزُوباي أستادار الصحبة، وهي إمرة عشرة، وأنعم بإقطاع أَيْتَمُش على سَنْجَبَغَا، وكلاهما إمرة عشرة، والتفاوت في زيادة المغل.

ثم في يوم السبت خامس شعبان رسَم السلطان بنفي الأمير سُودون السُّودوني الظاهري الحاجب إلى قوص، فشُفع فيه فرسَمَ بتوجّهه إلى طرابُلُس، ثم شُفع فيه ثانياً فرسَم له بالإقامة بالقاهرة بَطَّالاً.

ثم في يوم الاثنين ثالث شوال، خلع السلطانُ على الشريف أبي القاسم بن

حسن بن عَجْلان، باستقراره أميرَ مكة، عوضاً عن أخيه عليّ، بحكم القبض عليه وعلى أخيه إبراهيم بمكّة المشرّفة.

ثم في سابع عشره، برز أميرُ حاجِّ المحمل، الأميرُ تَنِبَك البردبكي حاجب الحجّاب، بالمحمل إلى بِركة الحاج، وهذه سَفرتُه الثانية، وأميرُ الركب الأول الأميرُ الطَّوَاشي عبدُ اللطيف المَنْجَكِي العثماني الرومي مقدّم المماليك السلطانية.

ثم في يوم السبت تاسع عشرين شوّال، خلع السلطان على قاضي القضاة بدر الدين محمود العيني الحنفي بإعادته إلى حسبة القاهرة بعد عزل يار علي وسفره إلى الحجاز.

ثم في يوم الاثنين أوَّل ذي القعدة، قَدِمَ الأميرُ أُرْكَمَاس الظاهري الدَّوَادَار الكبير ـ كان ـ من ثغر دِمْياط بطلبٍ من السلطان وطلع إلى القلعة، وخلع عليه السلطانُ كاملية مخمل بمقلب سَمُّور، ورسم له أن يقيم بالقاهرة بَطّالاً، وأذِنَ له بالركوب حيث شاء.

ثم في يوم الاثنين تاسع عشرين ذي القعدة المذكور، خلع السلطانُ على القاضي بهاء الدين محمد ابن القاضي نجم الدين عمر بن حجي ناظر جيش دِمَشق، باستقراره ناظرَ الجيوش المنصورة بالديار المصرية، مضافاً لما بيده من نظر جيش دِمَشق، عوضاً عن القاضي محب الدين بن الأشقر، بحكم عزله وغيابه في الحج، وذلك بسفارة حميه القاضي كمال الدين بن البارِزِي كاتب السرّ الشريف.

ثم في يوم الثلاثاء ثاني عشر صفر من سنة سبع وأربعين وثمانمائة، أُعيد يار علي الخُراساني إلى حِسبة القاهرة، وصُرِفَ العيني عن الحِسْبَة.

ثم في يوم الأربعاء حادي عشر شهر ربيع الأول، عمل السلطان المولد النبوي على العادة.

ثم في يوم الأربعاء ثامن جمادى الآخرة، قَدِمَ الزيني عبدُ الباسط بن خليل، وكان توجَّه من سنة أربع وأربعين من الحجاز إلى دمَشق، بشفاعةِ الناصري محمد بن

منجك له. ولما وصل إلى القاهرة طلع إلى القلعة وقبَّل الأرض، ومعه أولادُه، ثم تقدّم وباسَ رِجل السلطان، فقال لـه السلطانُ: «أهلاً» بصـوت خفيّ ولم يزده على ذلك. ثم ألبسه كاملية سابوري أبيض بفرو سمور، وألبس أولادَه كـل واحد كـاملية سمور بطوق عجمي، ثم نزل إلى داره. وقدَّم تقدمتَه في يوم الجمعة عاشر جمادى الآخرة المذكورة؛ وكانت تشتمل على شيء كثير، من ذلك أربعة وأربعون [قفصاً من أقفاص الحمّالين مشحونة][1] بالأقمشة من أنـواع الفِرَاء والصـوف والمُخَمّل والشُّقَق الحرير، والسلاح وطبول بأزات مذهّبة، وخيول نحو مائتي فرس وأربعين فرساً، منها أكاديش خاصّ بسروج مذهّبة، وبدلات مينة وعُبي حريـر عدّة كبيـرة، ومنها عشـرة خيول عليها بَرْكستوانات[2] ملوّنة، وسروج مُغَرّقَة، ومنها ثمانية سـروج سُذّج بـرسم الكُرَة، وبِغال ثلاثة أقطار، وجِمال بخاتي قطار واحد، فقبل السلطان ذلك كله. وبعد هـذا كلِّه لم يتحرّك حظُّ عبـدِ الباسط عنـد السلطان، ولا تجَمّـل معه بـوظيفـة من الوظائف، بل أمره بالسفر بعد أيام قليلة. قلت: ليس للطمع فائدة، وأخذ ما يأخـذ زمانه وزمان غيره، وما أحسن قول مَن قال: [المتدارك]

وتَـرَى الـدهـرَ لَعْبـاً لمُعْتَبِـرٍ   والـنـاسُ بـه دولٌ دولُ
كـرةٌ وُضِعـت لِصَـوالِجَـةٍ   فَـتَـلَقّـفَـهـا رَجُـلٌ رجـلُ

ثم في يوم الاثنين عشرينه قَدِمَ الأميرُ خليل بن شاهين الشيخي نائب مَلَطْيَـة، وخلع عليه السلطانُ خلعةَ الاستمرار، وقدّم هديتَه. وأقـام بالقـاهرة إلى يـوم الاثنين رابـع شهر رجب، فخلع السلطان عليـه باستقـراره أتابَـكَ حلب، عوضـاً عن الأمير قِيز طُوغان العلائي المعزول عن الأسْتَادّارِيّـة، بحكم استقرار قِيـز طُوغـان في نيابـة مَلَطْيَة عوضاً عن خليل المذكور.

(١) عبارة الأصل: «... أربعة وأربعون حمّالاً على الرؤوس مردومة أقمشة». وما أثبتناه عن هـامش طبعة كاليفورنيا.

(٢) البركستوان والبركصطوان والبركشتوان: هـو ثوب البـدن، أو حافظ لحم الصـدر للفرس. ولعـلّ أصله بالفارسية: بركشتبان. (في التراث العربي: ١/٣٤٥). ـ وهو غاشية الحصـان المزركشـة، وتكون لغيـر الخيول كالفيلة. (صبح الأعشى: ٥/١٤٠).

ثم في يوم السبت ثامن عشر شوّال، برز أميرُ حاجِّ المحمل، الأمير شادبك الجكَمي، أحد مقدّمي الألوف، بالمحمل إلى بِركة الحاج، وأميرُ الركب الأول الأمير سَونْجَبَغا اليونسي، أحد أمراء العشرات ورأس نوبة.

ثم في يوم الأربعاء ثاني عشرين شوّال، أُعيد القاضي محبّ الدين بن الأشقر إلى وظيفة نظر الجيش، وصُرف عنها القاضي بهاءُ الدين بن حجي، واستمر على وظيفته نظر جيش دِمَشْق على عادته أولاً، وكانت بيده لم تخرج عنه.

ثم في يوم الخميس سلخ شوّال، قَدّم ابن حجي المذكور إلى السلطان تقدمة هائلة تشتمل على خمسة وأربعين قفصاً من أقفاص الحمّالين ما بين ثياب بَعْلَبَكّي، وقسيّ وصوف، وأنواع الفرو، وغير ذلك. ثم في يوم الاثنين رابع ذي القعدة، خَلع السلطانُ على بهاء الدين المذكور خلعةَ السفر، وأُضيف إليه نظرُ قلعة دمَشق.

ثم في يوم الأحد رابع عشرينه، ركب السلطانُ من قلعة الجبل ونزل بخواصه إلى أن وصل إلى ساحل بولاق، ثم عاد حتى علم الناسُ بعافيته، لأنه كان توعّك توعكاً هيناً، فأرجف الناس بقوة مرضه.

ثم في يوم الاثنين ثاني ذي الحجة، وصل الأمير جُلْبّان نائبُ الشام إلى القاهرة، ونزل السلطانُ إلى ملاقاته بمطعم الطيور بالرَّيْدَانيَّة خارج القاهرة، وخلع عليه خلعة الاستمرار على نيابة دِمَشْق، وهذه قَدْمَتُه الثانية في الدولة الظاهرية. ثم قدّم جُلْبانُ المذكورُ تقدمتَه إلى السلطان من الغد في يوم الثلاثاء، وكانت تشتمل على عدّة حَمّالين كثيرة، منها سَمُّور خمسة أبدان، ووَشَق بدنان، وقاقُم خمسة أبدان، وسِنْجاب خمسون بدناً، وقرضيات خمسون قرضية، ومُخمل ملوّن خاصّ أربعون ثوباً، ومخمل أحمر وأخضر وأزرق حلبي خمسون ثوباً، وصوف مُلَوَّن مائة ثوب، وثياب بَعْلَبَكي خمسمائة ثوب، وثياب بطائن خمسمائة أيضاً، وقِسِيّ حَلْقَة ثلاثمائة قوس، منها خمسون خاصّاً، وطبول بازات مذهّبة عشرة، وسيوف خمسون سيفاً، وخيول مائتا رأس، منها واحد بسرج ذهب وكُنْبُوش زَرْكَش، وبغال ثلاثة أقطار، وجمال أربعة أقطار، وعشرون ألف دينار على ما قيل.

وفي أواخر هذه السنة ظهر الطاعون بمصر، وفشا في أول المحرّم سنة ثمانٍ وأربعين وثمانمائة، وقد أخذ السلطانُ في تجهيز تجريدة عظيمة لغزو رُودِس، وأخذ الطاعونُ يتزايد في كل يوم، حتى عظم في صفر، وزاد عدةُ مَن يموت فيه على خمسمائة إنسان.

ثم في يوم الثلاثاء حادي عشرين صفر، نفى السلطانُ كسبايَ الششماني المؤيدي، أحد الدوادارية الصغار، وعُدّ ذلك من الأشياء التي وضعها الملكُ الظاهر في محلها؛ وقد استوعبْنا أمرَ كسباي هذا والتعريفَ بأحواله في غير هذا المحل.

ثم في شهر ربيع الأول أخذ الطاعونُ يتناقص من القاهرة ويتزايد بضواحيها.

ثم في يوم السبت سادس عشر شهر ربيع الأول المذكور، نفى السلطانُ سُودُونَ السودوني الحاجب إلى قوص، وأنعم بإقطاعه على الأمير أَلْطُنْبَغا المُعلِّم الظّاهِري برقوق، زيادة على ما بيده.

ثم في يوم السبت المذكور، خرجت الغزاة من القاهرة، فنزلت في المراكب من ساحل بولاق، وقصدوا الإسكندرية ودِمْياط، ليركبوا من هناك البحر المالح، والجميع قصدهم غزو رودس. وكانوا جَمْعاً موفوراً، ما بين أمراء وخاصّكِية ومماليك سلطانية ومُطّوّعة. وكان مقدم الجميع في هذه السنة أيضاً الأمير إينال العلائي الدَّوَادَار الكبير، كما كان في السنة الخالية. وكان معه من الأمراء الطبلخانات؛ الأمير يَلْخُجا من مامِش الساقي الناصري الرأس نوبة الثاني، ومن العشرات جماعة كبيرة، منهم: تَغْري بَرْمَش الزَّرَدْكاش، وتَغْري بَرْمَش الفقيه نائب القلعة. وهو مستمر على وظيفته ـ ورسم السلطانُ للأمير يونس العلائي الناصري أحدِ أمراء العشرات أن يسكن بباب المدرج، إلى أن يعود تَغْري بَرْمَش المذكور من الجهاد ـ وسُودون الإينالي المؤيدي قَراقاس رأس نوبة، وتَمُرْبَغَا الظاهري جَقْمَق، ونوكار الناصري، وتمْراز النَّوْرُوزي رأس نوبة المعروف بتعريص، ويَشْبَك الفقيه المؤيدي؛ وفيها[1] تأمّر بعد عوده[2] ـ بعد موت تمْراز النَّوْروزي من جرح أصابه ـ

(١) الضمير عائد على «الغزوة».

(٢) الضمير عائد على يشبك الفقيه المؤيدي.

وجماعة أُخَر من أعيان الخاصّكِية، كلٌّ منهم مقدَّم على غُراب أو زَوْرَق، ومعه عدّة من المماليك السلطانية وغيرهم. وكانت المماليكُ السلطانية في هذه الغزوة تزيد عدّتُهم على ألف مملوك، هذا خارج عمّن سافر من المطوّعَة. وأضاف إليهم السلطانُ أيضاً جماعة كبيرة من أمراء البلاد الشامية، كما فعل الملكُ الأشرف في غزوة قُبرُس المقدّم ذكرها. ورسم لهم السلطانُ أن يتوجّه الجميعُ إلى طرابلس، ليضاف إليهم العسكر الشامي، ويسير الجميع عسكراً واحداً، ففعلوا ذلك، وسافر الجميع من ثغر دمياط وثغر الإسكندرية، في يوم الخميس حادي عشر شهر ربيع الآخر؛ وكان لخروجهم من ساحل بولاق يوم عظيم، لم يُرَ مثله إلاّ نادراً.

وساروا[١] من ثغر الإسكندرية ودمْياط إلى طرابلس، ثم من طرابلس إلى رودس، حتى نزلوا على بَرِّها بالقرب من مدينتها في الخيم، وقد استعدّ أهلُها للقتال، فأخذوا في حصار المدينة، ونصبوا عليها المناجيق والمكاحل، وأَرْموا على أبراجها بالمكاحل والمدافع، واستمروا على قتال أهل رودس في كل يوم. هذا ومنهم فرقة كبيرة[٢] قد تفرّقت في قرى رودس وبساتينها ينهبون ويسبون. واستمروا على ذلك أياماً، ومدينة رودس لا تزداد إلاّ قوة، لشدّة مُقاتليها ولعظم عمارتها، وقد تأهبوا للقتال وحَصَّنوا رودس بالآلات والسلاح والمقاتلة، وصار القتال مستمراً بينهم في كل يوم، وقُتل من الطائفتين خلائق كثيرة. هذا وقد استقر الأمير يَلخُجَا الناصري في المراكب، ومعه جماعة كبيرة من المماليك السلطانية وغيرهم، لحفظ المراكب من طارق يطرقهم من الفرنج في البحر، وكان في ذلك غاية المصلحة. وصار يَلْخُجا مقدّمَ العساكر في البحر، كما كان إينال مقدّمَ العساكر في البرّ. وبينما يَلخُجا ورفقتهُ ذات يوم، إذ هجم عليهم الفرنجُ في عدّة كبيرة من المراكب، فبرز إليهم يَلْخُجا ومَن

---

(١) في الأصل «ولما ساروا». وما أثبتناه يقتضيه السياق.

(٢) المراد بهذه الفرقة الكبيرة أتباع الأجناد من أوغاد العامّة والزعر والمجرمين الذين كانوا يرافقون عادة الحملات العسكرية بهدف النهب والسلب. وقد يزيد عدد هؤلاء أحياناً على عدد الجنود المقاتلين. ـ راجع ص ١٠٢ من هذا الجزء، حاشية (٢).

معه، وقاتلوهم قتالاً عظيماً، حتى نصر الله المسلمين، وانهزم الفرنج وغنم المسلمون منهم.

كلّ ذلك وقتالُ رودس مستمر في كل يوم، والعساكر في غاية ما يكون من الاجتهاد في قتال رودس، غير أن رودس لا يزداد أمرها إلّا قوة، لعظم استعداد أهلها للقتال. ولما كان في بعض الأيام، وقع للمسلمين محنة عظيمة، قُتل فيها جماعة كبيرة من أعيان الغزاة من الخاصّكِية وغيرهم؛ وهو أنّ جماعة من المسلمين الأعيان نزلوا في كنيسة تجاه رودس، وبينهم وبين العسكر الإسلامي رفقتِهم مخاضة من البحر المالح، وبينهم أيضاً وبين مدينة رودس طريق سالكة. فاتفق أهلُ رودس على تبييت هؤلاء المسلمين الذين بالكنيسة المذكورة، إلى أن أمكنهم ذلك، فخرجوا إليهم على حين غفلة وطرقوهم بالسيوف والسلاح، وكان المسلمون في أمن من جهتهم، وغالبهم جَالس بغير سلاح، وهم أيضاً في قلّة والفرنج في كثرة. فلما هجموا على المسلمين، ووقعت العينُ في العين، قام المسلمون إلى سلاحهم، فمنهم مَن وصل إلى أخذ سلاحه، وقاتلهم حتى قُتل، ومنهم مَن قُتل دون أخذ سلاحه، ومنهم مَن ألقى بنفسه إلى الماء ونجا، وهم القليل.

على أنه قُتل من الفرنج جماعة كبيرة، قتلتهم فرسان المسلمين قبل أن يُقتلوا لمّا عاينوا الهلاك، أثابهم الله الجنّة.

ولمّا وقعت الهَجَّة، قام كل واحد من المسلمين إلى نجدة هؤلاء المذكورين، فلم يصل إليهم أحد حتى فرغ القتال؛ إلّا أن بعض أعيان الخاصّكِية مع رفقته لحق جماعة من الفرنج قبل دخولهم إلى رودس، ووضعوا فيهم السيف.

وقد استوعبنا واقعتهم بأطول من هذا، في غير هذا الكتاب[١].

وكان عدّة مَن قتل في هذه الكائنة نيّفاً على عشرين نفساً. ودام القتالُ بعد ذلك في كل يوم بين عساكر الإسلام وبين فرنج رودس أياماً كثيرة، ومدينة رودس لا تزداد

---

(١) يريد في كتاب «حوادث الدهور».

إلّا قوة. فعند ذلك أجمع المسلمون على العَوْد، وركبوا مراكبَهم، وعادوا إلى أن وصلوا إلى ثغر الإسكندرية ودِمْياط، ثم قدموا إلى القاهرة. فكانت غزوة العام الماضي، أعني غزوة قَشْتِيل التي أخربوها وسَبوا أهلها، أبهج من هذه الغزوة، فللّه الأمر من قبل ومن بعد. وكان وصول الغزاة المذكورين إلى القاهرة في يوم الخميس ثاني عشر شهر رجب من سنة ثمانٍ وأربعين المذكورة.

ثم في يوم الاثنين ثالث شهر ربيع الآخر، خلع السلطانُ على الأمير سُودون المحمدي، أحد أمراء العشرات، باستقراره في نيابة قلعة دمشق، بعد نقل الأمير جانِبَك الناصري دَوَادار بَرْسباي الحاجب منها إلى حجوبية الحجّاب بدمشق، بعد موت الأمير سُودون النَّوْرُوزي.

وفيه استقر الأمير قَنْصُوه النَّوْرُوزي ـ الخارج على السلطان في نوبة الجَكَمي ـ في نيابة مَلَطْيَة، بعد عزل الأمير قِيز طُوغان العلائي وقدومه إلى حلب أتابكاً بها عوضاً عن الصاحب خليل بن شاهين بحكم عزله ونفيه.

ثم في يوم السبت رابع شهر رجب، وصل إلى القاهرة الأمير بَرْدبك العجمي الجَكَمي، نائب حماة، وطلع إلى القلعة وقبّل الأرض، فنهره السلطان، وأمر بالقبض عليه، فأُمسك وحُبس بالقلعة، ثم سُفِّر إلى ثغر الإسكندرية فسُجن بها؛ وسبب ذلك واقعة كانت بينه وبين أهل حماة، قتل فيها جماعة كبيرة من الحمويين، استوعبناها في «الحوادث» من غير هذا الكتاب. ورسم السلطانُ للأمير قاني باي الأبوبكري البَهْلوان نائب صَفَد بنيابة حماة، ونقل الأمير بَيْغُوت المؤيدي الأعرج نائب حمص إلى نيابة صَفَد.

ثم في يوم الاثنين سادس عشر رجب المذكور، خلع السلطان على الأمير تَنَم من عبد الرزاق المؤيدي، الذي كان وَلِيَ حِسبةَ القاهرة، باستقراره في نيابة الإسكندرية، بعد عزل الأمير أَلْطُنْبَغَا المعلّم اللَّفّاف الظاهري برقوق، وقدومه إلى القاهرة على إقطاعه، وقد زاده السلطان عدّة زيادات.

ثم في يوم الخميس خامس عشر شعبان، قَدِمَ إلى القاهرة قاصدُ القانِ

معين الدين شاه رُخْ بن تَيْمورلَنْك وفي خدمته نحو المائة نفر، وأتباع كثيرة. وكان معه أيضاً امرأة عجوز من نساء تيمورلنك، قدمت برسم الحج إلى بيت الله الحرام؛ أقامت بدمشق لتتوجّه في الموسم صُحبةَ الركب الشامي، ومع القاصد المذكور كسوة الكعبة التي أرسلها شاه رُخْ.

وكان القاصدُ الذي قدم في العام الماضي استأذن السلطانَ في ذلك، واعتذر أن شاه رُخْ نذر أن يكسو الكعبة ـ كما كان ذكرَ ذلك للملك الأشرف بَرْسْباي، وكان ذلك سبباً لضرب الأشرف لقُصّاده والإخراق بهم. فلما استأذن القاصدُ الملكَ الظاهر جَقْمَق، أذن له وعاد القاصدُ بالجواب إلى شاه رُخْ، فأرسلها في هذه السنة، صُحبةَ هذا القاصد المذكور.

واعتذر الملكُ الظاهر بقوله: «إن هذه قُربة، ويجوز أن يكسو الكعبةَ كائن مَن كان»؛ وعظم ذلك على أمراء الدولة والمصريين إلى الغاية. ونزل القاصدُ المذكور في بيت جمال الدين الأسْتَادّار بين القصرين.

فلما كان يوم الاثنين حادي عشر شهر رمضان، طلع قاصدُ شاه رُخْ المذكورُ ورفقتُه إلى القلعة، وكان السلطانُ قد احتفل إلى طلوعهم، ونادى أن أحداً من أجناد الْحَلقة والمماليك السلطانية لا يتأخر عن طلوع القلعة في هذا اليوم. وعمل السلطانُ الخدمةَ بالحوش من القلعة، ولم تكن العادة بعمل الخدمة إلّا في إيوان القلعة، فأبطل السلطانُ ذلك وعملها في الحوش. وطلعوا القُصّادُ ومعهم التقدمةُ والكسوة، فأمر السلطانُ بإدخال ما معهم إلى البحرة لئلا يفطن أحد بالكسوة المذكورة. وترحّب السلطانُ بالقُصّادِ وأكرمهم، وقرىء ما على يدهم من المكاتبة، وعادوا إلى جهة منزلهم، إلى أن وصلوا إلى بيت جمال الدين حيث سكنُهم، وقد أُطلقت الألسنُ في حقّهم بالوقيعة من العوّامّ والرجم المتتابع إلى البيت المذكور.

وحال دخولهم إلى البيت، نزل خلفهم في الوقت من المماليك السلطانية الذين بأطباق القلعة مقدارُ ثلاثمائة مملوك، وانضاف إليهم جماعةٌ كبيرةٌ من المماليك البَطّالين والعوّامّ، وكبسوا على القُصّاد المذكورين، ونهبوا جميع ما كان لهم، وكان

شيئاً كثيراً إلى الغاية، وأفحشوا في النهب حتى أخذوا خيُولهم؛ وكان قيمة ما نُهب لهم من الفصوص الفيروزج الكرماني والشقق الحرير والمُخمل والمِسك وأنواع الفرو وغير ذلك [يربو][١] على عشرين ألف دينار وأكثر. ولولا أن الأمير يَلْخُجا الرأس نوبة الثاني كان سكنه بالقرب منهم، فركب في الحال بمماليكه ونَجَدهم، ومَنع الناس من نهبهم، ثم وَصل إليهم الأميرُ إينال العلائي الدوَادار الكبير، ثم الأمير تَنْبَك حاجب الحجّاب، وأمسكوا جماعةً من العامّة، وأخذوا ما كان معهم مما نهبوه، وإلّا كان الأمرُ أعظمَ من ذلك.

ولمّا بلغ السلطان الخبر، غضب غضباً شديداً، وأمسك جماعةً من العامّة، وضربهم بالمقارع، وأبدع فيهم، وقطع أرزاق بعض المماليك السلطانية من الخدامة وأولاد الناس[٢]. ثم أعطى السلطانُ القُصّادَ شيئاً كثيراً، وطيّب خواطرهم ـ انتهى.

ثم في أواخر شهر رمضان المذكور، نفى السلطانُ الأميرَ أقطوه الموساوي الظاهري برقوق، أحد أمراء الطبلخاناه، إلى طرسوس، ثم شُفِع فيه فتوجّه إلى دِمَشق بطالاً.

ثم في شوّال ورد الخبرُ على السلطان بنصرة مراد بك بن عثمان متملِّك بلاد الروم على بني الأصفر[٣].

وفي هذه السنة أبطل السلطانُ الرمّاحةَ الذين يلعبون بالرمح يوم دوران المحمل في شهر رجب.

ثم يوم الاثنين، استقر محبُّ الدين محمد بن الشِّحْنة الحنفي قاضيَ قضاة حلب وكاتبَ سرّها وناظرَ الجيش بها، بسفارة الصاحب جمال الدين يوسف ناظر الخاصّ الشريف.

---

(١) زيادة يقتضيها السياق

(٢) أولاد الناس: مصطلح مملوكي يعني أبناء أمراء المماليك. ـ راجع أيضاً فهرس المصطلحات.

(٣) تطلق هذه التسمية على الفرنج عامّة.

ثم في يوم الخميس خامس عشرين ذي القعدة، قَدِمَ الزيني عبدُ الباسط من دِمَشق إلى القاهرة، وهذه قَدْمته الثانيةُ من يوم عُزل وصودر، وطلع إلى السلطان في يوم السبت سابع عشرينه، وخلع عليه كاملية بفرو سَمُّور. ثم قدّم هديّته إلى السلطان في يوم الاثنين تاسع عشرينه، وكانت تشتمل على شيء كثير مع مبلغ كبير من الذهب.

ثم في يوم الخميس سادس عشر ذي الحجة خرجت تجريدة إلى البحيرة، ومقدّم العسكر الأمير قَرَاخُجَا الحسني الأمير آخور الكبير ومعه ستّة من الأمراء.

ثم في يوم الخميس رابع عشر محرّم سنة تسع وأربعين وثمانمائة استقر الشيخُ شمس الدين محمد القاياتي قاضيَ قضاة الشافعية بالديار المصرية، وصُرِفَ الحافظُ شهابُ الدين أحمد بن حجر، ونزل القاياتي بغير خلعة توَرعاً، وعليه طيلسانه، وبين يديه أعيانُ الدولة. ولمّا نزل إلى الصالحية[1] لم يَسمع الدعوى التي يدّعيها بعض الرُّسُل، وقال: هذه حيلة؛ ثم قام وتوجّه إلى داره، وفي ظن كل أحد أنه سيسير في القضاء على قاعدة السلف، لما عهدوا من تقشّفه وتعفّفه، فوقع بخلاف ما كان في الظن، ومال إلى المنصب، وراعى الأكابر، وأكثر من النواب، وظهر منه الميل الكلّي إلى الوظيفة، حتى لعلّه لو عزل منها لمات أسفاً عليها.

ثم في يوم الاثنين ثامن عشر المحرّم المذكور خلع السلطانُ على الأمير يَلْخُجَا من مامِش الساقي الناصري الرأس نوبة الثاني باستقراره في نيابة غزة، بعد موت الأمير طوخ الأبو بكري المؤيّدي قتيلاً بيد العَشِير.

ثم في يوم الاثنين العشرين من شهر ربيع الآخر، خلع السلطانُ على الأمير شادبك الجَكَمي، أحد مقدّمي الألوف، باستقراره في نيابة حماة، عوضاً عن

(١) أي المدرسة الصالحية بمحلّة بين القصرين بالقاهرة. وهي من بناء الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٣٩ هـ. وكانت تتخذ مكاناً لجلوس السلاطين وقضاة القضاة للنظر في المظالم. (خطط المقريزي: ٢/٣٧٤).

قاني باي البهلوان بحكم انتقاله إلى نيابة حلب، بحكم عزل قاني باي الحمزاوي عنها وقدومه إلى مصر على إقطاع شاد بك المذكور.

ثم في يوم الخميس خامس عشر جماد الأول من سنة تسع وأربعين المذكورة، رسم السلطانُ بنفي الأمير علي باي العجمي المؤيدي، أحد أمراء العشرات ورأس نوبة، إلى صَفَد ثم حُوّل إلى دمشق بطالاً، وأنعم بإمرته على الأمير جانِبَك اليَشْبَكي الساقي والي القاهرة، وأنعم بإقطاع جانِبَك المذكور على جماعة من الخاصكِيّة الأشرفية، ممّن كان نُفي في أول الدولة بدمشق وغيرها.

ثم في يوم الاثنين رابع عشرين جماد الآخر وصل الأمير قاني باي الحمزاوي نائبُ حلب إلى القاهرة، وقبّل الأرض، واستقر من جملة مقدّمي الألوف بها، وكان الكلام قد كثر في أمره، وأُشيع بعصيانه.

وفي هذا الشهر ندب السلطانُ مملوكَه جانِبَك الظاهري الخاصّكِي إلى التكلّم على بندر جُدَّة؛ وهذه أول سَفْرة سافرها جانِبَك المذكور، ومبدأ أمره في التكلّم على بَنْد جُدَّة إلى يومنا هذا. وكان من خبر استمراره على التكلّم في البندر المذكور، أن السلطانَ كان في كل سنة يندب للتكلّم على البندر أحداً من الأمراء أو أعيان الخاصِّكيّة، فيتوجّه المذكورُ ثم يعود إلى القاهرة، وقد تغيّر خاطرُ السلطان عليه لأمور شتّى، فيعزله السلطانُ على أقبح وجه، ومنهم مَن يصادره ويأخذ منه الأموال الكثيرة، ومنهم مَن يُنفى، ومنهم مَن يُرْسَم عليه ويُبَهْدَل، وقلَّ مَن يسلم من ذلك. وقد وقع ذلك لجماعة كثيرة من الدولة الأشرفية بَرْسْباي إلى يوم تاريخه.

فلما وَلِيَ جانِبَك هذا، باشرَ البندرَ المذكور بمعرفةٍ وحذق، مع المهابة ووفور العقل والحرمة ونفوذ الكلمة، ونهض بما لم ينهض به غيره ممّن تقدّمه. وأنا أقول: ولا ممّن تأخّر عنه إلى يوم القيامة، على ما سيأتي بيان ذلك في مواطن كثيرة من هذه الترجمة وغيرها؛ وقد استوعبنا حالَه في تاريخنا «المنهل الصافي» بأوسع من هذا، وأيضاً ذكرنا أمورَه مفصّلاً في تاريخنا «الحوادث» عند ذهابه إلى جُدَّة وإيابه، وما يقع له بها في الغالب ـ انتهى.

ثم في يوم الخميس ثالث شعبان، خلع السلطانُ على الأمير إينال العلائي الدَّوَادار الكبير، باستقراره أتابَكَ العساكر بالديار المصرية، بعد موت الأمير الكبير يَشْبَك السُّودُوني المُشِدّ. قلت: وفي تولية إينال هذا للأتابكية في يوم ثالث الشهر ردٌّ على مَن يتشاءم بالحركة في يوم ثالث الشهر، فإنه نُقل من هذه الوظيفة إلى السلطنة، فأيّ شؤم وقع له في ولايته؟ـ انتهى.

ثم خلع السلطانُ على الأمير قاني باي الجاركسي شاد الشَّراب خاناه باستقراره دَوَاداراً كبيراً، عوضاً عن إينال المذكور، وأنعم بإقطاع الأمير إينال المذكور على الشهابي أحمد بن علي بن إينال اليوسفي، وصار أميرَ مائة ومقدّمَ ألف بالديار المصرية.

وخلع السلطانُ على الأمير يونس السيفي آقْباي باستقراره شادّ الشراب خاناه، عوضاً عن قاني باي الجاركسي، واستمر على إقطاعه إمرةَ عشرة.

ووقع بسبب تولية الأمير إينال المذكور للأتابكية كلامٌ كثير في الباطن، لكون السلطان قدَّمه على الأمير تِمْراز القُرْمُشي أمير سلاح، وجَرِباش الكَرِيمي أمير مجلس، وقَرَاخُجَا الحسني الأمير آخور الكبير؛ وهؤلاء الثلاثة من أكابر المماليك البرقوقية، ووظائفهم أيضاً تقتضي الانتقال منها إلى الأتابكية، بخلاف وظيفة الدوادارية. وبلغ السلطانَ ذلك، أو فطن به، فلما كان يوم السبت خامسه، نزل من قلعة الجبل إلى خليج الزعفران، وصُحبته جميع الأمراء إلى مخيم ضُرِبَ له به، وجلس فيه وأكل السِّماط، ودام هناك إلى قريب الظهر، ثم ركب وعاد إلى القلعة. وكان قصد الملك الظاهر بالنزول إلى خليج الزعفران في هذا اليوم، استخفافاً بالقوم، لأنهم أشاعوا أن جماعة تريد الركوب، فكأنه قال لهم بلسان حاله: «ها قد نزلتُ من القلعة بخليج الزعفران، مَن كان له غرض في شيء فليفعله»، فلم يتحرك ساكن وانقمع كل أحد، فكانت هذه الفعلة من أحسن أفعاله وأعظمها.

ثم في يوم الخميس سابع عشر شهر شعبان المذكور، خلع السلطانُ على

الأمير الكبير إينال المذكور خلعةَ نَظرِ البيمارستان المنصوري، وخلع على قاني باي الجاركسي خلعةَ الإنظار[١] المتعلقة بالدَّوَادارية.

ثم في يوم السبت سابع عشر شوال برز أميرُ حلجِّ المحمل، الأمير دُلاوت باي المحمودي المؤيدي الدوادار الثاني، بالمحمل إلى بِركة الحاج على العادة، وأميرُ الركب الأول تَمُرْبَغَا الظاهري.

ثم في يوم الخميس ثالث المحرّم سنة خمسين وثمانمائة، خلع السلطانُ على الصاحب خليل بن شاهين، المعزول عن نيابة مَلَطْيَة قبل تاريخه، باستقراره في نيابة القدس، عوضاً عن طُوغان العثماني، بحكم توجهه حاجبَ حجّاب حلب، بعد موت قاني باي الجَكَمي. وفيه استقر القاضي برهانُ الدين إبراهيم بن الديري في نظر الجوالي مضافاً لما بيده من نظر الإسطبلات السلطانية، عوضاً عن ابن المحرّقي، بعد عزله.

ثم في يوم الاثنين خامس صفر، أُعيد قاضي القضاة شهابُ الدين بن حجر للقضاء، بعد موت قاضي القضاة شمسِ الدين القاياتي.

ثم في يوم الثلاثاء سادس صفر أيضاً، استقر القاضي وليُّ الدين السفطي في تدريس المدرسة الصلاحية بقبّة الشافعي عوضاً عن القاياتي.

ثم في يوم السبت ثامن شهر ربيع الأول من سنة خمسين المذكورة، قَدِمَ إلى القاهرة الشريفُ محمد بن الشريف بركات بن حسن بن عَجْلان، ومعه تقدمة من عند أبيه، ما بين خيول وغيرها؛ وأقام بالقاهرة إلى سلخ الشهر المذكور، وعاد إلى مكة، وقد أعطاه السلطانُ أماناً لأبيه بركات، ووعده بكل خير من ولاية مكة وغير ذلك.

ثم في يوم الاثنين أول شهر ربيع الآخر، خلع السلطانُ على وليّ الدين

(١) أي خلعة الانتظار. وتكون قبل مباشرة الوظيفة الجديدة بانتظار شغورها.

السفطي باستقراره في نظر البيمارستان المنصوري، عوضاً عن القاضي محبّ الدين بن الأشقر ناظر الجيش، بحكم عزله عنها. وسار السفطي في النظر المذكور سيرةً سيئة، وهو أنه صار يأخذ ما لا يستحقه، ويدفعه لمَن لا يستحقّه، وحسابُه على الله.

وفيه استقر أَسَنْبَغَا مملوك ابن كَلْبَك شادُّ الشُّوَن[1] السلطانية في نيابة بَعْلَبَك، ولم يقع ذلك فيما تقدم. والعادةُ أن نائب دمشق هو الذي يستقر بمَن يختاره من مماليكه في نيابة بعلبك. هذا في هذا الزمان، وأما الوالد فإنه ولَّى في نيابته على دمشق نيابةَ القدس والرملة.

ثم في أواخر جمادى الأولى توغر خاطرُ السلطان على الأمير شاد بك الجَكَمي نائب حماة، وعزله عن نيابة حماة، وولَّى عوضه الأميرَ يَشْبَك من جانِبَك المؤيدي الصُّوفي أحد أمراء الألوف بحلب ـ وكان السلطانُ نفى يَشْبَك المذكور من مصر، ثم أنعم عليه بإمرة بحلب، وأنعم بإقطاع يِشْبَك المذكور على خُجْداشِه الأمير علي باي العجمي المنفي أيضاً قبل تاريخه إلى دمشق ـ ورسم لشادّ بك المذكور أن يتوجّه إلى القدس بَطّالاً؛ وحَمل تقليدَ يَشْبَك المذكور بنيابة حماة وتشريفَه الأميرُ تَمُرْبَغا الظاهري أحدُ أمراء العشرات.

وفي هذا الشهر، رسم السلطانُ بإطلاق جماعة من المماليك الأشرفية، ممّن كان حبَسهم في أول دولته بالبلاد الشامية؛ ورسم بقدومهم إلى القاهرة.

ثم في يوم الخميس سابع عشر شوّال برز أميرُ حاجِّ المحمل، الأميرُ سَونْجُبَغَا اليونسي الناصري أحد أمراء العشرات ورأس نوبة، بالمحمل إلى بركة الحاج؛ وأميرُ الركب الأول الأميرُ سمام الحسني الظاهري برقوق أحد أمراء العشرات. وسافرتْ في

---

(١) شاد الشون السلطانية: عمله الملاحظة والتفتيش على أحوال الشون التابعة للسلطان. وهذه الشون تحتوي على أنواع الغِلال والأحطاب والأتبان، وينفق منها للإسطبلات والمواشي السلطانية ـ وغير ذلك. (انظر صبح الأعشى: ٥٤٩/٣، ٣٣/٤).

هذه السنة إلى الحجاز زوجةُ السلطان الملك الظاهر جَقْمَق خَوَنْد مُغْل بنت البارِزِي، ومعها أيضاً زوجةُ السلطان بنت ابن دُلْغَادُر. وحجَّ في هذه السنة أيضاً القاضي كمالُ الدين بن البارِزِي كاتب السرّ الشريف، صُحبةَ أُخته خَوَنْد المذكورة، في الركب الأول. وسافر كمال الدين [المذكور] بتجمّل كبير، وفعل في سفرته من الخيرات والإحسان لأهل مكة ما سيُذكَر إلى الأبد.

ثم في يوم السبت، أول محرّم سنة إحدى وخمسين وثمانمائة، خلع السلطانُ على قاضي القضاة علمِ الدين صالح البلقيني، باستقراره قاضيَ القضاة الشافعية بالديار المصرية، بعد عزل قاضي القضاة شهابِ الدين ابن حجر.

وفيه استقر السيفي آقْبَرْدي الساقي جَقْمَق في نيابة قلعة حلب، عوضاً عن تَغْري بَردي الجاركسي، بحكم عزله وتوجّهه إلى دمشق. وكان آقبردي المذكور توجّه إلى حلب في أمر متعلق بالسلطان.

وفيه أنعم السلطانُ علَى خليل بن شاهين الشيخي، بإمرة مائة وتقدمة ألف بدمشق، عوضاً عن قِير طُوغان، بحكم القبض عليه وحبْسه بقلعة دمشق، بسبب ما وقع منه لمّا توجّه أميرَ حاجِّ الركب الشامي من إحراقه باب المدينة الشريفة لسببٍ من الأسباب.

وفيه أيضاً استقرّ الأميرُ يشبك الحمزاوي دَوَادارُ السلطان بحلب في نيابة غزة، عوضاً عن حَطَط بحكم عزله وتوجّهه إلى دمشق بطالاً؛ وأنعم بإقطاع يَشْبَك الحمزاوي، وهو تقدمة ألف بحلب، على الأمير سُودون من سيِّدي بك الناصري المعروف بالقِرْماني. وأنعم بإقطاع سُودون القرماني، وهو إمرة عشرة، على الأمير علي باي الأشرفي شادّ الشراب خاناة كان.

ثم في يوم الخميس رابع صفر من سنة إحدى وخمسين، خلع السلطان علي مملوكه سُنْقُر الظاهري، باستقراره أسْتَادارَ الصحبة، بعد موت أَيْتَمُش مِن أَزُوباي المؤيدي.

ثم في يوم الخميس حادي عشر صفر المذكور رسم السلطان بنفي تغري بَرْمَش

الجلالي الفقيه، نائب قلعة الجبل، إلى القدس بطالاً، واستقرّ الأميرُ يونس العلائي الناصري أحدُ أمراء العشرات عوضه في نيابة قلعة الجبل؛ وأنعم بإقطاع تَغْري بَرْمَش المذكور على شريكه الأمير جانِبَك النَّوْروزي المعروف بنائب بَعْلَبَك، زيادةً على ما بيده؛ ولبس المقدّمُ ذكره خلعةَ نيابة القلعة، في يوم الاثنين خامس عشر صفر.

ثم في يوم الخميس ثالث شهر ربيع الأول، خلع السلطانُ على الأمير بَرْسباي الساقي السيفي تَنِبَك البَجَاسي، باستقراره في نيابة الإسكندرية، بعد عزل الأمير تَنَم [من عبد الرازق المؤيدي][1] عنها وذلك بسفارة عظيم الدولة الصاحب جمال الدين يوسف ناظر الخاصّ الشريف. وفيه خلع السلطانُ على الأمير جانِبَك النَّوْرُوزي المقدّمُ ذكره المعروف بنائب بعلبك، باستقراره أميرَ المماليك [السلطانية][1] المجاورين بمكة المشرّفة.

ثم في يوم الاثنين حادي عشرين شهر ربيع الأول المذكور، رُسم بنقل الأمير بَرْسْباي الناصري من نيابة طرابلس إلى نيابة حلب، بعد موت الأمير قاني باي الأبو بكري الناصري البهلوان. ورسم بنقل الأمير يَشْبَك المؤيدي الصُّوفي من نيابة حماة إلى نيابة طرابلس، عوضاً عن بَرْسْباي المذكور. وخلع السلطانُ على الأمير تَنَم بن عبد الرازق المؤيدي المعزول عن نيابة الإسكندرية باستقراره في نيابة حماة، عوضاً عن يَشْبَك الصوفي؛ رشّحه إلى ذلك المقرُّ الجمالي ناظرُ الخواصّ. وحَمل إلى بَرْسباي نائبِ حلب التقليدَ والتشريف الأميرُ جَرِباش المحمدي الناصري الأمير آخور الثاني المعروف بكُرْت. وتوجّه بتقليد يَشْبَك بنيابة طرابلس الأميرُ قراجا الظاهري الخازندارُ الكبير. واستقر مُسِفّرَ تَنَمْ بنيابة حماة الأميرُ لاجين الظاهري الساقي، فصالحه الأمير تَنَم على عدم سفره صحبته على ثلاثة آلاف دينار[2].

(١) زيادة عن التبر المسبوك.

(٢) هذه إشارة ربما إلى إحدى موجبات التشريف في تلك الأيام، وهي أن يتلقى المسفِّر مكافأةً من صاحب الولاية. ولعلّ الأمير تَنَم كره مصاحبة الأمير لاجين هذا لسبب من الأسباب، فصالحه على مبلغ من المال.

والمسفِّر هو الذي يرافق صاحب الولاية إلى مقرّ عمله تكريماً له. ومن عادات التكريم والتشريف أيضاً =

ثم في يوم الخميس ثامن شهر ربيع الآخر استقر الأَميرُ سُودون السودوني الظاهري برقوق من جملة الحجَّاب؛ وكان سُودون المذكور قد وَلِيَ الحجوبيةَ الثانية قبل ذلك؛ قلتُ: درجة إلى أسفل[١].

ثم في يوم الخميس خامس عشره خلع السلطانُ على القاضي وليِّ الدين السَّفْطي باستقراره قاضيَ قضاة الديار المصرية، بعد عزل قاضي القضاة علمِ الدين صالح البُلْقِيني، مضافاً لما بيده من تدريس [قُبَّة] الشافعي، ونظر البيمارستان، ونظر الكسوة، ووكالة بيت المال، ومشيخة الجمالية ونظرها، وغير ذلك من الوظائف، ومع هذا كله، والبَلْص عَمّال والشحاذة في كل يوم، من الأمير الكبير إلى مقدّم الجَبَلِيّة[٢]. وسار في القضاء أقبحَ سيرة، وسلك مع الناس طريقاً غير محمودة، من الحطِّ على الفقهاء والترسيم عليهم، والإفحاش في أمرهم، لا سيما ما فعله مع مُباشِري الأوقاف.

وفي هذا الشهر خلع السلطانُ على شخص من الباعة يُعرَف بأبي الخير النحّاس شُهرةً ومكسباً، باستقراره في وكالة بيت المال، عوضاً عن السفطي. وهذا أولُ خمولِ السفطي، ومبدأ أمر أبي الخير النحّاس؛ وما سيأتي من أمرهما فأعجب.

ولا بدّ من التعريف بأصل أبي الخير المذكور، وسبب ترقّيه، وإن كان في ذلك نوع إطالة، فيحتمل ذلك لنوع من الأنواع، فنقول: اسمه محمد وكُنيته أبو الخير، وبكنيته أُشْهِر، [ابن محمد][٣] بن أحمد بن محمد المصري الأَصل والمولد،

= أنه إذا عيّن السلطان أحد الأمراء في نيابة من النيابات، وكان هذا الأمير موجوداً خارج الديار المصرية، يبعث إليه السلطان بالتشريف والخلعة على يد أحد الأمراء، ويسمى سفيراً، وعمله السفارة. وربما رافق المسفَّر أحد الأمراء المبعدين عن القاهرة بطّالين في ثغر من الثغور.

(١) أي عيّن حاجباً ثالثاً. وأعلى مراتب الحجوبية هي مرتبة حاجب الحجّاب، ثم يليه الحاجب الثاني، ثم الحاجب الثالث. وربما زاد العدد على ذلك. ـ وفي عمل الحاجب وحاجب الحجّاب انظر فهرس المصطلحات.

(٢) مقدّم الجبلية هو زعيم العربان وشيخهم.

(٣) زيادة عن حوادث الدهور.

الشـافعي، النحّاس. نشأ تحت كنف والده وحفظ القـرآن، وتعلّم من والده وجـدّه صناعةَ عمل النحّاس، ومهر فيه، واتخذ له حانوتاً بسوق النحـاس بخُط الشّوّائين[1] بالقرب من دكّان أبيه. وأخذ في حانوته وأعطى حتى صار بينه وبين الناس معاملات ومشاركات، ألجأه ذلك لتحمّل الديون، إلى أن عامَله الشيخُ أبو العبـاس الوفـائي، وصار له عليه جمل مستكثَرة من الديـون. وكان الستـر مسبولاً بينهمـا أولاً، ثم وقع بينهما وحشة، وكان ذلك هو السبب بوصلة النّحاس هذا بالملك الظاهر جَقْمق؛ وهو أن أبا العباس لما ماطلَه أبو الخير المذكور، أخـذ في الإلحاح عليـه في طلب حقه والدعوى عليه بمجالس الحكّام، والتجريء عليـه والمبالغـة في إنكائـه، بحيث إنه ادّعى عليه مرة عند الأمير سُودون السودوني الحـاجب، بعد أن أخـرجه من السجن محتَفظاً به، فضربه سُودون المذكـور علقتين في يوم واحـد؛ ودام هذا الأمـر بينهما أشهراً، بل وسنين.

وصار أبو العباس لا يرقّ لفقر أبي الخير وإفلاسه وعدم موجـوده، بل يلحّ في طلب حقّه؛ فعند ذلك أخذ أبو الخير النحّاس في مرافعة أبي العباس المذكور، بأن الذي بيده من المال إنما هو من جملة ذخائر الصفوي جوهر القُنُقْبائي الخازندار، وقد بقيت عند أبي العباس بعد موت جوهر. ولا زال أبو الخير يجتهد في ذلك، إلى أن توصّل إلى السلطان، وأنهى في حق أبي العباس ما تقدّم ذكره، وعليه محاققة ذلك وإظهار الحق في جهته؛ فلما سمع السلطانُ كلامه مال إليه وقال له: قد وكّلتُك في طلب الحق من أبي العباس.

فنزل أبو الخير في الحال من بين يدي السلطان، وقد صار مُطالِباً بعدمـا كان مطلوباً، وادّعى على أبي العباس المذكور بدعـاوٍ كثيرة، يـطول الشرح في ذكـرها؛ وخدَمه السعدُ في إظهار بعض موجود جوهر من عند أبي العباس المـذكور، فحسُنَ ذلـك ببال السلطان، ونَبُـل أبو الخيـر في عين السلطان، ووكّله بعد مـدة في جميع

---

(١) خط الشوّائين: من أخطاط القاهرة، وكان به سوق الشوّائين، وهو أول سوق وضع بالقاهرة داخل باب زويلة. وعُرِف أيضاً باسم سوق الشرايحيين. (خطط المقريزي: ٢/ ١٠٠).

أموره؛ كلّ ذلك في سنة ست وأربعين وثمانمائة. وتردّد أبو الخير النحّاس إلى السلطان، وحسُن حالهُ من لبس القماش النظيف وركوب الحمار، واكتسى كسوةً جيدةً. كلّ ذلك وأبو الخير يلحّ في طلب المال من أبي العباس. ثم التفت إلى غير ذلك مما يعود نفعُه على السلطان، وبقي بسبب ذلك يُكثر الطلوع إلى القلعة، وصار يتقرّب إلى السلطان بهذه الأنواع؛ فمشى أمرُه وظهر عند العامّة اسمُه؛ واستمر على ذلك إلى سنة ثمانٍ وأربعين، فركب فرساً من غير لبس خُفٍّ ولا مهماز، وصار يطلع إلى القلعة في كل يوم مرة بعد نزول أرباب الدولة من الخدمة، ويتقاضى أشغالَ السلطنة.

كلّ ذلك وأعيانُ الدولة لا تلتفت إليه، ولا يعاكسه أحد فيما يرومه، لعدم اكتراثهم به وإهمالهم أمرَه، لوضاعته لا لجلالته فاستفحل أمرُه بهذه الفعلة، وطالت يدُه في الدولة. فأول ما بدأ به أخذ في معارضة السفطي، وساعَده في ذلك سوءُ سيرة السفطي وملَلُ السلطان منه، فوُلِّي عنه وكالةَ بيت المال. ثم أخذ أمرُه يتزايد بعد ذلك، على ما سيأتي ذكره مفصّلاً. وقد استوعبنا حاله في تاريخنا «المنهل الصافي» بأطول من هذا إذ هو كتاب تراجم لا غير، وأما أمرُه في تاريخنا «حوادث الدهور» فهو مُفَصَّل باليوم والساعة من أول أمرِه إلى آخره ـ انتهى.

ثم في يوم السبت أول جمادى الأولى، برز المرسومُ الشريف باستقرار خير بك الأجرود المؤيدي، أحد مقدّمي الألوف بدمشق، في أتابكية دمشق، بعد موت الأمير إينال الششماني الناصري؛ وأنعم السلطانُ بإقطاع خير بك المذكور، على الأمير خُشْقَدَم الناصري المؤيدي، أحد أمراء العشرات [ورأس نوبة][1] بالقاهرة.

ثم في يوم الاثنين ثامن جمادى الآخرة، خلع السلطانُ على الصاحب أمين الدين إبراهيم بن الهَيْصَم ناظر الدولة باستقراره في الوزارة عوضاً عن الصاحب كريم الدين عبد الكريم ابن كاتب المناخ، بحكم طول مرضه؛ وهذه ولايةُ الصاحبِ أمينِ الدين الثانية للوزر.

---

(١) زيادة عن التبر المسبوك.

ثم في يوم الاثنين سابع عشرين شهر رجب، برز المرسومُ الشريف، على يد الأمير إينال أخي قَشْتَم المؤيدي، باستقرارِ الأميرِ تَنَم من عبد الرازق المؤيدي نائب حماة في نيابة حلب، عوضاً عن الأمير بَرْسْباي الناصري، بحكم استعفائه عن نيابة حلب، لطول لزومه الفراش، ورسم أيضاً بنقل الأمير بَيْغُوت من صَفَر خُجَا المؤيدي الأعرج نائب صَفَد إلى نيابة حماة، عوضاً عن تَنَم المذكور، وحَمَل إليه التقليدَ والتشريفَ الأميرُ يَلْبَغَا الجَارْكسي أحدُ أمراء العشرات ورأس نوبة. ورسم باستقرار الأمير يَشْبَك الحمزاوي نائب غزّة في نيابة صَفَد. ورسم باستقرار طُوغان العثماني حاجب الحجّاب بحلب في نيابة غزة، عوضاً عن يَشْبَك الحمزاوي، واستقر في حجوبية حلب الأميرُ جانِبَك المؤيدي المعروف بشيخ، أحد أمراء طرابلس.

ثم في يوم الخميس أول شعبان، قَدِمَ الشريف بركات بن حسن بن عَجْلان، ونزل الملكُ الظاهر جقمق إلى لقائه بمطعم الطيور بالرَّيْدانية، خارجَ القاهرة. وبالغ السلطانُ في إكرام بركات المذكور، وقام إليه ومشى له خطوات، وأجلسه بجانبه، ثم خلع عليه، وقيّد له فرساً بسرج ذهب وكُنْبوش زركش، وركب مع السلطان، وسار إلى قريب قلعة الجبل، فرسم له السلطانُ بالعود إلى محلٍّ أنزلَه به، وهو مكان أخلاه له المقرُّ الجمالي ناظرُ الخواص، ورتّب له الرواتب الهائلة. وقام الجماليُّ المذكورُ بجميع ما يحتاج إليه بركات، من الكلف والخدم السلطانية وغيرها، وكان أيضاً هو القائمَ بأمره، إلى أن أعاده إلى إمرة مكة، والسَّفير بينهما [الخواجا][1] شرفُ الدين موسى التتائي الأنصاري التاجر.

ثم في يوم الخميس سابع شهر رمضان، خلع السلطان على الأمير بَيْسَق اليَشْبَكي، أحد أمراء العشرات، باستقراره في نيابة دِمْياط، بعد عزل الأمير بَدْخاص[2] العثماني الظاهري برقوق.

ثم في يوم الخميس رابع عشره، خلع السلطانُ على أبي الخير النحّاس المقدّم

---

(١) زيادة عن التبر المسبوك.

(٢) وورد أيضاً: «بتخاص».

ذكره باستقراره في نظر الجوالي، عوضاً عن برهان الدين بن الديري.

ثم في يوم الخميس خامس شوّال، خلع السلطان على الأمير تِمْراز من بَكْتَمُر المؤيدي المصارِع، أحد أمراء العشرات، باستقراره في نيابة القدس، بعد عزل خشقدم السيفي سُودون من عبد الرحمن.

ثم في يوم الاثنين أول ذي القعدة، أنعم السلطان على أَسَنْبَاي الجمالي الظاهري جقمق الساقي بإمرة عشرة، بعد موت إينال أخي قشتم، وأنعم بوظيفة أسنباي ـ السقاية ـ على جانِم الظاهري جقمق.

ثم في يوم الأربعاء ثالثه برز الأمرُ الشريف بحبس الأميرين المقيمين بالقدس الشريف، وهما: شادّ بك الجكَمي المعزول عن نيابة حماة، وإينال الأبوبكري الأشرفي، فحبسا بقلعة صَفَد.

ثم في يوم الاثنين ثامن ذي القعدة، استقر شاهينُ الظاهري ساقياً، عوضاً عن جَكم قلق سيز بحكم تغيّر خاطر السلطان عليه.

ثم في محرّم سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة رسم السلطان للأمير يَشْبَك طاز المؤيدي أحد أمراء دمشق، بحجوبية طرابلس عوضاً عن يَشْبَك النوروزي.

ثم في يوم الأربعاء حادي عشرين المحرّم، وصل الركبُ الأول من الحاج، صُحبةَ الأمير الطَّوَاشي عبد اللطيف المَنْجَكي ثم العثماني، مقدّم المماليك السلطانية. وأصبح قَدِمَ من الغد أمير حاجّ المحمل الأمير تَنِبَك البردبكي حاجب الحجّاب بالمحمل.

ثم في يوم الجمعة ثالث عشرين المحرّم المذكور رسم السلطان بنفي الأمير قَرَاجا العمري الناصري، أحد المقدّمين بدمشق، إلى سِيس، وأنعم بتقدمته على الأمير مازِي الظاهري [برقوق] نائب الكَرَك كان.

ثم في يوم الخميس ثامن عشرين صفر، رسم بإطلاق قِيز طُوغان من محبسه بقلعة دمشق، بشفاعة الأمير جُلْبان نائب دِمَشْق. وفيه أيضاً رسم بمجيء كسباي

الدَّوَادار المؤيدي المجنون، من طرابلس إلى القاهرة، بشفاعة جَرِبَاش قاشق.

ثم في يوم الأحد أول شهر ربيع الأول، رسم السلطان بتبقية الأمير قِيز طُوغان في الحبس، ورُدّت المراسيمُ التي كانت كُتبت بإطلاقه بواسطة زين الدين يحيىٰ الأشقر الأستادار.

ثم في يوم الاثنين ثاني ربيع الأول، عاد الأميرُ جُلْبان إلى محل كفالته بدمشق.

ثم في يوم الثلاثاء ثالثه، عزل السلطانُ الأميرَ عبد اللطيف [زين الدين الطواشي العثماني][1] عن تقدمة المماليك السلطانية، وخلع على الطواشي جوهر النوروزي نائب مقدّم المماليك باستقراره في تقدمة المماليك عوضاً عن عبد اللطيف المذكور. ثم في يوم الخميس خامسه، استقر عوضه نائب مقدّم المماليك مرجان العادلي المحمودي.

ثم في يوم السبت حادي عشرينه، استقر أبو الخير النحّاس في نظر الكسوة، عوضاً عن السفطي؛ ثم في يوم الأربعاء ثالث شهر ربيع الآخر، عزل السلطانُ السفطيَّ عن قضاء الديار المصرية.

ثم في يوم الخميس رابعه، استقر برهانُ الدين إبراهيم بن ظهير في نظر الإسطبل السلطاني، عوضاً عن برهان الدين إبراهيم بن الديري. وفيه وَلِيَ الشيخُ [شرف الدين][2] يحيىٰ المناوي تدريسَ قبّة الشافعي، عوضاً عن السفطي.

وفي يوم السبت سادسه، نُكِب شمس الدين محمد الكاتب، وعُزِّر وامتُحن حسبما ذكرناه في الحوادث مفصّلاً.

ثم في يوم الأحد سابع شهر ربيع الآخر، أُعيد قاضي القضاة شهابُ الدين ابن حجر إلى القضاء، بعد عزْل السفطي، واستقر أيضاً في مشيخة الخانقاه البيبرسية، على عادته، ولبس خلعَتَهما من الغد في يوم الاثنين.

(١) زيادة عن الضوء اللاّمع والتبر المسبوك.

(٢) زيادة عن التبر المسبوك.

ثم في يوم الخميس حادي عشره، استقر أبو الخير النحّاس ناظرَ البيمارستان المنصوري عوضاً عن السفطي. ثم في يوم الاثنين لبس السفطي كاملية خضراءَ بسَمُّور، بعد أن حُمِّل مبلغَ خمسة آلاف دينار وخمسمائة دينار، بسبب أنه ادُّعي عليه أنه تناولها من وقف الكسوة.

ثم في يوم الاثنين ثاني عشرين ربيع الآخر المذكور، عُزل الأَمير تِمْراز البَكْتَمُري المؤيدي المصارعُ عن نيابة القدس.

وفي هذا الشهر طلّق السلطان زوجتَه خَوَنْد الكبرى مُغْل بنت البارِزي.

ثم في يوم الاثنين سابع عشرين جمادى الأولى خلع السلطانُ على الأَمير قاني باي الحمزاوي، أحد مقدّمي الألوف بالديار المصرية، باستقراره في نيابة حلب ثانياً، بعد عزل الأَمير تَنَم المؤيدي عنها وقدومه إلى القاهرة على إقطاع قاني باي الحمزاوي المذكور؛ واستقر يونسُ العلائي الناصري نائب قلعة الجبل مُسَفِّرَ قاني باي، فصالحه السلطانُ عنه بمبلغ كبير من الذهب، لقلّة موجود قاني باي المذكور.

وفيه استقر الأَميرُ بيسق اليشبكي أحدُ أمراء العشرات بالقاهرة، في نيابة قلعة دمشق، بعد موت شاهين الطُّوغاني، وفرَّق السلطانُ إقطاعَ بيسق على كَسْباي المجنون المؤيدي وغيره، بواسطة المقرّ الجمالي ناظر الخوّاص الشريفة.

ثم في يوم الاثنين حادي عشره، برز الأَميرُ قاني باي الحمزاوي إلى محل كفالته بحلب.

ثم في يوم الأَحد رابع عشرين جمادى الآخرة، أمر السلطانُ بنفي الأَمير تمراز المصارع، المعزول عن نيابة القدس، إلى دمشق، ثم شُفِعَ فيه وأُعيد بعد أيام، بعد أن أخرج السلطان إقطاعه إلى أُزْبَك مِن طُطُخ الساقي الظاهري، والإقطاع إمرة عشرة؛ واستقر خُشقَدَم السيفي سُودون من عبد الرحمن في نيابة القدس، عوضاً عن تمراز المذكور، واستقر إينالُ الظاهري الخاصّكي ساقياً، عوضاً عن أُزْبَك من طُطُخ.

ثم في يوم الاثنين خامس عشرين جمادى الآخرة المذكور، عَزل الحافظُ شهابُ الدين بن حجر نفسَه عن قضاء الشافعية؛ ولم يَلِها بعد ذلك إلى أن مات. وخلع السلطانُ في يوم الثلاثاء سادس عشرينه على قاضي القضاة علم الدين صالح البُلْقِيني، وأُعيد إلى قضاء الديار المصرية عوضاً عن ابن حجر المذكور.

ثم في يوم الاثنين ثالث شهر رجب، رسم السلطانُ بإطلاق إينال الأبوبكري من حبس صَفَد، وتوجُّهه إلى القدس بطالاً.

ثم في يوم الأربعاء خامس شهر رجب، مُنِع وليّ الدين السفطي من طلوع القلعة، والاجتماع بالسلطان؛ ثم رسم بتوجّهه إلى بيت قاضي القضاة الحنفي، للدعوة عليه، فتوجّه وادّعى عليه جماعة بحقوق كثيرة، فحلف عن بعضها ثلاثَة أيمان، واعترف بالبعض؛ ثم نُقل إلى القاضي المالكي، وادُّعي عليه أيضاً بدَين فصالح المدّعي على ثلاثمائة دينار.

ثم رسم السلطان بمنع اليهود والنصارى من طبّ أبدان المسلمين.

ثم عُزِل السفطي عن مشيخة المدرسة الجماليّة ودرس التفسير بها. ثم في يوم ثالث عشرينه رُسِمَ بمجيء السفطي إلى بيت قاضي القضاة علم الدين صالح البلقيني الشافعي ليدّعي عليه الزيني قاسم المؤذي الكاشف، بسبب حمّامه التي بباب الخرق[1]، وكان السفطي اشتراها منه في أيام عزّه. فحضر السفطي إلى مجلس القاضي، وادّعى عليه قاسم بأنه كان أوقفها قبل بيعها، وأن الشراء لم يصادف محلاًّ، وأنه أكرهه على تعاطي البيع. وخرج قاسم لإثبات ذلك. ولمّا خرج السفطي من بيت القاضي، عارضه شخص آخر وأمسكه من طوقه وعاد به إلى مجلس القاضي، وادّعى عليه أنه غَصَب منه خشباً وغيره، فأنكر السفطي، فطلب تحليفَه والتغليظ عليه، فصالحه على شيء، ومضى إلى داره؛ وأخذ في السعي إلى أن أعاده السلطانُ إلى مشيخة الجمالية على عادته.

---

(١) أي شارع باب الخرق. وابتداؤه من آخر شارع تحت الربع وانتهاؤه أول شارع غيط العدّة بجوار مسجد السلطان شاه. (انظر خطط علي مبارك: ٣/٢٠٦).

ثم في يوم الخميس سابع عشرين شهر رجب، أمر السلطانُ ناصرَ الدين محمد بن أبي الفرج، نقيبَ الجيش، أن يأخذ السفطيَّ ويمضي به إلى بيت قاضي القضاة الشافعي، ثانياً، لسماع بَيِّنة الإكراه منه لقاسم الكاشف. فتوجّه السفطي وسمع ذلك، وذُكر أن له دافعاً وخرج ليُبديه؛ فبلّغ بعضُ أعداء السفطي السلطانَ أنه يمتنع من التوجّه إلى الشرع، ووغّر خاطرَ السلطان عليه، فأمر السلطانُ قاني بك السيفي يَشْبَك بن أُزْدَمُر أحد الدوادارية، في يوم الأحد سلخ شهر رجب، أن يتوجّه إلى السفطي ويأخذه ويمضي به إلى حبس المقشرة[1]، ويحبسه به مع أرباب الجرائم. فتوجّه إليه قاني بك المذكور، وحبسه بالمقشرة، وقد انطلقت الألسنُ بالوقيعة في حقه، ولولا رفق قاني بك به لقتلته العامّة في الطريق. ومن لطيف ما وقع للسفطي، أنه لما حُبس بسجن المقشرة، دخل إليه بعض الناس، وكلّمه بسبب شيء من تعلقاته، وخاطبه الرجل المذكور بيا مولانا قاضي القضاة، فصاح السفطي بأعلى صوته: «تقول لي قاضي القضاة! أما تقول: يا لصّ يا حرامي يا مَقْشَراوي!» فقال له الرجل: «يا لص يا حرامي يا مَقْشَراوي!».

ثم في يوم الاثنين أول شعبان، وصل الأميرُ تَنَم من عبد الرزاق المؤيدي المعزول عن نيابة حلب، وطلع إلى السلطان، وقبّل الأرض، فأكرمه السلطان وخلع عليه، وأجلسه تحت أمير مجلس جَرِبَاش الكَريمي، وأنعم عليه بإقطاع قاني باي الحمزاوي، وأركبه فرساً بسرج ذهب وكُنْبُوش زَرْكَش؛ كلّ ذلك بعناية عظيم الدولة الصاحب جمال الدين ناظر الخاصّ لصحبة كانت بينهما.

وفي هذا اليوم، أُخرج وليُّ الدين السفطي من سجن المقشرة، وذهب ماشياً من السجن إلى بيت قاضي القضاة علم الدين صالح البُلْقيني، ثم توجّه منه راكباً إلى المدرسة الصالحية، وحضر قاضي القضاة أيضاً بالصالحية، فلم ينفصل له أمر، وأُطلق من الغد من الترسيم.

---

(١) حبس المقشرة: كان بجوار باب الفتوح، وسُمّي بذلك لأن القمح كان يقشّر في موضعه. بناه الأشرف برسباي سنة ٨٢٨ هـ. وكان سجناً لأرباب الجرائم، وهو من أشنع السجون وأضيقها. (خطط المقريزي: ٢/١٨٨).

ثم في يوم الاثنين ثامن شعبان، رسم السلطانُ لقاضي القضاة بدرِ الدين محمد بن عبد المنعم البغدادي الحنبلي بطلب السفطي، وسماع الدعوى عليه والترسيم عليه، بسبب الحمّامين والفُرن والدكاكين بحارة زَوِيلة، فإنه ظهر أنهم كانوا في جملة وقف الطَّيْبَرسِية، فتجمَّل القاضي الحنبلي في حق السفطي، فلم يعجب ذلك أعداءه، وعرّفوا السلطانَ بذلك، فرسم في يوم السبت ثالث عشر شعبان بتوجّهه إلى حبس المقشرة ثانياً، بسبب الدكاكين والحمّامين التي بحارة زَوِيلة، ثم شُفِعَ فيه.

ثم في يوم السبت سابع عشرين شعبان آدُّعي على القاضي وليّ الدين السفطي، بمجلس القضاء ناصر الدين بن المخلّطة المالكي، بحضور قاضي القضاة بدر الدين الحنبلي، بسبب الحمّامين وما معهما، وخرج على الأعذار.

ثم في يوم الأربعاء أول شهر رمضان، حضر السفطي وغرماؤه والقاضي ناصرُ الدين بن المخلطة عند قاضي القضاة بدرِ الدين الحنبلي، وانفصل المجلس أيضاً على غير طائل. وادّعى السفطي أن السلطانَ رسم بأن لا يُدَّعى عليه عند ابن المُخلّطة، وكان ذلك غيرَ صحيح، فلم يُسمَع له ذلك. ولا زال الحنبلي يعتني به، حتى صالح جهةَ وقف طَيْبَرْس، بألف دينار. ثم في يوم السبت خلع السلطانُ على السفطي كامليةً بفرو سَمُّور، بعد أن حُمِّل أربعةَ آلاف دينار.

ثم في يوم الجمعة ثالث شهر رمضان، أنعم السلطان على مملوكه سُنْقُر الخاصّكي، المعروف بالجُعَيْدِي، بإمرة عشرة، بعد موت الأمير صَرْغَتْمُش القَلَمْطَاوي، زيادةً على ما بيده من حصّة بِشبين[1] القصر.

ثم في يوم السبت سابع عشر شوّال، برز أميرُ حاجِّ المحمل الأميرُ سَوِنْجُبَغَا اليونسي بالمحمل، وأميرُ الركب الأول الأمير قانم المؤيدي التاجر.

ثم في يوم الاثنين عشرين شهر رمضان، خرج الأميرُ جانبك الظاهري، المتكلم على بندر جُدَّة، إليها بمماليكه وحواشيه على عادته في كل سنة.

(١) في الأصل: «جبيين القصر». وما أثبتناه من طبعة المؤسسة المصرية. وهي اليوم شبين القناطر بالقليوبية.

ثم في يوم الثلاثاء ثامن عشر ذي القعدة استقر الأميرُ خير بك النَّوْرُوزي، حاجبُ صَفَد، في نيابة غزّة، بعد عزل طُوغان العثماني عنها، وذلك بمال كبير بذله له في ذلك، لوضاعة خير بك المذكور في الدولة.

واستهلّ ذو الحجة أوله الأحد، فيه ظهر الطاعونُ في الديار المصرية وأخذ في التزايد.

وفي يوم الخميس خامس ذي الحجة، استقر [علاء الدين][1] علي بن إسكندر ابن أخي زوجة كَمَشْبُغَا الفيسي، معلّم السلطان، على العمائر، عوضاً عن [الناصر][1] محمد بن حسين بن الطولوني، بحكم وفاته.

ثم في يوم السبت حادي عشرينه، استقر الحكيمُ ابن العفيف الشهير بقوالح[2]، أحد مُضحِكي المقر الجمالي ناظر الخواص بسفارته، في رئاسة الطب والكحل[3] بمفرده.

ثم في يوم الأحد ثاني عشرين ذي الحجة المذكور، استقر علاءُ الدين علي بن محمد بن آقبرس في حِسبة القاهرة، عوضاً عن يَرْعَلي الخراساني، بمالٍ بذله في ذلك. وكان أصل ابن آقبرس هذا عَنْبَرِيّاً بسوق العنبر، في حانوت، ثم اشتغل بالعلم، وتردّد للأكابر، واتصل بالملك الظاهر جَقْمَق في أيام إمرته، وناب في الحكم عن القضاة الشافعية، إلى أن تسلطن الملكُ الظاهر جقمق، فصار ابن آقبرس هذا من ندمائه، ووَلِيَ نظر الأوقاف وعدّة وظائف أُخَر. وكان أيضاً من جملة مُبْغِضي السفطي وممّن يعيب عليه أفعالَه القبيحة من البَلْص والطلب من الناس، وسمّاه «الهِلْب»؛ على أن ابنَ آقبرس أيضاً كان من مقولة السفطي وزيادة.

ثم في يوم الخميس حادي عشر محرّم سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة ضُربت

---

(١) زيادة عن التبر المسبوك.

(٢) هو عبد اللطيف بن عبد الوهاب بن عفيف الملكي الأسلمي. (الضوء اللامع).

(٣) أي رئيس الكحّالين، وهم أطباء العيون.

رقبةُ أسدِ الدين الكيماوي[١]، بمقتضى الشرع، بعد أمور وقعت له، ذكرناها مفصّلاً في تاريخنا «حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور».

وفي هذا الشهر تشاكَى الأميرُ تِمْرازُ المؤيدي نائب القدس كان، وناظرُ القدس عبدُ الرحمن بن الديري، فمال السلطانُ على ابن الديري وبَهْدله، وأمَر به فجعل في عنقه جنزير، إلى أن شَفع فيه عظيمُ الدولة الجماليُّ ناظرُ الخواص الشريفة.

ثم في يوم السبت ثالث عشره، توجّه تِمراز المذكور وعبدُ الرحمن بن الديري وأبو الخير النحّاس إلى بيت ناظر الخاص المذكور، وجلسوا بين يديه إلى أن أصلح بينهما، وأنعم على كلٍّ منهما بفرسٍ مسروج، وأنعم على أبي الخير بشيء، فقبّل الثلاثةُ يدَه وخرجوا من عنده. وأبو الخير يومَ ذاك في تنبوك[٢] عِزّه وعِظَم تعاظمه على جميع أرباب الدولة، إلّا الصاحب جمال الدين هذا فإنه معه على حالته الأولى إلى الآن.

هذا وقد فشا أمرُ الطاعون بالقاهرة، وتزايَد. ثم أهلَّ صفرُ من سنة ثلاث وخمسين، يومَ الأربعاء، فيه عظُم الطاعونُ، ومات في هذا الشهر جماعة كبيرة من الأمراء، وأعيان الدولة، على ما سيأتي ذكره في الوفيات من هذا الكتاب.

ثم في يوم الأحد ثاني عشر صفر، أُعيد القاضي برهانُ الدين إبراهيم بن الديري إلى نظر الإسطبل السلطاني، بعد موت برهانِ الدين بن ظهير.

وفي يوم الاثنين ثالث عشره استقرّ الأمير جَرِبَاش الكَرِيمي الظاهري أميرُ مجلس، أميرَ سلاح، بعد موت الأمير تِمْراز القُرْمُشي الظاهري؛ وفيه أيضاً استقر الأميرُ تَنَم، المعزول عن نيابة حلب، أميرَ مجلس، عوضاً عن جَرِبَاش المذكور؛ وفيه

---

(١) هو رجل أعجمي ادّعى أنه يعمل الكيمياء وخدع الناس وأخذ منهم الأموال، واستطاع أن يخدع السلطان أيضاً مدة من الزمن. ولما تبيّن للسلطان كذبه، وأسرّ إليه بعض الناس أن هذا الرجل يعبد النار وأنه دهري ينكر البعث، أمر جقمق بالقبض عليه ومحاكمته، فحكم عليه بالقتل وضربت عنقه. (حوادث الدهور).

(٢) كذا في جميع الأصول. ولعلّها: «في نُبوك عزّه» أي في أوج عزّه. من نَبَك المكانُ نُبوكاً: ارتفع.

أنعم السلطان على الأمير دُولات باي المحمودي المؤيدي الدَّوادار الثاني، بإمرةِ مائةٍ وتقدمة ألف، بعد موت تِمْراز القُرْمُشي، وصار من جملة أمراء الألوف؛ وأنعم بإقطاعه على الأمير يونس الأقبائي شادّ الشراب خاناه، والإقطاع إمرة طبلخاناه. وأنعم بإقطاع يونس على السيفي جانِبَك رأس نوبة الجَمَدَارية الظاهري جَقْمَق، وعلى مُغُلْباي طاز الساقي الظاهري أيضاً، لكلّ واحد منهما إمرة عشرة.

ثم في يوم الخميس سادس عشر صفر، استقر الأميرُ تَمُرْبَغَا الظاهري جَقْمَق دَواداراً ثانياً، عوضاً عن دُولات باي المقدّم ذكره، على إمرة عشرة. وفيه أيضاً أنعم السلطانُ على قاني باي المؤيدي الساقي، المعروف بقَراسقل، بإمرة عشرة، بعد موت إينال اليَشْبَكي.

ثم في يوم الاثنين عشرين صفر، ووافقه أولُ خمسين النصارى[1]، تناقص الطاعون.

ثم في يوم الخميس ثالث عشرينه، أنعم السلطان على الأمير يَشْبَك الفقيه المؤيدي بإقطاع الأمير بختك الناصري بعد موته، وأنعم بإقطاع يَشْبَك المذكور على الشهابي أحمد من الأمير الكبير إينال العلائي، وكلاهما إمرة عشرة. وفيه أيضاً أنعم السلطان عى مُغُلْباي الشهابي، رأس نوبة الجَمَدارية، بإمرة عشرة، عوضاً عن مُغُلْباي الساقي، بعد موته؛ وكان مُغُلْباي أخذ الإمرةَ قبل موته بأيام يسيرة، حسبما تقدّم ذكره.

وفي يوم الخميس هذا أنعم السلطان بإقطاع الأمير قَرَاخُجا الحسنى الأمير آخور، بعد موته، على الأمير تَنَم أمير مجلس، وأنعم بإقطاع تَنَم على الأمير جَرِبَاش المحمدي الناصري الأمير آخور الثاني المعروف بكُرْت، وصار من جملة المقدّمين، وأنعم بإقطاع جَرِبَاش المذكور ووظيفته الأمير آخورية الثانية، على الأمير سُودُون المحمدي المؤيدي، المعروف بسُودون أتمكجي؛ وأنعم بإقطاع سُودُون أتمكجي

(١) هو عيد العنصرة، ويقع عند المسيحيين يوم الأحد السابع بعد عيد الفصح. وهو ذكرى لحلول الروح القدس على الرُّسل بعد صلب المسيح بخمسين يوماً. (الموسوعة العربية الميسّرة: ١٢٤١).

المذكور على الأمير جانِبَك اليَشْبَكي والي القاهرة، بسفارة المقر الجمالي ناظر الخواص. وفيه أيضاً استقر الأميرُ قاني باي الجاركسي، الدَّوَادار الكبير، أميرَ آخور كبيراً، بعد موت الأمير قَرَاخُجَا الحسني؛ وكان السلطان رشّح الأمير أَسَنْبَغَا الطَّياري للأمير آخورية، فألحّ قاني باي في سؤال السلطان، على أن يليَها اقتحاماً على الرئاسة، ولا زال به حتى ولّاه؛ واستقرّ أيضاً دُولات باي المحمودي المؤيدي دَوَاداراً كبيراً، عوضاً عن قاني باي الجاركسي بمال كبير بذله في ذلك.

ثم في يوم الثلاثاء ثامن عشرين صفر، خلع السلطانُ على القاضي وليِّ الدين محمد السنباطي، باستقراره قاضيَ قضاة المالكية بالديار المصرية، عوضاً عن قاضي القضاة بدرِ الدين محمد بن التنسي، بحكم وفاته؛ وكان السنباطي هذا يلي قضاءَ الإسكندرية، فلما مات ابن التنسي، طُلب ووُلّي القضاءَ؛ وجميعُ مَن ذكرنا وفاتَه هنا ماتوا بالطاعون.

ثم في يوم الخميس أول شهر ربيع الأول، خلع السلطانُ على الطَّوَاشي فَيْرُوز النَّوْرُوزي الزِّمام والخازندار، باستقراره أميرَ حاجِّ المحمل.

ثم في يوم الاثنين خامس شهر ربيع الأول، خلع السلطان على الأمير أَسَنْبَغا الطَّيّاري باستقراره رأسَ نوبة النوب، بعد موت الأمير تَمُرْباي التَّمُرْبَغَاوي بالطاعون.

وفي أواخر هذا الشهر، قلَّ الطاعونُ بالقاهرة، بعد أن مات بها خلائق كثيرة؛ فكان من جملة مَن مات للسلطان فقط أربعةُ أولاد من صلبه، حتى لم يبقَ له ولد ذَكَر غير المقام الفخري عثمان[1].

ثم في يوم الثلاثاء سابع عشرين شهر ربيع الأول، أخذ السلطانُ من السفطي ستةَ عشر ألف دينار؛ وسبب ذلك أن قاضي القضاة بدرَ الدين الحنبلي كان وصيّاً

(١) وفي هذا الطاعون يقول ابن إياس: «ومات فيه ما لا يُحصى عددهم من مماليك وأطفال وجوارٍ وعبيد وغرباء، حتى قيل: كان يموت في كل يوم نحو عشرة آلاف إنسان».

على تَرِكَة قاضي القضاة بدرِ الدين بن التنسي المالكي، فلما عرض موجوده، وجد في جملة أوراقه ورقة فيها ما يدلّ على أنه كان للسفطي عنده ستّة عشر ألف دينار وديعةً، ثم وجد ورقة أخرى فيها ما يدلّ على أن السَّفْطي أخذ وديعته؛ وبلغ السلطانَ ذلك، فرسم بأخذ المبلغ منه - قلت: لا شُلّت يداه! «والذي خبث لا يخرج إلّا نكداً» - فحُمِلَت بتمامها إلى السلطان. ولم يرضَ السلطانُ بذلك، وهو في طلب شيء آخر فتح الله عليه، وهو أن السلطانَ صار يطلب السفطي بما وقع منه من الأيمان أنه ما بقي يملك شيئاً من الذهب، ثم وُجد له هذا المبلغ، فصار للسلطان مندوحة بذلك في أخذ ماله.

فلما استهلّ شهر ربيع الآخر يوم الجمعة، وطلع القضاة للتهنئة بالشهر، تكلم السلطانُ معهم في أمر السفطي، وما وقع منه من الأيمان الحانثة، واستفتاهم في أمره، وحرّض القضاةَ على مجازاته؛ فنزلوا من عند السلطان على أن يفعلوا معه الشرع. وبلغ السفطيَّ ذلك فخاف وأخذ في السعي في رضى السلطان؛ وخدم بجملة مستكثرة، ورضي السلطانُ عنه. ثم تغيّر عليه، وأخذ منه في يوم الثلاثاء ثاني عشر شهر ربيع الآخر عشرة آلاف دينار، كانت له وديعةً عند بعض القضاة، فأخذها السلطانُ، وهو مُطالب بغيرها.

ثم في يوم الخميس رابع عشره، أفحش السلطان في الحطّ على السفطي، وبالغ في ذلك، بحيث إنه قال: «هذا ليس له دِين، وهذا استحقّ القتل بما وقع منه في الأيمان الفاجرة، بأن ليس له مال ثم ظهر له هذه الجمل الكثيرة، وقد بلغني أن له عند شخص آخر وديعة مبلغ سبعة وعشرين ألف دينار»؛ وظهر من كلام السلطان أنه يريد أخذها، بل وأخْذَ روحه أيضاً، كلّ ذلك مما يوغّر أبو الخير النحّاس خاطرَ السلطان عليه. وبلغ السفطيَّ جميعُ ما قاله السلطان، فداخله لذلك من الرعب والخوف أمر عظيم؛ ومع ذلك بلغني أن السفطيَّ في تلك الليلة تزوّج بكراً ودخل بها واستبكرها، فهذا دليل على عدم مروءته، زيادةً على ما كان عليه من البخل والطمع، فإني لم أعلم أنه وقع لقاضٍ من قضاة مصر ما وقع للسفطي من البهدلة والإخراق وأخذ ماله، مع علمي بما وقع للهَرَوي وغيره، ومع هذا لم

يحصل على أحد ما حصل على هذا المسكين، فما هذا الزواج في هذا الوقت!.

ثم في يوم الثلاثاء سادس عشرين شهر ربيع الآخر المذكور، رُسِمَ بنفي يَرْعَلي العجمي الخراساني المعزول عن الحِسبة، ثم شفع فيه المقرُّ الجمالي ناظرُ الخواصّ، فرسم له السلطان بلزوم داره بخانقاه سرياقوس؛ ويَرْعَلي هذا أيضاً من أعداء النحّاس.

ثم في يوم السبت سلخه، أنعم السلطان على أُسَنْدَمُر الجَقْمَقي السلاح دار، بإمرة عشرة، بعد موت الأمير أُرْكَمَاس الأشقر المؤيدي.

ثم في يوم الاثنين ثاني جمادى الأولى، خلع السلطانُ على مملوكه الأمير أُزْبَك من طُطُخ الساقي، باستقراره من جملة رؤوس النُّوَب، عوضاً عن أركماس الأشقر المقدّم ذكره.

وفيه استقر الزيني عبدُ الرحمن بن الكُوَيْـز أُسْتَادَّارَ السلطان بدمشق، عوضاً عن محمد بن أَرْغُون شاه النَّوْرُوزي بحكم وفاته.

ثم في يوم الأربعاء رابع جمادى الأولى المذكور استقرّ عليٌّ بن إسكندر، أحد أصحاب النحّاس، في حِسبة القاهرة، وعُزل ابن أقبرس عنها، لتزايد الأسعار في جميع المأكولات.

ثم في يوم الاثنين ثالث عشرين جمادى الأولى المذكور، خرجت تجريدة من القاهرة إلى البحيرة، فيها نحو الأربعمائة مملوك وعدّةُ أمراء، ومقدّمُ الجميع الأميرُ الكبير إينال العلائي الناصري، وصُحبته من الأمراء المقدّمين؛ تَنَم أمير مجلس، وقاني باي الجاركسي أمير آخور، وعدّة أُخَر من الطبلخانات والعشرات.

ثم في يوم الاثنين ثامن عشرينه، عُزل قاضي القضاة علمُ الدين صالح البُلْقيني الشافعي عن القضاء، لسبب حكيناه في تاريخنا «حوادث الدهور»[1] إذ هو

(١) والسبب كما رواه أبو المحاسن في حوادث الدهور هو أن نائب البلقيني الشهاب بن إسحاق حكم باستمرار زوجية امرأة مات عنها زوجها بعد أن طلّقها في مرض موته، فأمر السلطان بضرب هذا القاضي ويعزل مُستنيبه وهو البلقيني.

كتابُ ضبطِ حوادث ووفيات لا غير. ثم أُعيد قاضي القضاة علمُ الدين في يوم الثلاثاء أول جمادى الآخرة.

ثم في يوم الجمعة رابع جمادى الآخرة، سافر الأميرُ قانم من صَفَر خُجَا المؤيدي، المعروف بالتاجر، رسولاً إلى ابن عثمان[1] متملِّك بلاد الروم، صحبةَ قاصدِ ابنِ عثمان الواصل قبل تاريخه.

ثم في يوم السبت تاسع عشره، رسم السلطان بنفي الأمير سُودون السُّودوني الحاجب، فشُفع فيه، فأمر السلطانُ بإقامته بالصحراء بَطّالاً. وكان سبب نفي السُّودوني أنه كان له مُغَلّ، فكلّمه عليُّ بن إسكندر المُحْتَسِب في بيع نصفه، وتخلية نصفه، لقلّة وجود الغلال بالساحل، فامتنع سُودون السُّودوني من ذلك، فشكاه أبو الخير النحّاس للسلطان، فأمر بنفيه. وقد تقدّم أن سُودون السُّودوني هذا كان ضرب أبا الخير بالنحّاس في يوم واحد علقتين ليخلِّص منه مالَ أبي العباس الوفائي.

ومن ظريف ما وقع لسُودون السُّودوني هذا مع أبي الخير النحّاس، من قبل هذه الحادثة أو بعدها، أنه لمّا صار من أمر أبي الخير ما صار، خشيه سُودون السُّودوني، مما كان وقع منه في حقه قديماً، فأراد أن يزول ما عنده، ليأمَن شرَّه، فدخل إليه في بعض الأيام، وقد جلس أبو الخير النحّاس في دَست رئاسته، وبين يديه أصحابُه وغالبهم لا يعرف ما وقع له مع سُودون السُّودوني المذكور، فلما استقرّ بسُودون الجلوس، أخذ في الاعتذار لأبي الخير فيما كان وقع منه بسلامة

---

(١) ابن عثمان هذا هو السلطان مراد الثاني. وكانت العلاقة المملوكية العثمانية زمن السلطان جقمق والسلطان مراد الثاني ودّيّة تتلخّص في تبادل الهدايا والتهنئات وغير ذلك من مظاهر المجاملة. وكان السلطان مراد قد أرسل من قبل هدية إلى السلطان جقمق، من بينها خمسون أسيراً وخمس من الجواري وكمية كبيرة من الحرير، وذلك على أثر انتصاره على جيش لادسلاس ملك المجر وهنيادي نائب ترانسلفانيا في وقعة ڤارنا عام ١٤٤٤ م. وكان هدف مراد من هدية الأسرى إظهار ما يقوم به العثمانيون من خدمات للإسلام، وأنه ليس فقط سلاطين المماليك هم الذين يحاربون ويجاهدون من أجل الإسلام. (النجوم، ١٥/٣٩٥، طبعة المؤسسة المصرية، حاشية).

باطن على عادة مُغَفَّلي الأتراك، وساق الحكايةَ في ذلك الملأ من الناس من أولها إلى آخرها، وأبو الخير ينقله من ذلك الكلام إلى كلام غيره، ويقصد كفّه عن الكلام بكل ما تصل قدرته إليه، وهو لا يرجع عمّا هو فيه، إلى أن استتمّ الحكاية؛ وكان من جملة اعتذاره إليه، أن قال له، ما معناه: «والله يا سيدي القاضي، أنا رأيتك شابٌّ فقير، من جملة الباعة، وحرّضوني عليك بأنك تأكل أموالَ الناس، فما كنت أعرف أنك تصل إلى هذا الموصل، في هذه المدّة اليسيرة؛ ووالله لو كنت أعرف أنك تبقى رئيس لكنت وزنتُ عنك المال». وشرع في اعتذار آخر، وقد ملأ النحّاس مما سمع من التوبيخ، فاستدرك فارطه بأن قام على قدميه واعتنق السُّودوني، وأظهر له أنه زال ما عنده، وأوهم أنه يريد الدخول إلى حريمه حتى مضى عنه إلى حال سبيله؛ وتحاكى الناس ذلك المجلس أياماً كثيرة. هذا ما بلغنا من بعض أصحاب النحّاس، وقد حكى غيرُ واحد هذه الحكايةَ على عدّة وجوه، وليس هذا الأمر من أخبارٍ تُحَرّر، وما ذكرناه إلّا على سبيل الاستطراد ـ انتهى.

وفي هذه الأيام توقف ماءُ النيل عن الزيادة، بل تناقص نقصاً فاحشاً، ثم أخذ في زيادة ما نقصه، فاضطرب الناس لذلك، وتزايدت الأسعار إلى أن أُبيع الإردب القمح بأربعمائة درهم(١).

ثم في يوم الثلاثاء تاسع عشرينه، وصل الأمير جانِبَك الظاهري نائب جُدَّة، وخلع السلطانُ عليه خلعةً هائلةً؛ ونزل إلى داره، وبين يديه وجوه الناس على كَره من أبي الخير النحّاس.

ثم في يوم الاثنين ثاني عشر شهر رجب، خلع السلطان على الشيخ يحيى

---

(١) في بدائع الزهور: «وتناهى في سعر القمح إلى خمسة أشرفية كل إردب، ثم تناهى إلى سبعة أشرفية كل إردب». قال: وغلا سعر كل شيء من البضائع حتى روايا الماء، وعمّ الغلاء سائر البلاد، وشرقت غالب البساتين وماتت الأشجار وماتت البهائم. فلما جرى ذلك حوّل الأمراء شونهم إلى بيوتهم ومعهم مماليكهم ملبسة (أي لابسة السلاح) خوفاً من العوّام أن ينهبوا القمح. ثم إن العوّام رجموا القاضي أبا الخيربن النحّاس وكيل بيت المال، وقد بلغهم عنه أنه قال للسلطان: «إن العوّامّ يأكلون بذهبهم حشيشاً ويأكلون فوقه بأربعة أنصاف حلوى، فالذي يأكلون به حلوى يأكلون به خبزاً» فرجموه وهو نازل من القلعة وخطفوا عمامته من على رأسه وأخذوا خواتمه من أصابعه.

المناوي، باستقراره قاضيَ قضاةِ الشافعية، بعد عزل قاضي القضاة علمِ الدين صالح البُلْقِيني.

ثم في يوم الخميس خامس عشره، استقر الأميرُ بَرْسْباي الإينالي المؤيدي الأمير آخور الثالث، أميرَ آخور ثانياً بعد موت سُودون أتمكجي، وأُنعم عليه بطبلخاناته، واستقر الأميرُ سُنْقُر الظاهري الجُعَيْدِي أميرَ آخورٍ ثالثاً، وهو في التجريدة بالبحيرة.

ثم في يوم الثلاثاء عشرينه، رسم السلطانُ بأن يُكتب مرسوم شريف إلى دمشق، بضرب الزيني عبدِ الرحمن بن الكُوَيْز، وحبْسِه بقلعة دمشق، وله سبب ذكرناه في «الحوادث».

ثم في يوم الاثنين سادس عشرين شهر رجب، استقر علاءُ الدين بن آقْبَرس ناظرَ الأحباس، بعد عزل قاضي القضاة بدر الدين محمود العيني عنها، لكِبَر سنّه، فلم يُشْكَر ابنُ أقبرس على ما فعله لسعيه في ذلك سعياً زائداً؛ وكان الأَلْيق عدم ما فعله لأن مقام كلٍّ منهما معروف في العلم والقدر والرئاسة.

ثم في يوم الخميس تاسع عشرين شهر رجب المذكور، جرت حادثة غريبة، وهو أنه لمّا كان وقت الخدمة السلطانية، أعني بعد طلوع الشمس بقدر عشرة درج، وقفت العامّة بشوارع القاهرة من داخل باب زَوِيلة إلى تحت القلعة، وهم يستغيثون ويصرخون بالسبّ واللعن ويهددون بالقتل، ولا يدري أحد ما الخبر، لعظم الغوغاء، إلى أن اجتاز عليُّ بنُ إسكندر محتسبُ القاهرة فلما رأوه أخذوا في زيادة ما هم فيه، وحطّوا أيديهم في الرَّجْم، فرجموه من باب زَوِيلة إلى أن وصل إلى باب القلعة أو غيرها، بعد أن شبعوه سبّاً وتوبيخاً بألفاظ يُستَحى من ذكرها[1]. فلما نجا عليٌّ منهم، وطلع إلى القلعة، استمروا على ما هم عليه بالشوارع، وقد انضمّ عليهم جماعة كثيرة من المماليك السلطانية، وهم على ما هم عليه، غير

---

(١) وكان ذلك بسبب ارتفاع سعر الخبز، فقد وصل سعر كل رطل خبز نصفي فضة. (بدائع الزهور: حوادث سنة ٨٥٢ هـ).

أنهم صاروا يعرضون بذكر أبي الخير النحّاس، ووقفوا في انتظاره إلى أن يطلع إلى القلعة، وكان عادته لا يطلع إليها إلّا بعد نزول أعيان الدولة. وكان أبو الخير قد ركب من داره على عادته، فعرّفه بعض أصحابه بالحكاية، فخرج من داره وسار من ظاهر القاهرة، ليطلع إلى القلعة، إلى أن وصل بالقرب من باب الوزير، بلغ المماليك الذين هم في انتظاره أنه قد فاتهم، فأطلقوا رؤوس خيولهم غارةً، والعامّةُ خلفهم، حتى وافوه في أثناء طريقه، فأكل ما قُسم له من الضرب بالدبابيس، وانهزم أمامَهم، وهم في أثره، والضرب يتناوله وحواشيه، وهو عائد إلى جهة القاهرة. وترك طلوعَ القلعة لينجو بنفسه، واستمر على ذلك إلى أن وصل إلى جامع أَصْلَم بخط سوق الغَنَم، فضربه شخص من العامّة على رأسه فصرعه عن فرسه؛ ثم قام من صَرْعته ورمى بنفسه إلى بيت أصلم الذي بالقرب من جامع أصلم، وهو يومَ ذاك سكن يَشْبَك الخاصّكي الظاهري جَقْمَق، من طبقة الزِّمام.

ومن غريب الاتفاق أن أبا الخير النحّاس كان قبل تاريخه بمدة يسيرة شكا يَشْبَك هذا صاحبَ الدار إلى السلطان، وشَوَّش عليه غاية التشويش، حتى أخذه أغاتُه الأميرُ فيروزُ الزِّمَام وبعثه إلى أبي الخير النحّاس على هيئة غير مرضية، فصفح عنه أبو الخير خوفاً من خُجْدَاشِيته لا تكرُّماً عليه؛ والمقصود أن أبا الخير، لمّا ضُرب وطاح عن فرسه، وكان الضاربَ له عبد أسود، وأخذ عمامته من على رأسه، فلما رأى أبو الخير نفسه في بيت يَشْبَك المذكور، هجمت العامّة عليه، ومعهم المماليك، إلى بيت يَشْبَك، وكان غائباً عن بيته، وقبضوا عليه وأخذوا في ضربه والإخراق به، وعرُّوه جميع ما كان عليه، حتى أخذوا أخفافَه من رجليه. واختلفت الأقوال في الإخراق به، فمن الناس مَن قال: أُركَبوه حماراً عرياناً وأشهَروه في البيت المذكور، ومنهم مَن قال أعظمَ من ذلك، ثم نجا منهم، ببعض مَن ساعده منهم، وألقى بنفسه من حائط إلى موضع آخر، فتبعوه أيضاً، وأوقعوا به وهو معهم عريان، وانتهبوا جميع ما كان في بيت يَشْبَك المذكور.

ووصل يَشْبَك إلى داره، فما أبقى ممكناً في مساعدة النحّاس، وما عسى يفعله مع السواد الأعظم؟ وكان بلغ السلطانَ أمرُه، فشقّ عليه ذلك إلى الغاية،

فأرسل إليه جانِبَك واليَ القاهرة، نجدةً، فساق إليه، حتى لحقه وقد أشرف على الهلاك، وخلّصه منهم؛ وأراد أن يركبه فرساً فما استطاع أبو الخير الركوب لعظم ما به من الضرب في رأسه ووجهه وسائر بدنه، فأركبه عرياناً وعليه ما يستره على بغلة، وأردفه بواحد من خلفه على البغلة المذكورة، وتوجّه به على تلك الهيئة إلى بيت الأمير تَمُرْبَغَا الدَّوادَارالثاني، بالقرب من جامع سُودون مِنْ زادة، والعامّةُ خلفه هم ينادونه[1] بأنواع السبّ ويذكرون له فقرَه وإفلاسَه وما قاساه من الذلّ والهوان، إلى أن وصل إلى بيت تَمُرْبَغَا المذكور بغير عمامة على رأسه، فأجلسه تَمُرْبَغَا بمكان تحت مقعده، واستمر به إلى الليل، فقام وتوجّه إلى داره مختفياً[2] خائفاً مرعوباً.

وأنا أقول: لو مات أحد من شدّة الضرب، لمات أبو الخير المذكور في هذا اليوم. كلّ ذلك بغير رضى السلطان، لأن المماليكَ والعامّةَ اتفقوا على أبي الخير المذكور وعلى الفتك به، وقلّ أن يتفقوا على أمر. فكان هذا اليوم من الأيام المشهودة بالقاهرة، لأني ما رأيت ولا سمعت بمثل هذه الواقعة. وقد سبق كثير من إخراق المماليك لرؤساء الدولة ونهب بيوتهم وأخذ أموالهم، ومع هذا كله لم يقع لأحد منهم بعض ما وقع لأبي الخير هذا، فإن جميع الناس قاطبة كانت عليه، وكلٌّ منهم لا يريد إلّا قتله وإتلافه.

وأنا أقول إنهم معذورون فيما يفعلونه، لأنه كان بالأمس في البهَمُوت[3] من الفقر والذلّ والإفلاس، وصار اليومَ في الأَوْج من الرئاسة والمال والتقرّب من السلطان. ومع هذا الانتقال العظيم، صار عنده شمم وتكبّر، حتى على مَن كان لا يرضي أقلّ غلمانه أن يستخدمه في أقلّ حوائجه. وأما على مَن كان من أمثاله وأرباب صنعته، فإنه لم يتكبّر عليهم، بل أخذ في أذاهم والإخراق بهم، حتى

---

(١) في الأصول: «ينادمونه». والمثبت عن التبر المسبوك.

(٢) كذا في الأصول. وصوابه: «متخفياً».

(٣) في التبر المسبوك: «في الحضيض من الفقر». ولعلّ الكاتب أراد أنه كان في مرتبة البهائم. على نحو ما يقال: لاهوت، وناسوت، وصلبوت.

أبادهم شرّاً. وأنا أتعجّب غايةَ العجب من وضيعٍ يترأس، ثم يأخذ في التكبّر على أرباب البيوت وأصحاب الرئاسة الضخمة، فما عساه يقول في نفسه! والله العظيم، إنني كنت إذا دخل عليّ الفقيه(١) الذي أقرأني القرآنَ في صغري، على أن بضاعته من العلوم كان مُزجاة، أستحي أن أتكلم بين يديه بفضيلة أو علم من العلوم، لكونه كان يعرفني صغيراً لا فقيراً، فكيف حال هؤلاء مع الناس، كانوا يرتجون خدمة أصاغر خَدَمهم؛ فليس هذا إلّا عظم الوقاحة، وغلبة الجنون لا غير ـ انتهى.

ثم في يوم السبت ثاني شعبان، عَزل السلطانُ عليَّ بنَ إسكندر عن حسبة القاهرة، ورسم لزينِ الدين يحيىٰ الأسْتَادّار بالتكلّم فيها، فباشر زينُ الدين الحسبةَ من غير أن يلبس لها خلعة؛ وكانت سيرةُ عليّ بن إسكندر ساءت في الحِسبة إلى الغاية.

وأما أبو الخير النحّاس، فإنه استمر في داره إلى يوم الاثنين ثالث شعبان، طلع إلى القلعة وخلع السلطانُ عليه كاملية مُخمل أحمر بمقلب سَمُّور. ونزل إلى داره وهو في وَجَلٍ من شدّة رعبه من المماليك والعامّة، لكنّه شقّ القاهرة في نزوله، ولم يسلم من الكلام، وصار بعضُ العامّة يقول: «أيش هذه البرودة!» فيقول الآخر: «إذا اشتهيتَ أن تضحك على الأسمر لَبِّسْه أحمر!». هذا وأبو الخير يسلّم في طريقه على الناس من العامّة وغيرها؛ فمنهم مَن يردّ سلامه، ومنهم مَن لا يردّ سلامه، ومنهم مَن يقول بعد أو يُولي بأقوى صوته: «خِيرتك وإلّا ينحسوها» أعني رقبته. ولم ينزل معه أحد من أرباب الدولة إلّا المقرّ الجمالي ناظر الخواصّ الشريفة؛ قصدَ بنزوله معه أموراً لا تُخفى على أرباب الذوق السليم، لأنه لم يؤهّله قبل ذلك لأمر من الأمور، فما نزولُه الآن معه، وقد وقع في حقه ما وقع؟.

ثم في يوم الاثنين حادي عشر شعبان، قَدِمَ الأمراءُ من تجريدة البحيرة صُحبة الأمير الكبير إينال العلائي، وخلع السلطانُ على أعيانهم الثلاثة الأمير الكبير إينال، وتَنَم المؤيدي أمير مجلس، وقاني باي الجاركسي الأمير آخور.

---

(١) هو معلّم الصبيان في الكتّاب. وكان يقال لهؤلاء: فقهاء المكاتب.

ثم في يوم الاثنين ثامن عشر شعبان، برز الأميرُ جَرِبَاش الكَرِيمي الظاهري برقوق أمير سلاح إلى بِركة الحاج على هيئة الرَّجَبِيَّة[١]، وصُحبته قاضي القضاة بدرُ الدين بن عبد المنعم الحنبلي، والزيني عبدُ الباسط بن خليل الدمشقي، وجماعة كثيرة من الناس.

ثم في يوم السبت سابع شهر رمضان، اختفى السَّفْطي، فلم يُعرف له مكان، بعد أمور وقعت له مع قاسم الكاشف؛ فعمل السلطانُ في يوم الاثنين سادس عشره عَقْد مجلس بين يديه بالقضاة والعلماءِ بسبب حمام السَّفْطي، وظهر السفطي من اختفائه، وحضر المجلسَ، وانفصل عِقد المجلس على غير طائل، واختفى السفطي ثانياً من يومه فلم يعرف له خبر.

ثم في يوم الخميس سابع عشر شوّال، برز أميرُ حاجِّ المحمل، فَيْروز النَّوْرُوزي الزِّمام الخازندار، بالمحمل، وأميرُ الركب الأول الأميرُ تَمُرْبَغَا الظاهري الدَّوَادار الثاني. وحجَّ في هذه السنة من الأعيان الأميرُ طُوخ من تِمْراز المعروف بيني بازِق، أحد مقدّمي الألوف بالديار المصرية؛ وبني بازق باللغة التركية: أي غليظ الرقبة[٢]. وخرج تِمْراز البَكْتَمُري المؤيدي المصارِع، صُحبةَ الحاج، واستقرّ في مُشِدِّيَّة بندر جُدَّة، عوضاً عن الأمير جانِبَك الظاهري، حسبما نذكره من أمره فيما يأتي مفصّلاً، إن شاء الله تعالى.

ثم في يوم السبت تاسع عشره، استقر القاضي وليُّ الدين الأسيوطي في مشيخة المدرسة الجَمَالِيَّة، بعد تسحُّب وليِّ الدين السَّفْطي واختفائه.

ثم في يوم الاثنين العشرين من ذي القعدة، استقر الأميرُ جانِبَك اليَشْبَكي والي القاهرة في حِسبة القاهرة، مضافاً لما معه من الولاية وشدِّ الدواوين والحجوبية؛ وجانِبَك هذا أحدُ مَن رقاه المقرّ الصاحبي ناظرُ الخاص المقدّم ذكره.

ثم في يوم الخميس ثالث عشرين ذي القعدة أيضاً، نُودِيَ بالقاهرة على

(١) أي الذين يتوجهون إلى زيارة قبر الرسول في شهر رجب.
(٢) في الضوء اللامع: «طويل الرقبة».

وليّ الدين السَّفْطي، بأن مَن أحضره إلى السلطان يكون له مائة دينار، وهدّد مَن أخفاه بعد ذلك بالعقوبة والنكال.

ثم في يوم الخميس ثامن ذي الحجة، وصل الأميرُ يَشْبَك الصُّوفي المؤيدي، نائب طرابلس، إلى القاهرة، وطلع إلى القلعة وقبّل الأرض؛ فحال وقوفه رسم السلطانُ بتوجُّهه إلى ثغر دِمياط بَطّالاً، وذلك لسوء سيرته في أهل طَرَابُلُس. وفيه عزل السلطانُ الأميرَ علّان جِلَّق المؤيدي عن حجوبيّة حلب، لشكوى الأمير قاني باي الحمزاوي نائب حلب عليه، ثم انتقض ذلك، واستمر علّان على وظيفته.

ووقع في هذه السنة ـ أعني ثلاث وخمسين ـ غريبة، وهي أنه مات فيها من ذوات الأربع، مثل الأغنام والأبقار وغيرها، شيء كثير، من عدم العلوفة، لغلوّ الأسعار والفناء، فأيقن كلٌّ أحد بتزايد أثمان الأضحية؛ فلما كان العشر الأول من ذي الحجة، وصل إلى القاهرة من البقر والغنم شيء كثير، حتى أُبيعت بأبخس الأثمان.

ثم في يوم تاسع عشر ذي الحجة المذكور، سُمِّر نجمُ الدين أيوب بن بشارة[1]، وطِيفَ به، ثم وِسِّط من يومه، ووُسِّط معه شخص آخر من أصحابه. وقد ذكرنا سبب القبض عليه وما وقع له من تاريخنا «حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور»، إذ هو محله.

ثم في يوم السبت رابع عشرينه، عَزل السلطانُ الأميرَ علّان المؤيدي عن حجوبية حجّاب حلب، لأمر وقع بينه وبين نائب حلب الأمير قاني باي الحمزاوي، ورسَم بتوجُّه علّان المذكور إلى مدينة طرابلس بطالاً، واستقر عوضَه في حجوبية حلب قاسم بن جمعة القساسي، وأنعم بإقطاع قاسم على الأمير جانِبَك المؤيدي المعروف بشيخ، المعزول أيضاً عن حجوبية حلب قبل تاريخه، والإقطاع إمرة

---

(١) هو أيوب بن حسن بن محمد بن البدر بن ناصر الدين بن بشارة، مقدّم العشير ببلاد صيدا. (الضوء اللامع). ـ راجع أيضاً الجزء ١٤ من هذا المطبوع، ص ٢٩٢، حاشية (١) وص ٢٩٣، حاشية (١).

طبلخاناه بدمشق. وفيه رسم السلطانُ لمَامَاي السيفي بَيْبَغا المظفري، أحد الدَّوَادَارِيّة الصغار، بالتوجّه إلى ثغر دِمْياط، وأخذ الأمير يَشْبَك الصُّوفي منه وتحبّسه بثغر الإسكندرية مقيّداً؛ ووقع ذلك.

ثم في يوم الخميس خامس عشرين ذي الحجة، رسم باستقرار الأمير يَشْبَك النَّوْرُوزِي، حاجب حجّاب دمشق، في نيابة طرابلس، عوضاً عن يَشْبَك الصُّوفي المقبوض عليه قبل تاريخه؛ وولاية يَشْبَك المذكور طرابلس على مال كبير بذله له؛ وحَمل إليه التقليدَ والتشريفَ بنيابة طرابلس الأميرُ أَسَنْبَاي الجمالي الساقي الظاهري جَقْمَق، ورسم السلطان بإعادة الأمير جانِبَك الناصري إلى حجوبية دمشق، عوضاً عن يَشْبَك النَّوْرُوزِي.

وفرغت هذه السنة والديارُ المصرية في غاية ما يكون من غلو الأسعار. وفي هذه السنة أيضاً، ورد الخبرُ بوقوع خَسْفٍ بين أرض سِيس وطرسوس، ولم أتحقّق مقدارَ الأرض التي خُسفت. وفيها أيضاً كان فراغُ مدرسة زين الدين الأستادّار، بُخُط بولاق على النيل، ولم أدرِ المصروفَ على بنائه من أيّ وجه، ومَن كان له شيء فله أجره.

واستهلّت سنة أربع وخمسين وثمانمائة الموافقة لحادي عشرين مسرَى، والناسُ في جهدٍ وبلاءٍ من غلوّ الأسعار، وسعر القمح ثمانمائة درهم الإردب، وقد ذكر سعر جميع المأكولات في «حوادث الدهور».

ولمّا كان يوم السبت أول محرّم سنة أربع وخمسين المذكورة، وصل الأميرُ بَرْدبك العجمي الجَكَمي المعزول عن نيابة حماة من ثغر دِمْياط، وطلع إلى القلعة، وأنعم السلطانُ عليه بإمرة مائةٍ وتقدمةِ ألفٍ بدمشق.

وفي هذه الأيام وصلت إلى القاهرة رِمَّة قاسم المؤذي الكاشف، غريم السَّفْطي ليُدفَن بالقاهرة.

ثم في يوم الخميس ثالث عشر المحرّم، وصل الأميرُ جَرِبَاش الكَرِيمي أمير سلاح من الحجاز، وتخلّف قاضي القضاة بدرُ الدين الحنبلي عنه مع الرّكب الأول

من الحاجّ. وكان الزيني عبدُ الباسط بن خليل سبق الأميرَ جَرِبَاش من العقبة، ودخل القاهرة قبل تاريخه، وخلع السلطانُ على جَرِبَاش المذكور كامليةً بمقلب سَمُّور، وخرج من عند السلطان، ودخل إلى ابنته زوجة السلطان، وهي يوم ذلك صاحبةُ القاعة [الكبرى بالدور السلطانية][١] وسلّم عليها، ثم نزل إلى داره [المعروفة بالبيت الكبير تجاه القلعة][١].

ثم في يوم الجمعة ثامن عشرينه، عقد السلطانُ عقدَ مملوكه الأمير أُزْبَك مِنْ طُطُخ، على ابنته من مطلّقته خَوَنْد [مُغْل][٢] بنت البارِزِي؛ وكان العقدُ بقلعة الدِّهِيشَة، بحضرة السلطان، بعد نزول الأمراء من صلاة الجمعة من غير جمع.

ثم في يوم الخميس رابع شهر صفر استقر أبو الفتح الطيبي أحد أصحاب أبي الخير النحّاس في نظر جوالي دمشق، ووكالة بيت المال بها، على أنه يقوم في السنة للخزانة الشريفة بخمسين ألف دينار، على ما قيل؛ وما سيأتي من خبر أبي الفتح فأعجب.

وفي هذه الأيام ظهر رجل من عبيد قاسم الكاشف، وشُهر بالصلاح، وتردّدَ الناسُ لزيارته، حتى جاوز أمرُه الحدّ، وخُشي على الناس من إتلاف عقائدهم، فأمر السلطانُ الأميرَ تَنْبَك حاجبَ الحجّاب أن يتوجّه إليه، ويضربه ويحبسه، وصُحبته جانِبَك الساقي والي القاهرة. فلما دخلا عليه، تهاون الأميرُ تَنْبَك في ضربه خشيةً من صلاحه. وبلغ السلطانَ ذلك، فرسم بنفيه إلى ثغر دِمْياط بَطّالاً، ومُسفِّره جانِبَك الوالي، وتولّى خُشْقَدم الطَّوَاشي الظاهري الرومي ووالي القاهرة ضربَ العبدِ المذكور وحبْسه. [وقد أوضحتُ أمرَ هذا العبد وما وقع له في تاريخنا «الحوادث» فليُنظر هناك. ثم رسم السلطانُ بعد مدة بقدوم الأمير خُشْقَدَم الناصري المؤيدي أحد المقدّمين بدمشق، إلى القاهرة، واستقراره في حجوبية الحجّاب، عوضاً عن تَنْبَك المذكور، ورسم للأمير عِلّان المؤيدي، المعزول عن حجوبية حلب، بإقطاع خُشْقَدَم المذكور بدمشق.]

(١) زيادة عن التبر المسبوك.

(٢) زيادة عمّا سبق ذكره للمؤلّف.

ثم في يوم الثلاثاء سادس عشر صفر، رسم السلطانُ بنقل الأمير جانِم الأمير آخُور قريب الملك الأشرف [بَرْسْباي] من القدس الشريف، وحبْسه بسجن الكَرَك. وكان جانِمُ المذكور حُبس عدّة سنسن، ثم أُطلق وجاور بمكّة سُنَيّات، ثم سأل في القدوم إلى القدس، فأُجيب، وقدّمه، فتكلّم فيه بعضُ أعدائه إلى أن حُبس بالكَرَك ثانياً.

ثم في يوم الخميس ثامن عشر صفر، قَدِمَ الأميرُ قانم التاجر المؤيدي من بلاد الروم[١] إلى القاهرة.

ثم في يوم الثلاثاء ثالث عشرين صفر المذكور، نُودِيَ بالقاهرة بأن لا يلبس النصارى واليهودُ على رؤوسهم أكثر من سبعة أذرع من العمائم، [لكونهم تعدّوا في ذلك وزادوا عن الحدّ][٢]؛ وفي هذه الأيام تزايد أمرُ النحّاس وطغى وتجبّر، ونسي ما وقع له من البهدلة والإخراق.

وفي يوم الاثنين، رسم السلطان بالإفراج عن عبد قاسم الكاشف من حَبْس المَقْشَرَة، وتوجُّهه إلى حيث شاء، ولا يسكن القاهرة.

ثم في يوم السبت ثاني عشر شهر ربيع الأول، ورد الخبر بموت الأمير شاد بك الجَكَمي، المعزول عن نيابة حماة، بالقدس بعد مرض طويل.

ثم في يوم الخميس سادس عشره، وصل إلى القاهرة الأمير خشقدم المؤيدي من دمشق، وقبّل الأرضَ وأنعم عليه السلطانُ بإمرةِ مائةٍ وتقدمة ألف، عوضاً عن تَنْبَك البردبكي الحاجب، بحكم نفيه إلى دِمْياط. وفي هذا اليوم كان مُهِمّ الأمير أُزْبَك وعرسه على بنت السلطان بالقاهرة، في بيت خالها القاضي كمالِ الدين بن البارِزِي، ولم يُعمل بالقلعة.

---

(١) أي من بلاد مراد الثاني العثماني. أضاف السخاوي في التبر المسبوك: «وعليه خلفه خوندكار مراد بك بن عثمان متملّك برصا وغيرها».

(٢) زيادة عن التبر المسبوك.

ثم في يوم الاثنين حادي عشرين شهر ربيع الأول المذكور، استقر خشقدم عوضاً عن تَنْبَك المقدّم ذكره في حجوبية الحجّاب.

ثم في يوم الخميس ثاني شهر ربيع الآخر، أنعم السلطانُ على تمراز الأشرفي الزَّرَدْكاش كان بإقطاع علي باي الساقي الأشرفي، بحكم وفاته. قلت: بئس البديل، وإن كان كلٌّ منهما أشرفيّاً، فالفرق بينهما ظاهر.

وفي هذه الأيام عَظُم أمر النحّاس، حتى إنه ضاهى المقرَّ الصاحبيّ ناظرَ الخواص، في نفوذ الكلمة في الدولة، لأمور صدرت بينهما يطول الشرح في ذكرها، وليس لذلك فائدة ولا نتيجة؛ وملخّص ذلك أن أبا الخير عظم في الدولة، حتى هابه كلُّ أحد من عظماء الدولة إلّا المقرّ الجمالي؛ فأخذ أبو الخير يدبّر عليه في الباطن، ويوغر خاطرَ السلطان عليه بأمور شتّى، ولم ينهض أن يحوِّل السلطانَ عنه بسرعة، لثبات قدمه في المملكة، ولعظمه في النفوس. كلُّ ذلك والمقرُّ الجمالي لا يتكلم في حقّه عند السلطان بكلمة واحدة، ولا يلتفت إلى ما هو فيه، وأبو الخير في عمل جدّ مع السلطان في أمر الجمالي المذكور، بكلتا يديه. وبينما هو في ذلك، أخذه الله من حيث لا يحتسب، حسبما يأتي ذكره مفصّلاً إن شاء الله تعالى.

ومن غريب الاتفاق أنه دخل عليه، قبل محنة أبي الخير النحّاس بمدة يسيرة، رجلٌ من أصحابه، وأخذ في تعظيم المذكور، وبالغ في أمره، حتى قال إنه قد تمّ له كلّ شيء طلبه؛ فأنشدتُه من باب المماجنة: [المتقارب]

إذا تمّ أمرٌ بدا نقصه … تَوَقَّ زَوالاً إذا قيل تَمّ

وافترقنا، فلم تمضِ أيام حتى وقع من أمره ما وقع.

ثم في يوم الاثنين، ثالث عشر شهر ربيع الآخر المقدّم ذكره، نُفي الأمير سُودون الإينالي المؤيدي المعروف بقَرَاقاش، أحد أمراء العشرات ورأس نوبة، لأمر مطوّل ذكرناه في «الحوادث»(١).

(١) كان السلطان قد أرسله في تجريدة لقمع فتنة عرب محارب بالبحيرة، فقام بذلك ثم عاد. غير أن هؤلاء =

وفي هـذه الأيام بـرز المرسـومُ الشريف بعـزل الأمير يَشْبُك من صَفَـر خُجَـا المؤيدي الأعرج عن نيابة حماة، لأمور مطوّلة ذكرناها في «الحوادث» من أولها إلى آخرها، وإلى حضوره إلى القاهرة، وما وقع له ببـلاد الشرق وغيـره. ورسم للأميـر سُودون الأبوبكري المؤيدي أتابك حلب بـاستقراره عِـوضه في نيـابة حمـاة، وأنعم بـأتابكيـة حلب على الأمير علي بـاي العجمي المؤيـدي، وأنعم بتقـدمـة علي بـاي المذكور على إينال الظاهري جَقْمَق، وقد نُفي قبل تاريخه من الديار المصرية.

* * *

ذكر مبدأ نكبة أبي الخير النحّاس على سبيل الاختصار

ولمّـا كان يـوم الأحـد حـادي عشـر جمـادى الأولى من سنـة أربـع وخمسين المذكورة، أحضر السلطانُ إلى بين يديه مماليكَ الأمير تَنَم من عبد الرزاق المؤيدي أميـر مجلس، وعيَّن منهم نحـوَ العشـرة، ورسم بحبسهم بسجن المَقْشَـرة، بسبب تجرُّئهم على استاذهـم المذكـور، وشكواه عليهم. فلما أصبح من الغد في يوم الاثنين ثاني عشره، انفضّ المـوكب السلطاني، ونزل الأمير تَنَم المذكورُ صُحبةَ الأتابك إينال العلائي وغيره من الأمراء، فلما صاروا تجاه سُوَيْقة مُنْعِم، احتـاطت بهم المماليـكُ السلطانيـة الجُلْبَان، وخَشَّنـوا لِتَنَم في القول، بسبب شكـواه على مماليكـه، فأخـذ الأتـابك إينـال في تسكينهـم، وضمن لهم خلاصَ المـماليـك المـذكـورة من حبس المَقْشَرَة؛ فخلّوا عنهـم، ورجعوا غارةً إلى زين الدين يحيـىٰ الأسْتَـادّار، فوافـوه بعد نزوله من الخدمة بالقرب من جامع المارداني، وتناولوه بالدبابيس؛ فمن شدّة الضرب ألقى بنفسه عن فرسه، وهرب إلى أن أنجده الأميرُ أُزْبَـك الساقي، والأميـرُ جانِبَـك اليَشْبَكي الوالي، وأركباه على فرسه، وتوجّها به إلى داره.

فلما فات المماليكُ زينَ الدين رجعوا غـارةً إلى جهة القلعـة، ووقفوا تحت

= العربان استطاعوا استرداد جِمالهم التي كان كاشف البحيرة قد استولى عليها وجاء بها سُودون، فغضب السلطان ونفي سودون المذكور إلى القدس بطّالاً. (حوادث الدهور).

الطبلخاناه [السلطانية] بـالصُّوَّة(١)، في انتـظار أبي الخير النحّـاس. وبلغ النحّاسَ الخبرُ، فمكث نهارَه عنـد السلطان بـالقلعـة لا ينـزل إلى داره. فشقّ ذلـك على المماليك واتفقـوا على نهب دار أبي الخير النحّـاس، فساروا من وقتهم إلى داره على هيئة مزعجة، فوجدوا باب داره قد غلقه مماليكُه وأعوانه، وقد وقفت مماليكُه بـأعلى بابـه لمنع الممـاليك من الـدخول، فـوقع بينهم بُعَيْض قتـال؛ ثم هجمت المماليكُ السلطانيـة على بابـه الذي كـان من بين السوريين، وأطلقـوا فيه النـار، واحترق الباب وما كان عليه من المباني. ودخلوا إلى البيت، وامتدت الأيدي في النهب، فما عفّوا ولا كفّوا، وأخذوا من الأقمشة والأمتعة والصيني والتحف ما يطول الشرح في ذكره. واستمرت النار تعمل في باب أبي الخيـر، إلى أن اتصلت إلى عدّة بيوت بجواره، ولم تصل النارُ إلى داره، لأنها كانت فوق الريح، وأيضاً كانت بالبُعد عن الباب، وهي الدار التي عمَّرها قديماً صلاحُ الدين بن نصر الله، وانتقلت بعده إلى أقوام كثيرة، حتى ملكها النحّاس هذا وجدّدها وتناهى فيها.

ثم حضر والي القاهرة وغيره لطَفي النار، فطُفيت بعد جهد؛ ولمّا انتهى أمر الممـاليك من النهب، وعلمـوا أنه لم يبقَ بـالدار مـا يؤخـذ، تـوجّهـوا إلى حـال سبيلهم، وقد تركوا بيتَ النحّاس خالياً من جميع ما كان فيه، بعد أن سلبوا حريمَه جميعَ ما كـان عليهنّ من الأقمشة، وأفحشـوا في أمـرهنّ من الهَتْكـة والجـرجـرة والهَجْم عليهنّ. وعـادوا من دار النحّـاس وشقّـوا بـاب زَوِيلة، وقـد غُلقت عـدّة حـوانيت بالقـاهرة، لعـظم مـا هـالهم من النّهب في بيت النحّـاس، فمضـوا ولم يتعرّضوا لأحد بسوء. وباتوا تلك الليلة، وأصبحوا يومَ الثلاثاء ثالث عشر جمـادى الأولى المذكور، ووقفوا بالرملة محدقين بالقلعة، مصمّمين على الفتك بأبي الخير النحّاس، وقد بات النحّاس بـالقلعة، وطلبـوا تسليمه من السلطان، وعَـزْلَ جوهـر النَّوْرُوزي عن تقدمة المماليك، وعزْل زين الدين الأستادّار عن الأستادّارِيَّة؛ وانفضّ الموكب، ونزل كلٌّ من الأعيان إلى داره في خفية، ونزل الأميرُ تَمُربَغَـا الظاهـري

(١) الصوّة: مكان تحت القلعة بين الطبلخاناه السلطانية وباب المدرج. (انظر خطط المقريزي: ٢/٣٢٧).

الدَّوَادّار الثاني، والأميرُ أُزْبَك الساقي، وبَرْدبك البَجْمَقْدار، إلى نحو بيوتهم؛ فلما صاروا بالرملة ضربوا عليهم المماليكُ الجِلْبَان حلقةً، وكلّموهم في عَودهم إلى السلطان والتكلّم معه في مصالحهم، فقال لهم تَمُرْبَغَا: «ما هو غرضكم؟»، قالوا: «عزل جَوْهر مقدّم المماليك وتسليم غريمنا»، يعنون النحّاس.

فعاد تَمُرْبَغَا إلى القلعة من وقته وعرَّف السلطانَ بمقصودهم. وكان الأميرُ الكبير إينال قد طلع باكرَ النهار إلى القلعة وصُحبته الأميرُ أَسَنْبَغَا الطيّاري رأس نوبة النُّوَب؛ وأما الأمير تَنَم فإنه كان طلع إلى القلعة من أمسه وبات بها في طبقة الزِّمام، وأجمعَ رأيَه أنه لا ينزل من القلعة إلى أن يفرج عن مماليكه المحبوسين، خشية من المماليك الجِلبَان. فلما طلع الأميرُ الكبير باكرَ النهار، شَفَع في مماليك الأمير تَنَم، فرُسم بإطلاقهم. ثم تكلّم الأمير الكبيرُ مع السلطان في الرضى عن المماليك الجِلْبَان، والسلطان مصمّم على مقالته التي قالها بالأمس، أنه يرسل ولدَه المقامَ الفخري عثمانَ وحريمَه إلى الشام، ويتوجّه هو إلى حال سبيله، فنهاه الأميرُ الكبير عن ذلك. وقام السلطانُ ودخل إلى الدَّهِيشَة، فكلّمه بعض أُمرائه أيضاً في أمرهم، فشقَّ ثوبَه غيظاً منه، ونزل الأمير الكبير بمَن معه إلى دورهم.

ثم كان نزولُ تَمُرْبَغَا؛ والمقصودُ أن تَمُرْبَغَا لمّا عاد إلى السلطان، وعرّفه قصْدَ المماليك، وقَبْل أن يتكلم، سبقه بعضُ أمرائه، وأظُنه الأميرَ قَرَاجَا الخازندار، وقال: «يجبرُ مولانا السلطانُ خاطرَ مماليكه، بعزل المقدّم، وإخراج النحّاس من القاهرة»، فانقاد السلطانُ إلى كلامه، ورسم بعزل جوهر مقدّم المماليك، وتوجُّهه إلى المدينة الشريفة، وإخراج النحّاس إلى مكّة المشرّفة؛ وعاد تَمُرْبَغَا إلى المماليك بهذا الخبر، فرضوا، وتوجّه كلّ واحد إلى حال سبيله؛ وتمّ ذلك إلى بعد الظهر من اليوم المذكور. فلما كان بعد الظهر، توجّه جماعة من المماليك إلى الأمير أَسَنْبَغَا الطَّيَّاري رأس نوبة النوب، وكلّموه أن يطلع إلى السلطان، ويطلب منه إنجاز ما وعدهم به من إخراج النحاس وعزل المقدّم؛ فركب أَسَنْبَغَا من وقته، وطلع إلى السلطان وكلّمه في ذلك؛ فلما سمع السلطانُ مقالة أَسَنْبَغَا، اشتد غضبُه، وطلب في الحال جوهراً مقدّمَ المماليك ونائبَه مرجان العادلي المحمودي،

وخلع عليهما باستقرارهما، ورسم أن يكون النحاسُ على حاله أولاً بالقاهرة، ورسم للأمير تَغْرِي بَرْمَش اليَشْبَكي الزَّرَدْكَاش أن يستعدّ لقتال المماليك الجِلْبَان. فخرج الزَّرَدْكَاش من وقته ونصب عدةَ مدافع على أبراج القلعة، وصمّم السلطانُ على قتال مماليكه المذكورين.

وبلغ الأمراءَ ذلك، فطلع منهم جماعة كبيرة إلى السلطان، وأقاموا ساعةً بالدَّهِيشَة، إلى أن أمرهم السلطان بالنزول إلى دورهم، ونزلوا. واستمر الحالُ إلى باكر يوم الأربعاء رابع عشره، فجلس السلطانُ بالحوش على الدِّكَّة، ثم التفت إلى شخص من خاصّكِيّته، وقال له: «أين الذين قلت عنهم؟» فقال: «الآن يحضروا»، فقال السلطان: «انزل إليهم وأحضِرهم»، فنزل الرجل من وقته، وقام السلطان إلى الدهيشة، ونزل المذكور إلى المماليك، وأخذ منهم جماعة كبيرة، وطلع بهم إلى السلطان؛ فلما مثلوا بين يديه قال لهم: «عفوتُ عنكم، امضوا إلى أطباقكم»، فلم يتكلم أحدٌ منهم بكلمة.

واستمر أبو الخير بالقلعة خائفاً من النزول إلى داره، وقد أُشيع سفرُه إلى الحجاز، إلى أن كان يوم الخميس خامس عشر جمادى الأولى، نزل أبو الخير إلى داره على حين غفلة قبل العصر بنحو خَمْس درج، وانحاز بداره، وقفل الباب عليه إلى يوم الأربعاء حادي عشرينه؛ فوصل البَلَاطُنُسي من دمشق، وطلع إلى السلطان، وشكا على أبي الفتح الطيبي، الذي وَلِيَ وكالةَ بيت مال دمشق بسفارة النحّاس، وذكر عنه عظائم، فعزله السلطانُ، ورسم بحضوره إلى القاهرة في جنزير، ورسم لأبي الخير النحّاس بالسفر إلى المدينة الشريفة؛ ونزل البلاطنسي من القلعة بعد أن أكرمه السلطان، وحصل على مقصوده من عزل أبي الفتح الطيبي.

ورسم السلطانُ لأبي الخير المذكور أن يكتب جميع موجوده ويرسله إلى السلطان من الغد، ورسم أيضاً بعمل حسابه. وتردّد إليه الصفويُّ جوهرُ الساقي من قِبل السلطان غيرَ مرة، وكثر الكلام بسببه، فقلق النحّاسُ من ذلك غاية القلق،

وعلم بزوال أمره. فأصبح من الغد، في يوم الخميس ثاني عشرينه، طلع إلى القلعة في الغلس من غير إذن السلطان، واختفى بالقلعة في مكان، إلى أن انفضّ الموكب، فتحيّل حتى دخل على السلطان، واجتمع به. ثم نزل من وقته، وقد أصلَح ما كان فسد من أمره، وأنعم له السلطانُ بموجوده، وترك له جميعَ ما كان عزم على أخذه. واستمر بداره، وقد هابْته الناس وكثر تردادُهم إليه. ورُسِمَ بإبطال ما كان رُسِمَ به من عزْل أبي الفتح الطيبي وإحضاره، وأُمر البَلَاطُنُسِي بالسفر إلى دمشق، بعد أن لهج الناسُ بحبسه في سجن المَقْشَرَة، فتحقّق الناسُ بهذا الأمر ميلَ السلطانِ لأبي الخير، وكفَّ جميعُ أعداء النحّاس عن الكلام في أمره مع السلطانُ.

واستمر بداره والناسُ تتردّد إليه، إلى يوم الخميس تاسع عشرين جمادى الأولى المذكور، رسم السلطانُ لجوهر الساقي بنزوله إلى أبي الخير النحّاس، ومعه نقيب الجيش، ويمضيا به إلى بيت قاضي القضاة شرف الدين يحيىٰ المنّاوي الشافعي ليدّعي عليه التاجرُ شرفُ الدين موسى التَّتَائي الأنصاري بمجلس الشرع، بدعاوٍ كثيرة، ورسَم السلطانُ لجوهر أن يحتاط بعد ذلك على جميع موجوده. فنزل جوهر المذكورُ من وقته إلى أبي الخير النحّاس، وأخرجه من داره ماشياً ممسوكاً مع نقيب الجيش، وقد ازدحم الناسُ على بابه للتفرّج عليه والفتك به؛ فحماه جوهر ومَن معه من المماليك منهم، وأخَذه ومضى. وانطلقت الألسنُ إليه بالسبِّ واللعن والتوبيخ، وجوهر يكفّهم عنه ساعةً بعد ساعة، وهم خلفه وأمامه، وهو مارٌّ في طريقه ماشياً إلى أن وصل بيت القاضي المذكور بسُوَيقة الصاحب من القاهرة، وأدخلوه إلى المدرسة الصاحبية محتفظاً به مع رُسُل الشرع.

وعاد جوهر الساقي وشرف الدين التَّتَائي إلى الحوطة على موجود أبي الخير النحّاس بداره وحواصله. ووجدت العامّةُ بغياب جوهر فرصة إلى الدخول على أبي الخير المذكور، فهجموا عليه وأخذوه من أيدي الرُّسُل، وضربوه ضرباً مبرحاً؛ فصاحت رُسُلُ الشّرع عليهم، وأخذوه من أيديهم، وهرّبوه إلى مكان بالمدرسة المذكورة. وأعلموا القاضي بذلك، فأرسل القاضي خلفَ الأميرِ جانِبَك والي

القاهرة، حتى حضر، وقدر على إخراجه من المدرسة المذكورة إلى بيت القاضي، وادّعى شرفُ الدين التّتائي عليه بدعاوٍ يطول الشرح في ذكرها.

والسبب المُوجِب لهذه القضية، أن أبا الخير النحّاس لمّا وقع له ما وقع، وأقام بالقلعة من يوم الاثنين إلى يوم الخميس، ثم نزل قبيل العصر إلى داره، بقي الناسُ في أمره على قسمين: فمن الناس مَن لا سلَّم عليه ولا راعاه، ومنهم مَن صار يترجّبه[١] ويتردّد إليه. ودام على ذلك إلى أن طلع أبو الخير إلى السلطان من غير إذن، وأصلح ما كان فسد من أمره، ونزل إلى داره، وقد وقع بينه وبين شرف الدين المذكور.

وسببُ ذلك أن شرف الدين كان في هذه المدة هو رسول النحّاس إلى السلطان، ومهما كان للنحّاس من الحوائج يقضيها له عند السلطان، فظهر لأبي الخير المذكور، بطلوعه إلى القلعة في ذلك اليوم، أن شرفَ الدين ليس هو له بصاحب، وأنه ينقل عنه إلى السلطان ما ليس هو مقصودَه، بل يُنهي عنه ما فيه دمارُه، فنزل إلى شرف الدين وأظهر له المباينة، وتوعّده بأمور إن طالت يده؛ فانتدب عند ذلك شرف الدين له، ودبر عليه، وساعدته المقادير مع بغض الناس قاطبة له، حتى وقع ما حكيناه وادّعى عليه بدعاوٍ كثيرة.

واستمر أبو الخير في بيت القاضي شرف الدين في الترسيم، وهو يسمع من العامّة والناس من أنواع البهدلة والسبب ما لا مزيد عليه مواجهةً، بل يزدحمون على باب القاضي لرؤيته، وصارت تلك الحارة كبعض المفترَجات، لعظم سرور الناس لما وقع لأبي الخير المذكور، حتى النساء وأهل الذمّة. وأصبح من الغد نهار الجمعة، طلب السلطان خيوله ومماليكه فطلعوا بهم في الحال، بعد أن شقّوا بهم القاهرة، وازدحم الناس لرؤيتهم، فكانت عدّة الخيول نيّفاً على أربعين فرساً، منها بِغال أزيد من عشرة، والباقي خيول خاصّ هائلة، والمماليك نحو من عشرين

(١) رجَبَ فلاناً رجْباً ورجوباً: خافه وهابه وعظّمه. ويقال: رجب، ورجَّب، وأرجب. ولم نعثر في كتب اللغة التي بين أيدينا على ترجَّب.

نفراً. واستمر شرف الدين يتتبع آثاره وحواصله، هذا بعد أن أشهد على أبي الخير المذكور أن جميع ما يملكه من الأملاك والذخائر والأمتعة والقماش وغير ذلك هو مِلك السلطان الملك الظاهر، دون مِلكه، وليس له دافع ولا مطعن.

ثم في يوم السبت أول جمادى الآخرة، رُسم بفتح حواصل أبي الخير، ففتحت، فوُجد فيها من الذهب العين نحو سبعة عشر ألف دينار، ووُجد له من الأقمشة والتحف والقَرْقلاَت[1] التي برسم الحرب، والصيني الهائل، والكتب النفيسة، أشياء كثيرة؛ ووُجد له حجج مكتتبة على جماعة بنحو ثلاثين ألف دينار. فحمل الذهبُ العين إلى السلطان، وبعضُ الأشياء المستظرفة، وختم على الباقي، حتى تُباع. ودام شرفُ الدين في الفحص على موجوده. وأخرج السلطانُ جميع تعلّقات النحّاس من الإقطاعات والحمايات والمستأجرات وغير ذلك.

ثم في يوم الأحد ثاني جمادى الآخرة، خلع السلطانُ على المقرّ الجمالي ناظر الخواص، وعلى زين الدين الأستادّار، خلعتي الاستمرار[2]. وخلع على شرف الدين موسى التَّتائي باستقراره في جميع وظائف أبي الخير النحّاس، وهم عدّة وظائف ما بين نظر البيمارستان المنصوري، ونظر الجوالي، ونظر الكسوة، ووكالة بيت المال، ونظر خانقاه سعيد السُّعَداء، ووكيل السلطان، ووظائف أُخَر دينية، ومباشرات. ولبس شرفُ الدين خُفّاً ومِهمازاً وتولّى جميعَ هذه الوظائف، عوضاً عن أبي الخير دفعةً واحدة. قلت: وما أحسن قول المتنبي في المعنى: [الطويل]

بذا قَضَت الأيامُ ما بينَ أهلها مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائدُ

هذا والفقهاءُ والمتعمّمون قد ألزموهم المماليك الجلبان بعدم ركوب الخيل، بحيث إنه لم يستَجْرِ أحد منهم أن يعلو على ظهر فرس، إلاّ أعيان مُباشِري الدولة؛

---

(١) القرقلات: نوع من الدروع. ـ راجع فهرس المصطلحات.

(٢) أي باستمرارهما في وظيفتيهما.

وجميع مَن عداهم قد ابتاعوا البِغال وركبوها، حتى تزايد لذلك سعرُ البِغال إلى أمثال ما كان أولاً.

ثم أمر السلطانُ في اليوم المذكور بنقل أبي الخير النحّاس من بيت القاضي الشافعي يحيىٰ المنّاوي، من سويقة الصاحب، إلى بيت المالكي وليِّ الدين السنباطي بالدرب الأصفر، ليُدَّعَى عليه عند القاضي المذكور بدعاوٍ. فأخذه والي القاهرة ومضى به من بيت القاضي الشافعي إلى بيت المالكي، وقد أركبه حماراً، وشقّ به القاهرة، والناس صفوف وجلوس بالشوارع والدكاكين، وهم ما بين شامت وضاحك ثم باكٍ؛ فأما الشامتُ فهو مَن آذاه وظلمه، والضاحكُ مَن كان يعرفه قديماً، ثم ترافع عليه، والباكي معتبر بما وقع له من ارتفاعه ثم هبوطه؛ قلت: وقد قيل في الأمثال: «على قدر الصعود يكون الهبوط».

وسار به الوالي على تلك الهيئة إلى أن أدخله إلى بيت القاضي المالكي. وادّعى عليه السيدُ الشريفُ شهابُ الدين أحمد بن المصبح [دلّال العقارات][1] بدعوى شنعة[2]، أوجبت وَضع الجنزير في رقبة أبي الخير النحّاس، بعد أن كتب محضراً بكفره. وأقام الشريفُ البيّنةَ عند القاضي المالكي بذلك، فلم يقبل القاضي بعض البيّنة. واستمر أبو الخير في بيت القاضي في الترسيم على صُفَّة، نسأل اللَّهَ السلامةَ من زوال النِعَم، إلى عصر يومه، فنُقل إلى حبس الدَّيْلَم على حمار، وفي رقبته الجنزير؛ ومرّ بتلك الحالة من الشارع الأعظم، وعليه من الذلّ والصغار ما أحوج أعداءه الرحمةَ عليه، وحالهُ كقول القائل: [السريع]

لم يبقَ إلّا نَفَسٌ خافِت ومُقلةٌ إنْسانُها باهِت
يرْثِي له الشامتُ مما به يا ويحَ مَن يرثِي له الشامِت

قلت: وأحسن من هذا قول مَن قال: [مجزوء الكامل]

---

(١) زيادة عن التبر المسبوك.

(٢) مفادها أن أبا الخير النحّاس سلّم عليه بقوله: «أهلاً بالكلب ابن الكلب» وكرّر ذلك ثلاث مرات. (التبر المسبوك).

يا مَنْ عَلا وعُلُوُّه أُعجوبةٌ بين البشرْ
غَلطَ الزّمانُ برفع قَدْ رِك ثم حَطَّكَ واعتذر

ويعجبني أيضاً في هذا المعنى، قولُ القائل: [البسيط]

لو أنصفوا أُنصفوا، لكن بَغَوْا فَبُغِي عليهم، فكأن العِزَّ لم يكنِ
جاد الزَّمَانُ بصفوٍ ثم كدَّره هذا بذاكَ، ولا عَتْبٌ على الزمنِ

وقد سقنا أحوال أبي الخير هذا في ترجمته في تاريخنا «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي» بأوسع من هذا، إذ سياقُ الكلام منتظم مع سِيَاقه في محل واحد؛ ,وأيضاً قد حرّرنا أمورَه بأضبط من هذا في تاريخنا «حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور» إذ هو موضوع لتحرير الوقائع، وما ذكرناه هنا، على سبيل الاستطراد من شيء إلى شيء.

واستمر أبو الخير بسجن الدّيلم إلى ما يأتي ذكره من خروجه من السجن، ونفيه، ثم حبسه، وجميع ما وقع له إلى يومنا هذا، إن شاء الله تعالى.

وفي يوم حبْس النحّاس بحبس الدَّيْلم[١] ظهر القاضي وليُّ الدين السفطي من اختفائه نحوَ ثمانية أشهر وسبعة أيام، وطلع من الغد في يوم الخميس سادس جمادى الآخرة إلى السلطان، فأكرمه السلطانُ، ونزل إلى داره. ثم في يوم السبت ثامنه، ندب السلطانُ إينالَ الأشرفي المتفقّه، ليتوجّه إلى دمشق، لكشف أخبار أبي الفتح الطيبي والفحص عن أمره.

وفي هذه الأيام ترادفت الأخبار من حلب وغيرها بمسير جهان شاه بن قَرا يوسف، صاحب تبريز، على [معز الدين] جهان كير بن علي بك بن قَرَايُلُك صاحب آمِد، وأن جهان كير ليس له ملجأ إلّا القدوم إلى البلاد الحلبية مستجيراً بالسلطان، وأن جهان شاه يتبعه حيثما توجّه؛ فتخوّف أهل حلب من هذا الخبر،

(١) أورد المقريزي اسم هذا السجن من بين سجون القاهرة ولم يذكر شيئاً عنه. ولعلّه كان قائماً في حارة الدّيلم من حارات القاهرة. (انظر خطط المقريزي: ٢/١٨٧، ٨).

ونزح منها جماعة كثيرة، وغلا بها ثمن ذوات الأربع، لأجل السفر منها. ومدلولُ هذه الحكايات طَلبُ عسكر يخرج من الديار المصرية إلى البلاد الشامية، فأوهم السلطانُ بخروج تجريدة، ثم فتر عزمُه عن ذلك.

وفي هذه الأيام أُشيع بالقاهرة أن أبا الخير النحّاس قد تجنَّن في سجنه، وأنه صار يخلط في كلامه. قلت: وحُقَّ له أن يتجنّن، فإنه كان في شيء، ثم صار في شيء، ثم عاد إلى أسفل ما كان؛ وهو أنه كان أولاً فقيراً مملِقاً متحيّلاً على الرزق، دائراً على قدميه في النُّزَه والأوقات، ثم وافته السعادةُ على حين غفلة حتى نال منها حظّاً كبيراً، ثم حطّه الدهرُ يداً واحدة، فصار في الحبس، وفي رقبته الجنزير، يترقّب ضرب الرقبة، بعدما وقع له من الإخراق والبهدلة وشماتة الأعداء، وأخْذ أمواله ما وقع، فهو معذور: دَعُوه يتجنّن ويتفنّن في جنونه.

ثم في يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة استغاث الشريفُ غريمُ النحّاس على رؤوس الأشهاد، وقال: «قد ثبت الكفر على غريمي النحّاس، وأُقيمت البيّنةُ، والقاضي لا يحكم بموجب كفره وضربِ رقبته»؛ وكان الشريفُ هذا قد وقف إلى السلطان قبل تاريخه، وذكر نوعاً من هذا الكلام، فرسم السلطانُ للقاضي المالكي أنه إن ثبت على أبي الخير المذكور كفر، فليضرب رقبته بالشرع، ولا يلتفت لما بقي عنه من مال السلطان، فإن حقَّ النبيِّ ﷺ أبْدأ من حق السلطان.

فلما سمع الشريفُ ذلك اجتهد غايةَ الاجتهاد، والقاضي يتثبت في أمره؛ ثم بلغ القاضيَ المالكي مقالةُ الشريف هذه، فركب وطلعَ إلى السلطان واجتمع به وكلّمه في أمر النحّاس، فأعاد السلطانُ عليه الكلام كمقالته أولاً، وقال له كلاماً معناه أنّ هذا «أمرُه راجع إليك، ومهما كان الشرع افعله معه، ولا تتعوّق لمعنًى من المعاني»؛ فقال القاضي المالكي: «يا مولانا السلطان، قد فَوّضتُ هذه الدعوى لنائبي القاضي كمال الدين بن عبد الغفّار، فهو ينظر فيها بحكم الله تعالى»؛ وانفضّ المجلس.

وكان السلطان قد أرسل في أول هذا النهار جوهراً التركماني الطَّوَاشي إلى

أبي الخير النحاس، يسأله عن الأموال، ويهدّده بالضرب وبالنكال، فلم يلتفت أبو الخير إلى ما جاء فيه جوهر، وقال: «قد أخذ السلطانٌ جميعَ مالي، وما بقي فهو يباع في كل يوم».

ثم أخذ أمرُ الشريف المُدَّعِي على أبي الخير النحّاس في انحلال، من كَوْن القاضي الشافعي أثبت فِسقَ القاضي عزّ الدين البساطي، أحد نوّاب الحكم المالكي، وهو أحد مَن شهد على أبي الخير المذكور لأمرٍ من الأمور، ولا نعرف على الرجل إلّا خيراً. ووقع بسبب ذلك أمور، وعَقْدُ مجالس بالقضاة بحضرة السلطان، وآل الأمرُ على أن السلطان حبس الشريفَ والشهودَ في الحبس بالمِقْشَرَة، وتراجَع أمرُ أبي الخير النحّاس بعدما أُرجف بضرب رقبتِه غيرَ مرة. ثم رسم السلطانُ في اليوم الذي حبَس فيه الجماعةَ المذكورة بإخراج أبي الخير النحّاس من حبس الدّيْلم، وتوجُّهه إلى بيت قاضي القضاة الشافعي؛ فأخرجه الوالي من سجن الديلم مُجنزراً بين يديه، وشقّ به الشارعَ وهو راكب خلفه، ماشٍ على قدر مشية النحّاس، إلى أن أوصله إلى بيت القاضي الشافعي، بخط سُوَيقة الصاحب، وقد ازدحمت الناسُ لرؤيته، وكان الوقت قبيل العصر بنحو العشر درج؛ ومَرَّ أبو الخير على مواضع كان يمرّ بها في موكبه أيام عزّه، والناس بين يديه؛ وبالجملة فخروجُه الآن من حَبْس الدّيْلم خيرٌ من توجّهه إليه من بيت القاضي المالكي، والمرادُ به الآن خير ممّا كان يُراد به يومَ ذاك.

ولما وصل أبو الخير إلى بيت القاضي الشافعي، أسلمه والي القاهرة إليه، فأمر القاضي في الوقت برفع الجنزير من عنقه. ثم قام بعد ساعة شخصٌ وادّعى على أبي الخير بدعاوٍ كثيرة شنِعَة، اعترف أبو الخير ببعضها، وسكت عن البعض؛ فحكم القاضي عند ذلك بإسلامه، وحقن دمه، وفعل ما وجَب عليه من التعزير، بمقتضى مذهبه. وسلمت مهجتُه، بعد أن أيقن كلُّ أحد بسفك دمِه، وذهاب روحه، وذلك لعدم أهليّة أخصامه، وضعف شوكتهم، وعدم مساعدة المقرّ الجمالي لهم على قتله؛ فإنه لم يتكلم في أمره من يوم أُمسك إلّا فيما يتعلق به من شأنه، ولم يداخلهم فيما هم فيه البتّة، مع أنه كان لا يكره ذلك، لو وقع، غير أنه لم

يتصدَّ لهذا الأمر في الظاهر بالكلية، احتفاظاً لرئاسته ودينه. وأنا أقول: لو كان أمرُ النحّاس هذا مع ذلك الجزّار جمال الدين الأستادّار، أو غيره من أمثاله، لألحقوه بمَن تقدّمه من الأمم السالفة، ولكن «لكل أجَل كتاب».

وبعد أن عزّره القاضي، أمر بالترسيم عليه، حتى يتخلّص من تعلقات السلطنة.

ثم في يوم الجمعة ثامن عشرين جمادى الآخرة، رسم السلطانُ بالإفراج عن الشريفِ غريمِ النحّاس، وعن الشهود من حَبْس المقشرة؛ ورسَم بنفي النحّاس إلى مدينة طرسوس، محتفظاً به، وأنه يقيد ويجنزر من خانقاه سرياقوس؛ فمضى جانِبَك الوالي إليه، وأخرجه من بيت القاضي الشافعي راكباً على فرس في الثلث الأول من ليلة السبت تاسع عشرينه، وذلك بعد أن حلف أبو الخير المذكور في أمسه يميناً مغلظاً بمجلس قاضي القضاة شرفِ الدين يحيىٰ المنّاوي، أنه لم يبقَ معه شيء من المال غير مبلغ يسير جدّاً، برسم النفقة، وأنه صار فقيراً لا يملك ما قلّ ولا جلَّ، فسبحان المطّلع على السرائر.

وفرغ هذا الشهرُ والناسُ في جهد وبلاء من غلوِّ الأسعار في جميع المأكولات، وتزايد أثمان البِغال، لكثرة طلّابها من الفقهاء والمتعمّمين، لشدّة المماليك الجلبان في منعهم من ركوب الخيل.

ثم في يوم الخميس رابع شهر رجب، برز الأميرُ سَونْجبَغا اليونسي الناصري من القاهرة، إلى بِركة الحاجّ أميرَ الرَّجَبيّة، وسافر في الركب المذكور الأميرُ جَرِباش المحمدي الناصري المعروف بكُرْد أحد مقدّمي الألوف وصحبته زوجته خَوَنْد شَقْراء بنت الملك الناصر فرج [وعيالُهما][1]، وسافر معه أيضاً الأمير تَغْرِي بَرْمَشْ السيفي يَشْبَك بن أَزْدَمُر الزَّرْدكاش، أحد أمراء الطبلخانات، وعدّة كبيرة من أعيان الناس وغيرهم، وسافر الجميع في يوم الاثنين ثامنه.

---

(١) زيادة عن التبر المسبوك.

ثم في يوم الأحد رابع شهر رجب، الموافق لسلخ مسرّى أحد شهور القبط، أمر السلطانُ الشيخَ عليّاً المحتسبَ أن يطوف في شوارع القاهرة، وبين يديه المُدَرَاء[١]، يُعْلِمون الناسَ بأن في غد يكون الاستسقاءُ بالصحراء لتوقّف النيل عن الزيادة. وأصبح من الغد في يوم الاثنين خامس عشره، وهو أول يوم من أيام النَّسِيء[٢]، خرج قاضي القضاة شرفُ الدين يحيىٰ المنّاوي إلى الصحراء ماشياً من داره بين الخلائق من الفقهاء والفقراء والصوفية، إلى أن وقف بين تربة الملك الظاهر برقوق وبين قبّة النصر، قريباً من الجبل، ونُصب له هناك منبر. وحضر الخليفةُ وبقيةُ القضاة، وصاروا في جمع موفور من العالم من سائر الطوائف، وخرجت اليهودُ والنصارى بكتبهم. وصلّى قاضي القضاة المذكور بجماعة من الناس ركعتين خفيفتين، ودعا الله سبحانه وتعالى بإجراء النيل، وأمّن الناسُ على دعائه، وعَظُم ضجيجُ الخلائق من البكاء والنحيب والتضرّع إلى الله تعالى، ودام ذلك من بعد طلوع الشمس إلى آخر الساعة الثانية من النهار المذكور، ثم انصرفوا على ما هم عليه من الدعاء والابتهال إلى الله تعالى، فكان هذا اليوم من الأيام التي لم نعهد بمثلها.

وفي هذا اليوم، ورد كتابُ خير بك النَّوْرُوزِي نائب غزة، يتضمن أن أبا الخير النحّاس تَوَعَّكَ وأنه يسأل أن يقيم بغزّة، إلى أن يَنْصَل من مرضه، ثم يسافر إلى طرسوس؛ فكُتب الجوابُ إليه بالتوجّه إلى طرسوس من غير أن يتعوّق اليوم الواحد.

ثم في يوم الخميس ثامن عشره، خرج الخليفةُ والقضاةُ الأربعةُ إلى الاستسقاء ثانياً، بالمكان المذكور، وخرجت الخلائق، وصلّى القاضي الشافعي،

---

(١) المدراء: هم أعوان في ديوان الإنشاء، وعملهم أخذ القصص ونحوها وإدارتها على كاتب السرّ فمَن دونه من كتّاب الديوان ليكتب كلٌ منهم ما يلزمه من متعلقها، ولذلك سُمّوا بهذا الاسم. (صبح الأعشى: ١/ ١٣٩). والظاهر أن هذا المصطلح قد استعير لإطلاقه على المنادين الذين يدورون مع المحتسب على الباعة وأرباب الحِرَف بالأسواق.

(٢) أيام النسيء في التقويم القبطي هي الأيام الخمسة أو الستة من آخر العام.

وخطب خطبة طويلة، وقد امتلأ الفضاء بالعالم؛ وطال وقوف الناس في الدعاء في هـذا اليوم، بخـلاف يوم الاثنين. وبينمـا الناسُ بـدعائهم، ورد منـادي البحر[١]، ونادى بزيادة أصبع واحد من النقص، فسُرَّ الناسُ بذلك سروراً عظيماً، ثم انفضّ الجمع.

وعادوا إلى الاستسقاء أيضـاً من الغد في يـوم الجمعة ثـالثَ مرة، وخـطب القاضي على عادته، فتشاءم الناسُ بوقوع خطبتين في يوم واحد، فلم يقع إلّا الخير والسلامة من جهة الملك. واستمر البحر في زيادةٍ ونقصٍ إلى يوم الخميس عاشر شعبان الموافق لعشرين توت، فأجمع رأيُ السلطان على فتح خليج السدّ، من غير تَخْلِيق[٢] المتياس، وقد بقي على الوفاء ثمانيـةُ أصابـع لتكملة ستّة عشـر ذراعاً. فنزل والي القاهرة ومعه بعض أعوانه، وفتح سدَّ الخليج، ومشى الماءُ في الخُلجان مشياً هيّناً، فكان هذا اليوم من الأيام العجيبة، من كثرة بكاء الناس ونحيبهم، ومما هالهم من أمر هذا النيل. وقد استوعبنا أمرَ زيادته من أوله إلى آخره في تاريخنـا «حوادث الدهور»، وما وقع بسببه من التوجّه إلى المقيـاس بالقـرّاء والفقهاء مـراراً وكذلك إلى الآثار النبوي، وتكـالُب الناس على الغـلال، ونهب الأرغفة من على الحوانيت، وأشياء كثيرة من هذا النموذج يطول الشرح في ذكرها هنا.

وفي هـذه الأيام ورد الخبـرُ على السلطان بفرار تِمْـرَاز البَكْتَمُرِي المؤيـدي المصارع، شادّ بندر جُدَّة، من جدة إلى جهة الهند؛ وكان من خبره أن تِمْراز لمّا سار واستولى على ما تحصّل من البندر من العُشر، من الذي خَصَّ السلطانَ، بدا له أن يأخذ جميع ما تحصّل عنه، ويتوجّه إله الهند عاصياً على السلطان؛ فاشترى مركباً مروَّساً[٣] بألف دينار من شخص يسمى يوسف البُرْصَاوي وأشحنها بـالسلاح

(١) منادي البحر هو منادي المقياس الذي يعلن في الناس الزيادة التي يبلغها مستوى النيل.
(٢) أي تطييب عمود المقياس بالخَلوق، وهو عادة الزعفران. وكان لكلٍّ من تخليق المقياس وفتح خليج السدّ (كسر الخليج) احتفال معهود. ـ راجع فهرس المصطلحات: وفاء النيل، تخليق المقياس، كسر الخليج.
(٣) لعلّ المراد به نوع من المراكب الحربية تسمى الغربان أو الأغربة. والغراب سفينة حربية مدبّبة الحيزوم ذات أشرعة ومجاذيف. ويسمى الغراب أيضاً الشيني.

والرجال، يوهم أنه ينزل فيها ويعود بما تحصّل معه إلى مصر. فلما تهيأ أمرُه، أخذ جميع ما تحصّل من المال وهو نحو الثلاثين ألف دينار، وسافر إلى جهة اليمن. وبلغ السلطانَ ذلك من كتابِ الشريفِ بركات صاحبِ مكة، فعظُم ذلك على الناس، وعدَّ ولايةَ تِمْراز هذا من جملة ذنوب النحّاس، ثم طلب السلطانُ مملوكَه الأميرَ جانِبَك الظاهري وخلع عليه باستقراره على التكلّم على بندر جُدَّة، على عادته، ليقوم بهذا الأمر المهم الذي ليس في المملكة مَن ينهض به غيرُه، وأعني من تِمْراز، والفحص عليه والاجتهاد في تحصيله؛ وتجهّز الأميرُ جانِبَك، وخرج إلى البندر على عادته بأجمل زيّ وأعظم حُرمة.

وأما تمراز فإنه لمّا سافر من بَنْدَر جُدَّة إلى جهة بلاد الهند، صار كلما أتى إلى بلد ليقيم به، تستغيث تجّار تلك البلد بحاكمها، ويقولون: «أموالنا بجُدَّة؛ ومتى ما علم صاحبُ جُدَّة أنه عندنا، أخذ جميع مالنا، بسبب دخول تِمْراز هذا عندنا؛ فإنه قد أخذ مالَ السلطان وفرَّ من جُدَّة»، فيطرده حاكمُ تلك البلد. ووقع له ذلك بعدّة بلاد، وتحيّر في أمره، وبلغ مسيرُه على ظهر البحر ستّةَ أشهر. فعندما عاين الهلاكَ أرْمَى بنفسه بجميع ما معه في مركبه إلى مدينة كالِكُوت[1] ـ وحاكم كالِكُوت سامِريّ، وجميعُ أهل البلد سمرَة، وبها تجارُ غير سمرة، وأكثرهم من المسلمين ـ فثار التجّارُ، واستغاثوا بالسامِريّ، وقالوا له مثلَ مقالة غيرهم، كلّ ذلك مراعاةً لجهة جانِبَك نائب جُدَّة.

وكنت أستبعد أنا ذلك، إلى أن أوقفني مرةً الأميرُ جانِبَك المذكور على عدّة مطالعات وردت عليه من السامري المذكور، وكلُّ كتاب منهم يشتمل على نظم ونثر وكلام فحل فائق، لا أدري ذلك لفضيلة السامري أو من كتّابه، وفي ضمن بعض الكتب الواردة صفةُ قائمةٍ مكتوبٌ فيها عدّة الهدية التي أرسلها صُحبةَ الكتاب المذكور، والقائمةُ خُوصَة، لعلّها من ورق شجر جوز الهند، طول شبر ونصف، في

---

(١) هي مدينة كلكتا، أكبر مدن الهند وأهم موانئها التجارية.

عرض إبهام، مكتوبٌ عليها بالقلم الهندي خَط باصطلاحهم، لا يعرف يقرأه إلّا أبناء جنسهم، في غاية الحُسْن والظرف ـ انتهى.

ولمّا تكلم التجّارُ المسلمون وغيرُهم مع السامري في أمر تمراز، أراد السامري مَسْك تمراز، فأحسّ تمراز بذلك، فأرسل إلى السامري هديةً هائلةً، فأعاد عليه السامري الجواب: «إن التجّارَ يقولون إن معك مالَ السلطان»، فقال تمراز: «نعم، أخذتُ المال لأشتري به للسلطان فلفلاً»، فقال له السامري: «اشترِ به في هذا الوقت، واشحنْه في مراكب التجّار»، فاشترى به تمراز الفلفلَ وأشحنه في مركبين للتجّار، والباقي أشحنه في المركب المروَّس الذي تحته. وسار تمراز وقصد بندر جُدّة، إلى أن وصل بابَ المندب من عمل اليمن، عند مدينة عَدَن، فأخذ المركبين المشحونين بالفلفل وتوجَّه بهما إلى جزيرة مقابلة الحديدة تسمى كَمَران[1]، فحضر أكابرُ الحديدة إلى عند تمراز المذكور، وحسّنوا له أخذَ مملكةِ اليمن جميعها، فمال تمراز إلى ذلك، وخرج إلى بلدهم وأخذ معه جميع ما كان له بالمركب.

ثم قال له أهلُ الحديدة: «لنا عدوّ، وما نقدر نملك اليمنَ حتى ننتصر عليه، وبلد العدو تسمى سُحَيَّة»[2]، فأجمع تمراز على قتال المذكورين، وركب معهم وقصد عدوَّهم. والتقى الجمعان، فكان بينهم وقعة قُتل فيها تمراز المذكور، وقتل معه جماعة من أصحابه، وسلّم ممّن كان معه شخصٌ من المماليك السلطانية،

---

(١) كمران: جزيرة في البحر الأحمر، أمام الصليف، شرقي ميناء الحديدة. والحديدة اليوم أكبر مرافىء اليمن. (انظر الموسوعة العربية الميسّرة: ٦٩٣، ١٤٨٠) وكانت كمران حصناً لِمَن ملك يماني تهامة. (صفة جزيرة العرب: ٦٨).

(٢) لعلّها السُّحول. وهي مخلاف باليمن، ويطلق اليوم على بطن السحول ما بين عقبة إب الذهوب جنوباً حتى القفر شمالاً وما اكتنفه من الجبال. وكانت السحول من ضمن مجموعة من القلاع الحصينة في جبال السّراة، وكان يسيطر عليها قوم من حمير يقال لهم بنو الكرندي أسّسوا فيها سلطنة قوية. (انظر صفة جزيرة العرب: ١٠٢؛ والمفيد في أخبار صنعاء وزبيد: ٨٢ ـ ٨٤؛ وطرفة لأصحاب في معرفة الأنساب: ٧٣، ٧٦، ٧٧، ١١٨). ـ وجاء في الضوء اللامع: ٣/٣٥ أن تمراز هذا قتل «في المعركة بين الحديدة وبيت الفقيه ابن خشيبر من اليمن».

يسمى أيضاً تمراز، وهو حيّ إلى يومنا هذا. فلما بلغ الأميرَ جَانِبَك موتُ تمراز، أرسل شخصاً من الخاصكية الظاهرية ممّن كان معه بجدّة، يسمى تَنَم رصاص، ومعه كتب جَانِبَك المذكور إلى الحديدة، يطلب ما كان مع تمراز جميعه. فتوجّه تنم إلى الحديدة، فتلقاه أهلُها بالرحب والقبول، وسلّموه جميعَ ما كان مع تِمْراز، والمركَبَ المروَّس وغير ذلك. فعاد تَنَم بالجميع إلى جدّة، بعد أن استبعد كل أحد رجوعَ المال. فأرسل الأميرُ جَانِبَك يخبر السلطان بذلك كلِّه، فلما ورد عليه هذا الخبَر، سُرّ به وشكر جانِبَك المذكورَ على ذلك ـ انتهى.

ثم في يوم الأربعاء سابع شهر رمضان وصل الأميرُ تَنْبَك البردبكي، المعزول عن حجوبية الحجّاب قبل تاريخه، من ثغر دِمْياط، بطلب من السلطان، وطلع إلى القلعة وقبَّل الأرض بين يدي السلطان، ووُعد بخير. ورُسم له بالمشي في الخدمة السلطانية على عادته أولاً، لكنه لم يُنعم عليه بإقطاع ولا إمرة.

وفي هذه الأيام رسم السلطان لنائب طرسوس بالقبض على أبي الخير النحّاس، وضرْبه على سائر جسده خمسمائة عصاة، وأن يأخذ جميعَ ما كان معه من المماليك والجواري؛ وخرج المرسومُ بذلك على يد نجّاب، ووقع ما رسم به السلطان.

ثم في يوم الاثنين سادس عشرين شهر رمضان، ورد الخبر من الشأم بضرْب رقبة أبي الفتح الطيبي، أحد أصحاب أبي الخير النحّاس، بحكم القاضي المالكي بدمشق، في ليلة الأربعاء رابع عشر شهر رمضان المذكور، بعد أن ألغى حكم القاضي برهان الدين إبراهيم السوبيني الشافعي، بعد عزله بعد أمور وقعت حكيناها في الحوادث.

ثم في يوم الاثنين سابع عشر شوّال، برز الأميرُ تَمُرْبغَا الظاهري الدَّوَادار الثاني، أمير حاج المحمل، بالمحمل، إلى بركة الحاج، وأمير الركب الأول خير بك الأشقر المؤيدي أحد أمراء العشرات. وكان الحج قليلاً جداً في هذه السنة، لعظم الغلاء بالديار المصرية وغيرها.

ثم في يوم الخميس خامس ذي القعدة، برز المرسوم الشريف باستقرار الأمير جانِبَك التاجيّ المؤيدي نائب بيروت، في نيابة غزة، بعد عزل خير بك النوروزي عنها، وتوجّهه إلى دمشق بطالاً.

ثم في يوم الاثنين سادس عشر ذي القعدة، ورد الخبرُ على السلطان بموت الأمير تَغْرِي بَرْمَش الزردكاش بمكّة المشرّفة ـ وكان المخبر بموته جانِبَك الظاهري الخاصكي البوّاب ـ فأنعم السلطانُ في يوم الخميس تاسع عشره على السيفي دقماق اليشبكي الخاصّكي بإمرة عشرة، من إقطاع تَغْرِي بَرْمَش الزَرْدْكاش، وأنعم بباقيه على الأمير قَرَاجا الظاهري الخازندار، زيادةً، على ما بيده ليكمل ما بيده إمرة طبلخاناة؛ وأنعم بإقطاع دقماق، ربع تفَهْنَة[1]، على جانِبَك الأشرفي الخازندار الخاصكي، وهو يومَ ذاك من جملة الدَّوَادارية.

ثم خلع السلطان في يوم الاثنين ثالث عشرينه على دُقماق المذكور باستقراره زَرَدْكاشاً كبيراً، عوضاً عن تَغْري بَرْمَش المذكور، فأقام دُقْماق في الزَّرَدْكاشيَّة خمسةَ أيام، وعُزل عن الوظيفة، واسترجع السلطانُ منه الإمرةَ المنعمَ عليه بها من إقطاع تَغْرِي بَرْمَش وأُعيد إليه إقطاعُه القديم. وقد ذكرنا سببَ عزله في «حوادث الدهور» مفصّلاً. واستقر الأميرُ لاجِين الظاهري زَرَدْكاشاً. ولمّا أُعيد إلى دُقْماق إقطاعُه القديم، صار جانِبَك الأشرفي الخازندار بلا إقطاع، لأن السلطان كان أنعم بإقطاعه على جانِبَك الظاهري البوّاب القادم من مكّة. وساعد جانِبَك الأشرفيَّ جماعةٌ من الأعيان في ردّ إقطاعه الأول عليه، أو ينعم عليه السلطانُ بالإمرة المسترجَعةِ من دُقْماق، فلم يحسُنْ ببال السلطان أخذُ الإقطاع من جانِبَك الظاهري؛ فحينئذٍ لزمه أن يُعطي جانِبَك الخازندارَ هذه الإمرةَ المذكورةَ فأنعم عليه بها، فجاءت جانِبَك السعادةُ بغتةً، من غير أن يترشّح لذلك قبل تاريخه. وخلع السلطانُ على السيفي قايتباي الظاهري الخاصكي باستقراره دَوَاداراً، عوضاً عن جانِبَك الخازندار المذكور، فإنه كان بقي من جملة الدوادارية، غير أنه كان لا يُعرَف إلّا بالخازندار والظريف إلى يومنا هذا.

---

(١) تفهنة: قرية بمحافظة الغربية.

ثم في يـوم الخميس ثـالث ذي الحجـة، خلع السلطانُ على القـاضي وليِّ الـدين الأسيوطي بـاستقراره مشيخـة المدرسـة الجماليـة بعد مـوت وليّ الدين السَّفْطي.

ثم في يوم الأحد ثالث عشر ذي الحجـة رسم السلطان بالإفـراج عن الأمير يَشْبَـك الصُّوفي المؤيَّـدي، المعزول عن نيـابة طـرابلس، من سجن الإسكنـدريـة وتوجُّهه إلى ثغر دِمْياط بَطّالاً.

وفي يوم الاثنين رابع عشره، وصل كتـابُ الناصـري محمد بن مبـارك نائب البيـرة، يخبر أنـه ورد عليه كتـابُ الأميرِ رُسْتم، مقـدّم عساكـر جهان شـاه بن قَرَا يـوسف، يتضمن أنـه قَبض على الأميـر بَيْغُـوت [من صفـر خُجَـا][1] المؤيَّـدي [الأعرج][1] المتسحِّب من نيابة حماة إلى جهان كير بن قَرَايُلك، وأنه أخذ جميعَ ما كان معه وجعله في الترسيم. فكُتب له الجوابُ بالشكر والثناء عليه، وطَلَب بيغوت المذكور منه، وقد أوضحتُ أمر بيغوت هذا في كتابنـا «حوادث الـدهور» من أول أمره إلى آخره.

ثم في يـوم الخميس أول محـرّم سنـة خمس وخمسين وثمـانمـائـة، خلع السلطانُ على الأمير مرجـان العادلي المحمـودي الحبشي، نائب مقـدّم المماليـك السلطانية، باستقراره مقدّمَ المماليك، عِوضاً عن جوهر النُّوْرُوزي، بحكم إخراجه إلى القدس الشريف بطالاً، واستقر الطواشي عنبر، خـادم التاجـر نور الـدين علي الطنبذي، في نيابة المقدّم، عوضاً عن مرجان المذكور.

ثم في يوم الاثنين خامس المحرّم، كانت مبايعةُ الخليفة القائم بالله حمزة، بـالخلافـة، عوضـاً عن أخيه أميـر المؤمنين المستكفي بالله سليمـان، بعد وفـاته، حسبما يأتي ذكر وفاته في الوفيات من هذا الكتاب.

ثم في يـوم السبت تاسـع صفـر وصـل إلى القـاهـرة قُصّـاد جهـان شـاه بن

---

(١) زيادة عن الضوء اللامع.

قَرَا يوسف صاحب تِبْريز وغيرها، وطلعوا إلى القلعة في يوم الاثنين حادي عشره، بعد أن عمل السلطان لهم موكباً جليلاً بالحوش من قلعة الجبل، وقدّموا ما على أيديهم من الهدية وغيرها[1].

ثم في يوم الأحد سابع عشر صفر، ورد الخبر بقدوم الأمير بيغوت نائب حماة، الخارج عن الطاعة، إلى حلب، وصحبة القاصد الوارد بهذا الخبر عدّة مطالعات من نوّاب البلاد الشأمية في الشفاعة في بيغوت المذكور، كونه كان تخلّص من أسْر رستم وقَدِمَ هو بنفسه إلى طاعة السلطان؛ فكتب السلطان بإحضار بيغوت المذكور على أحسن وجه، وقبل السلطانُ شفاعةَ الأمراء فيه.

ثم في يوم الاثنين ثامن عشره عمل السلطان مدّةً هائلة لقصّاد جهان شاه بالقلعة، ثم أنعم عليهم بمبلغ ألفي دينار في يوم الأربعاء العشرين منه، وأنعم أيضاً على الأمير قانم التاجر المؤيدي أحد أمراء العشرات بألفي دينار، وكان ندَبه للتوجّه في الرسلية إلى جهان شاه صُحبةَ قُصّاده، فخرج قانم في يوم الجمعة ثاني عشرين صفر.

ثم في يوم الأحد ثاني شهر ربيع الأول من سنة خمس وخمسين المذكورة، نزل السلطان إلى عيادة زين الدين يحيىٰ الأستادّار، لانقطاعه عن الخدمة. وكان سبب انقطاعه عن الخدمة السلطانية أن المماليك السلطانية أوقعوا به بباب القلّة من قلعة الجبل، وضربوه وجرح في رأسه من شجّة، ونزل محمولاً إلى داره على أقبح حال. ولم يُطل السلطانُ الجلوسَ عنده، وركب من عنده، وتوجّه إلى بيت عظيم الدولة المقرّ الجمالي ناظر الخواص، ونزل عنده وأقام قليلاً، ثم ركب وعاد إلى القلعة. وأصبح من الغد كلُّ واحد من الجمالي ناظر الخواص وزين الدين الأستادّار جَهّز للسلطان تقدمة هائلة ذكرنا تفصيلها في الحوادث.

---

(١) ذكر السخاوي في التبر المسبوك أن هدية جهان شاه اشتملت على أربعة عشر بختياً وثلاثة أقفاص سلاح. وكان مع القصّاد رسالة إلى السلطان جقمق تتضمن التودّد إليه، وأن جهان شاه تحت طاعته. وكان من بين القصّاد ابن أخي جهان شاه، وقد أرسله عمّه ليكون من مماليك السلطان، فأضافه جقمق إلى ابنه عثمان.

ثم في يوم السبت ثالث عشر شهر ربيع الآخر، وصل الأمير بيغوت الأعرج المؤيدي نائب حماة كان، إلى القاهرة، وطلع إلى السلطان، وقبّل الأرض بين يديه، وخلع السلطانُ عليه سَلَّارِيّاً أحمرَ بفرو سمور، ووعده بخير.

ثم في يوم الاثنين خامس عشر شهر ربيع الآخر المذكور، سافر الأميرُ أَسَنْبَاي الجمالي الظاهري أحد أمراء العشرات إلى بلاد الروم، لتولية خَـوَنْدكـار محمد[١] السلطنة، بعد وفاة أبيه مراد بك.

وفي هذا الشهر أُشيع بالقاهرة أن السلطان ذكر أبا الخير النحّاس بخير، وأنه في عزمه الإفراج عنه والرضا عليه. فبلغ السلطانَ ذلك، فبرز مرسومُه إلى نائب طرسوس بضرب النحّاس مائة عصاة افتقده بها.

ثم في يوم الثلاثاء ثامن جمادى الأولى، سافر الأميرُ بيغوت إلى دمشق ليقيم بها بَطَّالاً، بعد أن رتّب له في كل شهر مائة دينار برسم النفقة، إلى أن ينحلَّ له إقطاع.

ثم في يوم الخميس رابع عشر شهر رجب وصل الأمير قائم المؤيدي، المتوجّه إلى جهان شاه في الرسلية، إلى القاهرة مريضاً في مِحَفّة.

ثم في يوم الاثنين تاسع شعبان، وصل الأميرُ جانِبَك نائب جُدَّة إلى القاهرة، وخلع السلطان عليه، ونزل إلى داره في موكب جليل إلى الغاية.

ثم في يوم الخميس تاسع عشر شعبان، ورد الخبر على السلطان بموت الأمير بَرْدبك العجمي الجَكَمي، أحد مقدّمي الألوف بدمشق، فأنعم السلطان بإقطاعه على الأمير بَيْغُوت الأعرج المؤيدي.

---

(١) هو السلطان محمد الثاني الفاتح سابع سلاطين الدولة العثمانية. ولمّا تولى المُلْك بعد أبيه مراد الثاني لم يكن بآسيا الصغرى خارجاً عن سلطانه إلّا جزء من بلاد القرمان، ومدينة سينوب شمالي الأناضول على البحر الأسود، ومملكة طرابزون الرومية. وصارت مملكة الروم الشرقية قاصرة على مدينة القسطنطينية وضواحيها. وقد حكم محمد الفاتح من سنة ٨٥٥ هـ/١٤٥١ م إلى حين وفاته في ٤ ربيع الأول سنة ٨٨٦ هـ الموافق ٣ مايو ١٤٨١ م. (تاريخ الدولة العليّة العثمانية: ٥٨ ـ ٦٧).

ثم في يوم الأحد ثاني عشرينه، نزل السلطان من القلعة وشقّ القاهرة، وسار حتى نظرَ المدرسةَ التي جدّد بناءها الجمالي ناظر الخواص، بسُوَيقة الصاحب، ثم عـاد من المدرسـة، ونزل إلى بيت ابنتـه زوجة الأميـر أُزْبَـك مِن طُـطُخ السـاقي الظاهري، أحد أُمراء العشرات ورأس نوبـة، بدرب الـطنبذي بسُـوَيقة الصـاحب، وأقام عندها ساعة جيدة، ثم ركب وطلع إلى القلعة. وبعد طلوعه أرسل إلى الأمير أُزْبَك بعدّة خيـول خاص ومماليك وأصحن حلوى كثيـرة، فقبل الحلوى وردّ مـا سواها.

ثم في يوم الاثنين ثالث عشرين شعبان من سنة خمس وخمسين المذكورة، رسم السلطانُ بتفرقة دراهم الكسوة على المماليـك السلطانية على العـادة في كل سنة، لكل مملوك ألف درهم، فامتنعوا من الأخذ، وطلبوا الزيادة. وبلغ السلطانَ الخبر، فغضب من ذلك، وخرج من وقته مـاشياً حتى وصـل إلى الإيوان، وجلس على السُّلَّمة السفلى بالقرب من الأرض؛ واستدعى كاتبُ المماليك أسماءَ جماعة فلم يخرج واحد، وصمّموا على طلب الزيادة، وصاروا عصبـةً واحدةً، فلم يسـع السلطان إلّا أن دعـا عليهم، وقـام غضبـانـاً، وسـار حتى وصـل إلى الـدَّهيشـة. واستمروا المماليكُ على ما هم عليه، وحصل أمورٌ، إلى أن وقع الاتفاق على أنه يكون لكل مملوك من المماليك السلطانية ألفا درهم، ورضوا بذلك، وأخذوا النفقة المذكورة، وقد تضاعف أمرها على ناظر الخاص.

ثم استهـلّ شهر رمضـان، أوله الاثنين، والنـاس في أمر مـريـج من الغـلاء المُفرِط في سائـر المأكـولات لا سيما اللحـوم، هذا مـع اتّساع الأراضي بـالريّ؛ واحتـاج الفلاحون إلى التقاوِي[١] والأبقار، وقد عزّ وجـود البقر حتى أُبيـع الزوج البقر الهائل بمائة وعشرين ديناراً وما دونها؛ وأغرب من ذلـك ما حـدّثني السيفي إياس خازندارُ الأتابك آقبَغا التمرازي، بحضرة الأمير أُزْبَك الساقي، أنه رأى ثوراً هائلاً ينادى عليه بأربعين ألف درهم، فاستبعدتُ أنا ذلك، حتى قال الأمير أزبك:

---

(١) التقاوي: بذور القطن والقمح والفول ونحوها مما يبذر في الأرض للزراعة. (المعجم الوسيط).

«نعم، وأنا سمعته أيضاً يقول هذا الخبر للمقرّ الجمالي ناظر الخواص». ثم استشهد إياس المذكور بجماعة كثيرة على صدق مقالته، وهذا شيء لم نعهد بمثله. هذا مع كثرة الفقراء والمساكين، ممّن افتقر في هذه السنين المتداولة بالغلاء والقحط، مع أنه تَمَفْقَر خلائق كثيرة ممّن ليس له مروءة. وأُمسك في هذه الأيام جماعة كثيرة من البيعة، ومعهم لحوم الدواب الميتة، ولحم الكلاب، يبيعونها على الناس، وشهروا بالقاهرة؛ وقد استوعبنا أمر هذا الغلاء وما وقع فيه من الغرائب من ابتداء أمره إلى آخره، وقد مكث نحو الأربع سنين، في تاريخنا «حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور»، محرّراً باليوم والساعة.

ثم في يوم الخميس حادي عشر شهر رمضان استقر الناصري [ناصر الدين][1] محمد ابن مبارك [نائب البيرة][1] في حجوبية دمشق، بعد عزل الأمير جانِبَك الناصري وتوجهه إلى القدس بَطّالاً.

ووقع في هذا الشهر، أعني عن شهر رمضان، غريبة، وهي أن جماعةَ أرباب التقويم والحساب أجمعوا على أنه يكون في أوائل العشر الأخير من هذا الشهر قران نحس يكون فيه قطع[2] عظيم على السلطان الملك الظاهر جَقْمق، ثم في أواخر العشر المذكور يكون قران آخر، ويستمر القطع على السلطان من أول العشر إلى آخره، وأجمعوا على زوال السلطان بسبب هذه القطوع. فمضى هذا الشهر والسلطانُ في خير وسلامة، في بدنه وحواسّه، ولازمته أنا في العشر المذكورة ملازمةً غيرَ العادة، لأرى ما يقع له من التوعّك أو الإنكاد، أو شيء يقارب مقالةَ هؤلاء، ليكون لهم مندوحة في قولهم، فلم يقع له في هذه المدة ما كدّر عليه، ولا تشوّش في بدنه، ولا ورد عليه من الأخبار ما يسوء، ولا تنكّد بسبب من الأسباب؛ وقد كان شاع هذا القولُ حتى لعلّه بلغ السلطانَ أيضاً. وفرغ الشهر، ولم يقع

(١) زيادة عن التبر المسبوك.

(٢) القُطع (بضمّ أوله): انقطاع النفس وضيقه. والقِطع (بكسر أوله) ظلمة آخر الليل أو القطعة منه. والعامّة تستعمل لفظ «القطوع» بصيغة الجمع بمعنى الشدّة تمرّ على الإنسان فتكاد تهلكه، وهو المعنى المراد هنا.

شيء مما قالوه بالكليّة. ويأبى الله إلّا ما أراد. ويعجبني في هذا المعنى قول القائل، ولم أدرِ لمَن هو: [البسيط]

دَعِ المُنَجّمَ يَكْبُو في ضلالَتِه ... إنِ ادَّعَى علمَ ما يَجْري به الفَلَكُ
تَفَرَّدَ اللَّهُ بالعلم القديم فلا ... الإنسانُ يُشْرِكُهُ فيه ولا المَلَكُ

ومثل هذا أيضاً، وأظنه قد تقدّم ذكره: [البسيط]

دع النجومَ لِطُرْقِيٍّ[1] يعيشُ بها ... وبالعزيمة فانْهَضْ أيها الملِكُ
إن النبيَّ وأصحابَ النبيِّ نَهَوْا ... عن النجوم وقد أبْصَرتَ ما مَلَكُوا

ثم في يوم الجمعة ثالث شوّال، ورد الخبر بموت يَشْبَك الحمزاوي نائب صَفَد بها، في ليلة السبت سابع عشرين شهر رمضان، فرسم السلطانُ بنيابة صَفَد للأمير بَيْغُوت الأعرج ثانياً، وحُمل إليه التقليد والتشريف على يد الأمير يشبك الفقيه المؤيّدي بنيابة صَفَد؛ ويشبك المذكور من محاسن الدنيا، نادرة في أبناء جنسه. وأنعم [السلطان] بتقدمة بيغوت بدمشق على الناصري محمد بن مبارك حاجب حجّاب دمشق؛ وأنعم بإقطاع ابن المبارك على آقْباي السيفي جارْقُطْلُو، المعزول عن نيابة سِيس. وفيه أيضاً، استقر خير بك النورُوزي، المعزول عن نيابة غزة قبل تاريخه، أتابكَ صَفَد، كلاهما: أعني خير بك وآقباي، بالبَذْل، لأنهما من أطراف الناس، لم تسبق لهما رئاسة بالديار المصرية.

ثم في يوم السبت رابعه، استقر السُّوبيني في قضاء طرابلس، واستقر [الشمس][2] ابن عامر في قضاء المالكية بصَفَد.

ثم في يوم الاثنين سادسه، استقر [الزيني][2] الطَّوَاشي سرور الطربائي [الحبشي][2] في مشيخة الخدام بالحرم النبوي، بعد عزل الطواشي فارس الرومي الأشرفي.

---

(١) هو الطارق، وجمعه طُرَّاق، وهم المتكهّنون الذين يضربون بالحصى.
(٢) زيادة عن التبر المسبوك.

ثم في يوم الخميس سادس عشر شوّال، أُعيد القاضي حميدُ الدين [النعماني][(١)] إلى قضاء الحنفية بدمشق، بعد عزل القاضي قوام الدين. وفيه خلع السلطانُ على المقرّ الجمالي ناظر الخواص خلعةً هائلة لفراغ الكسوة المجهّزة لداخل البيت العتيق.

ثم في يوم السبت ثامن عشره، برز أميرُ حاجِّ المحمل الأمير سَونْجبَغا اليونسي بالمحمل إلى بِركة الحاج.

ثم في يوم الثلاثاء سابع عشرين ذي القعدة، أنعم السلطان على الأمير تَنِبَك البَرْدَبكي المعزول عن حجوبية الحجّاب قبل تاريخه، بإمرةِ مائةٍ وتقدمةِ ألفٍ بالديار المصرية، بعد موت الشهابي أحمد بن علي بن إينال اليوسفي.

ثم في يوم الخميس سادس ذي الحجة من سنة خمس وخمسين المذكورة، قَدِمَ الأميرُ أَسَنْباي الجمالي الظاهري أحد أمراء العشرات من بلاد الروم.

ثم في يوم الثلاثاء حادي عشر ذي الحجة، استقرّ عمر الكردي، أحدُ أجناد الحلقة في أستادّارية السلطان بدمشق، واستقر شخص يسمى يونس الدمشقي، يُعرَف بابن دكدوك، في أستادّارية السلطان الكبرى بدمشق؛ وعمر المذكور ويونُس هذا هما من الأوباش الأطراف، وكلاهما وليَ بالبذل.

ثم في يوم الخميس سابع عشرين ذي الحجة، وصل الأميرُ يَشْبَك الفقيه من صفد، بعد ما قلّد نائبها الأمير بيغوت.

ثم في يوم الاثنين أول محرّم سنة ست وخمسين وثمانمائة، أُعيد القاضي جمال الدين يوسف الباعُوني إلى قضاء دمشق، بعد عزل السراج الحمصي، بسفارة عظيم الدولة ناظر الخواص.

ثم في يوم الثلاثاء ثالث عشرينه، وصل أميرُ حاجِّ المحمل بالمحمل. وفيه سافر الأميرُ جانِبَك الظاهري نائب جُدَّة إلى البندر المذكور.

(١) زيادة عن التبر المسبوك.

ثم في يوم الاثنين سادس صفر، استعفى الأميرُ أَلْطُنْبَغَا الظاهري برقوق اللّفّاف، أحد مقدّمي الألوف، من الإمرة، فأُعفي لطول مرضه وعجزه عن الحركة، وأنعم السلطانُ بإقطاعه على ولده المقام الفخري عثمان، زيادة على ما بيده من تقدمة أخيه الناصري محمد قبل تاريخه، فصار بيده تقدمة أخيه وهذه التقدمة.

ثم في يوم الجمعة ثاني شهر ربيع الأول، حضر المقامُ الفخري عثمان صلاة الجمعة، عند أبيه بجامع القلعة، ورسم له والده السلطان أن يمشي الخدمة على عادة أولاد الملوك.

ثم في يوم الخميس ثامن شهر ربيع الأول المذكور، خلع السلطان على القاضي محبّ الدين محمد بن الأشقر، ناظر الجيش، باستقراره كاتبَ السرّ الشريف، عوضاً عن القاضي كمال الدين بن البارِزي بعد موته. وخلع السلطان أيضاً على المقرّ الجمالي ناظر الخواص باستقراره ناظرَ الجيوش المنصورة زيادةً على ما بيده من نظر الخاص وغيره.

ثم في يوم السبت سابع عشره نُوديَ بالقاهرة على الذهب الظاهري الأشرفي كل دينار بمائتي درهم وخمسة وثمانين درهماً، وهُدِّد مَن زاد في صرفه على ذلك.

ثم في يوم الاثنين، ثالث شهر ربيع الآخر، استقر الشريفُ مَعْز[1] في إمرة اليُنبوع، عوضاً عن عمّه سُنْقُر[بن وبير][2]. وفيه نقل يَشْبَك الصُّوفي المؤيَّدي، المعزول عن نيابة طرابلس، من ثغر دِمْياط إلى القدس بطالاً.

ثم في يوم السبت ثامن عشرين جمادى الأولى، أنعم السلطان على مملوكه جانم الساقي الظاهري بإمرة عشرة، بعد موت الأمير بَرْسْباي الساقي المؤيدي.

ثم في يوم السبت حادي عشر شهر رجب، وصل إلى القاهرة الأمير حاج

---

(١) في الضوء اللامع: «معزي». وهو معزي بن هجّار بن وبير بن نخبار الحسيني. توفي سنة ٨٥٨ هـ. وذكر السخاوي أنه التقى صاحب الترجمة، لذلك فإننا نعوّل على ما جاء في الضوء اللّامع لجهة ضبط الاسم.

(٢) زيادة عن الضوء اللّامع.

إينال اليَشْبَكي، نائب الكَرَك، وخلع السلطان عليه باستمراره.

ثم في يوم السبت ثامن عشر رجب المذكور، أنعم السلطان على حاج إينال المذكور بإمرة مائة وتقدمة ألف بدمشق، عوضاً عن الأمير مازِي الظاهري برقوق، بحكم لزومه بيته؛ واستقر في نيابة الكَرَك عوضاً عن حاج إينال، طُوغانُ، مملوكُ آقبردي المِنْقار؛ نُقل إليها من دَوَادارية السلطان بدمشق؛ واستقر في دوادارية السلطان بدمشق خُشْكَلْدِي الزيني عبد الرحمن بن الكُوَيْز الدوادار؛ واستقرّ عوضاً عن خشكلدي في الدوادارية الثالثة شخصٌ من أولاد الناس، ممّن كان في خدمة الملك الظاهر قديماً، يُعرَف بابن جانِبَك، لا يُعرَف له نسب ولا حسب.

وفي هذه الأيام أُشيع بالقاهرة بمجيء النحّاس إلى الديار المصرية، وأنه وصل على النُّجُب، وأنه نزل بتُربة الأمير طَيْبَغَا الطويل بالصحراء خارجَ القاهرة، ثم انتقل منها إلى القاهرة. وتحدّث الناسُ برؤيته، وتعجّب الناس من ذلك، واستغربتُ أنا وغيري مجيئه من أن السلطان من يوم نكَبه وصادَره وحبَسه ثم نفاه إلى طرسوس، ثم حبسه بقلعة طرسوس على أقبح وجه، وصار في الحبْس المذكور في غاية الضيق، ونال أعداؤه منه فوق الغرض، وصار السلطان يتفقده في كل قليل بعُصَيّات، حتى إنه ضُرب في مدة حبسه بطرسوس، على نفذات متفرّقة، نحو الألف عصاة تخميناً، ولم يزل في محبسه في أسوأ حال، حتى أُشيع مجيئُه، ولم يدْرِ بذلك أحد من أعيان الدولة، ولا يعرف أحد كيفية الإفراج عنه؛ وأخذ أعيانُ الدولة من الأكابر في تكذيب هذا الخبر، وصار الناس في أمره على قسمين: ما بين مصدّق ومُكذّب.

ثم قَدِمَ الأمير جانِبَك الظاهري نائبُ جُدَّة وصُحبته قُصّاد الحبشة من المسلمين من صاحب جَبَرْت في يوم الخميس ثامن شعبان، وعمل السلطان الموكب بالحوش السلطاني؛ وكان السلطان قد انقطع عن حضور الخدمة بالقصر نحو الشهر لضعف حركته.

فلما كان يوم الجمعة تاسعه، طلع أبو الخير النحّاس في بكرته إلى القلعة،

ودخل إلى الدَّهِيشة صُحبة المعزّي عبد العـزيز ابن أخي الخليفـة القائم بـأمر الله حمزة، وقد أمره عمّه القـائم بأمـر الله حمزة ليشفـع في أبي الخير المـذكور على لسان الخليفة، ولم يكن عند السلطان في ذلك الوقت من أعيان الدولة سوى الأمير تَمُربَغَا الظاهري الدَّوَادار الثاني، والأمير أَسَنْبَاي الجمالي الظاهري؛ فقام السلطانُ لابن أخي الخليفـة المذكـور وأجلسه، ثم دخـل أبو الخيـر النحّـاس وقبَّـل رجـلَ السلطان، فسبّه السلطانُ ولعنه وأخـذ في توبيخـه، وذكر أفعـالَه القبيحـة؛ ثم أمر بحبسه بالبرج من قلعة الجبل، ثم اعتذر لابن أخي الخليفة، وقال: «أنا كنت أُريد توسيطه، ولأجل الخليفة قد عفوت عنه».

ثم أنعم على عبد العزيز المذكور بمائة دينار، وانفضّ المجلس.

وأصبـح السلطانُ من الغـد في يـوم السبت، جلس على الـدِّكّـة بـالحـوش السلطاني، وأحضر أبا الخير المذكور، في الملأ من الناس، ثم أمر به فضُرب بين يديه نحو الألف عصاة، أو ما دونها تخمينـاً، على رجليه، وسـائر بـدنه، ثم أمـر بحبسه ثانيـاً بالبرج من القلعة؛ فتحيّر الناس من هذه الأفعال المتناقضة، وهو كونه أفرج عنه سرّاً وأحضره إلى القاهرة؛ فظن كل أحد بعود المذكور إلى أعظم ما كان عليه، ثم وقع له ما ذكرناه من الإخراق والضرب والحبس.

وقد كثُر كلامُ الناس في ذلـك، فمنهم مَن يقول: أمـر السلطانُ بإطـلاقه لا مجيئه إلى القاهرة، فلما قَدِمَ بغير دستور، غضب السلطان عليه؛ فَـرُدَّ على قائـل هذا الكلام بأنه: من أين لأبي الخير النُّجُب التي قَدِمَ عليها مع ما كان عليه، لولا توصية السلطان لمَن يُعينه على ذلك؟. وأيضاً: كيف تمكّنَ من المجيء، لولا ما معه من المراسيم ما يدفع به نُوّاب البلاد الشامية من منعـه من الحضور؟. ومنهم مَن يقول: كان أمره قد انبرم مع السلطان، ورُسم بحضوره، وإنما أعداؤه اجتهدوا في إبعاده ثانياً، ووعدوا بأوعاد كثيرة، أضعاف ما وعده أبو الخير المذكور؛ وأقوال كثيرة أُخَر.

ثم في هذا اليوم أُخِذَ أبو عبد الله التريكي المغربي المالكي، المعزول عن

قضاء دمشق قبل تاريخه، من بيته إلى بيت الوالي، ورُسم عليه؛ ثم ادُّعِي عليه بمجلس القاضي المالكي، أنه التزم للسلطان عن أبي الخير النحّاس بمائة ألف دينار أو أكثر، فقال: «أنا قلت: إن ولّاه ما عيَّنتُه من الوظائف، ولم يقع ذلك»، وعرف كيف أجاب، فإنه كان من الفضلاء العلماء. فاستمر في الترسيم إلى يوم الثلاثاء ثالث عشر شعبان، فطُلب إلى القلعة، فطلع وفي رقبته جنزير، ثم أُعيد إلى الترسيم من غير جنزير؛ وقد أُشيع أنه وقع في حق قاضي القضاة شرفِ الدين يحيىٰ المنّاوي بأمور شنعة، ودام في الترسيم إلى ما يأتي ذكره.

ثم في يوم الأربعاء رابع عشر شعبان المذكور، أُخرج أبو الخير النحّاس المذكور من البرج منفيّاً إلى البلاد الشامية، ورُسِمَ بحبسه بقلعة الصُّبَيْبَة؛ فنزل على حالة غير مرضية، وهو أنه أُركب على حمار، وفي رقبته باشَة[1] وجنزير، ومُوكَل به جماعةٌ من الجَبَلِيَّة[2]، شقّوا به شارعَ القاهرة إلى أن أُخرج من باب النصر، والمَشَاعِليُّ ينادي عليه: «هذا جزاء مَن يكذب على الملوك، ويأكل مال الأوقاف»، ونحو ذلك؛ ورَسم السلطانُ أن يُفعل به ذلك في كل بلد يمرُّ بها، إلى أن يصل إلى محبسه.

ثم في يوم الخميس خامس عشره، استقر الأميرُ حاج إينال اليَشْبَكي أحد مقدّمي الألوف بدمشق، في نيابة حماة، عوضاً عن سُودُون الأبوبكري المؤيدي بحكم عزله وتوجهه على إقطاع حاج إينال المذكور بدمشق.

ثم في يوم الثلاثاء العشرين من شعبان المذكور جلس السلطان بالحوش، وأحضر القضاة، ثم أحضر والي القاهرة أبا عبد الله التريكي المغربي ـ وكان التريكي قد أقام قبل ذلك ببيت القاضي الشافعي أياماً ـ فلما مثل التريكي بين يدي السلطان، سأل السلطانُ قاضيَ القضاة شرفَ الدين يحيىٰ المنّاوي الشافعي عن أمر التريكي وما وجب عليه، فقال: «ثبت عليه عند نائبي نجم الدين بن نبيه لمولانا

(١) الباشة: قيد يوضع في العنق أو الرجلين. (معجم دوزي).

(٢) الجبلية: العربان.

السلطان عشرة آلاف دينار»، وقام ابنُ النَّبيه في الحال، وأخبر السلطانَ بذلك، فنهر السلطانُ القاضي الشافعي عند مقالته عشرة آلاف دينار، وقال: «ما أسأل إلّا عن ما وجب عليه من التّعزير. إيش العشرة آلاف دينار؟».

ولم تحسن مقالة القاضي الشافعي بهذا القول ببال أحد؛ ثم أجاب ابنُ النبيه بأن قال: «أما المالُ فقد ثبت عندي، وأما التعزيرُ فهو إلى القاضي شمس الدين بن خيرة، أحد نوّاب الحكم». فقال ابنُ خيرة: «حكمتُ عليه بِتَغْريبه سنتين، وأما التعزير فلمولانا السلطان على ما وقع منه من الأيمان الحانثة». فلما سمع السلطانُ كلامَ ابن خيرة، أمر بالتريكي فطُرح على الأرض، وضُرب ضرباً مبرحاً، يزيد على مائتي عصاة؛ وأُقيم، فتكلم فيه ابنُ النبيه أيضاً، وأحضَر محضراً مكتتباً عليه بدمشق، بواقعة وقعت له في أيام حكمه بدمشق، فأمر به السلطانُ ثانياً فضُرب نحواً مما ضرب أولاً. واختلفت الأقوال في عدّة ما ضرب، فأكثر ما قيل ستمائة عصاة، وأقلّ ما قيل أربعمائة. ثم أنزلوه إلى بيت والي القاهرة، فأقام في حبْس الرَّحبة إلى يوم الأربعاء خامس شهر رمضان، فأخرج من الحبس وفي رقبته الجنزير ماشياً إلى بيت الوالي بين القصرين، ثم ركب من هناك، وأُخرِجَ منفيّاً في الترسيم إلى المغرب إلى يومنا هذا.

ثم في يوم السبت ثامن شهر رمضان، سافر محبُّ الدين بن الشحنة[1] قاضي قضاة حلب من القاهرة، بعدما أقام بها شهراً، وقاسى من الذلّ والبهدلة أنواعاً، ورُسم عليه غير مرة، وأُخرجت عنه وظيفتَا كتابةِ سرِّ حلب ونظرِ جيشِها. وقد استوعبْنا أحوالَ ابن الشِّحْنة هذا في تاريخنا «حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور»، مستوفاةً من مبدأ أمره إلى يوم تاريخه، مما وقع له بحلب ومصر

(١) ويُعرّف بابن الشّحنة الصغير. وهو محمد بن محمد بن محمد بن محمود بن غازي الثقفي الحلبي الحنفي. ونسبته إلى جدّ له اسمه حسام الدين محمود بن الختلو كان شحنة حلب. والشحنة هو المكلّف بضبط البلد من جهة السلطان، وهو ما نسمّيه اليوم رئيس الشرطة أو مدير البوليس. وتوفي محبّ الدين ابن الشحنة سنة ٨٩٠ هـ وهو شيخ الخانقاه الشيخونية بالقاهرة. (انظر الأعلام: ٥١/٧؛ والضوء اللامع: ٢٩٥/٩؛ والدرّ المنتخب، منسوب إليه: مقدمة التحقيق).

وغيرهما من الأمور الشَنِعَة وسوء السيرة، وما وقع له من التراسيم عليه وغير ذلك.

ثم في أواخر هذا الشهر، رَسم السلطان بإخراج نصف إقطاع جانِبَك النَّوْرُوزي، المعروف بنائب بعلبك، للسيفي بَرْدبك التاجي، وكلاهما مقيم بمكة؛ وكان هذا الإقطاع أصله بين جانِبَك المذكور وبين تَغْرِي بَرْمَشْ نائب القلعة، فلما نُفي تَغْرِي بَرمَش، أنعم السلطانُ عليه بنصيبه إلى يوم تاريخه، فأخرجه عنه.

ثم في يوم الخميس رابع شوّال، استقر الأمير تَغْرِي بَرْدِي الظاهري المعروف بالقلاوي[١] وزيراً بالديار المصرية، مضافاً لما بيده من كشف الأشمونين والبلاد الجِيزية، عوضاً عن الصاحب أمين الدين إبراهيم بن الهَيْصَم، بحكم استعفائه عن الوزارة. وأنعم السلطانُ على تَغْرِي بَرْدِي المذكور بإمرةِ مائةٍ وتقدمةِ ألفٍ بالديار المصرية، وهو الإقطاع الذي كان أنعم به السلطان على ولدِه المقام الفخري عثمان، بعد أَلْطُنْبَغَا اللَّفّاف، ليستعين تَغْرِي بَرْدِي المذكور بالإقطاع على كلَف الدولة؛ وكانت خلعةُ تَغْرِي بَرْدِي المذكور بالوزارة أطلسين متّمراً ثم فَوْقانيّاً بطَرْز زَرْكَش عريض مثال خلعة الأتابكية بالديار المصرية. وخلع السلطانُ علَى زين الدين فرج [بن ماجد][٢] ابن النَّحّال كاتب المماليك السلطانية، بوظيفة نظرِ الدولة مضافاً لكتابة المماليك.

وفي يوم الاثنين تاسعه، عُملت الخدمة السلطانية بالدَّهِيشَة من الحوش، ورَسم السلطانُ بأن تكون الخدمة دائماً في يومي الاثنين والخميس، بها؛ كلّ ذلك لضعف حركة السلطان وهو يكتم ما به من الألم.

وفي يوم الثلاثاء عاشره، استقر قاني باي طاز السيفي بَكْتَمُر جِلَّق في نيابة قلعة صَفَد، بعد شُغورها أشهراً من يوم مات الجمالي يوسف بن يَغْمُور. وفي هذا اليوم أيضاً وصل المقامُ الغَرْسي خليل ابن الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق، من ثغر الإسكندرية، وقد رُسم له بالتوجّه إلى الحجاز لقضاء الفرض،

---

(١) نسبة إلى مدينة قلا بالوجه القبلي بمصر.

(٢) زيادة عن الضوء اللامع والتبر المسبوك.

وطلع إلى السلطان، فأكرمه السلطانُ إلى الغاية؛ وهذا شيء لم يُسمع بمثله من أن ابنَ السلطان، وله شوكة[(١)]، يُمكَّن من سفر الحجاز، فللّه دَرُّه من ملك. وقد حكينا طلوعَهُ إلى القلعة واجتماعه بالسلطان، في ذهابه وإيابه في «الحوادث» بأطول من هذا.

وفي يوم الأربعاء ثامن عشره، ورد الخبر بقتل طُوغان السيفي آقْبَرْدِي المِنقار، نائب الكَرَك، على ما سنذكره في الوفيات من هذه الترجمة.

ثم في يوم تاسع عشره، برز الأميرُ دُولات باي المحمودي الدَّوَادار الكبير، أمير حاج المحمل، بالمحمل؛ وكان الحاج في هذه السنة ركباً واحداً؛ وهذه حجة دولات باي المذكور الثانية أمير الحاج. فلما خرج دولات باي إلى بركة الحاج، رسم له بأن يُجْعَل دواداره فارس أميرَ الركب الأول، ووقع ذلك. وسافر ابنُ الملك الناصر صحبة المحمل.

ثم في يوم الثلاثاء رابع عشرين شوّال، رسم السلطان لِطُقْتَمُر البارِزِي، رأس نوبة الجَمدَارية، أن يتوجّه إلى القدس الشريف، لإحضار الأمير يَشْبَك الصُّوفي المؤيَّدي منه إلى القاهرة، ليتجهّز ثم يعود إلى دمشق أتابكاً بها، عوضاً عن خير بك المؤيدي الأجرود. ورسم [السلطان] أيضاً لطُقْتَمُر المذكور، أن يتوجّه إلى دمشق ويقبض على أتابكها خير بك المذكور، ويحمله إلى سجن الصُّبَيْبَة.

وفيه أيضاً رسم بنقل الأمير يَشْبَك طاز المؤيدي من حجوبية طَرَابُلس إلى نيابة الكَرَك، عوضاً عن طُوغان المقتول قبل تاريخه. واستقر عوضه في حجوبية طرابلس مُغْلُبَاي البجاسي، أحد أمراء طرابلس كان ثم نائب قلعة الروم. واستقر

---

(١) أي له قوّة من وجود أنصار ومحازبين له بين المماليك. وكان من عادة السلاطين أنهم يتخوّفون من أبناء أسلافهم ويحتاطون عليهم، وغالباً ما ينفونهم إلى مكان بعيد عن القاهرة. قال ابن شاهين الظاهري: «ومن العادة القديمة أنه إذا تولّى سلطان، وكان للمتقدّم أولاد، فلا بدّ من سجنهم مخافة طَرَيان أمر. ورأيتُ بالطباق التي بالحوش قبل سنة ٨٣٣ هـ ما يزيد على أربعين نفراً من أولاد أولاد السلاطين السالفين. ثم بعد ذلك رأيت الملك الأشرف برسباي أطلقهم إلى حال سبيلهم، وكان ذلك منه سنّة حسنة». (نظر زبدة كشف الممالك: ١١١ ـ ١١٢).

في نيابة قلعة الروم ناصرُ الدين محمد والي الحُجَر بقلعة حلب.

ثم في يوم الأحد سادس ذي القعدة من سنة ست وخمسين المقدّم ذكرها، حبَس السلطانُ تقيَّ الدين عبد الرحمن بن حجّيّ بن عزّ الدين قاضي قضاة الشافعية بطرابلس بحبس المقشرة فحبس بها، بعد أن نُودِيَ عليه وهو على حمار بشوارع القاهرة: «هذا جزاء مَن يزوّر المحاضر!». ثم أمر السلطانُ من وقته بحبس ماماي السيفي بيبغا المظفري أحد الدَّوَادارية بالبرج من قلعة الجبل [لاتّهامه بالغرض مع التقيّ المذكور](١)، وكان ماماي المذكور هو المتوجّه إلى طَرَابُلُس للكشف عن أحوال ابن عزّ الدين المقدّم ذكره. واستمر ماماي بالبرج إلى يوم الاثنين سابع ذي القعدة، فأطلق، ورسم بنفيه إلى مدينة حماه، واستقر في وظيفة ماماي الدَّوَادارية قانصوه الظاهري جَقْمَق.

ثم في يوم الخميس عاشره، وصل الأمير يشبك الصُّوفي من القدس إلى القاهرة، وطلع إلى القلعة وقبّل الأرض. وفيه رسم بالإفراج عن جانِبَك المحمودي من حبس المرقب وأن يتوجّه إلى طرابلس بطالاً.

ثم في يوم الاثنين ثامن عشرينه، خلع السلطان على الأمير يَشْبَك الصُّوفي باستقراره أتابكَ عساكرِ دمشق، وسافر في يوم الخميس ثاني ذي الحجة.

ثم في يوم الخميس سادس عشر ذي الحجة، استقر القاضي حسامُ الدين محمد بن تقي الدين عبد الرحمن بن بريطع قاضي قضاة الحنفية بحلب، عوضاً عن محبّ الدين ابن الشِّحْنة، بعد أن وقع لابن الشِّحْنة المذكور أمور مذكورة في «الحوادث» بتمامها وكمالها.

وفي يوم الاثنين عشرينه استقر أُسَنْبَغا، مملوكُ ابن كَلْبَك، نائبَ القدس وناظرَه، بعد موت أمين الدين عبد الرحمن بن الديري الحنفي.

وفي يوم الثلاثاء حادي عشرينه، تكلّم الأميرُ الوزير تَغْري بَرْدِي القَلاوي مع

(١) زيادة عن التبر المسبوك.

السلطان في عزل فرج ابن النحّال عن نظر الدولة، فعزله وأبقى معه كتابة المماليك(١) على عادته.

* * *

ابتداء مرض موت السلطان

ولمّا كان يوم الجمعة رابع عشرينه، حضر السلطان الملك الظاهر جَقْمَق الصلاة بجامع القلعة على العادة، وهو متوعّك. فلما انقضت الصلاة، وخرج من الجامع، غُشي عليه، فأُرجِف في القاهرة بموته، وتكلّم الناس بذلك. فأصبح من الغد في يوم السبت خامس عشرينه، وحضر الخدمةَ في الدُّهِيشَة من القلعة، وحضر جميعُ أكابر الأمراء والخاصْكِيَّة بغير كَلْفَتاة، وعلَّم السلطانُ على قِصَصٍ كثيرة. ومن غريب الاتفاق ما وقع له، أنه لمّا خرج إلى الدُّهِيشَة، ورأى الناسَ وقوفاً، قال: «سبحان الحيّ الذي لا يموت!»، فحسُن ذلك ببال الناس كثيراً، عفا الله عنه. ثم أصبح في يوم الأحد سادس عشرين ذي الحجة، فركب من القلعة ونزل إلى بيت بنته زوجة الأمير أُزْبَك مِن طُطُخ الساقي، أحد أمراء العشرات ورأس نوبة، غير أنه لم يُطِلْ الجلوسَ عندها وعاد إلى القلعة من وقته؛ وكان سكن أُزْبَك المذكور يومئذ في الدار الذي خلف حمام بَشْتَك، وهي الآن ملك شخص من أصاغر المماليك الأشرفية(٢)، لا أعرفه إلّا في هذه الدولة.

ثم في يوم الاثنين سابع عشرين ذي الحجة، عمل السلطانُ الموكبَ بالحوش لقُصّاد جهان شاه بن قَرَا يوسف، متملِّك تِبْرِيز وغيرها. وكان قدوم القُصَّاد المذكورين لإعلام السلطان بأن جهان شاه المذكور كسر عساكر بابور(٣) بن باي

---

(١) أي كتابة المماليك السلطانية. وكان لهم ديوان خاص بهم حيث تسجّل أسماؤهم ورتبهم ومرتباتهم وإقطاعاتهم. وكان لصاحب هذا الديوان كاتب خاص يسمى كاتب المماليك. (نظم دولة سلاطين المماليك: ١/ ١٣٩).

(٢) نسبة إلى الأشرف إينال.

(٣) في معجم زامباور: «أبو القاسم بابر بن باي سنقر بن شاه رخ». توفي سنة ٨٦١ هـ وخلفه ابنه شاه محمود.

سُنْقُر بن شاه رخ بن تيمورلنك، وأنه استولى على عدّة بلاد من ممالكه، وأن عساكر جَغْتاي ضَعف أمرُهم لوقوع الوباء في خيولهم ومواشيهم.

ثم في يوم الأربعاء تاسع عشرينه، ضرب السلطانُ بعضَ نوّاب الحكم الشافعية بيده عشرةَ عِصيّ، لأمر لا يستحق ذلك.

وفرغت سنةُ ست وخمسين، بعد أن وقع بها فتن كثيرة ببلاد الشرق، قُتل فيها خلائق لا تدخل تحت حصر، استوعبنا غالبها في «حوادث الدهور»، كونه موضوعاً لتحرير الوقائع، كما أن هذا الكتاب وظيفتُه الإطناب في تراجم ملوك مصر. ومهما ذكرناه بعد ذلك من الوقائع يكون على سبيل الاستطراد وتكثير الفوائد لا غير.

واستهلّت سنةُ سبع وخمسين وثمانمائة بيوم الجمعة، والسلطان الملك الظاهر جَقْمَق صاحب الترجمة متوعّك، غير أنه يتجلّد ولا ينام على الفراش، وأيضاً لم يكن على وجهه علامات مرض الموت إلّا أنه غير صحيح البدن، وكان له على ذلك أشهر كثيرة، من أواخل سنة خمس وخمسين وثمانمائة ـ انتهى.

قلت: ويحسن ببالي أن أذكر في أول هذه السنة، جميع أسماء أرباب الوظائف[1] بالديار المصرية وغيرها، ليُعلم بذلك فيما يأتي كيف تقلباتُ الدهر وتغيير الدول. فأقول: استهلّت سنةُ سبع وخمسين وخليفةُ الوقت القائمُ بأمر الله حمزة، والقاضي الشافعي شرفُ الدين يحيىٰ المنّاوي، والقاضي الحنفي سعدُ الدين سعد الديري، والقاضي المالكي وليُّ الدين محمد السنباطي، والقاضي الحنبلي بدرُ الدين محمد بن عبد المنعم البغدادي، وأتابكُ العساكر إينال العلائي الناصري، وأميرُ سلاح جَرِبَاشُ الكَرِيمي الظاهري برقوق المعروف بقاشق، وأميرُ مجلس تَنَم من عبد الرزّاق المؤيّدي، والأميرُ آخور الكبيرُ قاني باي الجَارْكسي، ورأسُ نوبة النوب أَسَنْبَغَا الناصري الطّياري، والدَّوَادارُ الكبيرُ دُولات باي

(١) جميع الوظائف الآتية وأصحابها سبق التعريف بهم في هذا الجزء والأجزاء السابقة، فانظر فهرس المصطلحات.

المحمودي المؤيَّدي، وحاجبُ الحجّاب خُشْقَدَم من ناصر الدين المؤيَّدي، وباقي مقدّمي الألوف أربعة: أعظمُهم المقامُ الفخري عثمانُ ابن السلطان، ثم الأميرُ تَنِبَك البَرَدبكي الظاهري برقوق المعزل عن الحجوبية، والأمير طُوخ مِن تِمْراز الناصري، والأميرُ جَرِبَاشُ المحمدي الناصري المعروف بكُرْد؛ والجميع أحد عشر مقدّماً، بأقلّ من النصف عمّا كان قديماً.

وأربابُ الوظائف من الطبلخانات والعشرات: شادُّ الشراب خاناه يونس الأقبائي البوّاب أمير طبلخاناه، والخازندارُ قَرَاجَا الظاهري جَقْمَق أميرُ طبلخاناه، والزَّرْدكاش لاجين الظاهري جَقْمَق أميرُ عشرة، ونائبُ القلعة يونسُ العلائي الناصري أمير عشرة، والحاجبُ الثاني نوكارُ الناصري أميرُ عشرة، ووظيفةُ أميرِ جَانْدَار بطالةٌ، يليها بعضُ الأجناد، السكاتُ عن ذكره أجمل؛ وأستادّارُ الصُّحبة سُنْقُر الظاهري أميرُ عشرة. وهذه الوظائف كان قديماً يليها مقدّمو الألوف، ويستدلّ على ذلك من خِلَعهم في الأعياد وغيرها ـ انتهى.

والأميرُ آخور الثاني يَرْشْباي الإينالي المؤيَّدي أميرُ طبلخاناه، ورأسُ نوبة ثاني جانِبَك القَرماني الظاهري برقوق أميرُ طبلخاناه، والدَّوَادارُ الثاني تَمُرْبَغَا الظاهري جَقْمَق أميرُ عشرة، غير أن معه زيادات كثيرة، والمَهْمَنْدار بعضُ الأجناد، ووالي القاهرة جانِبَك اليَشْبَكي أميرُ عشرة، والزِّمامُ والخازندارُ فيروز الطَّوَاشي الرومي النَّوْرُوزي أميرُ طبلخاناه، ومقدّمُ المماليكِ مرجانُ العادلي المحمودي الحبشي أميرُ عشرة، ونائبُه عنبر خادم نور الدّين الطُّنْبَذِي.

ومباشرو الدولة: كاتبُ السرّ القاضي محبُّ الدين محمد بن الأشقر، وناظرُ الجيش والخاصّ عظيمُ الدولة ومدبّرُها الجمالي يوسف ابن كاتب جَكَم، والوزيرُ الصاحبُ أمينُ الدين إبراهيم بن الهَيْصَم، والأستادّار زين الدين يحيىٰ الأشقر المعروف بابن كاتب حلوان وبقريب ابن أبي الفرج، وهو على زيّ الكتاب، ولهذا لم نذكره في الأمراء، ومحتسبُ القاهرة يَرْعَلي الخراساني العجمي الطويل.

ونوّابُ البلاد الشاميّة: نائبُ الشام جُلْبَان الأمير آخور، ونائب حلب قاني باي

الحمزاوي، ونائب طرابلس يَشْبَك النَّوْرُوزي، ونائبُ حمـاة حاج إينـال اليَشْبَكي، ونائب صَفَد بَيْغُوتُ الأَعرج المؤيدي، ونائب غزة جانِبَك التاجي المؤيدي، ونائب الكَرَك يَشْبَك طاز المؤيدي، ونائب الإسكندرية بَرْسْباي السيفي تَنِبَك البَجَاسي أمير عشرة؛ وهؤلاء هم أعيان النوّاب، ومَن يُطلق في حق كلٍّ منهم ملك الأمراء. ولا عبرة بولاية الوجه القبلي الآن، وباقي نوّاب القِلاع والبلاد الشأمية فكثير ـ انتهى.

ثم في يوم الخميس سابع محرّم، سنة سبع وخمسين المذكورة، أُرجف في القاهرة بموت السلطان. فلما كان يوم السبت تـاسع المحـرّم، خرج السلطانُ من قاعة الدَّهِيشَة، ماشياً على قدميه، حتى جلس على مرتبة، من غير أن يستعين بأحد في مشيه، ولا استند في مجلسه، بل جلس على مرتبته وعلّم على عدّة مناشير. وأطلتُ أنا النظر في وجهه، فلم أرَ عليه علامات تدلّ على موته بسرعـة. ثم قام وعـاد إلى القاعـة، ولم يخرج بعـدها إلى الـدَّهِيشَة. واستمـر متمرّضـاً بـالقـاعـة المـذكورة، والنـاسُ تخلط في الكلام بسبب مـرضه، والأقـوال تختلف في أحوال المملكـة. على أن السلطان في جميع مـرضه غيـر منحجب عن الناس، وأربـاب الدولة تتردّد إليه بالقاعة المذكورة، وهو يعلِّم في كل يوم في الغالب على المناشير والقِصَص، وينفّذ بعض الأمور، إلّا أن مرضه في تزايد، وهو يتجلّد.

إلى أن كـان يوم الأربعـاء، العشرون من المحـرّم، فوصـل الأَميرُ جـانِبَـك النَّوْرُوزي من مكّة المشرّفة، ودخـل إلى السلطان وقبّل له الأَرض، ثم قبّل يـده، وخرج وخرجنا جميعاً من عنده، وقد اشتدّ به المرض، وظهر عليـه أمارات رديئـة تدلّ على موته بعد أيام، غير أنه صحيح العقل والفَهم والحركة. ثم بعد خروجنا من عنـده، تكلّم السلطانُ في هذا اليـوم مـع بعض خـواصّـه في خلع نفسـه من السلطنة، وسلطنةِ ولدِه المقام الفخـري عثمان في حيـاته، فـرُوجِعَ في ذلـك فلم يقبل، ورسم بإحضار الخليفة والقضاة والأمراء من الغد بالدَّهِيشَة.

فلما كان الغد، وهو يوم الخميس حادي عشرون محرّم سنـة سبع وخمسين وثمانمائة، حضر الخليفة والقضاة وجميع الأمراء، وفي ظن الناس أنه يَعهد لولـده

عثمان بالمُلْك من بعده كما هي عادة الملوك. فلما حضر الخليفة والقضاة عنده بعد صلاة الصبح، خلع نفْسه من السلطنة، وقال للخليفة والقضاة: «الأمرُ لكم، انظروا فيمَن تسلطنوه»، أو معنى ذلك، لعلمه أنهم لا يعدِلون عن ولده عثمان، فإنه كان أهلاً للسلطنة بلا مدافعة. وأراد أيضاً بهذا القول أنه قد خلع نفسه وأنه يموت غير سلطان، وأنه أيضاً لا يتحمّل بوزرِ ولاية ولده المذكور، فكان مقصده جميلاً في القولين، رحمه الله تعالى.

فلما سمع الخليفةُ كلامَ السلطان، لم يعدل عن المقام الفخري عثمان، لما كان اشتمل عليه عثمانُ المذكور من العلم والفضل، وإدراكه سنَّ الشبيبة، وبايعه بالسلطنة، وتسلطن في يوم الخميس المذكور، حسبما نذكره إن شاء الله تعالى في أول ترجمته من هذا الكتاب.

واستمر الملكُ الظاهر مريضاً مُلازماً للفراش، وابنُه الملكُ المنصور يأخذ ويعطي في مملكته، ويعزل ويولِّي، والملكُ الظاهر في شغل بمرضه، وما به من الألم في زيادة، إلى أن مات في قاعة الدِّهيشة الجُوّانيّة بين المغرب والعشاء من ليلة الثلاثاء ثالث صفر من سنة سبع وخمسين وثمانمائة المقدّم ذكرها. وقُرِىء حولَه القرآنُ العزيز، إلى أن أصبح، وجُهِّزَ وغُسِّلَ وكُفِّنَ من غير عجلة ولا اضطراب، حتى انتهى أمرُه وحُمِلَ على نعشه، وأُخرج به، وأمامَ نعشه ولدُه السلطان الملك المنصور عثمان ماشياً وجميعُ أعيان المملكة. وساروا أمام نعشه بسكون ووقار، إلى أن صُلِّي عليه بمُصلاّة باب القلّة من قلعة الجبل، وصَلّى عليه الخليفةُ القائم بأمر الله أبو البقاء حمزة، وخلفَه السلطانُ والقضاةُ وجميع الأمراء والعساكر. ثم حُمِلَ بعد انقضاء الصلاة عليه وأُنزِلَ من القلعة، حتى دُفن بتربة أخيه الأمير جَارْكس القاسمي المُصَارِع، التي جدّدها مملوكُه قاني باي الجاركسي، بالقرب من دار الضيافة تجاه سور القلعة. ولم يشهد ولدُه الملك المنصور دفنَه، وعاد إلى القلعة من المصلاة. وشهد دفنَه خلائق، وقعد الناس في الطرقات لمشاهدة مشهده، وكان مشهده عظيماً إلى الغاية، بخلاف جنائز الملوك السالفة، ولعلّ هذا

لم يقع لملك قبله؛ كلّ ذلك لكونه سلطَن ولدَه في حياته، ثم مات بعد ذلك بأيام، فلهذا كانت جنازته على هذه الصورة.

ومات الملك الظاهر وسنُّه نيّف على ثمانين سنة تخميناً، ولم يخلِّف بالحواصل ولا الخزائن إلّا نزراً يسيراً يُستحَى من ذكره بالنسبة لما تخلفه الملوك، وكذلك في جميع تعلقات السلطنة، من الخيول والجِمال والسلاح والقماش، كلّ ذلك من كِثرة بذله وعطائه. وكانت مدةُ مُلْكه من يوم تسلطن بعد خلع الملك العزيز يوسف، في يوم الأربعاء تاسع عشر شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة، إلى أن خلع نفسه بولده الملك المنصور عثمان، في الثانية من نهار الخميس الحادي والعشرين من محرّم سنة سبع وخمسين وثمانمائة، أربعَ عشرة سنة وعشرة شهور ويومين؛ وتوفي بعد خلعه من السلطنة باثني عشر يوماً.

ووقع له في سلطنته غرائب لم تقع لأحد قبله إلّا نادراً جدّاً، منها ركوبُه وهو أتابك على الملك العزيز يوسف وقتاله له وانتصاره عليه، ولا نعرف أحداً قبله من الأمراء ركب على السلطان، ووقف بالرملة والسلطانُ بقلعة الجبل، وانتصر عليه، غيرَه فإن قيل: واقعةُ الناصري ومِنطاش[1] مع الملك الظاهر برقوق، فليس ذاك مما نحن فيه من وجوه عديدة، لا يُحتاج إلى ذكرها. وإن قيل: نصرةُ منطاش ومِلكه لباب السلسلة فنقول: كان ركوبُ منطاش على رفيقه يَلْبَغَا الناصري، وليس للملك المنصور حاجي ذكر بينهما.

ومنها أنه سلَّم عليه بالسلطنة ثلاثةُ خلفاء من بني العباس، ولم يقع ذلك لملك قبله من ملوك مصر. ومنها أنه اجتمع له قضاةٌ أربعةٌ في عصر واحد، لم يجتمع مثلُهم لغيره من ملوك مصر، وهم قاضي القضاة شهابُ الدين بن حجر الشافعي حافظ المشرق والمغرب: كان فرداً في معناه، لا يقاربه في علم الحديث

(١) خرج الأمير يلبغا الناصري نائب حلب والأمير تمربغا الأفضلي منطاش نائب ملطية على السلطان برقوق وطرداه من السلطنة سنة ٧٩١ هـ. ثم عاد برقوق إلى العرش في العام التالي. وتلك الواقعة عُرِفَت باسم فتنة منطاش.

أحد في عصره؛ وقاضي القضاة شيخُ الإسلام سعد الدين سعد الديري الحنفي: كان فقيه عصره شرقاً وغرباً، لا يقاربه أحد في حفظ مذهبه واستحضاره، مع مشاركته في علوم كثيرة؛ والعلاّمةُ قاضي القضاة شمسُ الدين البساطي المالكي: كان إمامَ عصره في علمي المعقول والمنقول، قد انتهت إليه الرئاسة في علوم كثيرة، ومات ولم يخلِّف بعده مثله؛ وقاضي القضاة شيخُ الإسلام محبُّ الدين أحمد الحنبلي البغدادي: كان أيضاً إمامَ عصره وعالم زمانه، انتهت إليه رئاسة مذهبه بلا مدافعة.

ومنها أنه أقام في مُلك مصر هذه المدة الطويلة، لم يتجرّد فيها تجريدة واحدة إلى البلاد الشامية، غير مرة واحدة، في نوبة الجَكَمي في أوائل سلطنته، وهذا أيضاً لم يقع لملك قبله.

ومنها أنه أذن للغَرْسي خليل ابن السلطان الملك الناصر فرج بالحج، فقَدِمَ القاهرةَ وحجّ وعاد مع عظم شوكته من مماليك أبيه وجدّه الملك الظاهر برقوق، وهذا شيء لم يقع مثله في دولة من الدول.

ومنها ابنُه المقام الناصري محمد رحمه الله تعالى: من غزير علمه وكثرة فضائله، فإننا لا نعلم أحداً من ملوك الترك رُزق ولداً مثله، بل ولا يقاربه ولا يشابهه مما كان اشتمل عليه من العلم والفضل والمعرفة التامّة، وحُسْن السَّمت وجودة التدبير، ولا نعرف أحداً من أولاد السلاطين مَن هو في هذا المقام قديماً وحديثاً، حتى ولو قلتُ: ولا من بني أيوب، ممّن ملكوا مصر، لكان يَصدُق قولي؛ ومَن كان من بني أيوب له فضيلةٌ تامّة غيرُ الملك المعظّم عيس ابن الملك الكامل، والملكُ المؤيد إسماعيل صاحب حماه، وهما كانا بالبلاد الشامية؟- انتهى.

وقد استوعبنا أحوالَ الملك الظاهر هذا من مبدأ أمره إلى آخره، محرّراً بالشهر واليوم في جميع ما وقع له من ولاية وعزل وغريبة وعجيبة، في تاريخنا «حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور»، فليُنظر هناك. وما ذكرناه هنا جميعه نوع

من تكثير الفائدة، لا القصة على جليّتها، بل نشير بذكرها إعلاماً لوقت واقعتها لا غير.

وكان الملكُ الظاهر سلطاناً ديِّناً خيّراً عفيفاً صالحاً فقيهاً شجاعاً مِقداماً، عارفاً بأنواع الفروسية، عفيفاً عن المنكرات والفروج، لا نعلم أحداً من ملوك مصر في الدولة الأيوبية ولا التركية على طريقته في ذلك. لم يُشهر عنه في صغره ولا في كبره أنه تعاطى مُسكِراً ولا منكراً، حتى قيل إنه لم يكتشف حراماً قطُّ. وأما حُبّ الشباب، فلعلّه كان لا يصدِّق أن أحداً يقع في ذلك لبُعده عن معرفة هذا الشأن. وكان جلوسه في غالب أوقاته على طهارة كاملة. وكان متقشّفاً في ملبسه ومركبه إلى الغاية، لم يلبس الأحمر من الألوان في عمره، منذ علم بكراهيته. ولم أره منذ تسلطن لبس كامِلية بفرو وسَمُّور وبمقلب سمُّور غير مرة واحدة؛ وأما الركوب بالسرج الذهب والكُنْبُوش الزَّرْكَش فلم يفعله إلّا يومَ ركوبه بأُبّهة السلطنة لا غير. وكان ما يلبسه أيام الصيف، وما على فرسه من آلة السرج وغيره، لا يساوي عشرةَ دنانير مصرية. وكان معظِّماً للشريعة مُحبّاً للفقهاء وطلبة العلم؛ وما وقع منه من الإخراق ببعضهم وحبسهم بحبس المَقْشَرَة، فلا نقول: كان ذلك بحق، بل نقول: الحاكم يجتهد، ثم يقع منه الصواب والخطأ، فإن كان ما فعله بحق فقد أصاب وإن كانت الأخرى فقد أخطأ وأُعيب عليه ذلك. [الطويل]

ومَن ذا الذي تُرضي سجاياه كلُّها كفى المرءَ فخراً أن تُعدَّ معايِبُه

وكان معظِّماً للسادة الأشراف، وكان يقوم لمَن دخل عليه من الفقهاء والفقراء كائناً مَن كان. وإذا قرأ عنده أحد فاتحة الكتاب، نزل عن مُدَوَّرَتِهِ، وجلس على الأرض إجلالاً لكلام الله تعالى.

وكان كريماً جداً، يجود بالمال، حتى نُسِبَ إلى السَّرف. وكان يُنعِم بالعشرة آلاف دينار إلى ما دونها. وكان ممّن أنعم عليه بعشرة آلاف دينار، الأتابكُ قَرْقَمَاسُ الشعباني، وأما دون ذلك من الألف إلى المائة، فدواماً طولَ دهره، لا يملُّ من ذلك، حتى إنه أتلف في أيام سلطنته من الأموال ما لا يدخل تحت حصرٍ كثرةً؛

ويكفيك أنه بلغت نفقاتُه على المماليك وصِلاتُ الأُمراء والتراكمين وغيرهم، وفي أثمان مماليك اشتراهم، وتجاريد جرّدها، في مدةٍ أولُها موتُ الملك الأشرف بَرْسْباي، وآخرُها سلخُ سنة أربع وأربعين وثمانمائة، وذلك مدة ثلاث سنين، مبلغَ ثلاثة آلاف ألف دينار ذهباً مصرياً، وذلك خلاف الخِلع والخيول والقماش والسلاح والغِلال، وخلاف جَوَامِك المماليك ورواتبهم المعتادة.

وكان لا يلبس إلّا القصير من الثياب، ونهى الأمراء وأكابر الدولة وأصاغرها عن لبس الثوب الطويل، وأمعن في ذلك، حتى إنه بَهْدل بسبب ذلك جماعةً من أعيان الدولة، وعاقب جماعةً من الأصاغر، وقَصَّ أثواب آخرين في الملأ من الناس. وكان أيضاً يوبّخ مَن لا يحفُّ شاربَه من الأتراك وغيرهم. وفي الجملة أنه كان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، مع سرعة استحالة، وحدّة مزاج، وبطش. وكان غالبُ ما يقع منه من الإخراق بالناس، يكون بحسب الواسطة من حواشيه، فإنه كان مهْما ذكروه له قَبِله منهم، وأخَذه على طريق الصدق والنصيحة، لسلامة باطنه، وأيضاً على قاعدة الأتراك من كون الحق عندهم لمَن سبق.

وبالجملة فكانت محاسنُه أكثرَ من مساوئه، وهو أصلح مَن وَلِيَ مُلْك مصر من طائفته، في أمر الدين والتقوى؛ فإنه كان قَمَع المفسدين والجبّارين من كل طائفة، وكسدت في أيامه أحوال أرباب الملاهي والمغاني، وتَصَوْلَح غالبُ أمرائه وجنده، وبقي أكثرُهم يصوم الأيامَ في الشهر، ويعفّ عن المنكرات؛ كلّ ذلك مراعاةً لخاطره، وخوفاً من بطشه. وهذا كله بخلاف ما كان عليه كثير من الملوك السالفة، فإنه كان غالبُهم يقع فيما يُنهَى عنه، فكيف يصير للنهي عنه بعد ذلك محل؟ ومن عظم ذلك، قال بعض الفضلاء الظرفاء: «نابَتْ هذه الدولةُ عن الموت، في هدم اللذّات والأيام الطيّبة». ولم يبقَ في دولته ممّن يتعاطى المُسكِرات إلّا القليل، وصار الذي يفعل ذلك يتعاطاه في خفية، ويرجفه في تلك الحالة صفير الصافر.

وكانت صفته قصيراً، للسّمن أقرب، أبيض اللون مُشْرَباً بحمرة، صبيح الوجه، منوّر الشيبة، فصيحاً باللغة التركية، وباللغة العربية لا بأس به بالنسبة لأبناء جنسه؛ وكان له اشتغال في العلم، ويستحضر مسائلَ جيدة، ويبحث مع العلماء والفقهاء،

ويلازم مشايخ القراءات ويقرأ عليهم دواماً. وكان يقتني الكتبَ النفيسة، ويعطي فيها الأثمانَ الزائدة عن ثمن المثل. وكان يحبّ مجالسة الفقهاء، ويكره اللهو والطرب، ينفر منهما بطبعه. وكان يتجنب المزاح وأهله، ولا يميل للتجمّل في الملبس، ويكره مَن يفعله في الباطن. وكانت أيامُه آمنة من عدم الفتن والتجاريد، ولشدّة حرمته. وخلّف من الأولاد الذكور واحداً، وهو ولدُه الملكُ المنصور عثمان، وأُمُّه أُمّ ولد رومية، وابنتين: الكبرى أُمها خوند مُغْل بنت القاضي ناصر الدين بن البارِزِي، وزوّجها السلطانُ لمملوكه أُزْبَك من طُطُخ الساقي، والصغرى بِكر، وأُمها أُمّ ولد جاركسية ماتت قديماً.

ذِكر مَن عاصره من الخلفاء:

أوّلهم أميرُ المؤمنين المعتضدُ بالله أبو الفتح داؤد، إلى أن توفي يوم الأحد رابع شهر ربيع الأول، سنة خمس وأربعين، حسبما يأتي ذكرُه في الوفيات هو وغيره؛ والمستكفي بالله سليمان، إلى أن مات في يوم الجمعة ثاني محرّم سنة خمس وخمسين؛ والقائمُ بأمر الله حمزة؛ والثلاثةُ إخوة.

ذكر قضاته بالديار المصرية:

الشافعية: الحافظُ شهابُ الدين ابن حجر، غيرَ مرة، إلى أن توفي وهو معزول في سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة؛ وقاضي القضاة علم الدين صالح البلقيني غيرَ مرة؛ ثم قاضي القضاة شمسُ الدين محمد القاياتي، إلى أن مات في أوائل سنة خمسين؛ ثم قاضي القضاة وليُّ الدين محمد السَّفطي، وعُزل وامتُحن؛ ثم قاضي القضاة شرفُ الدين يحيىٰ المناوي.

والحنفيةُ: شيخُ الإسلام سعدُ الدين سعد الديري، وَلِيَ في الدولة العزيزية ومات الملكُ الظاهر وهو قاضٍ.

والمالكيةُ: العلّامةُ قاضي القضاة شمسُ الدين محمد البساطيّ إلى أن مات في ليلة ثالث عشر شهر رمضان سنة اثنتين وأربعين؛ ثم قاضي القضاة بدر الدين

محمد بن التِّنِّسِي، إلى أن مات بالطاعون في أواخر يوم الأحد ثاني عشر صفر سنة ثلاث وخمسين؛ ثم قاضي القضاة وليّ الدين محمد السنباطي، ومات وهو قاضٍ.

الحنابلةُ: شيخ الإسلام محبُّ الدين أحمد البغدادي، إلى أن مات في يوم الأربعاء خامس عشر جمادى الأولى سنة أربع وأربعين؛ ثم قاضي القضاة بدرُ الدين محمد بن عبد المنعم البغدادي، ومات وهو قاضٍ رحمه الله.

ذِكر مَن وَلِيَ في أيامه الوظائف السَنِيَّة من الأمراء:

وظيفة الأتابكية بالديار المصرية: وَلِيَها من بعده الأتابك قرقماس الشعباني الناصري أياماً يسيرة دون نصف شهر؛ ثم من بعده الأتابكُ آقبغا التمرازي أشهراً، ونُقل إلى نيابة دمشق، ومات في سنة ثلاث وأربعين بدمشق؛ ثم الأتابك يشبك السُّودوني المعروف بالمُشِدّ، إلى أن مات في سنة تسع وأربعين؛ ثم الأتابكُ إينال العلائي الناصري.

وظيفة إمرة سلاح: وَلِيَها آقْبَغا التّمرازي أياماً يسيرة؛ ثم من بعده يَشْبَك السُّودوني المقدّم ذكره أشهراً؛ ثم تمراز القرمشي أمير سلاح، إلى أن توفي بالطاعون في صفر سنة ثلاث وخمسين؛ ثم جَرِباش الكَرِيمي المعروف بقاشق.

وظيفة إمرة مجلس: ولِيَها يَشْبَك السُّودوني أياماً؛ ثم جَرِباش الكريمي قاشق سنين؛ ثم تنم من عبد الرزاق المؤيدي.

وظيفة الأمير آخورية الكبرى: وَلِيَها تمراز القرمشي أشهراً؛ ثم الأميرُ قراخجا الحسني سنين إلى أن مات بطاعون سنة ثلاث وخمسين؛ ثم قاني باي الجاركسي.

وظيفة رأس نوبة النوب: وَلِيَها تمراز القرمشي؛ ثم من بعده قَرَاخُجَا الحسني؛ ثم تَمُرْباي التمربَغَاوي إلى أن مات بطاعون سنة ثلاث وخمسين، ثم أَسَنْبَغا الناصري الطياري.

وظيفة حجوبية الحجّاب: باشرها يَشْبَك السُّودوني أياماً؛ ثم من بعده تَغْري بَرْدي البَكْلَمُشي المؤيَّدي أشهراً؛ ثم تَنْبَك البَرْدبكي الظاهري برقوق سنين،

إلى أن نُفي في سنة أربع وخمسين إلى دمياط؛ ثم خشقدم مِن ناصر الدين المؤيدي.

وظيفة الدوادارية الكبرى: باشرها في أوائل دولته أُرْكَماس الظاهري أشهراً إلى أن نُفي إلى ثغر دمياط؛ ثم من بعده تَغري بَرْدي المؤيدي البكلمشي، إلى أن مات في سنة ست وأربعين، ثم إينال العلائي الناصري، إلى أن نُقل منها إلى الأتابكية؛ ثم قاني باي الجاركسي، إلى أن نقل إلى أمير آخورية؛ ثم دُولات باي المحمودي المؤيدي إلى أن قُبض عليه في دولة المنصور عثمان.

ذكر أعيان مباشري دولته:

كتابة السرّ: باشرها الصاحبُ بدرُ الدين بن نصر الله أشهراً؛ ثم المقرّ الكمالي ابنُ البارزي إلى أن مات في يوم الأحد سادس عشرين صفر سنة ست وخمسين؛ ثم القاضي محبّ الدين بن الأشقر.

وظيفة نظر الجيش: الزيني عبد الباسط بن خليل الدمشقي إلى أن مُسك وصُودِر؛ ثم القاضي محبّ الدين بن الأشقر؛ ثم القاضي بهاءُ الدين محمد بن حجي؛ ثم ابن الأشقر ثانياً، إلى أن نقل إلى كتابة السرّ؛ ثم عظيمُ الدولة الجمالي يوسف مضافاً إلى نظر الخاص وتدبير المملكة.

الوزارة: باشرها الصاحبُ كريمُ الدين عبد الكريم ابن كاتب المناخات سنين؛ ثم الصاحبُ أمينُ الدين إبراهيم بن الهَيْصَم أيضاً سنين؛ ثم الأميرُ تَغْري بَردي القَلاوي الظاهري جقمق.

وظيفة نظر الخاصّ: باشرها المقرّ الجمالي من الدولة الأشرفية بَرْسْباي إلى يوم تاريخه.

وظيفة الأستادّارية: باشرها جانِبَك الزيني عبدُ الباسط أشهراً؛ ثم الناصري محمدُ بن أبي الفرج نقيبُ الجيش؛ ثم الأمير قِيز طُوغان العلائي؛ ثم الزيني عبدُ الرحمن بن الكُوَيْز؛ ثم زين الدين يحيىٰ بن الأشقر المعروف بقريب ابن أبي الفرج.

ذكر أمرائه بمكّة والمدينة:

أمراء مكّة المشرّفة: الشريف بركات بن حسن بن عجلان إلى أن عُزل؛ ثم وَلِيَها أخوه الشريفُ علي بن حسن بن عجلان، إلى أن قُبض عليه وحُمِلَ إلى القاهرة؛ ثم وَلِيَها أخوه الشريف أبو القاسم بن حسن بن عجلان إلى أن عزل، وأُعيد الشريفُ بركات بن حسن بن عجلان.

أمراء المدينة: الشريفُ أميان إلى أن عُزل؛ ثم الشريفُ سليمان بن غُرَير إلى أن قُتل؛ ثم الشريفُ ضيغم إلى أن قُتل أيضاً؛ ثم أُعيد الشريفُ أميان ثانياً إلى أن توفي سنة خمسين وثمانمائة؛ ووَلِيَ بعدَه الشريف زبيري بن قيس.

ذكر نوّابه بالبلاد الشامية:

فبدمشق: الأميرُ إينال الجَكمي إلى أن عصى وقُتل؛ ثم الأتابك آقْبُغَا التِّمرازي إلى أن توفي سنة ثلاث وأربعين؛ ثم الأميرُ جُلْبان الأمير آخور.

وبحلب: الأمير حسين بن أحمد المدعو تَغْرِي بَرْمَش البَهَسْني التركماني إلى أن عصى وقُتل؛ ثم جُلْبَان الأمير آخور المقدّم ذكره؛ ثم قاني باي الحمزاوي إلى أن عُزل؛ ثم بَرْسْباي الناصري الحاجب؛ ثم قاني باي البهلوان إلى أن مات؛ ثم تَنَم من عبد الرزاق المؤيدي إلى أن عُزل؛ وأُعيد قاني باي الحمزاوي ثانياً.

وبطرابلس: الأميرُ جُلْبان الأمير آخور أشهراً، ونُقل إلى نيابة حلب؛ ثم قاني باي الحمزاوي؛ ثم بَرْسْباي الناصري الحاجب؛ ثم يَشْبَك الصُّوفي المؤيدي إلى أن عزل ونُفِي إلى دمياط؛ ثم يَشْبَك النوروزي.

وبحماة: قاني باي الحمزاوي أشهراً؛ ثم بَرْدبك العجمي الجَكَمي إلى أن عزل وحبس بالإسكندرية؛ ثم الأمير قاني باي الناصري البهلوان؛ ثم شاد بك الجكمي إلى أن عُزل وتوجّه إلى القُدس بطالاً؛ ثم الأمير يَشْبَك الصُّوفي المؤيدي؛ ثم الأمير تَنَم مِن عبد الرزاق المؤيَّدي؛ ثم بَيغُوت الأعرج المؤيَّدي؛ ثم سُودون الأبو بكري المؤيِّدي أتابكُ حلب إلى أن عُزل؛ ثم حاج إينال الجَكَمي.

وبصَفَد: الأميرُ إينال العلائي الناصري الذي تسلطن، إلى أن عُزل وقَدِمَ القاهرةَ أميرَ مائةٍ ومُقَدَّمَ ألفٍ بها؛ ثم قاني باي الناصري البَهْلوان أتابكُ دمشق؛ ثم بَيْغوتُ مِن صَفَر خُجَا الأعرج المؤيَّدي؛ ثم يَشْبَك الحمزاوي نائب غزة إلى أن تُوفي؛ ثم أُعيد بَيْغُوت ثانياً بعد أمور وقعت له.

وبغزة: طُوخ مازِي الناصري إلى أن مات؛ ثم طُوخ الأبوبكري المؤيَّدي إلى أن قُتل؛ ثم يَلْخُجا الساقي الناصري إلى أن مات؛ ثم حطط [الناصري فرج](١) إلى أن عُزل؛ ثم يَشْبَك الحمزاوي دَوَادار السلطان بحلب؛ ثم طُوغان العثماني إلى أن تُوفي؛ ثم خير بك النَّوْرُوزي إلى أن عُزل؛ ثم جانِبَك التاجي المؤيَّدي.

وبالكَرَك: الصاحبُ غرس الدين خليل بن شاهين الشَيْخي إلى أن عُزل؛ ثم آقْبَغَا مِن مامِش الناصري التركماني إلى أن عُزل وحبس؛ ثم مازِي الظاهري برقوق إلى أن عُزل؛ ثم حاج إينال الجَكَمي؛ ثم طوغان السيفي آقْبَرْدي المِنْقار.

ذكر زوجاته أيامَ سلطنته: أما قبل سلطنته فكثير جداً؛ وأولهم (!) في أيام سلطنته خَوَنْد مُغْل بنت البارِزِي، تزوّجها قبل سنة ثلاثين، وطلّقها في سنة اثنتين وخمسين؛ ثم زينب [بنت] جَرِبَاش الكَرِيمي قاشق، ومات عنها؛ ثم شاه زادة بنت ابن عثمان ملك الروم، وطلّقها في سنة أربع وخمسين؛ ثم نفيسة بنت ناصر الدين بك ابن دُلْغادِر؛ ماتت في سنة ثلاث وخمسين بالطاعون؛ ثم بنت حمزة بك بن ناصر الدين ابن دُلْغادِر؛ ثم بنت كرتباي الجاركسية، قَدِمَ بها أبوها من بلاد الجاركس، وأسلم على ما قيل، ثم عاد إلى بلاده؛ ثم بنت زين الدين عبد الباسط، ولم يُزل بكارتَها، تزوجها بعد موت أبيها في سنة خمس وخمسين وثمانمائة.

* * *

(١) زيادة عن الضوء اللامع.

السنة الأولى من سلطنة الملك [الظاهر] جقمق على مصر

وهي سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة.

على أن الملكَ العزيزَ يوسف بن الملك الأشرف بَرْسْباي حكم منها إلى تاسع عشر [شهر] ربيع الآخر، ثم حكم الملكُ الظاهرُ في باقيها، وهي أول سلطنته على مصر على كل حال.

وفيها، أعني سنة اثنتين وأربعين، توفي حافظُ الشام ومحدّثُه شمسُ الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مجاهد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن علي القيسي الدمشقي الشافعي المعروف بابن ناصر الدين، بدمشق، في ثامن عشر شهر ربيع الآخر، ومولدُه في محرّم سنة سبع وسبعين وسبعمائة. وسمع الكثير وطلب الحديث، ودأب وحصَّل وكتب وصنّف، وصار حافظَ دمشق ومحدّثَه إلى أن مات.

وتوفي الأميرُ صفيّ الدين جوهر بن عبد الله الجُلْبَاني، الحبشي الزِّمَام، المعروف باللالا، في يوم الأربعاء ثالث عشرين جمادى الأولى، عن نحو ستّين سنة تخميناً. وكان أصلُه من خُدّام الأمير [عمر بن][1] بَهادُرْ المشرف، وأنعم به على أُخته زوجة الأمير جُلْبَان الحاجب، فأعتقه جُلْبَان، ودام بخدمته حتى مات. وماتت سِتُّه، زوجةُ الأمير جُلْبَان الحاجب، فاتصل بعدهما بخدمة الملك الأشرف بَرْسْباي قبل سلطنته، ودام عندَه إلى أن تسلطن، فرقّاه وجعله لالاة ابنِه المقام الناصري محمد، ثم من بعده لالا ابنِه الملك العزيز يوسف، ثم ولّاه زِمَاماً، بعد موت الطَّوَاشي خُشْقَدَم الرومي الظاهري في جمادى الأولى سنة تسع وثلاثين وثمانمائة، فاستمر في وظيفته زِمَاماً، إلى أن تُوفي الملكُ الأشرف، ومَلكَ ولدُهُ الملك العزيز يوسف. ثم خُلع العزيزُ وتسلطن الملكُ الظاهرُ جَقْمَق، فأمسكه وهو مريض، وصادره وعزله، وولّى عوضَه زِمَاماً الطَّواشيَّ الروميَّ فيروزَ الساقي الجاركسي. فلم تطل أيامُ جَوْهر المذكور بعد ذلك، ومات. وكان من رؤساء

---

(١) زيادة عن الضوء اللامع وإنباء الغمر. وفي الأصول والسلوك: «الأمير بهادر المشرف».

الخُدّام حشمةً وعقلاً وديناً وكرماً؛ وهو صاحب المدرسة والدار بالمَصْنع بالقرب من قلعة الجبل.

وتوفي قاضي القضاة علاّمةُ عصره شمسُ الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان البساطي المالكي، قاضي قضاة الديار المصرية وعالِمُها، في ليلة الجمعة ثالث عشر شهر رمضان. ومولدُه في محرّم سنة ستّين وسبعمائة، ومات وقد انتهت إليه الرئاسةُ في المعقول والمنقول. وكان منشأه بالقاهرة، وبها تفقَّه، وطلب العلم، واشتغل على علماء عصره حتى برع في علوم كثيرة، وأفتى ودرَّس، وتصدَّى للاشتغال سنين كثيرة، وبه تخرَّج غالبُ علماء عصره، من سائر المذاهب. وأول ما وَلِيَه من الوظائف: تدريس المالكية بمدرسة جمال الدين الأسْتَادَّار، وناب في الحكم عن ابن عمّه قاضي القضاة جمال الدين البساطي سنين، ثم استقلّ بالقضاء في الدولة المؤيّدية شيخ، بعد جمال الدين البساطي المذكور، فباشر القضاءَ نحو عشرين سنة، إلى أن مات قاضياً.

وفيه قُتل الأميرُ سيف الدين قَرْقَمَاس بن عبد الله الشعباني الناصري المعروف بأهرام ضاغ، بثغر الإسكندرية، حسبما يأتي ذكره. كان أصله من كتابيّة[١] الملك الظاهر برقوق، فيما أظن، ثم أخذه الملكُ الناصر [فرج] وأعتقه، وجعله خاصْكِيّاً. ثم صار دَوَاداراً في الدولة المؤيَّدية شَيْخ، من جملة الأجناد، إلى أن أمَّره الأميرُ طَطَر عشرةً؛ ثم صار أميرَ طبلخاناه ودواداراً ثانياً في أوائل الدولة الأشرفية، وأجلس النقباءَ على بابه، وحكم بين الناس - ولم يكن ذلك بعادة: أن يحكُم الدوادارُ الثاني بين الناس - ثم أنعم عليه الملكُ الأشرف بَرْسْباي بإمرةِ مائةٍ وتقدمةِ ألفٍ بالديار المصرية في سنة ست وعشرين، وتولّى الدواداريةَ الثانية بعده جانِبَك الخازندار الأشرفي. ثم وجّهه [الأشرف بَرْسْباي][٢] إلى مكة المشرّفة شريكاً لأميرها الشريف عِنَان بن مُغَامِس بن رُمَيْثَة الحَسَني، فأقام بمكة مدة، ثم عاد إلى القاهرة،

---

(١) الكتابيّة: هم مماليك الطباق. وسمّوا بالكتابية لأنهم كانوا يتعلمون فيه الكتابة. - راجع أيضاً فهرس المصطلحات: الطباق.

(٢) زيادة للتوضيح.

بعد أن أُعيد الشريفُ حسن بن عَجْلان إلى إمرة مكة؛ ومات حسن، وتولّى ابنُه الشريفُ بركات.

وقَدِمَ قَرقَمَاس المذكور إلى مصر، على إمرته، أميرَ مائةٍ ومقدّمَ ألفٍ. ودام على ذلك سنين، إلى أن استقر حاجبَ الحجّاب بالديار المصرية، بعد الأمير جَرِبَاش الكَريمي قاشق، بحكم انتقال جَرِبَاش إلى إمرة مجلس؛ فباشر الحجوبيّة بحرمة زائدة [وعظمة وبطش في الناس بحيث هابه كل أحد](١)، وصار يخلط في حكوماته ما بين ظلم وعدل، ولين وجبروت، إلى أن استقر في نيابة حلب بعد الأمير قَصْرُوه مِن تِمْراز الظاهري برقوق، بحكم انتقاله إلى نيابة دمشق بعد موت الأمير جَارْقُطْلُو، في حدود سنة سبع وثلاثين وثمانمائة، فباشر نيابةَ حلب مدة تزيد على السنة، وعُزل عنها، بعد أن أبدع في المفسدين بها، وأُشيع الخبر عنه بالخروج عن الطاعة.

وقَدِمَ إلى القاهرة على النُّجُب، بطلبٍ من السلطان، وخلع عليه باستقراره أميرَ سلاح، بعد الأمير جَقْمَق العلائي صاحب الترجمة، بحكم انتقال جَقْمَق للأتابكية، عوضاً عن إينال الجَكَمي، بحكم استقرار الجَكَمي في نيابة حلب عوضاً عن قَرْقَمَاس المذكور، فاستمر أميرَ سلاح مدة. وتجرّد إلى البلاد الشامية مقدّمَ العساكر، ومعه سبعة أمراء من مقدّمي الألوف، في سنة إحدى وأربعين؛ وقد تقدّم ذكرُ ذلك كله في ترجمة الملك الأشرف وغيره من هذا الكتاب؛ وإنما نذكره هنا ثانياً لينتظم سياق الكلام مع سياقه.

ومات الملكُ الأشرف في غيبته، ثم قَدِمَ القاهرةَ مع رفقته، وقد ترشّح الأتابكُ جَقْمَق للسلطنة، وسكن بابَ السلسلة من الإسطبل السلطاني، وكان حريصاً على حبّ الرئاسة. فلما رأى أمرَ جَقْمَق قد استفحل كاد يهلك في الباطن، وما أمكنه إلّا الموافقة، وقام معه حتى تسلطن، ثم وثب عليه حسبما تقدّم ذكره، بعد أربعة عشر يوماً من سلطنة الملك الظاهر جَقْمَق، وقاتَلَه، وانكسر بعد أمور

(١) زيادة عن الضوء اللامع.

حكيناها في أصل هذه الترجمة، وهرب ثم ظهر وأُمسك وحُبِس بسجن الإسكندرية، إلى أن ضُربت رقبته بالشرع في ثغر الإسكندرية، في يوم الاثنين ثاني عشر جمادى الآخرة.

وكان قرقماس أميراً ضخماً شجاعاً مِقداماً عارفاً بفنون الفروسية، وعنده مشاركة بحسب الحال؛ إلّا أنه كان فيه ظُلم وعَسف وجَبَروت. وكان مع شجاعته وإقدامه لا يَنتُج أمرُه في الحروب، لعدم موافقة رجليه ليديه؛ فإنه كان إذا دخل الحرب، يبطل عمل رجليه في تمشية الفَرس، لشغله بيديه، وهو عيب كبير في الفارس؛ وشُهِرَ ذلك عن جماعة من الأقدمين من فرسان الملوك، مثل الأتابك إينال اليوسفي، ويونس بَلْطا نائب طرابلس وغيرهما ـ انتهى.

ومعنى «أهرام ضاغ» أي جبل الأهرام؛ سُمّي بذلك قديماً لتكبّره وتعاظمه.

وتوفي القاضي عَلَمُ الدين أحمد بن تاج الدين محمد بن علم الدين محمد بن كمال الدين محمد بن قاضي القضاة علم الدين محمد بن أبي بكر بن عيسى بن بدر الإخْنَائي المالكي، أحد فقهاء المالكية، ونوّاب الحكم بالقاهرة، في يوم الأربعاء خامس عشرين شهر رمضان؛ وكان مشكور السيرة عفيفاً عمّا يرمي به قضاة السوء.

وتوفي قاضي قُضاة دمشق المالكية محيي الدين يحيىٰ بن حسن بن محمد الحيحاني[1] المغربي في يوم الأربعاء حادي عشر ذي القعدة؛ وكان ديّناً عفيفاً حسن السيرة في أحكامه.

وتوفي السيد الشريف أحمد بن حسن بن عجلان، المكّي الحسني، بعدما فارق أخاه الشريفَ بركات بن حسن، وسار إلى اليمن، فمات بِزَبِيد.

وتُوفي الأتابكُ إينال بن عبد الله الجَكَمي نائبُ الشام قتيلاً بقلعة دمشق، في ليلة الاثنين ثاني عشرين ذي القعدة؛ وقد قدَّمنا من ذكره في أول ترجمة الملك الظاهر هذا وغيره نبذة كبيرة، تُعْرَف منها أحواله؛ غير أننا نذكر الآن سببَ ترقّيه لا

(١) في الأصل: «الحبحابي». والتصحيح عن الضوء اللامع. ونسبته إلى حيحانة بلدة بالمغرب.

غير: فأصلُه من مماليك الأمير جَكَم مِن عَوَض الظاهري المتغلِّب على حلب، وخدمَ من بعدِ أستاذِه المذكور عند الأمير سُودون [الظاهري برقوق، ويُعرف بسودون](١) بقجَة، وصار خازندارَه. ثم اتصل بخدمة الملك المؤيَّد شيخ؛ فلما تسلطن شيخُ، جعله ساقياً، ثم أمسكه وعاقبه عقوبةً شديدة لأمر أوجب ذلك؛ ثم نفاه إلى البلاد الشامية، ثم أعاده بعد وقعة قاني باي نائب الشام، وأنعم عليه بإمرة عشرة، ثم جعله أميرَ طَبْلَخَانَاه وشادَّ الشراب خَانَاه. ثم أنعم عليه الأمير طَطَر بإمرة مائةٍ وتقدمةِ ألفٍ بالديار المصرية، وولّاه رأسَ نَوْبة النُّوَب، ثم نائبَ حلب، ثم عزله بعد شهر وأيام وجعله أميرَ سلاح. ثم قُبض عليه مع مَن قُبض عليه من الأمراء المؤيَّدية وغيرِهم، كلّ ذلك في مدّة يسيرة؛ وحُبس مدةَ سنين إلى أن أطلقه الملكُ الأشرف بَرْسْباي بشفاعة الناصري محمد بن مَنْجَك، ووجَّهه إلى الحجاز. ثم عاد وأقام بالقدس بَطالاً، إلى أن طلبه الملكُ الأشرف إلى مصر، وأنعم عليه بإمرةِ مائةٍ وتقدمةِ ألف، عوضاً عن الأتابك بيبغا المظفري بحكم القبض عليه، وذلك في سنة سبع وعشرين؛ ثم جعله أميرَ مجلسٍ سنين، ثم نقله إلى إمرةِ سلاحٍ بعد موت إينال النَّوْرُوزي، ثم جعله أتابكاً بعد سُودون مِن عبد الرحمن، وهو على إقطاعه، ولم ينعم السلطان عليه بإقطاع الأتابكية.

فدام على ذلك مدةً طويلةً، إلى أن خَلع السلطانُ عليه باستقراره في نيابة حلب بعد عزل قَرْقَمَاس الشعباني، واستقر عوضَه في الأتابكية الأميرُ جَقْمَق العلائي؛ فلم تطل مدّتُه في نيابة حلب، ونُقل منها بعد أشهر إلى نيابة الشام بعد موت قَصْروه من تِمْراز، فدام في نيابة دمشق إلى أن تسلطن الملكُ الظاهر جَقْمَق، فبايع له أولاً، ولبس خِلعتَه وباس الأرض، ثم عصى بعد ذلك، ووقع ما حكيناه من أمره في ترجمة الملك الظاهر جَقْمَق من قتاله لعسكر السلطان وهزيمته والقبض عليه وقتْله.

وكان إينالُ أميراً جليلاً شجاعاً مِقداماً عاقلاً سيُوساً حشماً وقوراً كريماً رئيساً،

---

(١) زيادة عن الضوء اللامع.

كامل الأدوات كثير الأدب، مليح الشكل معتدل القدّ لِلسِّمن أقرب، نادرة في أبناء جنسه، قلَّ أن ترى العيون مثله، عفا الله عنه. ومات وسنّه نحو الخمسين [سنة] تخميناً.

وتوفي الأميرُ سيفُ الدين يخشباي بن عبد الله المؤيَّدي [شيخ] ثم الأشرفي [بَرْسْباي]، الأميرُ آخور الثاني، قتيلاً بسيف الشرع. ضُربت رقبته بثغر الإسكندرية. وقد تقدّم ذكرُ سبب قتله في أوائل ترجمة الملك الظاهر هذا. وقُتل يخشباي وسنّه نحو الثلاثين سنة تخميناً. وكان شابّاً طويلاً جميلاً، مليح الشكل عاقلاً، عارفاً بأنواع الفروسية، وعنده فهم وذوق ومعرفة ومحاضرة حسنة، وتذاكر بالفقه وغيره بحسب الحال؛ عوَّض الله شبابَه الجنةَ بمنّه وكرمه.

وتوفي الأميرُ حسين بن أحمد المدعو تَغري بَرْمَشْ نائبُ حلب مضروبَ الرقبةِ بحلب، في يوم الأحد سابع عشر ذي الحجة؛ وأصلُ تَغْرِي بَرْمَش هذا من مدينة بَهَسْنَا[1]. وجَفَل هو وأخوه حسن ـ وكان حسنُ الأكبرَ ـ من بَهَسْنَا في كائنة تيمور لنك، وقَدِمَا بعد ذلك بسنين إلى الديار المصرية، فخدم أخوه حسن تَبَعاً عند الأمير قَرَا سُنْقُر الظاهري، وجلس حسين هذا عند بعض الخيّاطين بالمَصْنَع من تحت القلعة. ثم انتقل أيضاً إلى خدمة قَرَا سُنْقُر لجمال صورته؛ ثم انتقل من عند قَرَا سُنْقُر إلى الأمير إينال حَطَب [العلائي][2]، وصار عنده من جملة مماليكه الكُتَّابية، إلى أن مات إينال حطب، فأخذه دَوَادارُه الأميرُ فارس، وأتى به إلى الوالد.

وكان الوالدُ من جملة أوصياء إينال حَطَب، فأخذه الوالدُ وجعله إنْياً[3] لمملوكه شاهين أمير آخور، فجعله شاهينُ في الطبقة، وسمَّاه تَغْري بَرْمَش؛ ثم أخرج له الوالد خيلاً وقماشاً مع جملة مماليك أُخَر، وجعله جَمَدَاراً؛ فدام على ذلك إلى أن

---

(١) من الأعمال الحلبية.

(٢) زيادة عن الضوء اللامع.

(٣) الإني: هو الخشداش الصغير. ـ راجع فهرس المصطلحات.

تولّى الوالدُ نيابةَ دمشق التي مات فيها، فأفسد تَغْري بَرْمَش هذا من مماليك الوالد مملوكين، وأخذهما وهرب إلى طَرَابُلُس: أحدهما في قيد الحياة إلى يومنا هذا من جملة المماليك السلطانية، واسمه أيضاً تَغْرِي بَرْمَش الصغير. وبلغ الوالدَ خَبَرُهما، فأمر أن يُكتَب إلى الأمير جانِم نائب طرابلس بالقبض عليهم الثلاثة وإرسالهم إليه في الحديد، فخشي أغَاتُهُم شاهين الأمير آخور عليهم من الضرب والإخراق، فسأل الوالدَ أنه يسافر إليهم ويقبض عليهم ويأتي بهم، فرسم له الوالدُ بذلك.

وتوجّه شاهينُ إليهم، فوجدهم بقاعة في طرابلس، فنزل عن فرسه ودخل عليهم استخفافاً بهم؛ فحالَ ما وقع بَصَرُهم عليه، هرب تَغْري بَرْمَش الصغير ويوسف، ووثب تَغْري بَرْمَش ليهرب، فلحقه شاهين، فجذب سيفه وضرب شاهينَ به فقتله، ثم هرب. فكتب الأميرُ جانم نائبُ طرابلس محضراً بواقعة الحال، وأرسله إلى الوالد، ومع المحضر يوسف وتَغْرِي بَرْمَش الصغير؛ وهرب تَغْرِي بَرْمَش هذا، فرسم الوالدُ بتحصيل تَغْرِي بَرْمَش المذكور وشنقه. وكان الوالد مشغولاً بمرض موته، ومات بعد مدة يسيرة.

وخدم تَغْري بَرْمَش هذا عند الأمير طوخ [الظاهري برقوق، ويقال له طُوخ][1] بطيخ، نائب حلب، وترقّى عنده، وصار رأسَ نوبته. ثم خدم بعده عند جَقْمَق الأَرْغُون شاوِي الدَّوَادار، وصار أيضاً رأسَ نَوْبَتِه ثم دَوَادارَه في آخر أيامه؛ وكان لجقمق دوادارٌ آخر يسمى إينال الحمار، فكان جَقْمَق يقول «دَوَادارِيّ[2]: الواحد حمار والآخر ثور».

ثم مشى حال تَغْرِي بَرْمَش بعدُ عند أبناء جنسه[3]؛ وسبُبه أنه لمّا انكسر أُستاذُه جَقْمَق في دمشق، وتوجَّه إلى بعض قلاع الشام، وتحصّن بها، إلى أن أُنزل منها وقُتل بدسيسة من تَغْرِي بَرْمَش هذا، فأنعم عليه طَطَر بإمرةِ عشرةٍ بالقاهرة؛ ثم جعله

---

(١) زيادة عن الضوء اللامع.

(٢) كذا في الأصول. ولعلّ الصواب: «دواداراي» بالمثنى.

(٣) أي التركمان.

الملكُ الأشرف أميرَ طبلخاناه، ونائبَ قلعةِ الجبل، ثم أنعم عليه بتقدمةِ ألفٍ في سنة سبع وعشرين، ثم جعله نائبَ غَيْبَتِه بديارِ مصر لما سافر لآمِد، ثم جعله أميرَ آخور كبيراً بعد الأمير جَقْمَق العلائي، بحكم انتقال جَقْمَق إلى إمرة سلاح؛ ثم ولّاه نيابةَ حلب بعد عزْل قَرْقَماس الشعباني عنها، فدام بحلب إلى أن تسلطن الملكُ الظاهر جَقْمَق، فبايعه ولبس خِلعتَه، ثم عصى بعد ذلك ـ ولَيتَ الخمولَ عصى أولاً قبل مبايعته، فكان يصير له عُذر في الجملة! ـ ثم وقع له بعد عصيانه ما حكيناه في ترجمة الملك الظاهر جَقْمَق، إلى أن انكسر وأُمسك، ثم ضُربت رقبتُه تحت قلعة حلب، وسنُّه نحو الخمسين.

وكان تَغْرِي بَرْمَش رجلاً طوالاً مليح الشكل عاقلاً مدبّراً كثير الدهاء والمكر؛ وكان يجيد رميَ النشاب ولعب الكرة؛ وكان عارفاً بأمور دنياه وأمر معيشته، متجمّلاً في مركبه وملبسه ومماليكه، إلّا أنه كان بخيلاً شحيحاً حريصاً على جمع المال، قليلَ الدين لا يحفظ مسألة تامّة في دينه، مع قلّة فهم وذوق، وغلاظة طبع، على قاعدة أوباش التراكمين؛ وكان عارياً من سائر العلوم والفنون، غيرَ ما ذكرنا؛ لم أره منذ عمري مسك كتاباً بيده ليقرأه؛ هذا مع الجبن وعدم الثبات في الحروب، وقلّة الرأي في تنفيذ العساكر؛ وما وقع له مع ناصر الدين بك بن دُلْغَادِر في نيابته على حلب من الحروب والانتصار عليه، كل ذلك كان بكثرة الشوكة وسَعْد الملكِ الأشرف بَرْسْباي.

وأما لمّا صار الأمر له، لم يفلح في واقعة من الوقائع، بل صار كلما دبّر أمراً انعكس عليه؛ فإنه كان ظِنّيناً برأي نفسِه، وليس له اطّلاع في أحوال السلف بالكلية، ولم يستشر أحداً في أمره؛ فحينئذ خمل وأخمل وتمزقت جميع عساكره وخانه حتى مماليكُه مشترواتُه؛ ومع هذا كله هو عند القوم في رتبة عليا من العقل والمعرفة والتدبير؛ وعذرهم أنه لو لم يكن كذلك ما صار أميراً ـ انتهى.

ومات تَغْرِي بَرْمَش، والمَحْضَر المُكْتَتَب عليه بسبب قتله لشاهين عندنا. وقد طلبه منّي غيرَ مرة وأنا أُسَوِّف به من وقت إلى وقت، وأُبدي له أعذاراً غير مقبولة، وأُوَرّي له في كلامي، فيمشي ذلك ويطيب خاطره، إلى أن عصى، فطلبني الملكُ

الظاهر جَقْمَق، وسألني عن المحضر، فقلت: «عندي»، فكاد يطير فرحاً. ثم أفحش أمر تَغْرِي بَرْمَش في الحَلَبِيِّين حتى أوجب ذلك قتلَه بغير محضر ولا حكم حاكم.

وتوفي الملكُ الظاهر هِزَبْر الدين عبد الله بن الملك الأشرف إسماعيل بن علي بن داؤد بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول، التركماني الأصل، اليمني، صاحب بلاد اليمن، في يوم الخميس سلخ شهر رجب؛ وكانت مدة ملكه اثنتي عشرة سنة؛ وفي أيامه ضعفت مملكة اليمن، لاستيلاء العربان على بلادها وأموالها؛ وأُقيم بعدَه في مُلك اليمن الملكُ الأشرف إسماعيل وله من العمر نحو العشرين سنة، فأساء السيرة، وسفك الدماء وقتل الأمير برقوقاً التركي القائم بدولتهم، في عدّة أُخَر من الأتراك، ووقع له أمور كثيرة، ليس لذكرها هنا فائدة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمسة أذرع وثلاثة وعشرون أصبعاً. مبلغ الزيادة: ثمانية عشر ذراعاً وعشرون أصبعاً.

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك الظاهر جقمق على مصر

وهي سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة.

وفيها توفي الأمير علاءُ الدين آقْبَغَا بن عبد الله من مامِش الناصري [فرج] التركماني، نائب الكَرَك، بعد أن عُزل عنها وحبس بقلعتها في أواخر هذه السنة، وله نحو ستين سنة من العمر؛ ولم يشتهر في عمره بدين ولا شجاعة ولا كرم.

وتوفي الأتابكُ آقْبَغَا التِّمْرازِي نائب الشام بها فُجاءة، وهو على ظهر فرسه، في صبيحة يوم السبت سادس عشر شهر ربيع الآخر، وسنُّه سبعون سنة تخميناً. وكان خبر موته أنه ركب من دار السعادة بعد أذان الفَجْر من اليوم المذكور، وسار إلى الميدان، ولعب به الرمحَ، وغيّر فيه عدّةَ خيول، ثم ساق البُرْجاس[1] وغيّر فيه أيضاً

(١) سوق البرجاس: من أنواع الرياضة. وهو أن يقوم المتبارون وهم على ظهر خيولهم برمي غرض في الهواء مثبت على رأس رمح أو نحوه.

أفراساً كثيرة، ثم ضرب الكرةَ مع الأمراء على عدّة خيول يُغَيِّرها من تحته، إلى أن انتهى وليس عليه ما يَردُّ البَرْدَ عنه؛ وسار إلى باب الميدان ليخرج منه، ومماليكُه مشاةٌ بين يديه، فقال لرأس نوبته: «مُرْ المماليك ليأكلوا السِّماط»، ثم مال عن فرسه، فاعتنقه رأس نوبته المذكور، وحمله وأنزله إلى قاعة عند باب الميدان، فمات من وقته، ولم يتكلم كلمة واحدة غير ما ذكرناه.

وكان أصله من مماليك الأمير تِمْرَاز الناصري نائبِ السلطنة في دولة الناصر فرج، ونَسَبَهُ تِمْرازُ أستاذُه بالناصري، لأستاذه خواجا ناصرِ الدين، وقد تقدّم ذكره في الدولة الناصرية. وخَدَمَ آقْبَغا هذا بعد موت أُستاذه(١) عند الأتابك دِمِرْدَاش المحمدي، ثم اتصل بخدمة الملك المؤيَّد شيخ، فرقّاه المؤيَّدُ لسيادةٍ كانت له في لعب الرمح، وأنعم عليه بإمرةِ عشرةٍ، ثم طَبْلَخَاناه، وجعله أميرَ آخورٍ ثانياً؛ ثم أنعم عليه الأمير طَطَر بإمرةِ مائةٍ وتقدمة ألفٍ، وجعله من الأمراء المقيمين بالقاهرة، لمّا سافر بالملك المظفر أحمد إلى دمشق؛ ثم صار أميرَ مجلسٍ في أوائل الدولة الأشرفية بَرْسْباي؛ ثم وَلِيَ نيابةَ الإسكندرية بعد أَسَنْدَمُر النُّوري الظاهري [برقوق]، مضافاً على تقدمته؛ ثم عُزل بعد سنين وأُعيد إلى إمرةِ مجلسٍ، إلى أن جعله الملكُ الظاهر جَقْمَق أميرَ سلاح، ثم أتابكَ العساكرِ بالديار المصرية، كلاهما بعد قَرْقَمَاس الشعباني، فباشر الأتابكيةَ أشهراً، وتولى نيابةَ دمشق لمّا عصى الأتابكُ إينال الجَكَمي؛ وقد تقدّم ذكر ذلك كله في أول ترجمة الملك الظاهر جقمق. هذا ولم تطل مدة نيابته على دمشق سوى أشهر، ومات.

وكان عارفاً بأنواع الفروسية كلعب الرمح وضرب الكرة وسَوْق المحمل والبُرْجَاس، رأساً في ذلك جميعه، إمامَ عصره في ركوب الخيل ومعرفة تقليبها في أنواع الملاعيب المذكورة، انتهت إليه الرئاسةُ في ذلك بلا مدافعة ـ لا أقول ذلك كونَه صهري، بل أقوله على الإنصاف ـ مع دين وعفّة عن المنكرات والفروج، وقيامِ ليلٍ وزيارة الصالحين دواماً؛ غير أنه كان مِسِّيكاً، وعنده حِدَّةُ مِزاج، ولم تكن

---

(١) في الأصل: «بعد موته» والتعديل للتوضيح.

شجاعته في الحروب بقدر معرفته لأنواع الملاعيب والفروسية، رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين طُوخ بن عبد الله الناصري المعروف بطوخ مازِي، نائب غزة، في ليلة السبت حادي شهر رجب. وأصله من مماليك الملك الناصر فرج؛ وتأمَّر - بعد موت الملكِ المؤيَّدِ شيخٍ - عشرةً؛ وصار في الدولة الأشرفية بَرْسْباي من جملة رؤوس النُّوَب؛ ثم ترقى بعد سنين إلى إمرة طبلخاناه وصار رأسَ نوبة ثانياً؛ ثم وَلِيَ نيابةَ غزّة بعد موت آقْبَرْدي القَجْمَاسي في الدولة العزيزية يوسف، إلى أن مات. وكان متوسطَ السيرة، منهمكاً في اللذّات، عارياً من كل علم وفن، عفا الله عنه.

وتوفي الأمير سيف الدين يَلْبَغَا بن عبد الله البهائي الظاهري نائبُ الإسكندرية بها، في يوم الخميس ثالث عشر جمادى الأولى، وهو في عشر السبعين. وكان أصله من مماليك الملك الظاهر برقوق، وكان يُعرف بيَلْبَغَا قَرَاجا، لأنه كان أسمرَ اللون تركي الجنس. وكان تأمَّر قديماً إمرةَ عشرةٍ، ودام على ذلك سنين، إلى أن أنعم عليه الملكُ الظاهر جَقْمَق بإمرة طبلخاناه والحجوبية الثانية، عوضاً عن أَسَنْبَغَا الطَّيَّاري، ثم ولّاه نيابةَ الإسكندرية، إلى أن مات بها. وكان من خيار الناس عقلاً وديناً وسكوناً وعفّةً، مع مشاركة في الفقه وغيره، ويكتب الخطّ المنسوب؛ وكان فصيحاً باللغة العربية، حلوَ الكلام جيدَ المحاضرة، يُذاكر بالأيام السالفة مذاكرةً حسنةً لذيذةً؛ وهو أحد مَن أدركناه من النوادر في معناه، رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين قطج بن عبد الله من تِمْراز الظاهري، بَطّالاً بالقاهرة، في يوم الاثنين ثامن عشرين شهر رمضان. وكان أصله من أصاغر مماليك الظاهر برقوق؛ وتأمَّر أيضاً - بعد موت الملك المؤيَّد شيخ - عشرةً؛ ثم ترقّى إلى أن صار في الدولة الأشرفية أميرَ مائةٍ ومُقَدَّمَ ألفٍ؛ ودام على ذلك سنين، إلى أن أمسكه الأشرفُ وسجنه بثغر الإسكندرية مدة؛ ثم أفرج عنه وأنعم عليه بإمرةِ مائةٍ وتقدمةِ ألفٍ بحلب؛ ثم نقله إلى أُتابكيَّة حلب، بعد نقل قاني باي البهلوان إلى أُتابكية دمشق، بحكم وفاة تَغْرِي بَرْدِي المحمودي بآمِد، فدام على ذلك سنين، إلى أن تسلطن الملكُ الظاهر

جَقْمَق، فقَدِمَ القاهرة، واستعفى من أتابكية حلب، فأُعفي؛ يريد بذلك أن يكون من جملة أمراء مصر؛ فلم يكترث الملكُ الظاهر بأَمره، ودام بَطّالاً إلى أن مات.

وكان يَتَمَفْقَر في حياته ويطلب من الأمراء، فلمّا مات، ظهر له مال كبير، فأخذه مَن يستحقّه. ولله دَرُّ أبي الطيب المتنبي فيما قال في هذا المعنى: [الطويل]

ومَن يُنفق الساعاتِ في جمع ماله مخافةَ فَقْرٍ فالذي فَعَل الفقرُ

وتوفي الأمير سيف الدين سُودون الظاهري المغربي أحدُ أمراء العشرات والحجّاب، ثم نائبُ ثغر دِمْياط، بَطَّالاً بالقدس؛ وكان أيضاً من مماليك الملكِ الظاهر برقوق، وتأمَّر عشرةً؛ وصار من جملة الحجّاب في الدولة الأشرفية بَرْسْباي؛ ثم وَلِيَ نظرَ القدسِ في بعض الأحيان، ثم وَلِيَ نيابةَ دِمْياط، إلى أن أمسكه الملكُ الظاهر وحبسه مدة؛ ثم أخرجه إلى القدس بَطّالاً، إلى أن مات.

وكان ديِّناً خيِّراً عفيفاً عن القاذورات، عارفاً بأنواع الفروسية باجتهاده، فكان خطأه فيه أكثر من صوابه. وكان يتفقَّه، ويكثر من الاشتغال دائماً، لا سيما لمّا اشتغل في النحو فضيّع فيه زمانه، ولم يحصل على طائل، لقصر فهمه وعدم تصوّره. وكان يلحّ في المسائل الفقهية ويبحث فيها أشهراً، ولا يرضى إلّا بجواب سمعه قديماً من كائن من كان؛ وكان هذا سبب نفيه، فإنه بحث مرة مع الأمير بَكْتَمُر السعدي بحثاً، فأجابه بكتمر بالصواب، فلم يرضَ بذلك سُودون هذا، وألحّ في السؤال على عادته، فنهره الملكُ الظاهرُ جَقْمَق، وهو يومَ ذاك أمير آخور. وقال له: «أنت حمار!»، واحتدّ عليه، فقال سُودون: العلمُ ليس هو بالإمرة وإنما هو بالأعلم». فحنق الملكُ الظاهرُ منه أكثرَ وأكثرَ، وانفضّ المجلس.

وكان فيه أنواع ظريفة في حكمه بين الناس، منها أنه يتحقّق في عقله أن الحقَّ لا يزال مع الضعيف من الناس، وأن القويَّ لا يزال يجبر الضعيف؛ فصار كلما دخل إليه خصمان فينظر إليهما، فيكون أحد الأخصام جندياً والآخر فلّاحاً، والحقُّ مع الجندي، فلا يزال سُودون يميل مع الفلاح ويقوِّي كلامَه وحجّته، ويوهي كلامَ الجندي ودعواه، حتى يسأل الجنديُّ في المصالحة، أو يأخذ فلّاحَه ويذهب، إن كان

له شوكة؛ هذا بعد أن يوبّخ الجنديَّ ويعظه ويحذّره عقوبةَ الله عزّ وجلّ، ويذكر لـه أفعال أبناء جنسـه من المماليـك. وكان عنـده كثرةُ كـلام مع نشـوفة، ولهـذا سُمّي بالمغربي. فلما تكرر منه ذلك وعرف الناس طبعه، ترامى الضعفاءُ عليه من الأماكن البعيدة، فانتفع به أُناس وتضرّر به آخرون؛ على أنه كان غالب اجتهاده في خلاص الحق على قدر ما تصل قدرته إليه، رحمه الله تعالى.

وتـوفي قاضي قضـاة حلب علاءُ الـدين علي بن محمد بن سعـد بن محمد بن علي بن عثمان الحلبي الشافعي، قاضي حلب، وعالِمُهـا ومؤرّخها، المعـروف بابن خطيب الناصرية[١]، في ليلة الثلاثاء تاسع ذي القعدة، بحلب. ومولده في سنة أربع وسبعين وسبعمائة؛ وكان إماماً عالمـاً بارعـاً في الفقه والأصـول والعربيـة والحديث والتفسير، وأفتى ودرّس بحلب سنين، وتولى قضاءها، وقَدِمَ القاهـرةَ غير مـرة. وله مُصَنَّفات منها: كتابُه المسمى بالمنتخب[٢] في تاريـخ حلب، ذَيَّله على تاريـخ ابن العديم، لكنه لم يسلك فيه ما شرطه في الاقتداء بابن العديم، وسكت عن خلائق من أعيان العصر ممّن ورد إلى حلب، حتى قال بعض الفضلاء: «هـذا ذيلٌ قصيـر إلى الركبة».

وكان، سامحه الله، مع فضله وعلمه، يتساهل في تناول معالمه[٣] في الأوقاف بشرط الواقف وبغير شرط الـواقف، وكان لـه وظائف ومبـاشرة في جـامع[٤] الـوالد بحلب؛ فكان يأخذ استحقاقه واستحقاق غيره؛ وكان لـه طُولـةُ روحٍ واحتمالٌ زائـد

---

(١) المراد بذلك المدرسة الناصرية بالقاهرة المنسوبة إلى الناصر محمد بن قلاوون. وهذه المؤسسة بدأ بنـاءها العـادل كتبغا وأتمّهـا النـاصر سنـة ٧٠٣ هـ. (انـظر خـطط المقـريـزي: ٣٨٢/٢؛ حسن المحـاضرة: ١٩٠/٢).

(٢) هو «الدرّ المنتخب في تاريخ حلب» وهو ذيل على «بغية الطلب في تاريخ حلب» لابن العديم. والـدرّ المنتخب كتاب تراجم مرتّب على الحروف. وهناك كتاب آخر يعرف باسم «الدرّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب» منسوب لابن الشحنة المتوفى سنة ٨٩٠ هـ.

(٣) في بعض النسخ: «معاليمه». والمراد بذلك رواتبه الشهرية؛ جمع معلوم.

(٤) هو جامع تغري بردي نائب حلب ثم نائب دمشق والد المؤلّف. وكان يقع بالقرب من الأسفريس وحارة التركمان. بناه سنة ٧٩٦ هـ، وكان قد أسّسه ابن طومان. (الدرّ المنتخب: ٧٣).

لسماع المكروه، بسبب ذلك، وهو على ما هو عليه، ولسانُ حاله يقول: «لا بأس بالذلّ في تحصيل المال». وكان يتولى القضاءَ بالبَذْل، ويخدم أرباب الدولة بأموال كثيرة. وملخّص الكلام أنه كان عالماً غيرَ مشكور السِّيرة، وكان به صمم خفيف.

وتوفي قاضي المدينة النبوية جمالُ الدين محمد بن أحمد بن محمد بن محمود بن إبراهيم بن أحمد الكازَروني الأصل المدني المولد والمنشأ والوفاة، الشافعي، في يوم الأربعاء عاشر ذي القعدة، ودُفن بالبَقِيع؛ ومولدُه سنة سبع وخمسين وسبعمائة. وكان بارعاً في الفقه وله مشاركة في غيره، وتولّى قضاءَ المدينة في بعض الأحيان، ثم ترك ذلك ولزم العلم إلى أن مات.

وتوفي مجدُ الدين ماجد بن النَّحّال الأسلمي القبطي كاتبُ المماليك السلطانية، في ليلة السبت سادس ذي الحجة. وكان أصله من نصارى مصر القديمة، وخدم في عدّة جهات وهو على دين النصرانية، ودام على ذلك إلى أن أكرهه الأميرُ نَوْرُوز الحافظي على الإسلام، فأظهر الإسلامَ وأبقى جميعَ ما عنده من النسوة والخدم على دين النصرانية. وهو والد فرج بن النحّال وزير زماننا هذا وأستادّاره، ثم قَدِمَ ماجدُ عند الأمير جَقْمَق الدَّوَادار، ثم ترقّى إلى أن وَلِيَ كتابةَ المماليك السلطانية سنين، إلى أن مات. وكان فيه مروءة وخدمة لأصحابه، وأما غيرُ ذلك فالسكاتُ أجمل. وما أظرف ما قال الشيخُ تقيّ الدين المقريزي رحمه الله، لمّا ذكر وفاته بعد كلام طويل، إلى أن قال: «وكان لا دينَ ولا دنيا».

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربعة أذرع وعشرة أصابع؛ مبلغ الزيادة: عشرون[١] ذراعاً وأحد عشر إصبعاً.

* * *

---

(١) هذا المستوى من ارتفاع النيل لا يعتبر خطراً في هذه الفترة التي يؤرّخ لها المؤلّف أي منتصف القرن التاسع الهجري. إذ مع مرور الزمن كان المستوى اللازم لريّ المزروعات يزداد تدريجياً، وذلك لعدة أسباب أهمها: ارتفاع سطح الأرض عاماً بعد عام نتيجة الترسيب السنوي للطمي الذي يحمله النيل، =

السنة الثالثة من سلطنة الملك الظاهر جقمق على مصر

وهي سنة أربع وأربعين وثمانمائة.

فيها توفي الأميرُ ناصر الدين محمد ابن الأمير صارم الدين إبراهيم ابن الأمير الوزير مَنْجَك اليوسفي بدمشق، في يوم الأحد خامس عشر شهر ربيع الأول، وهو في عشر السبعين. وكان مولدُه بدمشق، وأُعطي بها إمرةً في دولة الملك المؤيَّد شيخ، وحَظِي عنده إلى الغاية، ثم صار على منزلته في الرِّفعة وأعظمَ عند الملك الأشرفِ بَرْسْباي، حتى إنه كان يجلس فوق أميرِ سلاحٍ. وكان إذا حضر مجلسَ السلطان لا يتكلم السلطانُ مع غيره إلّا لحاجة، إجلالاً له. وكان يقدم القاهرةَ في كل سنة مرةً في مبادىء فصل الشتاء، ثم يعود إلى دمشق في مبادىء فصل الصيف؛ وفي الجملة أنه كان محظوظاً من الملوك إلى الغاية من غير أمر يُوجِب ذلك. وقد حاضرتُه كثيراً في مبادىء عمري، فلم أجد له معرفة بعلم من العلوم، ولا فنّ من الفنون، غير لعب الكرة وأنواع الصيد بالجوارح فقط، والمال الكثير مع بخل وشُحٍّ زائد يُضرَب به

= وكذلك ارتفاع مجرى النيل بسبب الترسيب أيضاً. ومن جهة أخرى فإن إهمال الجسور وعدم العناية بالخلجان والتُّرَع يؤدي إلى نفس النتيجة.

وإذا تتبّعنا الارتفاع المطلوب عبر العصور نلاحظ أنه في زمن هيرودوت كان الارتفاع المطلوب ١٤ أو ١٥ ذراعاً، وكان قبل ذلك بسبعمائة عام يكفي لريّ البلاد ثمانية أذرع، في حين أن هذا القدر كان يسبّب القحط في عهد سترابون. ويذكر القضاعي أنه عند الفتح العربي لمصر كان الارتفاع المناسب للفيضان حتى تخصب الأرض وتكفي أهلها سنتين هو ١٦ ذراعاً. وبعد الفتح بثلاثة قرون يذكر المسعودي أن هذا القدر، أي ١٦ ذراعاً، يكفي الناس ولكنه يترك ربع الأرض ظامئة، وأن الزيادة النافعة هي ١٧ ذراعاً، في حين أن زيادة ذراع آخر ضارّة لأنها تسبّب استبحار بعض الأراضي. وبعد ذلك بأقل من ثلاثة قرون أخرى نجد الأمر يستلزم بلوغ النيل ١٨ ذراعاً حتى يروي جميع الأراضي. وأصبحت الأرض في أوائل القرن التاسع الهجري لا تُروَى إلّا من الذراع العشرين. وفي ذلك يقول المقريزي: «وكنّا نعهد الماء إذا بلغ أصابع من عشرين ذراعاً فاض ماء النيل وغرّق الضياع والبساتين وفارت البلاليع، وها نحن في زمن كانت الحوادث بعد سنة ٨٠٦ هـ إذا بلغ الماء إصبعاً من عشرين لا يعمّ الأرض كلها لما قد فسد من الجسور». وفي النصف الثاني من القرن العاشر نجد قاضي المنزلة، بعد ذكره كلام المقريزي المتقدّم، يقول: «وأنا شاهدته بلغ أصابع من اثنين وعشرين ذراعاً وما تضرر أحد». أما في القرن الحادي عشر الهجري فقد أصبح الارتفاع المطلوب لريّ البلاد ٢٣ ذراعاً. (انظر: نهر النيل في المكتبة العربية، لمحمد حمدي المنّاوي: ١٦٦ ـ ١٦٨، ومصادره).

المثل؛ وكنت أراه يُكثر السكوت؛ فأقول: «هذا لغزير عقله»، وإذا به من قلّة رأس ماله.

وقد حَكى لي عنه بعضُ أكابر أعيان المملكة، قال: لمّا خرج قاني باي نائبُ الشأم عن طاعة المؤيَّد، وعلم بذلك أعيان أهل دمشق، اجتمعوا بمكان يَشْتَوِرون فيما يفعلون، لئلا يَقبض عليهم قاني باي المذكور، وهم مثل: القاضي نجم الدين بن حجّيّ، والقاضي شهاب الدين بن الكِشْك، والشريف شهاب الدين، وخواجه شمس الدين بن المزلق، وابن مُبارك شاه، وابن مَنْجَك، وجماعة أُخَر من الأمراء وغيرهم، فأخذ ابن مَنْجَك يتكلم، فقال له القاضي شهاب الدين بن الكِشْك، متهكّماً عليه في الباطن: «يا أمير محمد، أنت رجل غزير العقل والرأي، ونحن ضعفاء العقول. لا تكلمْنَا على قدر عقلك، وإنما تحدَّث معنا بقدر عقولنا»؛ فقال ابنُ مَنْجَك المذكور: «إذاً لا أُحدّثكُم إلاّ عَلَى قدر عقولكم». فقالوا: «الآن تعمل المصلحة». وتكلموا فيما هم بصدده. قلت: هذا هو الغاية في الجهل والتفنّن في الجنون؛ فإن كل واحد ممّن كان اجتمع في ذلك المجلس، يمكن أن يدبّر مملكةَ سلطانٍ وينفذ أموره على أحسن وجه ـ انتهى.

وتوفي قاضي القضاة شيخُ الإسلام محبُّ الدين أبو الفضل أحمد ابن الشيخ الإمام العلاّمة جلال الدين نصر الله بن أحمد بن محمد بن عمر التُّسْتُرِي الأصل، البغدادي الحنبلي، قاضي قضاة الديار المصرية، وعالِم السّادة الحنابلة في زمانه، في يوم الأربعاء خامس عشر جمادى الأولى بالقاهرة، وهو قاضٍ؛ وتولّى بعده قاضي القضاة بدرُ الدين محمد بن عبد المنعم البغدادي. وكان مولد القاضي محبّ الدين ببغداد في شهر رجب سنة خمس وخمسين وسبعمائة. واشتغل بها وتفقّه. وقَدِمَ القاهرةَ في أول القرن واشتغل بها، حتى برع في الفقه وأصوله والحديث والعربية والتفسير، وتصدّى للإفتاء والتدريس سنين، وناب في الحكم بالقاهرة عن القاضي علاء الدين بن مُغْلي، وبرع حتى صار المعوَّل على فتواه. ثم وَلِيَ قضاءَ الحنابلة بعد موت قاضي القضاة علاءِ الدين بن مُغْلي في يوم الاثنين سابع عشرين صفر سنة ثمانٍ وعشرين وثمانمائة، ودام في الوظيفة إلى أن عُزل بالقاضي عزِّ الدين عبد العزيز بن

علي بن العزّ البغدادي، في ثالث عشر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين؛ فلم تطل ولايةُ عزّ الدين، وعُزِلَ، وأُعيد القاضي محبُّ الدين هذا في يوم الثلاثاء ثاني عشر صفر سنة ثلاثين، واستمر قاضياً إلى أن مات. وقد ذكرنا أحواله ومشايخه في تاريخنا «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي» بأوسع من هذا فلْيُنظر هناك.

وتوفي سعدُ الدين إبراهيم القبطي المصري، المعروف بابن المَرَة، في يوم الخميس عاشر شهر ربيع الآخر بالقاهرة، وهو في عشر السبعين، بعد أن افتقر واحتاج إلى السؤال. وكان وَلِيَ نظرَ ديوان المُفْرد [في الأيام الأشرفية بَرْسْباي][1]، ونظرَ بندرِ جُدَّة سنين كثيرة، وحصل له ثروة وعزّ وجاه، ثم زال عنه ذلك كله، ومات فقيراً، صُدِّق عليه بالكَفَن.

وتوفي الأمير ناصر الدين محمد المرداوي المعروف بابن بوالي، وهو اسم كردي غير كُنية. مات بدمشق، بعد أن وَلِيَ أستادَّاريةَ السلطان بالديار المصرية، ثم عُزل ووَلِيَ أستادَّاريةَ السلطان بدمشق، إلى أن مات. وقد تقدّم ذكره في ترجمة الملكِ الأشرف بَرْسْباي، عندما وَلِيَ الأستادّاريةَ عوضاً عن أَرْغُون شاه النَّوْرُوزي؛ وكان من الظَّلَمَة، يقضي عمره في مظالم العِباد.

وتوفي الأميرُ علاءُ الدين أَلْطُنْبَغَا بن عبد الله المَرْقَبي المؤيدي أحدُ أمراء الألوف بالديار المصرية، في يوم الاثنين عاشر شهر رجب. وكان من كبار مماليك الملك المؤيد شيخ، من أيام جنديّته، ورقّاه بعد سلطنته، وعمله نائبَ قلعة حلب، ثم أميرَ مائةٍ ومقدّمَ ألفٍ بالديار المصرية، ثم ولّاه حجوبيةَ الحجّاب، إلى أن أمسكه الأميرُ طَطَر مع مَن أمسك من أمراء المؤيدية، وحُبس مدّة، ثم أُطلِق. ودام بطّالاً دهراً طويلاً، إلى أن أنعم عليه الملكُ الظاهر جَقْمَق بإمرةِ مائةٍ وتقدمةِ ألفٍ بمصر، في أوائل دولته، فدام على ذلك إلى أن مات رحمه الله تعالى.

وتوفي زينُ الدين قاسم البَشْتَكي في يوم السبت ثاني شهر رجب. وكان يتفقّه

(١) زيادة عن الضوء اللامع.

ويترأس. وتزوّج بنتَ الأشرف شعبان. وكان مقرّباً من الملوك. وهو من مقولة ابن مَنْجَك في نوع من الأنواع، غير أنه كانت لديه فضيلة بالنسبة إلى ابن مَنْجَك.

وتوفي الأميرُ سيفُ الدين مَمْجِق بن عبد الله النَّوْرُوزي، أحدُ أمراء العشرات ونائبُ قلعة الجبل، في يوم مستهل شهر رجب. وكان أصله من مماليك الأمير نَوْرُوز الحافظي؛ واتصل بخدمة السلطان، فدام على ذلك دهراً طويلاً، لا يلتفت إليه، إلى أن أمّره الملكُ الظاهرُ جَقْمَق عشرةً، وجعله نائبَ قلعة الجبل؛ فاستمر على وظيفته إلى أن مات. وكان لا ذات ولا أدوات. وتولى تَغْرِي بَرْمَش الجلالي المؤيَّدي الفقيه نيابةَ قلعة الجبل بعده، وأُنعم عليه أيضاً بإمرته.

وتوفي القاضي شهابُ الدين أحمد بن أبي بكر بن رسَلان البُلْقِيني الشافعي المعروف بالعُجَيْمي، قاضي المحلة، في يوم الأربعاء رابع عشر جمادى الأولى. وكان من فضلاء الشافعية، وتولّى قضاءَ المحلّة سنين.

وتوفي الأميرُ الطَّوَاشي صفيّ الدين جوهر بن عبد الله القُنُقْبَائي الخازندار والزِّمَام، في ليلة الاثنين أول شعبان، وله نحو سبعين سنة، ودفن بمدرسته التي أنشأها بجوار جامع الأزهر، قبل أن تتم. وكان أصله من خدّام الأمير قُنُقْبَاي الإلجائي اللالا. ثم خدم بعد موت أستاذه عند خَوَنْد قُنُقْبَاي أُم الملك المنصور عبد العزيز، ثم من بعدها عند جماعة أُخَر، ثم اتصل بخدمة علم الدين داؤد بن الكُوَيْز، ودام عنده إلى أن مات. وبخدمته حسُنت حالُه، ثم صار بعد ذلك بَطّالاً، إلى أن نوَّه بذكره صاحبُه جوهر اللاَّلاَ، ولا زال يعظُم أمره عند الملك الأشرف بَرْسْباي إلى أن طلبه وولّاه خازنداراً دفعةً واحدةً، بعد خُشْقَدَم الظاهري الرومي؛ ولم تسبق لجوهر المذكور قبل ولايته الخازندارية رئاسةٌ في بيت السلطان، فباشر الخازندارية بعقل وتدبير ورأي في الوظيفة، وناله من العزّ والجاه ونفوذ الكلمة ما لم ينله طَوَاشي قبلَه فيما رأينا.

ومات الملكُ الأشرفُ وهو على وظيفته، لحُسْن سياسته. ثم أضاف إليه الملكُ الظاهر [جقمق] وظيفةَ الزِّمامية بعد عزل فَيروز الجارْكَسي، لما تَسَحَّب الملكُ العزيزُ

يوسف من الدُّور السلطانية، حسبما تقدّم ذكره. واستمر على وظيفة الزِّمامية والخازندارية إلى أن مات من غير نكبة. ولم يخلّف مالاً له جرم بالنسبة لمقامه؛ فعظُم ذلك على الملك الظاهر، فإنه كان في عزمه أخذُ ماله بوجهٍ من الوجوه، وفطن جوهر بذلك وأدركتْه منيّتُه ومات من غير أن يُعلم أحداً بماله. وكان جوهر عفيفاً ديِّناً عاقلاً مدبِّراً سَيُوساً فاضلاً، يقرأ القرآن الكريم بالسبع[1]، وله صدقات ومعروف؛ غير أنه دخل في الدنيا واقتحم منها جانباً كبيراً، وصار من المخلِّطين. وهو أحد مَن أدركناه من عقلاء الخدّام.

وتوفي القاضي شرفُ الدين أبو بكر بن سليمان الأشقر المعروف بابن العجمي، الحلبي الأصل والمولد والمنشأ، المصري الدّار والوفاة، نائبُ كاتب السرّ الشريف بالديار المصرية، في يوم الأربعاء تاسع شهر رمضان، وهو في عشر الثمانين، بعد أن رُشّح لوظيفة كتابة سرّ مصر غيرَ مرة، فلم يَقبل؛ ثم ولّاه الملكُ الأشرفُ كتابةَ سرّ حلب على كَره منه، عوضاً عن زين الدين عمر بن السفّاح، فباشر ذلك مدة، ثم عُزل بعد أن استعفى، وأُعيدت إليه وظيفته نيابة كتابة السرّ، ووَلِيَ كتابةَ سرّ حلب عوضَه ولدُه القاضي معين الدين عبد اللطيف. وكان شرفُ الدين المذكور رجلاً عاقلاً سَيُوساً عارفاً بصناعة الإنشاء، قام بأعباء ديوان الإنشاء عدّة سنين، وخدم عدّة ملوك، وكان مقرّباً من خواطرهم محبّباً إليهم، رحمه الله تعالى.

وتوفي شمسُ الدين محمد بن شعبان، في حادي عشرين شوّال، عن نيِّف وستّين سنة، بعد أن وَلِيَ حِسبةَ القاهرة بالسّعي مراراً كثيرة؛ وكان عاميّاً يتزيّا بزيّ الفقهاء. حدّثني من لفظه، قال: «وُلِّيتُ حِسبةَ القاهرة نيِّفاً وعشرين مرة»، فقلت له: «هذا هَجْو في حقّك، لا تتكلم به بعد ذلك، لأنك تسعى وتَلِي، ثم تُعزل بعد أيام قلائل، وتَكرّر لك ذلك غيرَ مرة، فهذا مما يدلّ على عدم اكتراث أهل الدولة بشأنك، وإهمالهم أمرك»، فلم يعد إلى ذكرها بعد ذلك.

وتوفي الشيخُ الإمام العالِم نُورُ الدين علي بن عمر بن حسن بن حسين بن

(١) أي القراءات السبع.

علي بن صالح الجرواني الأصل، ثم التلواني، الشافعي الفقيه العالِم المشهور، في يوم الاثنين ثالث عشرين ذي القعدة. وكان أصله من بلاد الغرب[١]، وسكن والده جروانَ وهي قرية بالمنوفية من أعمال القاهرة بالوجه البحري، فوُلد له بها ابنه نُور الدين هذا بعد سنة ستّين وسبعمائة، فنشأ بجروان، ثم انتقل إلى تلوانة [من قرى المنوفية][٢]، فعرف بالتلواني. ثم قَدِمَ القاهرة وطلب العلم، ولازم شيخَ الإسلام سراجَ الدين البُلقيني، حتى أجازه بالفتوى والتدريس. فتصدّى الشيخُ نور الدين من تلك الأيام للإقراء والتدريس، وانتفع به جماعة من الطلبة، وتولّى عدّة وظائف دينية، وتداريس عديدة، منها مشيخة الرُّكْنِيَّة[٣]، ثم تدريس قبّة الشافعي بالقرافة. وكان ديِّناً خيِّراً جهوريَّ الصوت صحيح البنية، وله قوة، وفيه كرم وإفضال وهمّة عالية، رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخُ الإمام العلاّمة شمسُ الدين محمد بن عمّار بن محمد بن أحمد، أحدُ علماء المالكية، في يوم السبت رابع عشر ذي الحجة، وقد أناف على السبعين، بعد أن أفتى ودرّس عدّةَ سنين، رحمه الله تعالى.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّة أذرع وأربعة أصابع. مبلغ الزيادة عشرون ذراعاً وأحد وعشرون أصبعاً.

* * *

السنة الرابعة من سلطنة الملك الظاهر جقمق على مصر

وهي سنة خمس وأربعين وثمانمائة.

وفيها توفي الخليفةُ أميرُ المؤمنين المعتضدُ بالله أبو الفتح داؤد، ابن الخليفة

(١) أي المغرب.

(٢) زيادة عن الضوء اللامع.

(٣) هي خانقاه ركن الدين بيبرس الجاشنكير، ويقال لها الخانقاه البيبرسية. (انظر خطط المقريزي: ٢/٤١٦).

المتوكل على الله أبي عبد الله محمد، ابن الخليفة المعتضد بالله أبي بكر، ابن الخليفة المستكفي بالله أبي الربيع سليمان، ابن الخليفة الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد بن حسين بن أبي بكر بن علي بن الحسين، ابن الخليفة الراشد بالله منصور، ابن الخليفة المقتدي بالله عبد الله، ابن الأمير ذخيرة الدين محمد، ابن الخليفة القائم بأمر الله عبد الله، ابن الخليفة القادر بالله أحمد، ابن الأمير الموفّق وليّ العهد طلحة، ابن الخليفة المتوكل على الله جعفر، ابن الخليفة المعتصم بالله محمد، ابن الخليفة الرشيد بالله هارون، ابن الخليفة المهدي بالله محمد، ابن الخليفة أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطّلب، الهاشمي العباسي المصري، في يوم الأحد رابع شهر ربيع الأول، بعد مرض تمادى به أياماً؛ وحضر السلطانُ الملكُ الظاهر جَقْمَق الصلاةَ عليه بمُصَلّاة المؤمِني، ودُفن بالمشهد النفيسي.

وكانت خلافتُه تسعةً وعشرين سنة وأياماً، وتولى الخلافةَ من بعده أخوه شقيقُه المُسْتَكْفي بالله سليمان، بعهد منه إليه. وكان المعتضدُ خليقاً للخلافة، سيِّدَ بني العباس في زمانه، أهلاً للخلافة بلا مدافعة. وكان كريماً عاقلاً حليماً متواضعاً ديِّناً خيِّراً حلو المحاضرة كثيرَ الصدقات والبرّ. وكان يحبّ مجالسةَ العلماء والفضلاء، وله مشاركة مع فهم وذكاء وفطنة. وقد أوضحنا أمرَه في «المنهل الصافي» بأوسع من هذا، إذ هو كتابُ تراجم على حدته.

وتوفي الشيخ محبُّ الدين بن الأُوجَاقي الحنفي، في يوم الاثنين ثالث عشرين شهر رجب، بعد مرض طويل؛ وكانت لديه فضيلة، وفيه تديُّن وخير، وللناس فيه اعتقاد.

وتوفي الشيخ الأديبُ المعروف بابن الزين بالوجه البحري في مستهل شهر ربيع الأول، بعد أن مدح النبيَّ ﷺ بما ينيف على عشرة آلاف قصيدة؛ قاله غير واحد.

وتوفي الشيخ الإمام العالِم المحدِّث المفنّن، عمدة المؤرّخين، ورأس المحدّثين، تقيُّ الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم بن

محمد بن تميم بن عبد الصّمد البعلبكي الأصل المصري المولد والوفاة المقريزي الحنفي، ثم الشافعي؛ هذا ما نقلناه من خطّه، وأملى عليَّ نسبَه الناصريُّ محمد ابن أخيه بعد وفاته، إلى أن رفعه إلى عليّ بن أبي طالب من طريق الخلفاء الفاطميين، وذكرناه في غير هذا المصنّف ـ انتهى.

وكانت وفاته في يوم الخميس سادس عشر شهر رمضان، ودفن من الغد بمقابر الصُّوفية، خارج باب النصر. ووهم قاضي القضاة بدرُ الدين محمود العيني في تاريخ وفاته، فقال: في يوم الجمعة التاسع والعشرين من شعبان ـ انتهى.

سألتُ الشيخَ تقيّ الدين، رحمه الله، عن مولده، فقال: «بعد السّتّين وسبعمائة بسُنَيّات». وكان مولده بالقاهرة، وبها نشأ وتفقّه على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة، وهو مذهب جدّه لأمه الشيخ شمس الدين محمد بن الصائغ الحنفي، ثم تحوّل شافعياً بعد مدة لأمر اقتضى ذلك، واشتغل على مذهب الشافعي؛ وسمع الكثير على عدّة مشايخ؛ ذكرنا أسماء غالبهم في ترجمته في «المنهل الصافي» مع مصنّفاته باستيعاب يضيق هذا المحل عن ذلك.

وكان الشيخ تقي الدين رحمه الله تعالى إماماً بارعاً مفنّناً متقناً ضابطاً ديِّناً خيِّراً مُحِبّاً لأهل السُّنّة، يميل إلى الحديث والعمل به، حتى نُسِبَ إليه مذهبُ الظاهر[1]. وكان فيه تعصّب على السادة الحنفية بغير لباقة؛ يُعرَف ذلك من مصنّفاته. وفي الجملة هو أعظم مَن رأيناه وأدركناه في علم التاريخ وضروبه، مع معرفتي لمَن عاصره من علماء المؤرّخين، والفرق بينهم ظاهر، وليس في التعصّب فائدة.

وتوفي قاضي الإسكندرية جمالُ الدين عبد الله بن الدّمامِيني المالكي

(١) هو المذهب الظاهري في الفقه؛ وسمّي بذلك لأنه يأخذ بظاهر الكتاب والسُّنّة ويُعرِض عن التأويل والرأي والقياس. ومؤسّس هذا المذهب داود بن علي الأصبهاني المتوفى سنة ٢٧٠ هـ. ومن أشهر أئمته ابن حزم الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٦ هـ. ـ وذكر السخاوي في التبر المسبوك أن «بعض الناس كان ينسبه إلى الميل لمذهب الظاهر لأنه كان يعظم ابن حزم إلى الغاية».

الإسكندري بها في يوم الأحد رابع ذي القعدة. وكان مشهوراً بالسماحة، إلّا أن بضاعته من العلوم كانت مُزْجَاة[١].

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم عشرة أذرع ونصف. مبلغ الزيادة عشرون ذراعاً وخمسة عشر أصبعاً. وكان الوفاء سادس عشرين أبيب[٢].

* * *

السنة الخامسة من سلطنة الملك الظاهر جقمق على مصر

وهي سنة ست وأربعين وثمانمائة.

وفيها توفي الشيخُ الإمام العالِم العامِل العلّامة، نورُ الدين عبادة بن علي بن صالح بن عبد المنعم بن سراج بن نجم بن فضل الزَّرْزَاوِي، الفقيه المالكي المعروف بالشيخ عبادة، شيخ السادة المالكية وعالِمها بالديار المصرية، في يوم الجمعة سابع شوّال، وصلّى عليه صاحبُه الشيخ مَدْيَن بجامع الأزهر. ومات ولم يخلِّف بعده مثله علماً وديناً. وكان مولده في جمادى الأولى سنة ثمانٍ وسبعين وسبعمائة ببلده زِرْزَا[٣]. وطلب العلمَ وسمع الحديث واشتغل على علماء عصره، حتى برع في الفقه

---

(١) أي قليلة.

(٢) أبيب: هو الشهر الحادي عشر من شهور القبط. والتقويم القبطي هو تقويم شمسي، وسنتهم ١٢ شهراً، كل شهر ٣٠ يوماً. وأضافوا خمسة أيام في نهاية السنة وهي أيام النسيء. وكان العرب يستعملون في تأريخهم للحوادث التقويم الهجري، أي القمري، ولكنهم في نفس الوقت كانوا مضطرين في الشؤون المالية والزراعية إلى استعمال التقويم الشمسي القبطي. ولذلك نراهم في النداء على النيل مثلاً يذكرون التاريخ الهجري وما يقابله من التاريخ القبطي.

وقد جعل المصريون القدماء بداية سنتهم أول الخريف عندما يبلغ النيل غايته، وقسموها إلى ثلاثة فصول هي: فصل الفيضان (أخت) وفصل الزرع (برت) وفصل الحصاد (شمو). وقسموا كل فصل إلى أربعة شهور هي: توت وبابه وهاتور وكيهك (لفصل الفيضان) وطوبة وأمشير وبرمهات وبرمودة (لفصل الزرع) وبشنس وبؤونة وأبيب ومِسرَى (لفصل الحصاد). واشتقّ اسم كل شهر من العيد الرئيسي الذي كان يحتفل به خلاله. (نهر النيل في المكتبة العربية: ١٧٣).

(٣) قرية بالصعيد الأدنى غربي النيل. (معجم البلدان).

والأصلين والعربية، وأفتى ودرَّس، واشتغل سنين كثيرة، وانتفع به الطلبة. وسُئِل بالقضاء بعد موت العلاّمة شمس الدين البساطي المالكي، فامتنع، فألحّ عليه السلطان بالولاية، وألزمه بها غصباً؛ فلما رأى تصمُّمَ السلطان على ولايته، وأنه لا يستطيع دَفْعَه، قال: «حتى أستخير الله». وفرّ من يومه من القاهرة، واختفى ببعض الأماكن، إلى أن ولّى السلطانُ القاضيَ بدرَ الدين محمد بن التِّنسي، فلما بلغه ذلك حضر إلى القاهرة بعد أيام كثيرة.

وهذا شيء لم يقع لغيره في عصرنا هذا؛ فإننا لا نعلم مَن سُئِلَ بالقضاء وامتنع غيرَه. وأما سواه فهم على أقسام: قسم يتنزّه عن الولاية، ويُظهر ذلك حيلةً، حتى يُشاع عنه ذلك، فإذا طُلِبَ بعد ذلك للقضاء يأخذ في التمنّع، وفي ضمن تمنعه يشرط على السلطان شروطاً، يعلم هو وكلُّ أحد أنها لا تتم له، وإنما يقصد بذكرها إلاّ نوعاً من الإجابة، لكونه كان امتنع أولاً، فلا يمكنه القبول إلاّ بهذه الدورة، فلم يكن بمجرد ذكره للشروط إلاّ وقد صار في الحال قاضياً؛ ووقع ذلك لجماعة كثيرة في عصرنا.

وقسم آخر: هم الذين يسعون في الولاية سَعْياً زائداً، ويبذلون الأموال، ويتضرّعون لأرباب الدولة، ويخضعون لهم، وهيهات! هل يُسمَح لهم بذلك أم لا! فللّه دَرُّ الشيخ عبادة فيما فعل، لأننا شاهدنا منه ما سمعناه عن السلف، ورأينا من زهده وعفّته ما ورثه عنه الخلف، واستمر بعد ذلك سنين على حاله من ملازمة العلم والعمل، إلى أن مات رحمه الله تعالى.

وتوفي قاضي القضاة عزُّ الدين عبد العزيز بن العزّ البغدادي الحنبلي، قاضي قضاة الحنابلة بالديار المصرية، ثم بدمشق، وبها مات في أواخر هذه السنة؛ وتولّى عوضه قضاءَ دمشق ابن مُفْلِح[1] على عادته أولاً. وكان القاضي عزُّ الدين فقيهاً ديِّناً

(١) هو نظام الدين أبو حفص عمر بن إبراهيم بن محمد بن مفلح المتوفى سنة ٨٧٢ هـ. حدّث بمصر والشام وبيت المقدس وغيره، وأنشأ مدرسة الحديث النظامية في شرقي الصالحية بدمشق. قال عنه السخاوي: أخذ عنه الفضلاء والأئمة، وأكثرت عنه حين لقيته بالقاهرة والصالحية. (انظر الضوء اللامع: ٦/٦٦؛ والأعلام: ٥/٣٩).

متقشفاً، عديمَ التكلّف في ملبسه ومركبه، مع دهاء ومكر ومعرفة تـامّة. وقـد مرّ من ذكره أنه لمّا وَلِيَ القضاءَ بالديار المصرية، صار يمشي في الأسواق لحاجتـه ويُردف عبدَه على بغلته، وأشياء من هذا النسق. وكانت جميع ولاياته من غير سعي. وكان يصحب الوالدَ، واستمرت الصحبةُ بيننا إلى أن مات رحمه الله.

وتـوفي جمال الـدين عبد الله [بن الحسن بنِ علي بن محمـد بن عبد الـرحمن الدمشقي الأصل][1] الأَذْرَعي[2]، أخو الإمام شهاب الدين، بالقاهرة في يوم الاثنين سابع عشر شوّال؛ وكان عارياً من كل علم وفنّ.

وتـوفي الشيخُ الـواعظ جمالُ الـدين السنباطي الشـافعي، أحد نـوّاب الحكم بالقاهرة، في يوم الخميس تاسع عشرين شهر رمضان، بعد مرضٍ طويل عن ثمانين سنة؛ وكان يعمل المواعيدَ[3] بالمساجد والجوامع، وعلى وعظه أُنس ورونق. وكان يقرأ أيضاً على الكرسي[4] بين يدي صهري شيخ الإسلام جلال الدين عبد الـرحمن البُلْقِيني في صبيحة كل يوم جمعة، فيقرأ ساعة، ثم إذا سكت ابتدأ شيخُ الإسلام في عمل الميعاد؛ وكان هذا دأبه إلى أن مات رحمه الله تعالى.

وتـوفي الصاحبُ بـدرُ الدين حسن بن نصـر الله بن حسن بن محمد الأَدْكُـوي الأصل ثم الفُوِّيّ، كاتبُ سرّ الديار المصرية، وناظرُ جيشها وخاصّها، والوزيـرُ بها، ثم الأستادّار، ثم محتسبُ القاهـرة، في يوم الثـلاثاء سلخ شهـر ربيع الأول، ودُفن بتربته بالصحراء، بعدما كبر سنُّه، واختلط عقله. وكان مولده بفُوَّة من المُزَاحمتين، في ليلة الثلاثاء ثالث عشر ربيع الأول سنة ست وستّين وسبعمائة، وبها نشأ. وتعلّق

---

(١) زيادة عن التبر المسبوك والضوء اللامع.

(٢) نسبة إلى أذرعات، بلدة بأطراف الشام. (معجم البلدان).

(٣) عمل المواعيد بالمساجد والجوامع هو إلقاء الدروس على الطلبة في أوقات محدّدة. وجرت العادة أن يكون ذلك يوم الجمعة. (انظر الضوء اللامع: ١٠٨/٤، ترجمة جلال الدين عبد الرحمن البلقيني).

(٤) قارىء الكرسي يكون عادة من الصوفية، ويقوم بإلقـاء درس في الخوانق متـطوعاً، غـير مقيّد بخـانقاه معينة. ويقرأ عادة من كتاب، على خلاف القاصّ الذي يلقي دروسه على العامّة في الطرقات وذلك من محفوظاته. (النجوم الزاهرة: ٤٩٤/١٥، طبعة المؤسسة المصرية، حاشية عن معيد النعم للسبكي).

على الخِدم الديوانية، فباشر في عدّة جهات، ثم انتقل إلى القاهرة، ولا زال يترقّى حتى وَلِيَ نـظرَ جيشِ مصر، ثم وَزَرَ بهـا، ثم وَلِيَ الخاصّ؛ كـلّ ذلك في الـدولة الناصرية فرج. ثم وَلِيَ الـوزارةَ والخاصَّ أيضـاً فـي دولة الملك المؤيَّـد شيخ. ثم صُودِرَ ونُكِبَ غيرَ مرة. ثم وَلِيَ الأستادّارية في دولة الملك الصالح محمد. ثم عُزل وَوَلِيَ الخاصّ ثانياً عوضاً عن مرجان الخازندار. ثم وَلِيَ الأستاداريـة ثانيـاً في دولة الأشرف بَرْسْبـاي، عوضـاً عن ولده صـلاح الدين محمـد. وعُزل عن نـظر الخاصّ بـالقاضي كـريم عبد الكـريم ابن كاتب جَكَم، في أوائـل جمادى الأولى سنـة ثمانٍ وعشـرين وثمانمـائة. وعُـزل بعد مـدة وصُـودِرَ هـو وولـدُه صـلاح الـدين. ثم وَلِيَ الأسْتَادَّارِيّة بعد سنين ثالثَ مرة، فلم تطل مدّته فيها، وعزل ولزم داره سنين، إلى أن وَلِيَ كتابةَ السرّ بعد موت ولده صلاح الدين، فباشر وظيفـةَ كتابـة السرّ مـدة يسيرة، وعـزله الملك الـظاهر جَقْمَق بصهـره المقـرِّ الكمـالي بن البـارِزِي، فلزم الصـاحبُ بدر الدين بيتَه، إلى أن مات في التاريخ المقدّم ذكره.

وكان شيخاً طوالاً ضخماً، حَسَن الشكالة، مدوّر اللحية، كريماً واسع النفس على الـطعام؛ تـأصّل في الـرئاسـة، وطالت أيـامه في السعـادة، فصـار هـو وولـدُه صلاح الدين من أعيان رؤساء الديار المصرية؛ على أنه كان لا يسلم في كل قليل من مصادرة؛ ومع هذا كان له أنعام وأفضال على جماعة كبيرة، إلّا أنه كانت فيـه بادرة وخلق سيّـىء، مع حدّة مزاج، وصياح في كلامه. وكان لا يتحدّث إلّا بأعلى صوته، ولهذا مَلَّه الملكُ الأشرفُ بَرْسْبَاي وأبعده. وكان أكولاً، أقصى مُناه الناب والنصاب لا غير. لم يشهر بدين ولا علم.

وتـوفي الأميـر سيفُ الـدين تَغْـرِي بَــرْدِي بن عبـد الله البَكْلَمُشي المعــروف بالمؤذي، الدوادار الكبير، في يوم الثلاثاء حادي عشر جمـادى الآخرة، بعـد مرض طويل؛ وحضر السلطانُ الصلاةَ عليـه بمُصلاة المؤمني، ودُفن بتـربة طيبغـا الطويـل الناصري حسن وطيبغا الطويل هو أستاذ بَكْلَمُشْ، وبَكْلَمُشْ أستاذ تغري بردي هذا. ثم ترقّى تغري بردي هذا بعـد موت أستـاذه حتى صار من جملة أمراء العشرات في الدولة النـاصريـة فرج، ثم أُمسـك ولزم دارَه مـدة، إلى أن أنعم عليه بـإمرة عشـرةٍ

ضعيفة. ودام على ذلك دهراً طويلاً لا يُلتفت إليه في الدول، حتى إنني أقمتُ سنين أحسبه من جملة الأجناد.

ثم تحرّك له سعدٌ بعد سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة، وغيَّر السلطانُ الملكُ الأشرف أُقطاعَه بعد موت الأمير جُوبَان المعلّم[١]، وخلع عليه باستقراره من جملة رؤوس النُّوَب؛ ثم لا زال يرقيه حتى صار أمير طبلخاناه ورأسَ نوبةٍ ثانياً؛ فعند ذلك أظهر ما كان خفيّاً من لقبه بالمؤذي، فللّه دَرُّ القائل: «الظلم كمين في النفس، العجز يخفيه والقوة تُظهِره». وصار إذا مَسك العصاة في يده، لا يزال يضرب هذا وينهر هذا؛ والملوك تحبّ مَن يفعل ذلك بين يديهم، فأُنعم عليه بعد سنين بإمرةِ مائةٍ وتقدمةِ ألفٍ بالديار المصرية. ثم نقله الملكُ الظاهر جَقْمَق إلى حجوبية الحجّاب بعد يَشْبَك السُّودوني. ثم صار دَوَادَاراً كبيراً بعد عزل أَرْكَمَاس الظاهري، كلُّ ذلك في سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة.

ومن يوم وَلِيَ الدوادارية، عظُم وضخُم، ونالته السعادة، وعمّر مدرسة بالشارع الأعظم بالقرب من جامع ابن طولون، وسار في الدوادارية على طريق السلف من الحرمة وإقامة الناموس، لا في كثرة المماليك وجودة السِّماط. وكان يتفقّه ويكتب الخط بحسب الحال، ويعفّ عن المنكرات والفروج، وعنده شجاعة وإقدام مع بخل وفحش في لفظه وجبروت وسوء خلق وحدّة مزاج؛ إلا أنه كان مشكور السيرة في أحكامه، ويُنصِف المظلوم من الظالم، ولا يسمع رسالة مرسل كائن مَن كان، فَعُدّ ذلك من محاسنه. وكان رومي الجنس، ويدّعي أنه تركي الجنس، رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين أَيْتَمُش بن عبد الله الخضري الظاهري برقوق، أحد أمراء العشرات، وأستادّار، وهو بطّال، في آخر ليلة السبت العشرين من شهر رجب، ودفن بتربة الأمير قُطْلُوبك بالصحراء، بعدما تعطّل ولزم داره سنين من بياض[٢] أصابه في جسده. وكان أصلُه من مماليك الظاهر برقوق، ثم صار من جملة

---

(١) هو جوبان الظاهري برقوق. لقّب بالمعلّم لأنه كان معلّماً للرمح في أيام أستاذه. (الضوء اللامع).

(٢) لعلّ المراد به داء الجدري.

الدوادارية في الدولة الناصرية فرج، ثم صار أميرَ عشرةٍ في دولة الملك المؤيد شيخ، ثم أنعم عليه الملك الظاهر طَطَر بإمرة طبلخاناه، فلم تطل مدّته. ونفاه الملك الأشرف بَرْسْباي، ثم شُفِع فيه بعد أشهر، وأُعيد من القدس إلى القاهرة، وأنعم عليه بإمرة عشرةٍ. ثم وَلِيَ الأستادّارية، فلم ينتُج أمرُه، وعُزل عنها بعد أن باشر الأستادّارية نحو الشهرين.

واستمر أميرَ عشرةٍ على عادته إلى سنة نيّف وثلاثين؛ فابتلي في جسده بالبياض [بحيث كان يستره بالحمرة][1]، فأخرج الملكُ الأشرف إقطاعه، ورسم له بلزوم داره؛ فصار يتردّد إلى الجامع الأزهر، وكان يسكن بدار بشير الجَمَدار بالأبّارين بالقرب من الجامع المذكور، ويحضر الدروس، ويشوِّش على الطلبة، ويسأل الأسئلةَ التي لا محل لها من الدرس الذي[2] هم بصدده. وكان قليل الفهم، وتصوُّره غير صحيح، مع جهل مفرط وعدم اشتغال قديماً وحديثاً؛ فإن أجابه أحد من الطلبة بجواب لا يفهمه، سفه عليه، وإن سكت القوم ازدراهم ووبّخهم.

وكان فصيحاً باللغة العربية على قاعدة العامّة. وكان قبل تاريخه نابَ في نظر الجامع الأزهر عن جَرِبَاش الكَرِيمي قاشق، ووقع له مع أهل الجامع أمور أيام توليته؛ فلما زاد ذلك منه على الطَّلَبة وبلغ الأشرفَ أمرُه، رسم بنقلته من داره المذكورة وبسكنته بقرافة مصر؛ فشُفع فيه بعد أيام، على أنه يسكن بداره، ولا يدخل الجامع إلّا في أوقات الصلوات. ولما سافر الملك الأشرفُ إلى آمدِ، أخرجه إلى القدس بَطَّالاً. ثم أُعيد إلى القاهرة بعد عَوْد السلطان من آمِد، ودام بها إلى أن تسلطن الملكُ الظاهرُ جَقْمَق، فداخله في الأمور من غير أن يليَ إمرة ولا وظيفة. وزاد وأمعن، وصار يتكلم فيما لا يعنيه، فغضب عليه الملكُ الظاهر جَقْمَق، ونفاه إلى القدس. ثم شفع فيه عديلُه الأميرُ إينال العلائي الناصري، أعني الملكَ الأشرفَ، فأُعيد إلى القاهرة، ولزم دارَه إلى [أن سقط عليه جدار فغطّاه، فأخرج من تحته مغشيّاً

(١) زيادة عن الضوء اللامع والتبر المسبوك.

(٢) في الأصل: «التي».

عليه، فعاش بعده قليلاً][1] [و] مات وَهو في عشر السبعين. وكان من مساوىء الدهر طيشاً وخفّة، مع كثرة كلام في ما لا يعنيه، ويخاطب الرجلَ بما يكره، ويوبّخ الشخصَ بما فيه من المعايب من غير أن يكون بينه وبين ذلك الرجل عداوة ولا صحبة، وفيه بادِرَة وجرأة وإفحاش في اللفظ، مع إسراف على نفسه. وفي الجملة إن بقاءه كان عاراً على بني آدم.

وتوفي الأَمير ناصر الدين محمد بك بن دُلْغادِر صاحب أَبلستين وحمو الملك الظاهر جَقْمَق، بأَبُلُسْتَيْن في أوائل جمادى الآخرة؛ وقيل إنه قُتل على فراشه، والأول أصحّ؛ وكان كثير الشرور والعصيان على الملوك؛ وقد مرَّ من ذكره في ترجمة الملك الأشرف من عصيانه وموافقته مع الأتابك جانِبَك الصُّوفي، ثم في ترجمة الملك الظاهر جَقْمَق من دخوله في طاعته وقدومه إلى القاهرة ما يُغني عن إعادته ثانياً هنا.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثمانية أذرع وخمسة أصابع. مبلغ الزيادة عشرون ذراعاً وأحد وعشرون أصبعاً.

* * *

السنة السادسة من سلطنة الملك الظاهر جقمق على مصر

وهي سنة سبع وأربعين وثمانمائة.

فيها توفي الشيخُ الإمام العالم الفقيه الربّاني الصُّوفي شمسُ الدين محمد بن حسن، المعروف بالشيخ الحنفي، بزاويته خارج قنطرة طُقُزْدَمُرْ، من ظاهر القاهرة، في أوائل شهر ربيع الأوَّل، وهو في حدود الثمانين، ودفن بزاويته المذكورة. وكان ديِّناً خيراً فقيهاً عالماً مُسَلِّكاً؛ كان يعظ الناس ويعلّمهم، وكان على وعظه رونق ولكلامه وقع في القلوب. وأفنى عمرَه في العبادة وطلب العلم وإطعام الطعام وبرّ

---

(١) زيادة عن التبر المسبوك.

الفقراء والقادمين عليه. وكان محظوظاً من الملوك، ولهم فيه اعتقاد ومحبّة زائدة. وصحب الوالدَ سنين كثيرة، ثم الملك الظاهر طَطَر، ونالته منه السعادة في أيام سلطنته. واجتمعتُ به غيرَ مرة، وانتفعتُ بمجالسته. وكان الناس فيه على قسمين: ما بين مُتَغالٍ إلى الغاية، وما بين مُنْكِرٍ إلى النهاية. قلت: وهذا شأن الناس في معاصريهم، رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ الإمام العالِم العلّامة، زينُ الدين أبو بكر إسحاق بن خالد الكَخْتاوي الحنفي، المعروف بالشيخ باكير، شيخ الشيوخ بخانقاه شيخون، في ليلة الأربعاء ثالث عشر جمادى الأولى، وحضر السلطانُ الملكُ الظاهرُ جَقْمَق الصلاةَ عليه بمُصلاة المؤمني، من تحت القلعة، ثم أُعيد إلى الشَّيْخونية فدُفن بها. واستقرّ عوضَه في مشيخة الشيخونية العلّامةُ كمال الدين محمد بن الهمّام. وكان الشيخ باكير المذكور إماماً عالِماً بارعاً مفنّناً في علوم كثيرة. ووَلِيَ قضاءَ حلب مدة طويلة، وحُمِدت سيرته، وأفتى ودرَّس وأشغل سنين كثيرة بحلب، ثم بمصر، لمّا طلبه السلطان من قضاء حلب وولّاه مشيخةَ الشيخونية؛ غير أنه كان في لسانه شبه لُكْنة، مع سكون وعقل زائد، يُؤدّي ذلك إلى عدم الانتصاف في أبحاثه. ومع هذا كان تقريره للطلبة في غاية الحُسْن والفصاحة. ومحصول أمره أنه كان عالماً مفيداً للطلبة غير بحّاث مع أقرانه من العلماء. وكان مليح الشكل منوّر الشيبة طاهرَ اللون وقوراً معظَّماً عند الخاصّ والعامّ؛ وكان مولده بمدينة كَخْتا[1] في حدود السبعين وسبعمائة، رحمه الله تعالى.

وتوفي فتح الدين صدقة المُحَرَّقي[2] ناظر الجوالي، في ليلة الخميس سلخ شوّال، ودفن خارج باب الجديد من القاهرة. وكان عاميّاً في زيّ فقيه، لم أعرفه إلّا في دولة الملك الظاهر جَقْمَق، لأنه كان بخدمته ورقّاه في سلطنته.

(١) هي قلعة في ديار بكر، في تركيا اليوم. بينها وبين ملطية مسيرة يوم. (تقويم البلدان). وجاء في «تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور»، ص ٢٨، وصف وافٍ حول هذا الحصن.

(٢) المحرَّقي: نسبة إلى بلدة المحرَّقة بالجيزة. (التبر المسبوك).

وتوفي غرسُ الدين خليل [بن أحمد][١] السخاوي، ناظرُ الحرمين: القدس والخليل عليه السلام، في ليلة العشر من جمادى الأولى. وكان أيضاً من أطراف الناس؛ وهو أحد مَن رقّاه الملكُ جَقْمَق. وكان في مبدأ أمره يبيع الحلوى، ثم صار جابياً للأملاك، [يجبي وعلى كتفه خرج][٢]، ثم خدم جماعةً كبيرة، إلى أن حَسُنت حالُه وصار يركب بغلةً برحل[٣]، رأيته أنا على تلك الهيئة. ثم خدم الملكَ الظاهرَ جَقْمَق أيامَ إمرته، ولازم خدمتَه إلى أن تسلطن، فقرَّبه وولّاه نظرَ الحرمين، وعدَّه الناس من الأعيان، فلم تطل مدّته، ومات. وكان يتديّن من صلاة وعبادة، إلّا أنه كان عارياً سالبةً كليّةً، فكان صِفَتُه كقول مَن قال: ذقن وشاش على لاش[٤].

وتوفي المقامُ الناصري محمدُ بن السلطان الملك الظاهر جَقمَق، في ليلة السبت ثاني عشرين ذي الحجة بقلعة الجبل، بعد مرض طويل، وصُلي عليه من الغد بباب القلّة من قلعة الجبل؛ وحضر والدُه السلطانُ الملك الظاهر جَقْمَق الصلاةَ عليه، ودُفن بتربة عمّه جارْكَس القاسمي المُصَارِع، التي جدّدها مملوكُه قاني باي الجارْكَسي عند دار الضيافة، تجاه سور القلعة. ومات وهو في حدود الثلاثين تخميناً، وأُمُّه السِّتّ قَرَاجا بنت الأمير أرْغُون شاه أمير مجلسِ الملكِ الظاهر برقوق.

وكان مولده بالقاهرة، وبها نشأ تحت كنف والده. وحجّ وسافر مع والده إلى آمِد في سنة ست وثلاثين. واشتغل اشتغالاً يسيراً حتى برع في المعقول وشارك في المنقول. وساد في فنون كثيرة من العلوم، يساعده في ذلك جُودة ذهنه وحُسْن تصوّره وعظيم حفظه، حتى صار معدوداً من العلماء، ولا نعلم أحداً من أبناء جنسه من ابن أمير ولا سلطان وصل إلى هذه الرتبة غيره قديماً ولا حديثاً، بل ولا في الدولة التركية قاطبةً من المشاهير أولاد الملوك، هذا مع المحاضرة الحسنة والمذاكرة اللطيفة

---

(١) زيادة عن الضوء اللّامع والتبر المسبوك.

(٢) زيادة عن الضوء اللّامع والتبر المسبوك.

(٣) في بعض النسخ: «برحل القاضي».

(٤) بمعنى لا شيء. ويستعمل غالباً في الازدواج؛ يقولون: الماش خير من لاش. واستعملوا منه التلاشي. (معجم متن اللغة).

والنوادر الطريفة والاطّلاع الزائد في أخبار السلف وأيام الناس.

وكان يسألني عن مسائل دقيقة مشكلة في التاريخ على الدوام، لم يسألني عنها أحد من بعده إلى يومنا هذا. وأما حفظه للشعر باللغتين التركية والعربية، فغاية لا تُدرَك. وكان مجلسه لا يبرح مشحوناً بالعلماء مشايخ الإسلام يتداولونه بالنوبة؛ فكان لقاضي القضاة شهاب الدين بن حجر وقت يحضر فيه في كل جمعة مرتين، ولقاضي القضاة سعد الدين بن الديري الحنفي وقت غير ذلك يحضر فيه أيضاً في الجمعة مرتين؛ وأما العلاّمة محيي الدين الكافِيَجي[1] الحنفي، والعلاّمة قاسم الحنفي[2]، فكانا يُلازمانه في غالب الأوقات ليلاً ونهاراً. وأما غير هؤلاء من الطلبة الأعيان، فكثير يطول الشرح في ذكرهم.

وكان مع هذه الفَضيلة التامّة والرئاسة الضخمة والترشيح للسلطنة، متواضعاً بشوشاً هيّناً ليّناً، مع حُسْن الشكالة وخفّة الروح والميل إلى الطرب، على قاعدة الصُّوفية والعقلاء من الرؤساء؛ وكان لا يملّ من المحاضرة والمذاكرة بالعلوم والفنون؛ وكان رميُه بالنشّاب في غاية الجُودة، ويشارك في ملاعيب كثيرة، لولا سِمَن كان اعتراه؛ وكره هو ذلك، وأخذ يتداوى في منع السِّمَن بأشياء كثيرة، ربما كان بعضها سبباً لهلاكه، مثل شرب الخلّ على الرّيق، ومنع أكل الخبز سنين، وكثرة دخول الحمّام، حتى إنه كان غالب جلوسنا معه في الخلوة في مسلخ الحمّام الذي ابتناه بطبقة الغَوْر[3] من القلعة، وبداخله في الحرارة، وأشياء غير ذلك؛ وكان بيني وبينه صحبة قديمة وحديثة ومحبّة زائدة، ثم صار بيننا أيامَ سلطنة والده صهارة، فإنه

---

(١) هو محمد بن سليمان بن سعد الرومي الحنفي أبو عبد الله الكافيجي. كان من كبار العلماء بالمعقولات. وعُرِفَ بالكافيجي لكثرة اشتغاله بالكافية في النحو. توفي سنة ٨٧٩ هـ. (الأعلام ٦/١٥٠).

(٢) هو قاسم بن قطلوبغا، زين الدين أبو العدل السودوني. كان عالماً بفقه الحنفية، مؤرّخاً باحثاً. توفي سنة ٨٧٩ هـ. (الأعلام: ٥/١٨٠).

(٣) طبقة الغور بالقلعة كانت خاصّة بسكنى المماليك المجلوبين من بلاد الغور ـ أفغانستان الحالية ـ إذ كانت كل طبقة تسمى باسم المنطقة التي جلب منها سكانها من المماليك. (انظر خطط المقريزي: ٢/٢١٣). ـ راجع أيضاً فهرس المصطلحات: الطباق.

تزوّج ببنت الأتابك آقْبَغا التِّمْرازي، وهي بنت كريمتي؛ ولم يفرّق بيننا إلّا الموت، رحمه الله تعالى.

ولقد كان حسنةً من حسنات الدهر، خليقاً للملك والسلطنة، ولو طال عمره إلى أن آل إليه الأمر، لما اختلف عليه اثنان غصباً ومروءةً؛ فإنه كان هيّناً مع الهيّن فتّاكاً على العسر، وأنا أعرَف بحاله من غيري؛ ولقد سمعتُ منه كلمات من أفعال يفعلها إن تمّ أمرُه في الملك، تدلّ على معقول وتدبير عظيم وحدس صائب، وإقماع المفسدين، لم أسمعها من أحد غيره كائناً مَن كان.

وأنا أقول: لو مَلَكَ الديارَ المصرية وتمّ أمره، نفقت في أيامه بضائع أرباب الكمالات الكاسدة من كل علم وفنّ، وظهرت من الزوايا خبايا، وتجدّد ما بَعُدَ عَهْدُه من الطرائف، وأبدى كلُّ استاذ من فنّه أعاجيب ولطائف؛ ومن أجله صنَّفتُ هذا الكتاب من غير أن يأمرني بتصنيفه، غير أني قصدت بترتيب هذا الكتاب من ذِكر ملك بعد ملك، أنه إذا تسلطن، أختم هذا الكتابَ بذكره، بعد أن استوعبَ أحوالَه وأموره على طريق السيرة، ولوّحت له بذلك، فكاد يطير فرحاً؛ وبينا نحن في ذلك، انتقل إلى رحمة الله تعالى، فكان حالي معه كقول مسعود بن محمد الشاعر: [الكامل]

بأبي حَبيبٌ زارني متَنَكِّرا ... فبدا الوشاةُ له فَولَّى مُعْرِضا
فكأنّني وكأنّه وكأنّها ... أمَلٌ ونَيْلٌ حَالَ بَيْنَهُما القَضَا

وأحسن من هذا قول مَن قال، وهو في معنى فقده: [الطويل]

غدا يتَنَأّى صاحبٌ كان لي إنْساً ... فلا مَصْبَحاً لي بالسرور ولا مُمْسَا
أخٌ لي لو أُعْطَى الدُّنَى باسم فَقْدِه ... بلا فَقْدِه كانَتْ به ثمَناً بَخْسَا

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القَديم ستّة أذرع وعشرون أصبعاً. مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً وثلاثة وعشرون أصبعاً.

* * *

السنة السابعة من سلطنة الملك الظاهر جقمق على مصر

وهي سنة ثمانٍ وأربعين وثمانمائة.

فيها لهج المنجّمون بأن في هذه السنة يكون انقضاءُ مدة الملكِ الظاهر جَقْمَق من ملك مصر؛ فإنهم كانوا أجمعوا على أنه لا يقيم في الملك أكثر من سبع سنين. وكان هذا القول بعد أقوال كثيرة في مدة ملكه، فلم يصدقوا في واحد منها، ومضت هذه السنة والسلطان في خير وعافية.

وفيها كان الطاعونُ بالديار المصرية؛ وكان مبدأه في ذي الحجة من السنة الخالية، وعظم في المحرّم من هذه السنة وأوائل صفر، ومات فيه عالِم كبير جداً حسبما تقدّم ذكره.

وفيها، أعني سنة ثمانٍ وأربعين المذكورة، توفي الخطيبُ الواعظ شمس الدين محمد[1] الحموي خطيب الجامع الأشرفي بالعَنْبَرِيّين[2]، في يوم الأربعاء ثالث ذي القعدة، عن نيّف وسبعين سنة تخميناً. وكان يعظ الناس في الأماكن، ويعمل المواعيد، وكان له قبول من العامّة والنسوة، وكان فصيحاً في خطبته ويستحضر الكثير من الأحاديث والتفسير، رحمه الله تعالى.

وتوفي الأميرُ الطَّوَاشي فَيْرُوز بن عبد الله الجارْكَسي الرومي الساقي الزِّمَام، بَطَّالاً بالقاهرة، في يوم الأربعاء رابع عشر شعبان، ودفن بمدرسته التي أنشأها بالقرب من داره، عند سوق القِرِب [بالقرب من الحارة الوزيرية][3] بالقاهرة.

وكان أصله من خدّام الأمير جارْكس القاسمي المصارع، المقدّم ذكره في دولة الملك الناصر فرج، وترقّى بعد موته إلى أن صار ساقياً للسلطان؛ وحظي عند الملك

---

(١) ذكره كلٌّ من السخاوي في الضوء اللامع وابن حجر في إنباء الغمر باسم عبد الرحيم بن علي (أبي بكر) الحموي المعروف بابن الأدمي. كما ذكرا أن لقبه زين الدين وليس شمس الدين. قال السخاوي: وسمّاه بعضهم عبد الرحمن وبعضهم محمداً، والصواب أنه عبد الرحيم.

(٢) أي سوق العنبريين بالقاهرة. ـ انظر خطط المقريزي: ١٠٢/٢.

(٣) زيادة عن التبر المسبوك.

المؤيَّد شيخ، ثم عند الأشرف بَرْسْباي؛ ثم انحطّ قدره، وعزله الأشرف، وأخرجه إلى المدينة؛ ثم أعاده بعد مدة، واسْتقرّ به ساقياً عَلَى عادته؛ ودام عَلَى ذلك حتى غضب عليه في مرض موته، بعد أن وَسَّط الحكيمين[1]، وعزَله عن وظيفة السِّقاية، بعد أن هدَّده بالتوسيط. فلزم فيروزُ هذا بيتَه، إلى أن مات الملكُ الأشرف، وصار الأمرُ إلى الملكِ الظاهر جَقْمَق، فطلبه وولَّاه زِمَاماً عِوضاً عن جوهر الجُلْبَاني اللالا بحكم عزله ومصادرته، وذلك في أحد الرَّبيعَيْن من سنة اثنتين وأربعين؛ فظن كلّ أحد بطول مدة فيروز هذا في وظيفة الزمامية، لكونه من خدّام أخي السلطان الأمير جارْكَس، فلم يُقم في الوظيفة إلاّ نحو ستّة أشهر، وعُزِل لكونه فرَّط في أمر الملكِ العزيز حين فَرّ من الدُّور السلطانية، وتقدّم ذكرُ ذلك كله في أصل هذه الترجمة. وولَّى السلطانُ عوضَه زِماماً، جوهر الخازندار القُنُقْبائي، ولزم فيروزُ هذا بيته خاملاً إلى أن مات. وكان لا بأس به في أبناء جنسه، لتجمّل كان فيه ومحاضرة حسنة. وهو أحسن الثلاثة حالاً ممّن اسمُ كلّ واحدٍ منهم فيروز، وهم في عصر واحد، أولهم فيروز هذا، وثانيهم فيروز النَّوْرُوزي، وثالثهم فيروز الرّكني نائب مقدّم المماليك كان.

وتوفي الأميرُ حمزة بن قَرَايُلك ـ واسم قرايلك عثمان بن طُرْعَلِي ـ صاحب ماردِين وغيرها من ديار بكر، في أوائل شهر رجب؛ ووصل الخبرُ بموته إلى القاهرة في العشرين من شعبان؛ وكان غيرَ مشكور السّيرة عَلَى قاعدة أوباش التركمان الفَسَقة.

وتوفي الأميرُ سيف الدين طوخ بن عبد الله الأبو بكري المؤيَّدي نائب غزّة، خارج غزّة، قتيلاً بيد العربان الخارجة عن الطاعة، في أواخر ذي الحجة؛ وتولّى نيابة غزّة بعد الأميرُ يَلْخُجَا من مامِش الساقي الناصري. وكان أصلُ طُوخ هذا من مماليك الملكِ المؤيد شيخ وخاصْكِيَّته، وتأمّر بعد موته بالبلاد الشأمية، ثم صار

---

(١) أي الطبيبين العفيف الأسلمي رئيس الأطباء، وخضر الطبيب. وقد وسَّطهما (قتلهما) برسباي عام ٨٤١ هـ لاعتقاده أنهما قصّرا في علاجه. ـ راجع حوادث شوّال من سنة ٨٤١ هـ.

أَتابكَ غزة سنين طويلة، إلى أَن نقله الملكُ الظاهر جَقمق إلى إمرةِ مائةٍ وتقدمةِ ألفٍ بدمشق. ثم ولّاه بعد مدة يسيرة نيابة غزّة، بعد موت الأمير طوخ مازي الناصري، فدام عَلَى نيابتها إلى أن خرج من غزة، وواقَع العربانَ وكسرهم؛ وبعد كسرتهم تهاون في أمرهم، ونزل بمكان، فعادوا نحوه وهجموا عليه، فركب بمَن معه وقاتلهم حتى قُتل هو وجماعة من مماليكه وغيرهم. وكان شجاعاً مِقداماً إلّا أنه كثير الطمع.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّة أذرع وخمسة عشر إصبعاً. مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعاً وأربعة عشر إصبعاً.

* * *

السنة الثامنة من سلطنة الملك الظاهر جقمق على مصر

وهي سنة تسع وأربعين وثمانمائة.

فيها توفي قاضي القضاة شمسُ الدين محمد بن إسماعيل بن محمد الوَنائي[1] الشافعي، الفقيه العالِم، معزولاً عن قضاء دمشق، بالقاهرة، في يوم الثلاثاء سابع عشر صفر، ودُفِنَ من الغد بالقرافة، وصَلّى عليه رفيقُه في الاشتغال، قاضي القضاة شمسُ الدين محمد القاياتي[2] الشافعي. ومولده في شعبان سنة ثمانٍ وثمانين وسبعمائة ببلده، ثم انتقل إلى القاهرة، وطلب العلم وحفظ «التنبيه»[3] في الفقه، وعدّة مختصرات، وأقبل على الاشتغال، ولازم علماء عصره. وأول اشتغاله كان في سنة سبع وثمانمائة. وتكسّب بتحمُّل الشهادة مدة إلى أن برع في الفقه والعربية والأصول، وتولّى مشيخةَ التنكزية بالقرافة، ثم تدريسَ الفقه بالشَّيْخونية. ثم طلبه

---

(١) نسبة إلى قرية «ونا» بصعيد مصر الأدنى، من الأعمال البهنساوية. (معجم البلدان).

(٢) نسبة إلى أ القايات، من الأعمال الإطفيحية. (الانتصار لابن دقماق).

(٣) التنبيه في فروع الشافعية، للشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن علي الفقيه الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦ هـ. (كشف الظنون).

الملكُ الظاهر جَقْمَق، وولّاه قضاءَ الشافعية بدمشق، من غير سعي، في سنة ثلاث وأربعين، فباشر قضاءَ دمشق بعفّة، وعُرف بالصيانة والديانة، إلى أن عُزل وعاد إلى القاهرة؛ ثم وَلِيَها ثانياً، فباشرها أيضاً مدة؛ ثم عُزل وقَدِمَ القاهرة وتولّى تدريسَ قبّة الإمام الشافعي، إلى أن مات في التاريخ المذكور. وكان معدوداً من العلماء، وهو أحد مَن جمع بين معرفة المنقول والمعقول رحمه الله.

وتوفي الأمير الكبير سيفُ الدين يَشْبَك بن عبد الله السُّودوني، المعروف بالمُشِدّ، أتابكُ العساكر بالديار المصرية، في يوم الخميس ثالث شعبان؛ وحضر السلطانُ الصلاةَ عليه بمُصلاة المؤمني. وتولّى الأتابكيةَ من بعده الأميرُ إينالُ العلائي الناصري الدُّوَادَارُ الكبير. وكان أصل يَشْبَك هذا من مماليك سُودون الجِلْب نائب حلب، ومات عنه، فباعه الأميرُ يَشْبَك الساقي الأعرج، وهو يومَ ذاك نائبُ قلعة حلب، للأمير طَطَر، فأعتقه طَطَر وجعله من جملة مماليكه؛ فنازعه بعد مدة الأميرُ أَيْتَمُشْ الخضري، وهو يوم ذاك متحدّث عَلَى أيتام الملك الناصر فرج، وطلبه منه فادّعى طَطَر أنه اشتراه من يَشْبَك الساقي الأعرج، وهو وصيُّ سُودون الجِلْب، فقال أَيْتَمُشْ: بَيْع يَشْبَك له غير صحيح، لأن سُودون الجِلْب انحصر إرثُه في أولاد الملك الناصر، وأنا المتحدّث على أولاد الملك الناصر، فاشتراه طَطَر ثانياً منه بمائة دينار.

ثم جعله طَطَر شادَّ شرابِ خاناته، حتى تسلطن، فأنعم عليه بإمرة طبلخاناه، وجعله شادَّ الشرابِ خاناه السلطانية، فدام عَلَى ذلك سنين، إلى أن أنعم عليه الملك الأشرف بَرْسْباي بإمرةِ مائةٍ وتقدمةِ ألفٍ بديار مصر، ثم جعله حاجبَ الحجّاب بعد قَرْقَماس الشعباني بعد توجّهه إلى نيابة حلب؛ ثم نقله الملكُ الظاهر جَقْمَق في أوائل سلطنته إلى إمرة مجلس، بعد آقْبَغَا، ثم إلى إمرة صلاح عوضاً عن آقْبَغَا التِّمْرَازِي أيضاً؛ ثم بعد أشهر خلع عليه باستقراره أتابكَ العساكر بالديار المصرية، بعد قدومه من بلاد الصعيد، عوضاً عن آقْبَغَا التِّمْرازِي أيضاً بحكم انتقال آقْبَغَا إلى نيابة دمشق، بعد خروج إينال الجَكَمي عن الطاعة؛ كلُّ ذلك في أشهر قليلة من سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة. فدام يَشْبَك في الأتابكية سنينَ ونالته السعادة، وعظُم وضخُم في

الدولة، إلى أن اعتراه مرض تمادى به سنين، [ويقال إنه سُمّ][١] وحصل له ارتخاء في أعضائه، ثم عُوفيَ قليلاً، وركب إلى الخدمة ثم نقض عليه ألَمُه، فمات منه بعد أيام يسيرة.

وكان عاقلاً ساكناً حشماً، إلّا أنه كان عارياً من كل علم وفن، غير أنه كان يُحسِن رميَ النُّشّاب، عَلَى عيوب كانت في رميه. وكنتُ أظنه أولاً ديِّناً، إلى أن أخذ إقطاع الأتابك آقْبَغا التِّمْرَازي، وصار بيننا[٢] وبينه مستحقُّ أيتام آقْبَغَا في الإقطاع المذكور، فإذا به لا يحلّل ولا يحرّم، وعنده من الطمع وقلّة الدين ما يقبح ذكرُه عن كائن مَن كان؛ هذا مع حدّة زائدة وشراسة خلق وظلم زائد عَلَى حواشيه وخدمه، حتى إنه كان يضرب الواحد منهم نحو ألف عصاة على الذنب اليسير. ولم يكن له مَهابة في النفوس، لكونه كان من مماليك سُودون الجِلْب، وأيضاً من قُرْبِ عهده بالفقر، وخدم الأمراء، مع مَن كان عاصره من أكابر الأمراء الظاهرية البرقوقية ممّن كان أكبرَ من أستاذه سُودون الجلب، وأعظم في النفوس ـ انتهى.

وتوفي الأميرُ سيفُ الدين قاني باي الجكَمي، حاجبُ حجّاب حلب، على هيئة نسألُ الله تعالى حُسْنَ الخاتمة، في أواخر هذه السنة. وكان من خبر موته أنه سكر ونام في أيام الشتاء، وقد أوقد النارَ بين يديه على عادة الحَلَبيين وغيرهم، فعظُم الدخان عليه وعلى مملوكه في البيت، وصارا من غلبة السُّكْر لا يهتدي كلٌّ منهما إلى الخروج من باب الدار، من عظم الدخان وشدّة السُّكْر، فماتا على تلك الحالة؛ وكُتِبَ بذلك محضر وأُرسل إلى السلطان [لئلا يتوهّم خلافه][٣].

---

(١) زيادة عن التبر المسبوك.

(٢) ذلك أن آقبغا التمرازي كان صهر أبي المحاسن زوج أُخته شقراء. ويبدو أن الخلاف بينهما جعل أبا المحاسن يتناول الأمير يشبك السودوني بالذّم في أثناء حياته وليس فقط في ترجمته له. فعلى هامش مخطوطة «حوادث الدهور» ـ نسخة لندن ـ نجد ناسخ المخطوطة يعلّق مقابل ترجمة الأمير يشبك السودوني بأن هذا النقد الشديد الذي وجّهه أبو المحاسن لهذا الأمير كان سبباً في ضربه إياه بالمقارع. (النجوم الزاهرة، الجزء السابع، طبعة كاليفورنيا، مقدمة وليم بوبر).

(٣) زيادة عن التبر المسبوك.

وكان أصلُ قاني باي هذا من مماليك الأمير جَكَم مِن عَوَض نائبِ حلب، ثم صار بعد موت الملك المؤيَّد شيخ خاصْكِيّاً. ودام على ذلك دهراً طويلاً لا يُلتفت إليه، إلى أن خَلع عليه الملكُ الظاهر جَقْمَق باستقراره في حجوبية حجّاب حلب دفعةً واحدةً من الجندية؛ وعِيبَ ذلك على الملك الظاهر لكون قاني باي المذكور لم يكن من أعيان الخاصْكِيَّة، ولا من المشاهير بالشجاعة والإقدام، ولا من العقلاء العارفين بفنون الفروسية، بل كان مهملاً مسرِفاً على نفسه عارياً من كل علم وفنّ؛ ولم يَدْرِ أحدٌ لأيّ معنى كان قدَّمه الملكُ الظاهر جَقْمَق، فرحمه الله تعالى وسامحه على هذه الفعلة، فإنها عُدّت من غلطاته الفاحشة التي ليس لها وجه من الوجوه. قلتُ: وكما جاءتْه السعادةُ فجاءَةً جاءه الموت أيضاً فُجاءةً، عفا الله عنه.

أمر النيل في هذه السنة:

الماءُ القديم خمسة أذرع وخمسة عشر إصبعاً. مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً وتسعة أصابع.

* * *

السنة التاسعة من سلطنة الملك الظاهر جقمق على مصر

وهي سنة خمسين وثمانمائة.

فيها توفي قاضي القضاة شمسُ الدين محمد بن علي بن محمد بن يعقوب القاياتي الشافعي، قاضي قضاة الديار المصرية في العشر الأخير من المحرّم؛ وحضر السلطانُ الصلاةَ عليه بمُصلاة المؤمني من تحت القلعة، ودُفن بتربة الصُّوفية خارجَ باب النصر. وكان مولده بقايات في سنة خمس وثمانين وسبعمائة تخميناً، ثم نقل إلى القاهرة مع والده، وحفظ عدّة مختصرات، وحضر دروس السراج البُلْقِيني في آخر عمره، ثم تفقّه بعَمِّه الشيخ ناصر الدين القاياتي وبجماعة أُخَر، حتى برع في الفقه والعربية والأصلين وعلميّ المعاني والبيان، وشارك في عدّة فنون، وسمع الحديث في مبدأ أمره، وحدَّث ببعض مسموعاته، وتكسّب مدّة سنين بتحمّل الشهادة

بجامع الصالح خارج باب زَوِيلة، إلى أن قُرِّرَ طالباً بالجامع المؤيَّدي داخل باب زَوِيلة.

ثم وَلِيَ تدريس الحديث بالمدرسة البرقوقية، عوضاً عن الشيخ زين الدين القِمَني، ثم استقر في تدريس الفقه بالمدرسة الأشرفية بُخُطِّ العَنْبَرِيِّين، ثم وَلِيَ مشيخةَ خانقاه سعيد السعداء، بعد موت القاضي شهاب الدين بن المحمرّة، وتصدّى للإفتاء والتدريس والإقراء سنين، وانتفع به الطلبة. وكان مع براعته في العلوم متقشفاً في ملبسه ومركبه، بل كان يمشي على أقدامه في غالب حاجاته، إلى أن طلبه الملكُ جَقْمَق ليولّيه قضاءَ الشافعية، فطلع بحضرتي على حمار إلى باب القلعة، ثم نزل ودخل إلى السلطان، وكان السلطانُ يعرفه من دروس العلاّمة علاء الدين البخاري، فكلّمه السلطان في الولاية، وأنا أظن أنه لا يقبلها أبداً، فامتنع امتناعاً ليس بذاك، ثم أجاب. وأصبح تولّى القضاءَ، ونزل وبين يديه وجوه الدولة، وهو بغير خلعة بل بطَيْلَسانه، وامتنع من لبس الخلعة، كونها تُعمل من وجه غير مقبول عنده؛ وكان ذلك في يوم رابع عشر محرّم سنة تسع وأربعين.

ونزل إلى المدرسة الصالحية بين القصرين، وقام بعضُ الرُّسُل ليدّعي على شخص، فلم يسمع دعواه، وقال: «هذه حيلة واصطلاح». ففرح الناس بولايته، وظنّوا أنه يحملهم على الحق المحض، من طريق السلف، ويُحيي سُنّةَ قضاة العدل، فوقع خلافُ ذلك كله؛ وسار على طريق القوم، وأكثَرَ من النُّوّاب، وراعى أربابَ الدولة، وتعاظَم، حتى في سَلامِه، وحبَّ[1] المنصب حُبّاً، حتى لعلّه لو عُزِلَ منه لمات أسفاً عليه؛ هذا مع ما كان عليه من العلم والعبادة والصيانة.

ولمّا أن خطب بالسلطان في يوم الجمعة على عادة قضاة الشافعية، ورَقِيَ المنبر، لم يخشع أحد لخطبته لمسكة كانت في لسانه، وعدم طلاقة، وكانت هذه عادته، حتى في تقرير دروسه. وكان يقرىء العِلمَ على قاعدة الأعاجم من كتاب في يده. وكان فيه بعض تَوَسْوُس لا سيما في تكرير النيّة عند دخوله إلى الصلاة؛ فلما وَلِيَ

(١) يقال حبَّ وأحبَّ. وكلاهما صحيح.

القضاءَ وخطب ونزل وصلّى بالسلطان، زال عنه ذلك ببـركة المنصب. وأنـا أقول: كانت حالتـه الأولى تعجبني و[تعجّب كل أحـد من](١) النـاس، ولـم تعجبني أحوالُهُ بعد ولايته، رحمه الله وسامحه.

وتوفي القاضي بهاءُ الدين محمد ابن قاضي القضاة نجم الدين عمـر بن حجي الدمشقي المولد والمنشأ، الشـافعي، ناظـر جيش دِمَشق بمنظرة(٢) البَـرَابخِيّة بخط بولاق على النيل، في يوم ثالث عشـرين صفر؛ وحضر السلطانُ الصلاةَ عليه بمصلاّة المؤمني من تحت قلعة الجبل، ودُفن بالقرافة الصغرى تجاه شبّاك الإمام الشافعي، وهو في حدود الأربعين من العمر تخميناً. وكان وَلِيَ قضاء دمشق بعد موت والـده، ثم نُقل إلى نظر جيشها، ثم قَدِمَ القاهرةَ وتولّى نظرَ جيشِ مصر، بعد عزل القاضي محبّ الدين بن الأشقر، مُضافاً لوظيفة نظر جيش دمشق، فلم ينتج أمرُه، وعُزل بعد أشهر، وخُلع عليه باستقراره على وظيفة نظرِ جيشِ دمشق. ثم قَدِمَ القاهرةَ بعد ذلك ودام بها عند حميـه المقرّ الكمـالي ابن البارِزِي كـاتبِ السرّ، إلى أن مـرض وطال مرضه، إلى أن مات في التاريخ المذكور. وكان شـابّاً طـوالاً جميلاً جسيمـاً طويـل اللحية جدّاً، كريماً مُفـرِط الكرم؛ ومـات وعليه جمـل من الديـون، فوفى مـوجودُه بقضائها، رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ عزّ الدين عبد العزيز شيخ الصَّلاحية بالقدس الشريف، في أوائل شهر رمضان، وتولّى عوضَه مشيخةَ الصلاحية جمالُ الدين عبدُ الله بن جماعـة بمالٍ بذلَه في ذلك؛ وكان عزُّ الدين فقيهاً عالماً مفتياً، وتولّى نيابةَ الحُكم بالقـاهرة سنين كثيرة، رحمه الله تعالى.

وتـوفي الشيخ الإمـام العلاّمـة شهابُ الدين أحمـد بن رجب ابن الأميـر طَيْبَغَـا المجدي الشـافعي، في ليلة العاشر من ذي القعدة، وصُلّي عليه بجامع الأزهر. وكان مـولده بـالقاهـرة في سنة سبـع وستّين وسبعمائـة، وبها نشـأ واشتغل حتى بـرع في الفقـه

(١) زيادة عن هامش طبعة كاليفورنيا.

(٢) في الضوء اللاّمع والتبر المسبوك: «قاعة البرابخية».

والعربية والحساب والفرائض والهيئة والهندسة، وصنَّف وأقرأ وأشْغل وانتفع به الناس. وكان أجلّ علومه الفرائض والحساب، ويشارك في غير ذلك.

وتوفي الشيخ الصالح المعتقد يوسف [بن محمد بن جامع][1] البحيري، نزيل جامع الأزهر، في ليلة الأحد حادي عشر ذي القعدة، وصُلّي عليه من الغد في جامع الأزهر، وحضرتُ غسله والصلاةَ عليه ودفنَه، لصحبة كانت بيننا قديماً. وكان شيخاً جميل الطريقة قائماً بقضاء حوائج الناس، ولأرباب الدولة والأكابر فيه اعتقاد كبير ومحبة، رحمه الله تعالى.

وتوفي الأميرُ سيف الدين سُودون بن عبد الله السيفي سُودون المحمدي الظاهري ـ وكانت شُهرتُه أيضاً على شُهرة أستاذه سُودون المحمدي ـ وهو على نيابة قلعة دمشق، في أوائل صفر. كان خاصكيّاً في دولة الأشرف بَرْسْباي، ورأس نوبة الجمَدَارية، ووَلِيَ نظرَ الحرم بمكة المشرّفة غيرَ مرة؛ وهو الذي هدم سقفَ البيت الحرام وجدَّده؛ وعظم ذلك على أرْباب الصلاح وأهل العلم، بل ربما خرج بعضُهم من مكة خشيةً من سخط ينزل بها، لكون البيت صار بلا سقف عدّة أيام، وكان هدمُه لسقف البيت من غير أمر يُوجِب ذلك؛ أراد بذلك التقرّب إلى الله تعالى بهذه الفعلة، فوقع في أمر كبير وهو لا يدري ـ كعادة صلَحاء الجهّال ـ فكان حاله في هذا كقول القائل: [الخفيف]

رامَ نَفعاً فَضَرّ من غَيْر قَصْدٍ ومن البرِّ ما يكونُ عُقوقَا

ومن يوم هدم سُودون سقف الكعبة، صار الطيرُ يجلس على البيت الشريف، وكان لا يجلس فوقه أبداً قبل ذلك، وقد أتعب ذلك خدمةَ الكعبة. فلو لم يكن من فعله إلّا هذا لكفاه إثماً. كلّ ذلك لظن سُودون المذكور بنفسه؛ فإنه لم يشاور في ذلك أحداً من أعيان أهل مكة ولا تكلم مع مَن له خبرة بأحوال مكة، وقد قيل: «ما خاب مَن استشار». وكان يتديّن ويَتَمعْقل ويعفّ عن الفواحش؛ غير أنه كان يقع في

(١) زيادة عن التبر المسبوك. وفي الضوء اللامع: «يوسف بن محمد بن ناصر».

أمور محذورة، منها: أنه كان إذا سلّم عليه الشخص لا يردّ سلامَه، تكبّراً وتعاظماً، وإذا ردّ فيردّ ردّاً هيناً خلاف السنَّة؛ ومنها أنه كان فيه ظلم عظيم على خَدَمه وحواشيه. هذا مع انخفاض قدره، فإنه لم يتأمّر إلّا عشرةً في دولة الملك الظاهر جَقْمَق، ثم عمل نيابةَ قلعةِ دمشق لا غير؛ على أن أُستاذه سُودون المحمدي لم يعدّ من الملوك فكيف هو!؟.

وتوفي الأميرُ سيف الدين يَلْخُجَا بن عبد الله مِن مامِش الساقي الناصري، الرأس نوبة الثاني، ثم نائب غزة، بعد مرض طويل، في أوائل جمادى الآخرة، وسنّه نيّف على خمسين سنة. وكان أصله من مماليك الظاهر برقوق؛ أخذه مع أبيه وَأُمه، ثم أنعم به على وَلده الملك المنصور عبد العزيز؛ ثم مَلّكه الملكُ الناصرُ فرج بعد أخيه عبد العزيز المذكور ورقّاه وجَعَله ساقياً، واختصّ به إلى الغاية، ورأسَ على جميع الناصرية. واستمر على رئاسته وَتحشّمه، إلى أن عزله الملكُ المؤيَّد من وظيفة السقاية، وَلم يُبعده، بل صار عظيماً أيضاً في الدولة المؤيدية، بل في كل دولة، لكرم نفسه وَلِعظمه في النفوس.

وسافر أميرَ الرّكْب الأول إلى الحجاز، في الدولة المؤيّدية، واستمر على ذلك، إلى أن أنعم عليه الملكُ الأشرف بَرْسْباي بإمرةِ عشرةٍ. وحجّ أيضاً أميرَ الرّكبِ الأول ثانياً؛ ثم توجّه إلى شَدِّ بندرِ جُدَّة وصُحبته الصاحبُ كريمُ الدين بن كاتب المناخ، بعد عزله عن الوَزر والأسْتَادّارِيّة؛ ثم ترقّى بعد ذلك إلى أن صار أميرَ طبلخاناة ورأسَ نوبة ثانياً في دولة الملك الظاهر جَقْمَق؛ ثم نُقل إلى نيابة غزة بعد موت الأمير طُوخ الأبو بكري المؤيّدي، فلم تطل مدتُه في نيابة غزة، ومرض وطال مرضُه، واستعفى وتوجّه إلى القدس عليلاً، فمات بعد أيام قليلة [ودُفِنَ بجامع ابن عثمان ظاهر غزة][1]. وكان أميراً جليلاً رئيساً وجيهاً، معظّماً في الدول، عريقاً في الرئاسة، متجمّلاً في مركبه وملبسه ومماليكه؛ وكان تركي الجنس مليح الشكل إلى الغاية، عنده سلامة باطن، مع خفّة روح وبشاشة وتواضع، مع شجاعة وإقدام وحُرمة

(١) زيادة عن التبر المسبوك.

وافرة، وكلمة نافذة؛ ولم يكن فيه ما يُعابُ، غير انهماكه في اللّذّات، وبعض سطوة على غلمانه، عفا الله عنه.

وتوفي الأميرُ الطّوَاشي صفيُّ الدين جوهرُ بن عبد الله التِّمْرَازِي الخازندارُ، ثم شيخُ الخدام بالحرم النبوي، في أواخر هذه السنة. وكان أصله من خدّام الأمير تِمْراز الظاهري النائب، وصار جَمَدَاراً في أواخر دولة الملك المؤيّد شيخ، ودام على ذلك سنين، إلى أن استقر به الملكُ الظاهرُ خازنداراً، بعد موت جوهر القُنُقْبائي؛ فلم تطل مدّتُه في الخازندارية، وعزله السلطانُ بالطّوَاشي فَيْرُوز النَّوْرُوزي الرومي رأسِ نوبةِ الجَمَدَارية، وصادره؛ ثم ولّاه مشيخةَ الخدّام بالحرم النبوي، إلى أن مات [واستقر بعده في مشيخة الحرم الطواشي فارس كبير الطواشية هناك][1]. وكان حبشيَّ الجنس مليح الشكل، كريماً حشيماً، متواضعاً لطيفاً، وعنده فهم وذوق، وله محاضرة، مع تجمّل في أحواله؛ وكان بخلاف أبناء جنسه في تحصيل المال، بل كان يصرفه في معايشه، ويقصد التّرف والعيش الرغد، ويُظهِر النعمةَ ويبرّ أصحابَه بحسب طاقته، رحمه الله تعالى.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّة أذرع وستّة وعشرون أصبعاً. مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً واثنان وعشرون إصبعاً.

* * *

السنة العاشرة من سلطنة الملك الظاهر جقمق على مصر

وهي سنة إحدى وخمسين وثمانمائة.

فيها توفي الأميرُ أيْتَمُش بن عبد الله من أُزُوباي الناصري [فرج] ثم المؤيّدي، أستادّار الصُّحبة وأحد أمراء العشرات، في يوم الأربعاء ثالث صفر؛ وتولى أستادّارية الصُّحبة بعدَه الأميرُ سُنْقُر الظاهري. وكان أيْتَمُش المذكور من جملة مَن تأمّر بعد

(١) زيادة عن التبر المسبوك.

موت الملك الأشرفِ بَرْسْباي، ثم ولّاه الملكُ الظاهر جَقْمَق أستادّارية الصُّحبة، بعد مُغُلْباي الجَقمقي بحكم خروجه إلى دمشق أميراً، فدام أَيْتَمُش المذكور على وظيفته، إلى أن مات. وكان مسيكاً مسرفاً على نفسه، لم يشهر بشجاعة ولا كرم ولا تديّن.

وتوفي الأميرُ سيف الدين قاني باي بن عبد الله الأبو بكري الناصري، المعروف بالبَهْلَوان، نائب حلب بها، في شهر ربيع الأول؛ وتولّى عوضَه نيابةَ حلب الأميرُ بَرْسْباي الناصري نائب طرابلس. وكان أصل قاني باي المذكور من مماليك الملك الناصر فرج، ثم حَطَّه الدهرُ بعد موت أُستاذه، وخدم عند جماعة من الأمراء، مثل الوزير أَرْغُون شاه النَّوْرُوزي، ومثل بَرْدبك الجَكَمي العجمي؛ ثم اتصل بخدمة طَطَر، فلما تسلطن، أنعم عليه بإمرةِ عشرةٍ؛ ثم صار أميرَ طبلخاناه في أوائل دولة الملكِ الأشرف بَرْسْباي، وثانيَ رأسِ نوبةٍ، بعد قُطُج مِن تِمْراز، بحكم انتقال قطُج إلى تقدمةِ ألف؛ فدام على ذلك سنين، إلى أن نقله الملكُ الأشرف إلى إمرةِ مائة وتقدمةِ ألف بالديار المصرية؛ ثم ولّاه نيابةَ مَلَطْيَة مضافاً على تقدمته، فباشر ذلك مدة؛ ثم أخرج السلطانُ تقدمتَه عنه، واستمر في نيابة مَلَطيَة فقط؛ ثم عزله وولّاه أتابكيةَ حلب، فدام على ذلك سنين، إلى أن نقله الملكُ الأشرفُ إلى أتابكية دمشق، بعد موت تَغْرِي بَرْدي بآمِد في سنة ست وثلاثين وثمانمائة.

والعجبُ أنه لمّا صار أتابكَ حلب، كان يومَ ذاك حاجبَ حجّابِها أُستاذُه بَرْدبك العجمي؛ ثم لمّا صار أتابكَ دمشق، كان يوم ذاك أستادّارَ السلطانِ بدمشق أُستاذُه أَرْغُون شاه النُّوْرُوزي الأعور؛ فانظر إلى حركات هذا الدهر وتقلباته!.

واستمر قاني باي في أتابكية دمشق، إلى أن خرج الأتابكُ إينال الجَكَمي نائبُ الشام عن طاعة الملكِ الظاهر جَقْمَق، فوافقه قاني باي هذا، بل وحرّضه على الخروج عن الطاعة ليصل بذلك لأغراضه؛ فلم تكن موافقتهُ إلّا مدّةً يسيرةً، وأرسل إليه الملكُ الظاهر جَقْمق من مصر يَعِده بأشياء إن ترك موافقةَ الجَكَمي وعاد إلى طاعته؛ ففي الحال عاد إلى طاعة السلطان وخذل إينالَ الجَكَمي، بعد أن كان هو أكبر الأسباب في خروجه؛ فنقله السلطانُ إلى نيابة صَفَد، بعد عزل إينال العلائي

الناصري عنها، وقدومه إلى مصر أمرَ مائة ومقدّمَ ألف بها؛ ثم نقله إلى نيابة حماة، بعد عزل أُستاذه بَرْدبك العجمي عنها؛ ثم نُقل إلى نيابة حلب بعد عزْل الأمير قاني باي الحمزاوي عنها، وقدومه إلى القاهرة أميرَ مائة ومقدّمَ ألف بها، على إقطاع شاد بك الجكمي، بحكم استقرار شاد بك في نيابة حماة، عوضاً عن قاني باي المذكور. واستقر قاني باي في نيابة حلب، إلى أن مات، وهو في عشر الستّين. وكان مليح الشكل متوسط السيرة، مسرفاً على نفسه، لم يشهر بشجاعة ولا معرفة بفنٍّ من الفنون؛ وكان يلقّب بالبهلوان[1] على سبيل المجاز لا على الحقيقة، رحمه الله.

وتوفّي الأميرُ سيف الدين إينال بن عبد الله الششماني الناصري [فرج] أتابكُ دمشق بها، في جمادى الأولى، وهو في عشر الستّين. وكان أيضاً من مماليك الملك [الناصر] فرج، وتأمّر عشرةً في أيام أستاذه، ثم نُكب وتعطّل مدة سنين، إلى أن أنعم عليه الأتابك طَطَر بإمرة عشرة، وصار من جملة رؤوس النُّوَب ثم ولّاه الملك الأشرفُ حسبةَ القاهرة سنين، ثم عزله؛ ثم نقله بعد مدة إلى إمرة طبلخاناه؛ ثم صار ثانيَ رأسِ نَوبة، وسافر أميرَ حاجِّ المحمل؛ وكان سافر أميرَ الركبِ الأول قبل ذلك بسنين؛ ثم وَلّاه الأشرفُ نيابةَ صَفَد بعد موت الأمير مُقبل الحُسامي الدّوَادَار، فلم ينتج أمرُه في صَفَد لرخو كان فيه، وعدم شجاعة، وعزله السلطانُ عن نيابة صَفَد. ثم أنعم عليه بإمرةِ مائةٍ وتقدمةِ ألفٍ بدمشق، فدام على ذلك سنين إلى أن أقرَّه الملكُ الظاهر جَقْمَق أتابكاً بدمشق، بعد توجُّه قاني باي البهلوان إلى نيابة صفد، فدام على ذلك إلى أن مات. وكان ديّناً عفيفاً عن الفواحش، إلاّ أنه لم يشهر بشجاعة ولا كرم.

وتوفي الأميرُ سيف الدين بَرْسْباي بن عبد الله من حمزة الناصري، نائبُ حلب، بها أو بظاهرها، بعد أن استعفى عن نيابة حلب، لطول مرضه. وَكان أيضاً من مماليك الملك الناصر فرج ومن خاصْكيَّته؛ ثم صار من جملة أُمراء دمشق؛ ثم أمسكه الملكُ المؤيّد شيخ وحبسه سنين؛ ثم أطلقه، فدام بطّالاً، إلى أن أنعم عليه الأتابكُ طَطَر بإمرة بدمشق؛ ثم ولّاه الملكُ الأشرف حجوبيةَ الحجّاب بدمشق، فدام

(١) وهو لقب كان يطلق على مَن يجيد الصراع.

على الحجوبية سنين طويلة، ونالته السعادة، إلى أن نقله الملكُ الظاهرُ جَقْمَق إلى نيابة طَرَابُلس، بعد قاني باي الحمزاوي، بحكم انتقال الحمزاوي إلى نيابة حلب، بعد تولية جُلْبَان على نيابة دمشق، بحكم موت آقبَغَا التِّمرازِي؛ فدام بَرْسْباي في نيابة طرابلس سنين، إلى أن نُقل إلى نيابة حلب، بعد موت قاني باي البهْلوان؛ فدام على نيابة حلب مدة، ومرض وطال مرضه، إلى أن استعفى، فأُعْفي، وخرج من حلب إلى جهة دمشق، فمات في أثناءِ طريقه. وكان جليلاً حشماً ديِّناً عفيفاً عن المنكرات والفروج؛ وكان شديداً على المسرفين، فإنه كان يُدْخَلُ إليه بالسارق أو قاطع الطريق فيقول: «خذوه إلى الشرع»، ويُدْخَلُ إليه بالسكران، فيضربه حدوداً كبيرة. وفي الجملة إنه كان ديِّناً خيِّراً، رحمه الله تعالى.

وتوفي قاضي قضاة دمشق وعالِمَها ومُفتِيهَا وفقيهُهَا، تقيُّ الدين أبو بكر، الدمشقي الشافعي، المعروف بابن قاضي شُهبة[1]، في ذي القعدة بدمشق فجاءة بطّالاً، بعد أن انتهت إليه الرئاسة في فقه مذهبه وفروعه. وكان وَلِيَ قضاءَ دمشق، وخَطب في واقعة الجكمي للملك العزيز يوسف، فحقد عليه الملكُ الظاهرُ جقْمَق ذلك، وعزله، إلى أن مات، بعد أن تصدّى للإفتاء والتدريس سنين كثيرة، وانتفع به غالبُ طلبة دمشق، وصنّف التصانيف المفيدة، رحمه الله.

وتوفي الأمير الطّواشي صفيّ الدين جوهر المَنْجَكي نائبُ مقدَّمِ المماليك السلطانية، معزولاً، في أول ذي الحجة. وَكان أولاً من جماعة طَوَاشيّة الأطباق، أعني أنه كان مقدّمَ طبقة المقدّم، حتى ولّاه الملكُ الظاهرُ جَقْمَق نائبَ مقدّمِ المماليك، بعد عزل فيروز الرُّكني الرومي عنها، فدام على ذلك سنين، ثم عزل بجوهر السيفي نَوْروز، إلى أن مات. وهو صاحبُ المدرسة التي أنشأها برأس سُوَيقة مُنعم، تجاه مُصلاة المؤمني، وأوقف عليها وقفاً بحسب حاله.

---

(١) هو أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الأسدي الشُّهبي الدمشقي. اشتهر بابن قاضي شُهبة لأن أبا جدّه (نجم الدين عمر الأسدي) أقام قاضياً بشُهبة (من قرى حوران) أربعين سنة. ـ انظر الأعلام: ٢/٦١، وفيه مصادر ترجمته.

وتوفي الشيخ المسند المعمر، القاضي عزّ الدين عبد الرحيم [بن محمد بن عبد الرحيم][1]، ابن الفرات الحنفي، أحدُ نوّاب الحكم، في يوم السبت سادس عشرين ذي الحجة. وكان له رواية وسند عالٍ في أشياء كثيرة سماعاً وإجازةً، وحدَّث سنين كثيرة، وصار رُحلةَ زمانه؛ ولنا منه إجازة بجميع سماعه ومَرْوِيّاته، وقد استوعبنا ترجمته في غير هذا الكتاب، رحمه الله.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أحد عشر ذراعاً واثنا عشر إصبعاً. مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً وأربعة عشر إصبعاً.

* * *

السنة الحادية عشرة من سلطنة الملك الظاهر جقمق على مصر

وهي سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة.

فيها توفي الشيخُ برهان الدين إبراهيم بن خِضْر العثماني الشافعي، أحدُ فقهاء الشافعية، في ليلة خامس عشر المحرَّم. وكان فاضلاً فقيهاً. تفقّه بالقاضي شهاب الدين بن حجر وبغيره، ودرَّس وأقرأ، وعُدّ من الفضلاء، إلّا أنه كان دَنس الثياب، غير ضَوِيء الهيئة، رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ شهاب الدين أحمد بن عثمان الرِّيشِيّ[2] الشافعي، في يوم الأربعاء حادي عشرين المحرّم. وكان له اشتغال قديم، مع توقّف في ذهنه وفهمه، ثم ترك الاشتغال، وتردّد إلى أرباب الدولة لطلب الرزق. على أنه كان ديِّناً خيراً، وعنده سلامة باطن، رحمه الله تعالى.

وتوفي الأميرُ سيف الدين آقْطُوه بن عبد الله الموساوي الظاهري، بَطّالاً، في ليلة الثلاثاء ثاني عشر صفر، ودُفن من الغد.

(١) زيادة عن الأعلام. وهو ابن المؤرّخ محمد بن عبد الرحيم المعروف بابن الفرات أيضاً.
(٢) نسبة إلى كوم الريش من ضواحي القاهرة. وفي التبر المسبوك: «عُرِف بالكوم الريشي».

وكان أصله من مماليك الملك الظاهر برقوق، وصار من جملة الدَّوَادارية في الدولة المؤيَّدية شيخ، ثم تأمَّر عشرةً بعد موته، ودام على ذلك دهراً طويلاً؛ وصار مَهْمَنْداراً [في الدولة الأشرفية][(١)]؛ ثم توجّه في الرّسلية إلى القان مُعِين الدين شاه رُخْ بن تيمور لنك؛ ثم عاد ودام على ما هو عليه، إلى أن أنعم عليه الملكُ الظاهر جَقْمَق بإمرة طبلخاناه؛ ثم نفاه بعد سنين؛ ثم أعاده، وأنعم عليه بإمرة عشرة؛ ثم نفاه ثانياً؛ وشُفع فيه بعد مدة، فعاد إلى القاهرة بطّالاً، ودام بها إلى أن مات.

كان تركي الجنس، ويتفقّه ويشارك في ظواهر مسائل، على قاعدة غالب فقهاء الأتراك. سألني مرة سؤالاً، وابتدأ في سؤاله بقوله: «بابٌ»، فقبل أن يُتمّ السؤالَ، قلتُ له: «بابٌ مرفوع على أيّ وجه؟»، فسكت، ثم قال: «هذا شيء لم أسمعه منذ عمري»، فضحك جميع مَن حضر، ولم يسألني بعدها، إلى أن مات. وكان عفيفاً عن الفواحش، إلّا أنه كان فيه البخل وسوء الخلق وتعبيس الشكالة، رحمه الله.

وتوفي الشيخ زين الدين عبد الرحمن [بن محمد بن محمد بن يحيىٰ][(٢)] السَّنْدَبِيسي الشافعي، أحدُ فقهاء الشافعية، في ليلة الأحد سابع عشر صفر، ودفن من الغد؛ وكان معدوداً من فقهاء الشافعية، رحمه الله.

وتوفي الأميرُ سيف الدين أَسَنْبَاي بن عبد الله الظاهري الزَّرَدْكَاش كان[(٣)]، أحد أمراء العشرات، في العشر الأخير من صفر، عن سِنٍّ عالٍ. وكان من أعيان مماليك الملك الظاهر برقوق، وممنّ صار في أيام أستاذه زَرَدْكاشاً. وأسر في كائنة تيمور، وحظي عنده، وجعله تيمورلَنْك زَرَدْكَاشَهُ، ودام عنده إلى أن مات؛ فقَدِمَ القاهرةَ، ودام بها إلى أن استقرّ في دولة الملك المؤيد أميرَ عشرةٍ وزَرَدْكَاشاً كبيراً، وصار مقرّباً عند الملك المؤيد إلى الغاية. ثم عُزل عن الزردكاشية بعد موت الملك المؤيد،

---

(١) زيادة عن التبر المسبوك. والمراد أيام الأشرف برسباي.

(٢) زيادة عن التبر المسبوك. والسندبيسي نسبة إلى سندبيس من قرى القليوبية.

(٣) إضافة الفعل «كان» في آخر العبارة بعد ذكر الوظيفة يعني أن صاحب الترجمة كان سابقاً في هذه الوظيفة وهو غير ذلك في هذا الوقت. ومثله إذا أُضيف هذا الفعل إلى رتبة عسكرية، كأن يقال: أمير عشرة كان. وهي صيغة شائعة الاستعمال.

ودام على إمرةِ عشرةٍ. وتولّى نيابةَ دِمْياط غيرَ مرة، إلى أن مات بالقاهرة على إمرته. وكان رجلاً عاقلاً، عارفاً بمداخلة الملوك وبصناعة الزرَدْخَاناه؛ وكان حلو المحاضرة إِخْبَارِيّاً حافظاً لما رأى من الوقائع والحروب وأحوال السلف؛ وكانْ حسن السَّمت، عليه أُنْسٌ وخَفَر، ولكلامه رونق ولذّة في السمع؛ نقلتُ عنه كثيراً في «المنهل الصافي» وغيره من أخبار خُجْداشِيته الظاهرية وغيرهم، وكان بيني وبينه صحبة أكيدة. ولقد بلغني بعد موته أنه كان سيّداً شريفاً من أشراف بغداد الأتراك، ونُهِبَ منها في سبي في بعض السنين، ولم أسأله أنا عن ذلك، والله أعلم بصحة هذا القول.

وتوفي الوزيرُ الصاحب كريمُ الدين عبد الكريم ابن الوزير الصاحب تاج الدين عبد الرزاق، بن شمس الدين عبد الله، المعروف بابن كاتب المناخات، بالقاهرة بطّالاً، بعد مرض طويل، في يوم الأحد، لعشر بقين من جمادى الآخرة، وسنُّه نيّف على الخمسين. وكان لا بأس به بالنسبة لأبناء جنسه الكَتَبَة[1]؛ وقد تقدّم أنه وَلِيَ نظرَ ديوان المُفْرَد، ثم الوَزَرَ غيرَ مرة، ثم الأستادّارية مرتين، ثم كتابةَ السرّ، ثم الوَزَرَ، ونُكب وصودر وضُرب بالمقارع في بعض تعطُّله، وتولّى الكشفَ بالوجه القبلي، ثم توجّه إلى جُدَّة، ثم أُعيد إلى الوَزَر سنين، ثم استعفى، وتولّى عوضَه الوَزَرَ الصاحبُ أمينُ الدين إبراهيم بن الهَيْصَم، رحمه الله.

وتوفي الأميرُ سيف الدين شاهينُ بن عبد الله السيفي طُوغان الحسني الدَّوَادار، وهو على نيابة قلعة دمشق، في جمادى الأولى. وكان أصله من مماليك طُوغان الحسني الدوادار، واتصل بعده بخدمة الملك الظاهر جَقْمَق، في أيام إمرته، وصار دَواداره؛ ولمّا تسلطن، جعله بعد مدة دواداراً ثالثاً، ثم ولّاه نيابةَ قلعة حلب؛ فوقع له بحلب أمور وعُزل منها، ونُقل إلى نيابة قلعة دمشق، إلى أن مات. وكان يصبغ لحيتَه بالحنّاء، مع بُخل وشُحّ، حتى على نفسه، عفا الله عنه.

---

(١) المراد بذلك الأقباط. والملاحظ في هذا العصر كثرة استعمال الأقباط في الوظائف الديوانية. وكانت الوزارة هي أرفع وظائف الكتّاب أرباب الأقلام.

وتوفي الناصري محمد بن علي بن شعبان ابن السلطان حسن بن محمد بن قلاوون، أحد الأجناد وندماء الملك الظاهر جَقْمَق، في حياة أبيه وأُمه، في يوم الخميس سابع جمادى الآخرة. وكان لا بأس به، إلّا أنه كان في مبدإ أمره فقيراً؛ وجاءته السعادة، لصحبته الملك الظاهر جَقْمَق، فجاءة، فكان حاله كقول القائل: [الطويل]

ويا وَيْلَ مَن ذَاقَ الغنَا بعد حَاجَةٍ　　　يَمُوتُ وقَلْبُه من الفَقْر وَاجِسُ

فكان كذلك؛ إلّا أنه كان بشوشاً، ويُحسِن رميَ النُّشَّاب على قدر حاله، ويجيد الغناء والموسيقى. وفي الجملة كان له محاسن، مع أصل وعراقة، رحمه الله.

وتوفي الشيخ زين الدين رضوان بن محمد بن يوسف العُقْبي الشافعي، مستملي الحديث، في يوم الاثنين، ثالث شهر رجب. وكان ديِّناً فاضلاً حسن السَّمت منوّر الشيبة، رحمه الله تعالى.

وتوفي الشيخ الإمام العالِم المعتقد، فتح الدين أبو الفتح محمد بن أحمد ابن الشيخ وفاء الإسكندري الأصل، المصري المولد والمنشأ والوفاة، المالكي الواعظ، المعروف بابن أبي الوفا، في يوم الاثنين أول شعبان. وكانت جنازتُه مشهودة ودفن عند آبائه بتربتهم بالقرافة، بعد أن صُلِّيَ عليه بجامع عَمرو بمصر القديمة. وكان أعلم بني الوفاء قاطبة، وأشعرهم في زمانه؛ ومات وسنُّه نيّف على ستّين سنة تخْمِيناً. وكان له فضل غزير وشعر رائق كثير، ذكرنا منه قطعة جيدة في «الحوادث»، ونذكر منه هنا قصيدة وهي التي أولها: [الكامل]

الرُّوح مِنِّي في المحبة ذاهِبَهْ　　　فاسْمَحْ بِوَصْلٍ لا عَدِمْتُكَ ذَا هِبَهْ

عُرِفَتْ أياديك الكرامُ بأنَّها　　　تأسو الجِرَاحَ من الخلائق قاطِبَهْ

قد خَصَّك الرحمنُ منه خصائصاً　　　فَحَلَلْتَ من أَوْج الكمالِ مَراتِبَهْ

وبِنُورِكَ الوضَّاح في غَسَقِ الدُّجَى　　　أَطْلَعْتَ في فَلَكِ الوفاءِ كواكِبَهْ

ما زلتَ بالمعروف تُعْرَفُ دائماً　　　وتُنِيلُ مَن آوَى إليك مَطَالِبَهْ

لم يبقَ في قلبي سواك من الورى　　　كَلَّا، ولا فيه لغيرك شائبَهْ

بِـكَ يَمْنَـحُ اللَّهُ الـوُجُـودَ بِجُـودِه وَيَـبُثُّ فيـه عـطاءَه ومـواهِبَـهْ
وتَـطِيبُ منـك أُصـولُـهُ وفـروعُـهُ وتَـعِيشُ أرواحُ لِبُـعْـدِكَ ذائبـهْ
رَجَـع الوفـاءُ بنـورِ وَجْهِـك غـامِـراً أَغْـذَيْـتَ لِلوُرَّادِ مـنـه مشَـارِبَـهْ
وجَمِيـلُ سَتْرِك بـالـوَفَـا عَمَّ الـورَى فمَن احتمى فيـه سَتَرْتَ معـايِبَـهْ

وشعره كله في هذا النسق، رحمه الله.

وتـوفي الشهابي أحمـدُ ابن الأمير نَـوْرُوز بن عبـد الله الخضـري الـظاهـري، المعروف بشادّ الأغنـام، في يوم الأحـد، رابع عشـر شعبان. وكـان أبوه نَـوْرُوز من مماليك الملك الظاهر برقوق، وتولّى حجوبيةَ حلب في نيابة الوالد على حلب، ثم نُقل بعد مدة طويلة إلى حجوبية دمشق، أو إلى إمرةٍ بها، فلم تطل مدته بها، وقَبض عليه الأميرُ تَنَم الحسني نائب الشام، لمّا خرج عن الطاعة، في سنة اثنتين وثمانمائة، ووسَّطه. ونشأ ولدُه هذا يتيمـاً على حالـة رديئة من الفقـر والإفلاس، إلى أن خـدم الملكَ الظاهر جَقْمَق في أيام إمرته، وطالت أيامه في خدمته؛ فلما تسلطن قرَّبه وأنعم عليه بإمرةٍ بالبلاد الشاميـة، فلم يسكن الشامَ، ودام بمصـر، حتى أنعم عليه الملكُ الظاهر جَقْمَق أيضاً بإمرةِ عشرةٍ زيادة على ما بيـده بالشـام، ثم جعله شادَّ الأغنـامِ بالبلاد الشامية، فنالته السعادة من ذلك، وصار له كلمـة في الدولـة، وترأس واقتنى المماليك والخيـول، وبقي له حـاشية واسم في المملكـة. فعند ذلـك انتهز أحمـد المذكور الفرصة، وانهمك في اللذّات، فما عفَّ ولا كفَّ. وبينما هو في ذلك، طَرَقَه هادمُ اللذات، ومات بعد مرض طويل، وقـد استقر أميـرَ الرَّكْب الأول من الحـاج، فاستقر الأميرُ قانم التاجر المؤيَّدي عوضه في إمرة الركب.

وكان أحمدُ المذكور مهملاً، عارياً من كل علم وفن، أجنبياً عن كل فضيلة. وكان يتلفّظ في كلامه بألفاظ العامّـة السوقـة، مثل: «أقـاتل على حسبي» و«أخـذت رحلي»، وأشياء من هذا النسق. وكان مع ذلك يلثغ بالسين، ويُرْمَى بعظائم، من ترك الصلاة، وأخذ الأموال، وغير ذلك.

وتـوفي الأمير سيف الـدين تَغْرِي بَـرْمَش بن عبد الله الجـلالي النـاصـري، ثم

المؤيَّدي الفقيه، نائب قلعة الجبل، بطّالاً بالقدس الشريف، في يوم الجمعة ثالث شهر رمضان، وقد أناف على الخمسين سنة؛ هكذا ذكر لي من لفظه، وقال لي إن أباه كان مسلماً في بلاده، واشتراه بعض التجّار ممّن سرَقه، وابتاعه منه خواجا جلالُ الدين، وقَدِمَ به إلى حلب، فاشتراه الملكُ الظاهر جَقْمَق منه، وقد توجّه جقمق، وهو يوم ذاك خاصْكِيّاً، إلى الأمير جَكَم نائب حلب بكامِلِيّةِ الشتاء من السلطان على العادة في كل سنة. وقَدِمَ به جقمق إلى القاهرة، وقَدَّمه إلى أخيه جارْكس القاسمي المصارع، فلما عصى جاركَس، أخذه الملكُ الناصر فرج فيما أخذ لجاركَس.

ودام تَغْرِي بَرْمَش بالطبقة بقلعة الجبل، حتى ملكَ الملكُ المؤيَّد شيخ الديار المصرية، فأخذه من جملة مماليك الملك الناصر فرج، وأعتقه، فادَّعاه الظاهرُ جَقْمَق، وهو يومَ ذاك أميرُ طبلخاناه وخازندارٌ، فدفع له الملك المؤيّد دراهمَ ومملوكاً يسمى قُمَارى، وأبقى تَغْرِي بَرْمَش على ملكه. ثم صار تغري بَرْمَش بعد موت الملك المؤيد خاصْكِيّاً، إلى أن أخرجه الملكُ الأشرفُ من الخاصكية مدة سنين، ثم أعاده بعد مدة. ودام على ذلك إلى أن تسلطن الملكُ الظاهرُ جَقْمَق، فنفاه إلى قُوص، لكونه خاشَنه في الكلام بسبب الإمرة، ثم شفع فيه بعد مدة، وأنعم عليه بإمرةِ عشرةٍ، واستقر به في نيابة قلعة الجبل، بعد موت مَمْجِق النَّوْرُوزي. وقرّبه الملكُ الظاهر وأدناه، واختصّ به إلى الغاية، وصار له كلمة في الدولة، فلم يُحسِن العِشرة مع مَن هو أقرب منه إلى الملك، وأطلق لسانَه في سائر أمور المملكة، حتى ألجأه ذلك إلى سفر الروم في أمر من الأمور، ثم عاد فدام على ما هو عليه؛ ثم تكلم في أمر المجاهدين وأنهم تراخوا في أخذ رُودِس، فعيّنه السلطانُ إلى غزوة رودس، فسافر وعاد وهو على ما هو عليه، فنفاه السلطانُ إلى القدس بطَّالاً، فتوجّه إليه ودام به إلى أن مات.

وكان تَغري بَرْمَش المذكور فاضلاً عالماً بالحديث ورجاله، مفنّناً في أنواعه، كثير الاطّلاع، جيّد المذاكرة بالتاريخ والأدب وأيام الناس، وله نظم باللغة العربية والتركية، ويكتب المنسوب، ويشارك في فنون كثيرة، وله محاضرة حسنة ومذاكرة

حلوة؛ هذا مع معرفته بفنون الفروسية المعرفةَ التامة كآحاد أعيان أمراء الدولة، بل وأمثل منهم؛ ولا أعلم في عصرنا مَن يشابهه في المماليك خاصّة، لما اشتمل عليه من الفضيلة التامّة من الطرفين: من فنون الأتراك وعلوم الفقهاء، ومَن هو منهم في هذه الرتبة، اللّهمّ إن كان الأمير بَكْتَمُر السعدي فنَعم، وإن فاقه بكتمر بأنواع العلاج والقوة، فيزيده تَغْري بَرْمَش هذا في الكتابة ونظم الشعر والاطّلاع الواسع.

وفي الجملة أنه كان من الأفراد في عصره في أبناء جنسه، لولا زهو كان فيه وإعجاب بنفسه، والتعاظم بفنونه، والازدراء بغيره، حتى إنه كان كثيراً ما يقول: «يأتي واحد من هؤلاء الجهلة يمسك كتاب في الفقه فيحفظه في أشهر قليلة، ثم يقول في نفسه: أنا بقيت فقيهاً! الفقيه مَن يعرف العلم الفلاني ثم العلم الفلاني. إيش هؤلاء الذين لا يعرفون معنى بسم الله الرحمن الرحيم!». فلهذا كان غالبُ مَن يتفقّه من الأتراك يغضّ منه ويحطّ عليه؛ وليس الأمرُ كذلك؛ وأنا الحقَّ أقوله، وإن كان فيهم مَن هو أفقه منه، فليس فيهم أحد يُدانيه لكثرة فنونه، ولاتّساع باعه في النظر والاطّلاع والفصاحة والأدب. وسوف أذكر من شعره ما يؤيد ما قلته؛ فمن شعره في مليح يُسمَّى شُقَيْر: [البسيط]

تُفَّاحُ خَدّيْ شُقَيْرٍ فيه مِسْكيٌّ لونٍ زَهَا وأَزْهَرْ
قد بانَ منه النَّوَى فأضحى زَهْرِيُّ لونٍ بِخَدٍّ مُشْعَرْ

وقد ذكرنا من شعره أكثر من هذا في تاريخنا «المنهل الصافي» في ترجمته. وأما نظمه باللغة التركية، فغايةٌ لا تدرَك. له قصيدة واحدة عارض بها «شيخي» شاعر الروم، يعجز عنها فحول الشعراء. وكان رحمه الله، من عظم إعجابه بنفسه، يقول إن الأمر سيصير إليه، مع وجود مَن هو أمثل منه بأطباق. على أنه كان غير الجنس أيضاً، ومن أصاغر الأمراء؛ ومع هذا كله كان لا يرجع عمّا فيه. قلت: هذه آفة معترضة للقول الصحيح، سامحه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين صَرْغَتْمُش بن عبد الله القَلَمْطَاوي، أحد أمراء العشرات، في يوم السبت رابع شهر رمضان. وكان أصله من مماليك الأمير قَلَمْطَاي

الدّوادار. وكان صَرْغَتمُش المذكور لا للسيف ولا للضيف، ولا ذات ولا أدوات.

وتوفي الأمير سيف الدين طُوغان بن عبد الله العثماني، نائب القدس، ثم حاجب حلب، ثم نائب غزّة بها، في ذي القعدة. وأصله من مماليك الأتابك أَلْطُنْبُغَا العثماني نائب الشام؛ وكان شجاعاً مِقداماً كريماً للسيف وللضيف، رحمه الله تعالى.

وتوفي قاضي القضاة شيخُ الإسلام، حافظُ المشرق والمغرب، أميرُ المؤمنين في الحديث، شهاب الدين أبو الفضل أحمد ابن الشيخ نور الدين علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن حَجَر، المصري المولد والمنشأ والدار والوفاة، العَسْقَلاَني الأصل، الشافعي، قاضي قضاة الديار المصرية وعالِمها وحافظها وشاعرها، في ليلة السبت ثامن عشرين ذي الحجة؛ وصُلّي عليه بمُصلاة المؤمني، وحضر السلطانُ الصلاةَ عليه، ودُفن بالقرافة. [ومشى أعيان الدولة في جنازته من داره بالقاهرة من باب القنطرة إلى الرملة؛ وكانت جنازته مشهودة إلى الغاية][1] حتى قال بعض الأذكياءِ إنه حَزَر مَن مشى في جنازته نحو الخمسين ألف إنسان. وكان لموته يوم عظيم على المسلمين؛ ومات ولم يخلِّف بعد مثله شرقاً ولا غرباً، ولا نظر هو مثل نفسه في علم الحديث.

وكان مولده بمصر القديمة في ثاني عشرين شعبان، سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة؛ وقد أوضحنا أمره في ترجمته في «المنهل الصافي» من ذكر سماعاته ومشايخه وأسماء مصنفاته. وكان رحمه الله تعالى إماماً عالماً حافظاً شاعراً أديباً مصنّفاً مليح الشكل منوَّر الشيبة، حلو المحاضرة إلى الغاية والنهاية، عذب المذاكرة مع وقار وأُبّهة وعقل وسكون وحلم وَسياسة ودربة بالأحكام، ومداراة الناس. قَلَّ أن كان يخاطب الرجلَ بما يكره، بل كان يحسن إلى مَن يسيء إليه، ويتجاوز عمّن قدر عليه، هذا مع كثرة الصوم ولزوم العبادة والبرّ والصدقات؛ وبالجملة فإنه أحد مَن أدركنا من الأفراد. ولم يكن فيه ما يُعاب، إلاّ تقريبُه لولده لجهلٍ كان في ولده، وسوء سيرته؛ وما عساه كان يفعل معه، وهو ولده لصلبه، ولم يكن له غيره؟.

(١) زيادة عن التبر المسبوك؛ ومعها ينتظم السياق.

وأما شعره فكان في غاية الحُسْن. ومما أنشدني من لفظه لنفسه رحمه الله: [الطويل]

خَليلَيّ ولّى العمرُ مِنّا ولم نَتُبْ ... ونَنْوِي فِعالَ الصالحاتِ ولَكِنَّا
فحتَّى متى نَبْني بُيوتاً مشِيدَةً ... وأعمارُنا مِنّا تُهَدُّ وما تُبْنى

وله: [المنسرح]

سألتُ مَن لَحْظُه وحاجِبُه ... كالقَوْسِ والسّهم مَوْعداً حَسَنا
ففوّق السَّهمَ من لواحِظهِ ... وانْقَوسَ الحاجبان واقْتَرَنَا

وله: [الطويل]

أَتى من أحِبَّائي رسولٌ فقال لي: ... تَرَفَّقْ وهُنْ واخْضَعْ تَفُزْ بِرِضَانَا
فكم عاشقٍ قاسى الهوانَ بِحُبِّنَا ... فصارَ عزيزاً حين ذاق هوانَا

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّة أذرع وثمانية عشر أصبعاً. مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعاً وثلاثة وعشرون أصبعاً.

* * *

السنة الثانية عشرة من سلطنة الملك الظاهر جقمق على مصر

وهي سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة.

فيها فشا الطاعونُ بالديار المصرية وظواهرها، وكان ابتدأ من أواخر سنة اثنتين وخمسين، في ذي الحجة، وعظم إلى أن ارتفع في شهر ربيع الأول؛ ومات فيه عالم كثير من الأعيان، من جملتهم ثلاثةُ أمراء مقدّمي ألوف، وهم: الأمير تِمْراز القُرْمُشي أمير سلاح، والأمير قَرَا خُجَا الحسني الأمير آخور، وكلاهما كان مرشّحاً للسلطنة، والأمير تَمُرْبَاي التَّمُرْبَغَاوي، رأس نوبة النوب، ومَن يأتي ذكره من الأعيان وغيرهم، رحمهم الله.

وفيها توفي الشهابي [أحمدُ بن علي بن إبراهيم][1] الهيتي [ثم القاهري الأزهري][1] أحد فقهاء الشافعية، في يوم الأحد رابع عشر المحرّم، وكان مجاوراً بجامع الأزهر.

وتوفي القاضي شهابُ الدين أحمدُ [بن علي بن عامر][1] المسطيهي[2] [ثم القاهري][1] الشافعي، أحد نوّاب الحكم بالقاهرة، في يوم الاثنين خامس عشر المحرّم.

وتوفي الشيخُ الإمام العالِم علاءُ الدين [أبو الحسن علي][1] الكِرْماني الشافعي، شيخ خانقاه سعيد السُّعَداء، في يوم الخميس ثاني صفر بالطاعون؛ وكان ديّناً فقيهاً صالحاً.

وتوفي القاضي برهانُ الدين إبراهيم [بن محمد بن إبراهيم][1] بن ظهير الحنفي، ناظر الإسطبلات السلطانية، في يوم الاثنين سادس صفر بالطاعون ودفن من الغد. وكان أحدَ حواشي الملك الظاهر جَقْمَق، وممّن نشأ في هذه الدولة.

وتوفي السيدُ الشريف علي بن حسن بن عَجْلان الحسني المكّي، المعزول عن إمرة مكة قبل تاريخه، في ثغر دِمْياط بالطاعون، في أوائل صفر. وقد تقدّم ذكر نسبه في عدة أماكن من هذا الكتاب. وكان أحذقَ بني حسن بن عَجْلان، وأفضلهم وأحسنهم محاضرة، وله ذوق وفهم ومذاكرة، رحمه الله.

وتوفي الأمير سيف الدين تِمْراز بن عبد الله القُرْمُشي الظاهري أميرُ سلاح، بالطاعون، في يوم الجمعة عاشر صفر، ودفن من الغد؛ وتولى وظيفةَ إمرةِ سلاح من بعده الأميرُ جَرِباش الكريمي قاشق. وكان تِمْرَاز من مماليك الملك الظاهر برقوق، ووقع له أمور، إلى أن تولى نيابةَ قلعة الروم؛ ثم نُقل بعد مدة إلى نيابة غزة في الدولة الأشرفية بَرْسْباي، فدام على نيابة غزة سنين، ثم عُزل، وطُلب إلى القاهرة

---

(١) زيادة عن الضوء اللامع. ـ والهيتي: نسبة إلى هيت من أعمال المنوفية.

(٢) نسبة إلى مسطاية من الأعمال الغربية (الانتصار: ٩٧/٥).

عَلى إمرةٍ مائةٍ وتقدمةِ ألفٍ بها؛ وتولى نيابةَ غزة من بعده الأميرُ إينال العلائي الناصري؛ ثم استقر بعد أشهر رأسَ نوبة النوب، بعد أُرْكماس الظاهري بحكم انتقال أركماس إلى الدوادارية الكبرى، بعد خروج أُزْبَك الدوادار إلى القدس بَطّالاً. ودام تِمْراز رأسَ نوبة النُّوَب سنين كثيرة، إلى أن نقله الملكُ الظاهر جَقمَق إلى الأمير آخوريَّة الكبرى، بَعد مَسْك جانِم الأشرفي؛ ثم صار أميرَ سِلاح بَعد أشهر، عِوضاً عن يَشْبَك السُّودوني المُشِدّ، بحكم انتقال يَشْبَك إلى الأتابكية، بعد توجُّه آقْبَغا التِّمْرازِي إلى نيابة الشام، عوضاً عن إينال الجكمي، فدام تِمْرَاز على ذلك إلى أن مات.

وكان من محاسن الدنيا، لولا إسرافه على نفسه. وقد نسبه الشيخ تقي الدين المقريزي رحمه الله في مواضع كثيرة إلى الأمير دقماق المحمدي، فقال: «تِمْراز الدّقماقي»، وليس هو كذلك، وإنما تِمراز تزوّج السِّتّ أردباي أُم ولد دقماق لا غير.

وتوفي قاضي القضاة بدرُ الدين محمد ابن قاضي القضاة ناصر الدين أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عطاء الله بن عواض بن نجا بن أبي الثناء حمود بن نهار ابن مؤنس بن حاتم بن نيلي بن جابر بن هشام بن عروة بن الزبير بن العوّام رضي الله عنه، حواريّ رسول الله ﷺ، المعروف بابن التِّنسي المالكي، قاضي قضاة الديار المصرية، في يوم الاثنين ثالث عشر صفر بالقاهرة؛ وبها نشأ تحت كنف والده، وحفظ عدّة متون وتفقّه بعلماء عصره وبرع وأفتى ودرّس وناب في الحكم سنين؛ ثم استقل بوظيفة القضاء، بعد موت قاضي القضاة شمس الدين البساطي، في سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة. ولمّا وَلِيَ القضاءَ أكبَّ عَلَى الاشتغال والإشغال. وكان مفرط الذكاء، جيد التصوّر، مع الفصاحة وطلاقة اللسان وحُسْن السيرة إلَى الغاية والنهاية، والتحرّي والتثبّت في أحكامه، والحطّ عَلَى شهود الزّور، حتى أبادهم. وكان يُحلّف حواشيه بالأيمان المغلظة عَلَى الأخذ من الناس عَلَى بابه، ثم بعد ذلك يأخذ في الفحص عليهم، ويبذل جهده في ذلك، مع ذكاء وحذق ومعرفة، لا يدخل عليه مع ذلك تنميقُ منمّق، ولا خديعة خادع. وكان يتأمل في أحكامه ومستندات الأخصام الأيامَ الكثيرةَ. وبالجملة أنه أعظم مَن رأينا من القضاة في العفّة وجودة سيرة

حواشيه الذين هم عَلَى بابه بلا مدافعة، مع علمي بأحوال مَن عاصره من القضاة وغزير علمهم؛ ومع هذا كله، ليس فيهم أحد يدانيه في ذلك، غير قاضي القضاة بدر الدين محمد بن عبد المنعم البغدادي الحنبلي، وإن كانت بضاعتُه مُزجاةً من العلوم، فهو أيضاً كان من هذه المقولة؛ وليس حسن السيرة متعلقة بكثرة العلم وَإنما ذلك متعلق بالتحرّي، والدين، والعقل، والحذق، والعفّة.

وقد حكى لي صاحبُنا محمد بن تلتي، قال: غضب عليّ السلطان بسبب تعلقات الذخيرة من جهة ميراث، ورسم أن أتوجّه إلى القاضي الحنبلي، وأن يُدَّعى عليّ عنده، ويُرسّم عليّ، فادُّعِيَ عليّ، فأجبتُ بجواب مُرْضٍ، فقال القاضي: اذهب إلى حال سبيلك، ليس لأحد عندك شيء. فقلت: أخشى من سطوة السلطان، لا بدّ أن أُقيم في الترسيم؛ فامتنع من ذلك، فقلت: أُقيم على باب القاضي كأنني في الترسيم خشيةً من السلطان؛ فأقمت نحو الشهر على بابه أحضر سِماطَه في طرفي النهار، ورُسُل السلطان تتردّ إليه، وهو يَرُدُّ الجواب بأن لا حقَّ لهم عندي. فلما أعياهم أمرُه، نقلوني من عنده إلى بيت بعض أعيان قضاة القضاة؛ ففي اليوم المذكور غرمت لحاشيته ثلاثين ديناراً، وقُرِّر عليّ نحو المائة ألف درهم للسلطان بغير وجه شرعي؛ ولم أرَ وجه القاضي المذكور في ذلك اليوم غيرَ مرة واحدة، وإنما صرتُ بين أيدي حواشيه، كالفريسة يتناهبوني من كل جهة، حتى هان عليّ أنّي أزن مهما أرادوا، وأتخلّص من أيديهم ـ انتهى.

قلت: وقد خرجنا عن المقصود بذكر هذه الحكاية عن القاضي الحنبلي، ووقع مثلُ هذا وأشباهُه لقاضي القضاة بدر الدين هذا غير مرة. ومحصول الأمر أنه كان عفيفاً ديِّناً حسنَ السيرة مشكور الطريقة، بَرِيّاً عمّا يُرمى به قضاة السوء. وكان رحمه الله له سماع كثير في الحديث وإلمام بالأدب، وله نظم جيّد. ومما نظمه في النوم في طاعون سنة سبع وأربعين، وأنشدنيه قاضي القضاة بدر الدين المذكور، إجازةً إن لم يكن سماعاً: [الوافر]

إلَـهَ الخَلْقِ قد عَظُمَتْ ذنوبي فَسامِحْ، ما لعَفْوك من مُشارِكْ

أَغِثْ يــا سيــدي عـبــداً فقيــراً أنَــاخ ببــابــك الـعــالـي ودَارِك

قلت: وهذا يشبه قولَ الحافظ شهـاب الدين أحمـد بن حجر، لنفسـه، رحمه الله: [البسيط]

سِــرْتَ وَخَــلَّفْتَــنِـي غَـرِيـبــاً فـي الـدار أُصْلَى هــوًى بِـنَــارِكْ
أَدْرِك حَـشــاً حُـرِّقَــتْ غَــرامــاً فـي رَبْـعِــك الـمُـعْـتَـلِي ودَارِك

ومن شعر القاضي بدر الدين أيْضاً، فيما يُقرأ على قافيتين، مع استقامة الوزن: [السريع]

جَفَوْتُ مَن أَهْوَاه لا عَن قِلًى فَظَلَّ يَجْفُوني يرومُ الكِفَاحْ
ثُــم وَفَــى لــي زائِــراً بَــعْــدَه فــطابَ نَشْــرٌ مِن حبيــبٍ وفَــاحْ

ومثل هذا أيضاً للحافظ شهاب الدين بن حجر العسقلاني الشافعي: [السريع]

نَسِيـمُكُـمْ يُنْعِشُـني فـي الـدُّجَى طَــالَ، فَمَنْ لِي بِمَجِيء الصبــاحْ
ويَــا صِبَــاحَ الــوَجْــه فــارَقْتُكُمْ فَشِبْتُ هَمّــاً إذْ فَقَــدتُ الصِّبَــاحْ

ومثله للشيــخ شمس الــدين [محمــد بن الحسن بن علي][1] النــواجي[2]: [الطويل]

خَلِيليَّ هــذا رَبْـعُ عَــزَّةَ فـاسْعَيَـا إليه وإن سَالَتْ[به][3] دمعي طُوفَانْ
فَجَفْنِي جَفَـا طيبَ المنَـام وجَفْنُهـا جفـاني فيـا لله من شَـرَكِ الأَجْفـانْ

ومثل ذلك، لقاضي القضاة صدر الدين علي بن الأَدَمي الحنفي، وهـو عندي مقدَّمٌ على الجميع: [السريع]

يــا مُتهِمِي بـالسُّقْمِ كُنْ مُنْجِــدي ولا تُــطلْ رَفْـضِي فــإنّـي عَـليــلْ

---

(١) زيادة عن المنهل الصافي.
(٢) نسبة إلى قرية نواج بالغربية.
(٣) ساقطة من طبعة كاليفورنيا. وهي ضرورية لاستقامة الوزن.

أنتَ خليلي فَبحَقِّ الهَوَى كُنْ لِشُجوني راحِماً يا خلِيلْ

وتوفي الأمير سيف الدين إينال بن عبد الله اليَشْبَكي، أحد أمراءِ العشرات، بالطاعون، في يوم الأربعاء خامس عشر صفر. وكان أصله من مم يك الأتابك يَشْبَك الشعباني؛ وكان من المهمَلين، رحمه الله.

وتوفي القاضي وليّ الدين أبو اليمن محمد بن قاسم بن [عبد الله بن][1] عبد الرحمن [بن محمد بن عبد القادر][1] الشيشيني[2] الأصل، المَحَلِّي، الشافعي، المعروف بابن قاسم، في يوم الجمعة سابع عشر صفر. وكان فيه خفّة روح ودعابة، ونادم الملكَ الأشرف بَرْسْباي، ونالته السعادة. وكان أولاً يلي الحكمَ بالمحلة وغيرها؛ فلما تسلطن الملكُ الأشرف، قرّبه ونادمه لصحبة كانت بينهما قديمة، ثم استقر شيخَ الخدّام بالحرم النبوي، إلى أن طلبه الملكُ الظاهر جَقْمَق، وصادره، ثم نادمه بعد ذلك، إلى أن مات. وكان ديّناً خيّراً، إلاّ أنه كان مِسِّيكاً جَمّاعاً للأموالِ؛ وكان سميناً جدّاً، لا يحمله إلاّ الجياد من الخيل.

وتوفي الأمير سيف الدين قَرَاخُجا بن عبد الله الحسني الظاهري، الأميرُ آخُور الكبير، بالطاعون، في يوم السبت ثامن عشر صفر؛ وتوفي ولدُه أيضاً في اليوم المذكور، فجُهّزا معاً من الغد، وحضر السلطانُ الصلاةَ عليهما بمُصلاة المؤمني، ودفنا بالصحراء. وكان أصل قَرَاخُجَا المذكور من مماليك الملك الظاهر برقوق، وتأمّر بعد أمور وقعت له بعد موت الملك المؤيَّد شيخ، وصار من جملة رؤوس النُّوَب؛ ثم نقله الملكُ الأشرف بعد سنين إلى إمرة طبلخاناه، ثم صار رأسَ نوبةٍ ثانياً، ثم مقدّمَ ألفٍ بالديار المصرية، إلى أن نقله الملكُ الظاهر جَقْمَق وجعله رأسَ نوبةِ النُّوَب، بعد الأمير تِمْراز القُرْمُشي، بحكم انتقاله إلى الأمير آخُوريّة. ثم نقل قَرا خُجَا بعد أشهر إلى الأمير آخورية بعد تمراز أيضاً، فدام على ذلك حتى مات.

وكان أميراً جليلاً شجاعاً مِقداماً معظّماً في الدول، عارفاً بأنواع الفروسية، رأساً

(١) زيادة عن الضوء اللامع.

(٢) نسبة إلى شيشين الكوم من الأعمال الغربية، كما في الانتصار لابن دقماق.

في ذلك، مع العقل والديانة والصيانة والحشمة والوقار وكثرة الأدب؛ وهو أحد مَن أدركنا من الملوك[١] العقلاء الرؤساء، رحمه الله تعالى؛ وهو صاحب المدرسة بالقرب من قنطرة طُقُزْدَمُر خارجَ القاهرة.

وتوفي السيدُ الشريف أبو القاسم بن حسن بن عَجْلان الحسني المَكِّيّ المعزول عن إمرة مكة، قبل تاريخه؛ وكان قدم صُحبةَ الحاجّ ليسعى في إمرة مكة، فأدركَتْه مَنِيَّتُه بالقاهرة، بالطاعون، في ليلة الاثنين العشرين من صفر؛ وحضر السلطانُ الصلاةَ عليه بمُصلاة المؤمني من تحت القلعة.

وتوفيت زوجةُ السلطان الملك الظاهر جَقْمَق خَوَنْد نفيسة بنت الأمير ناصر الدين بك بن دُلْغَادِر، بالطاعون في يوم الثلاثاء حادي عشرين صفر.

وتوفي الأمير سيف الدين بختك بن عبد الله الناصري، أحد أمراء العشرات، بالطاعون، في يوم الأربعاء ثاني عشرين صفر؛ وكان لا بأس به.

وتوفي الأمير مُغْلُبَاي طاز بن عبد الله الساقي الظاهري، بعد أن تأمّر بنحو العشرة أيام، في يوم الأربعاء ثاني عشرين صفر؛ وكان من مماليك الملك الظاهر جَقْمَق الأجْلَاب وأخد خواصِّه، وكان لا ذات ولا أدوات.

وتوفي الشيخ الإمام العالِم المعتقد محمد بن عبد الرحمن بن عيسى بن سلطان، المعروف بالشيخ محمد بن سلطان، الغَزِّي الأصل، المصري الدار والوفاة، الشافعي، في يوم الأحد سادس عشرين صفر؛ وكان الناسُ فيه على قسمين: ما بين معتقد ومنتقد، والأول أكثر؛ وكان إماماً عالماً بفنون، وله اشتغال قديم، وله قدم في العبادة والصلاح، وكان لا يتردّد إلى أحد، والناس تتردّد إليه من السلطان إلى مَن دونه. وكان يتّهمه بعض الناس بمعرفة الكيميا أو طرف منها، لأنه عمّر طويلاً في أرغد عيش ونعمة، ولم يقبل من أحد إلّا نادراً. وكان شيخاً منوّر الشيبة مُفَوَّهاً فصيحاً

(١) يطلق لقب «الملك» عادة على السلاطين. وقد أطلقه المؤلّف أيضاً في غير موضع من هذا الكتاب على كبار الأمراء ممّن كان لهم سطوة ونفوذ مثل بعض كبار الأتابكية وأمراء الأمراء وكبار الأمير آخورية.

شاعراً عالماً صوفيّاً؛ ومات وسنُّه أزيد من تسعين سنة فيما أظن، وهو متمتّع بحواسه، رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين تَمُرْباي بن عبد الله التَّمرْبَغَاوي رأس نوبة النوب بالطاعون، في يوم الأربعاء تاسع عشرين صفر، وهو في عشر الستّين. وكان أصله من مماليك الأمير تَمُرْبَغَا المشطوب نائب حلب؛ ثم خدم عند الأمير طَطَر؛ فلما تسلطن طَطَر جعله دواداراً ثالثاً، فدام عَلَى ذلك مدة، إلى أن نقله الملكُ الأشرف إلى الدوادارية الثانية، بعد موت جَانِبَك الدوادار الأشرفي، فباشر الدواداريةَ الثانيةَ على الجندية أياماً؛ ثم أنعم عليه بإمرةِ عشرةٍ، ثم بعد مدة طويلة بإمرة طبلخاناه؛ ودَام على ذلك، إلى أن أنعم عليه الملكُ العزيز [يوسف] ابن السلطان الملك الأشرف [بَرْسْباي]، بإمرةِ مائةٍ وتقدمةِ ألفٍ بالديار المصرية؛ ثم صار نائبَ الإسكندرية مدة؛ ثم عُزل واستقر رأسَ نوبةِ النُّوب، بعد انتقال قَرَاخُجَا الحسني إلى الأمير آخورية، فدام على ذلك إلى أن مات. وكان يعفّ عن المنكرات ويتصدّق كثيراً، غير أنه كان عارياً من كل علم وفنّ، مع حدّة خلق وبذاءة لسان، رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين أركماس بن عبد الله المؤيدي الأشقر، المعروف بالبوّاب، أحد أمراء العشرات ورأس نوبة، في يوم السبت سلخ شهر ربيع الآخر. وكان مهملاً، غيرَ متجمّل في ملبسه ومركبه، إلّا أنه كان مشهوراً بالشجاعة والإقدام.

وتوفي الأمير سيف الدين سُودون بن عبد الله المؤيدي، الأمير آخور الثاني، المعروف بسُودون أتمكجي، أي خَبَّاز، في يوم الاثنين ثاني عشر شهر رجب، وهو في عشر الخمسين أو أكثر. واستقرّ بعده الأميرُ يَرْشْباي الإينالي، الأمير آخور الثالث، أمير آخور ثانياً. وكَان سُودون المذكور شجاعاً مِقداماً عارفاً بأنواع الفروسية، كريماً حشماً معظّماً في الدوَل، وعنده تواضع وأدب، رحمه الله تعالى، فإنه كان من محاسن أبناءِ جنسه.

وتوفي الأمير سَيف الدين بَيْسق اليَشْبَكي نائب قلعة دمشق بها، في شعبان.

وَكان من مماليك الأتابك يَشْبَك الشعباني، وتأمّر في دولة الملك الظاهر جَقْمق [خمسة ثم](١) عشرةً، ثم ولّاه نيابةَ ثغر دِمياط، ثم نيابةَ قلعة صفد، ثم عَزله وأنعم عليه أيضاً بإمرةِ عشرةٍ بمصر؛ [ثم ولّاه نيابةَ دِمْياط](١)، ثم ولّاه نيابةَ قلعةِ دمشق بعد موت شاهين الطُّوغاني، إلى أن مات. وَنِعْمَ الرجل، كان ذا شجاعة وكرم وَعقل وتواضع، لا أعرف في اليَشْبَكِيَّةِ مَن يقاربه في معناه، رحمه الله تعالى.

وتوفي شرفُ الدين يحيىٰ بن أحمد [بن عمر بن يوسف بن عبد الله بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد بن أبي بكر الشرف التنوخي الحموي الأصل الكركي المولد](٢) الشهير بابن العطّار، الشاعر المشهور، في يوم الخميس سادس عشر ذي القعدة. ولم يكن يحيىٰ المذكور من الأعيان، ولا ممّن له عراقة ورئاسة لتُشكر أفعالُه أو تُذم، وإنما كانت شهرتُه بصهارة أخيه، الأمير ناصر الدين محمد بن العطّار، لبني البارِزي(٣)، فعُرف لهذا المعنى بين الناس. وكان له شعر، ويكتب المنسوبَ بحسب الحال. وكان أوّلاً يتزيّا بزيِّ الجند، وخدم دواداراً عند الشهاب، أستادّار المَحَلّة، ثم عند القاضي ناصر الدين بن البارِزي، فلم ينتج أمره، وعُزل؛ ثم بعد مدة ترك الجُنْدِيّة وتَزَيّا بِزِيِّ الفقهاء، وخدم مُوَقِّعاً عند الزيني عبد الباسط ناظر الجيش، فملأه سَبّاً وتوبيخاً منذ مباشرته عنده، إلى أن مَلَّ ذلك، وترك التوقيع، وانقطع إلى المقرّ الكمالي بن البارِزي، وصار يتردّد إلى الأكابر؛ ثم تردّد في الدولة الظاهرية لخدمة أبي الخير النحّاس، ومات وهو ملازم لصحبته.

وقد استوعبنا حاله بأوسع من هذا في «المنهل الصافي»، وذكرنا من شعره نبذة كبيرة؛ ونذكر منه هنا نبذة يسيرة، ليُعلَم بذلك طبقتُه في نظم القريض، فإنه كان لا يحسن غيره؛ فمن شعره قوله: [الخفيف]

أَهْلُ بَدْرٍ فَلْيَفْعلوا ما يشاؤوا أَهْلُ بَدْرٍ إن أَحْسَنُوا أو أساؤوا

(١) زيادة عن التبر المسبوك.

(٢) زيادة عن الضوء اللامع.

(٣) اشتهروا بولايتهم لوظيفة كتابة السرّ ورئاسة ديوان الإنشاء. وكان لهم نفوذ واسع في الدولة وكلمة مسموعة لدى السلاطين.

إن أَفَاضُوا دَمْعي فَكم قد أفادوا ... مِنَّةً من وِدادِهم وأَفاؤوا
وعيُوني إنْ فَجّرُوها عُيُوناً ... بدموعٍ كأنّهُنَّ دِمَاءُ
لا تَلُمْهُمْ على احمرارِ دُمُوعي ... فَلَهُم عنديَ اليَدُ البَيْضَاءُ
أنا راضٍ مِنْهُمْ وإن هُمْ رَضُوني ... فسواءٌ عندي القِلَى والقَلاَءُ
يا نُزُولاً في مُهْجَتِي في رياضٍ ... من وِدَادٍ أغْصَانُها لَفّاءُ
كُلُّ غُصْنٍ عليه طائرُ قَلْبِي ... صادِحٌ تَقْتَدي به الوَرْقاءُ
صَدْحُهُ كُلُّهُ حَنِينٌ وَوَجْدٌ ... واشتياقٌ ولَوْعَةٌ وَبُكَاءُ
مَنَعَ السُّهْدُ طَيْفَكُم ولِحَظّي ... صارَ حتى مِنْ عنْدِيَ الرَّجَاءُ
وعَذُولي يرى سُلُوِّيَ فَرْضاً ... أنا من رَأْيِه عَليَّ بَرَاءُ
يَدَّعِي في الهوَى إخَائي ونُصْحي ... لَيْتَ شِعري من أيْنَ هذا الإخاء؟
عَيْنُه عن محاسن الحبِّ عميا ... ءُ وأُذْني عن عَذْلِه صَمّاءُ

وهي أطول من هذا، تزيد على ستّين بيتاً، كلها على هذا النسق.

وتوفي السيد الشريف سراج الدين عبد اللطيف [بن محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن][1] الفاسي الأصل، المكّي المولد والمنشأ، الحنبلي، قاضي قضاة الحنابلة بمكة، بها، في أواخر هذه السنة، عن سنٍّ عالٍ[2]. وكان سيّداً كريماً متواضعاً، رحل إلى بلاد الشرق غير مرة، وأقبل عليه القانُ معين الدين شاه رُخ بن تَيْمُور وابنُه أُلُوغ بك صاحب سَمَرْقَنْد، وعاد إلى مكة بأموال كثيرة، أتلفها في مدة يسيرة، لكرم كان فيه؛ وهو أول حنبلي تولّى القضاءَ بمكة استقلالاً، رحمه الله تعالى.

وتوفي قاضي القضاة أمين الدين أبو اليمن محمد [بن محمد بن علي بن أحمد بن العزيز الهاشمي العُقيلي][3] النويري الشافعي، قاضي قضاة مكة وخطيبها،

---

(١) زيادة عن الضوء اللامع.

(٢) ذكر السخاوي مولده في سنة ٧٧٩ هـ، فتكون وفاته عن ٧٤ سنة، وهي سنٌّ غير متقدمة كما ذكر المؤلّف.

(٣) زيادة عن الضوء اللامع.

في ذي القعدة عن نحو ستّين سنة تخميناً، وَهو قاض . وَكان فاضلاً ديّناً خيِّراً، خطيباً فصيحاً مفوّهاً، كثير الصوم والعبادة، مشكور السيرة في أحكامه، فرداً في معناه، لم أرَ بمكة المشرّفة في مدة مجاورتي مَن يدانيه في الطواف، وفي كثرة العبادة، رحمه الله تعالى.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم سبعة أذرع وخمسة عشر أصبعاً. مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعاً وثلاثة أصابع.

* * *

السنة الثالثة عشرة من سلطنة الملك الظاهر جقمق على مصر

وهي سنة أربع وخمسين وثمانمائة.

فيها كان الشراقي[١] العظيم بمصر، والغلاء المُفرِط المتداول إلى سنة سبع وخمسين؛ وكان ابتداء الغلاء من السنة الخالية، لكنه عظم في هذه السنة بوقع الشراقي، وَتزايد، وبلغ سعر القمح إلى ألف درهم الإردب، والحمل التبن إلى سبعمائة درهم، وَقس على ذلك حسبما نذكره في وقته على طول السنين.

فيها توفي المسند المعمّر شمس الدين محمد بن الخطيب عبد الله الرشيدي الشافعي، خطيب جامع[٢] الأمير حسين بِحِكْر النُّوبي خارج القاهرة، في يوم الجمعة حادي عشر شهر ربيع الأول؛ ومولده في ليلة رابع عشر شهر رجب سنة تسع وستّين وَسبعمائة. وكانت له مسموعات كثيرة، وحدّث سنين وَتفرَّد بأشياء كثيرة، ولنا منه

---

(١) بلغ مستوى النيل في هذه السنة مقدار ١٥ ذراعاً وبضعة أصابع، وهو مستوى منخفض جداً بالنسبة لذلك الوقت وهو منتصف القرن التاسع الهجري يؤدّي إلى استشراق معظم الأراضي. في حين أن هذا المستوى كان كافياً في منتصف القرن الأول الهجري عند فتح العرب لمصر. ـ راجع ما كتبناه عن تغيّر مستوى النيل عبر العصور في هذا الجزء، ص ٢١٨، حاشية (١).

(٢) هذا الجامع بناه الأمير حسين بن أبي بكر بن إسماعيل بن حيدر بك الرومي بعد سنة ٦٧٥ هـ. وحكر النوبي: منسوب لجوهر النوبي أحد أمراء الدولة الأيوبية. (انظر خطط المقريزي: ٢/١١٩، ٣٠٦).

إجازة. وكان شيخاً منوَّر الشيبة فصيحاً مفوّهاً خطيباً بليغاً، رحمه الله.

وتوفي الأمير سيف الدين شاد بك بن عبد الله الجَكَمي، أحد مقدّمي الألوف بديار مصر، ثم نائب الرُّهَا، ثم حماة، بطّالاً بالقدس، بعد مرض طويل، في يوم الأربعاء ثاني شهر ربيع الأول؛ وكان أصله من مماليك الأمير جَكَم مِن عَوَض نائب حلب، وتنقل في الخِدم من بعده، إلى أن صار بخدمة الأمير طَطَر؛ فلما تسلطن طَطَر، قَرَّبَه وأنعم عليه، ثم تأمَّر عشرةً بعد موته، وصار من جملة رؤوس النوب؛ ثم صار أمير طبلخاناه، ثم ثانيَ رأسِ نوبة، ثم وَلِيَ نيابةَ الرُّهَا، ثم عُزل بعد سنين وصار بالقاهرة على طبلخاناته، إلى أن أنعم عليه الملكُ الظاهر جَقْمَق بإمرةِ مائةٍ وتقدمةِ ألفٍ بالديار المصرية في أوائل دولته، ثم نقله إلى نيابة حماة بعد سنين، فلم تطل مدّته على نيابة حماة وعُزل وتوجّه إلى القدس بَطّالاً؛ ثم تُكُلِّم فيه، فقبض عليه وحُبس مدة، ثم أُطلق وأُعيد إلى القدس بَطّالاً، إلى أن مات. وكان متوسط السيرة، غير أنه كان قصيراً جداً وعنده سرعة حركة وإقدام، وله وجه في الدول، رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الدين علي باي مِن دُولات باي العلائي الساقي الأشرفي، في يوم الثلاثاء تاسع عشرين شهر ربيع الأول، وحضر السلطانُ الصلاةَ عليه بمُصلاة المؤمني، وكان أصله من مماليك الملك الأشرف بَرْسْباي؛ اشتراه في سلطنته ورَبَّاه وأعتقه، وجعله خاصْكِيّاً، ثم ساقياً، ثم أمّره عشرةً، وجعله خازنداراً كبيراً، بعد إينال الأبو بكري الأشرفي، بحكم انتقاله إلى المُشِدِّيَّة، بعد قَراجَا الأشرفي، بحكم انتقاله إلى تقدمةِ ألفٍ؛ ودام علِيّ باي علَى ذلك، إلى أن أنعم على الملكُ العزيز يوسف بإمرة طبلخاناه وجعله شادَّ الشراب خاناه، بعد إينال الأبو بكري أيضاً، بحكم انتقال إينال إلى الدوادارية الثانية، بعد تَمُرْبَاي التَّمُرْبَغَاوي المنتقل إلى تقدمةِ ألفٍ؛ فلم تطُل مدةُ علي باي بعد ذلك، وقُبض عليه مع مَن أُمسك من خُجْدَاشِيَّة الأشرفية وغيرهم، وحُبس سنين، ثم أُطلق وأُنعم عليه بإمرةٍ بالبلاد الشامية وقَدِمَ القاهرةَ، ثم حجّ وعاد إلى دمشق، ثم قَدِمَ القاهرةَ ثانياً، ودام بها إلى أن أنعم عليه السلطانُ بإمرةِ عشرةٍ، ودام على ذلك إلى أن مات في التاريخ المذكور. وكان شابّاً مليح الشكل

طوالاً، عاقلاً، عارفاً بأنواع الفروسية، خصّيصاً عند أُستاذه الملك الأشرف إلى الغاية، لجمال صورته ولحُسْن سيرته. وأنعم السلطانُ بإقطاعه بعد موته على خُجْداشِه تِمْراز الأشرفي الزَّرَدْكَاش، فما شاء الله كان.

وتوفي الشيخُ الإمام العلاّمة شهابُ الدين أحمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم الدمشقي الحنفي، المعروف بابن عَرَبْ شاه، في القاهرة بخانقاه سعيد السعداء في يوم الاثنين خامس عشر شهر رجب، غريباً عن أهله وأولاده. سألتُه عن مولده فقال: في ليلة الجمعة داخل دمشق، في الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة إحدى وتسعين وسبعمائة. ونشأ بدمشق وطلب العلم، ثم خرج إلى بلاد العجم في كائنة تيمور وأقام بتلك البلاد سنين كثيرة، ثم رحل إلى الروم، ثم قَدِمَ دمشقَ وتردّد إلى القاهرة، إلى أن مات بعد أن وَلِيَ عدةَ وظائف دينية ووليَ قضاءَ حماة في بعض الأحيان.

وكان إماماً بارعاً في علوم كثيرة، مفنّناً في الفقه والعربية وعلمي المعاني والبيان والأدب والتاريخ، وله محاضرة حسنة ومذاكرة لطيفة، مع أدب وسكون وتواضع، وله النظم الرائق الفائق الكثير المليح؛ وكان يقول الشعر الجيد باللغات الثلاث: العربية والعجمية والتركية؛ وله مصنَّفات كثيرة مفيدة في غاية الحُسْن؛ ولما استجزتُه كتب لي بخطّه بعد البسملة:

«الحمد لله الذي زيّن مصرَ الفضائِل بجمالِ يوسفِها العزيز، جعل حقيقةَ مجازِ أهلِ الفضل فحلّى به كل مُجاز ومُجيز. أحمده حمدَ مَن طلب إجازةَ كرمه فاجتاز، وأشكره شكراً أوضحَ لمزيدِ نعمِه علينا سبيلَ المجاز، وأشهد أن لا إلّه إلاّ الله وحده لا شريك له، إلّه يجيب سائلَه ويُثيب آملَه، ويطيب لراجيه نائلَه، وأشهد أن سيّدنا محمداً عبده ورسوله، سيّد مَن رَوى عن ربّه وَمَن رُوِيَ عنه، والمقتدَى لكل مَن أَخذ عن العلماء وأُخذ منه، صلّى الله عليه ما رُويت الأخبار، ورثيت الآثار، وظهرت أذكار الأبرار، في صحائف الليل والنهار، وتابعيه وأحزابه، وسلّم وكرّم وشرّف وعظّم. أما بعد، فقد أجزتُ الجنابَ الكريمَ العالي ذا القدر المنيف الغالي، والصدر

الذي هو بالفضائل حال، وعن الرذائل خال، المَوْلَويَّ الأميريَّ الكبيريَّ العالميَّ العامِلِيَّ الأصيليَّ العريقيَّ الفاضليَّ المخدوميَّ الجماليَّ[١]، أبا المحاسن، الذي وِرْدُ فواضِله وفضائله غِراس يوسف، ابن المرحوم المقرّ الأشرف الكريم العالي المولويّ الأميريّ الكبيريّ الأتابكيّ المالكيّ المخدوميّ السفيريّ تَنْكَري[٢] بَرْدي الملكيّ الظاهري، أعزّ الله جمالَه، وبلّغه من المرام كمالَه؛ وهو ممّن تَغَذّى بلبان الفضائل، وتربّى في حجر قوابل الفواضل، وجعل اقتناء العلوم دأبَه[٣]، ووجّه إلى تدين الأحزاب ركابَه، وفتح إلى دار الكمالات بابَه، وصيّر أحرازها في خزائن صدره اكتسابَه، فجاز بحمد الله تعالى حُسنَ الصورة والسيرة، وقَرن بضياء الأسرّة صفاء السريرة، وحوَى السماحةَ والحماسة، والفروسية والفراسة، ولطف العبارة والبراعة، والعرابة واليراعة والشهامة والشجاعة؛ فهو أمير الفقهاء، وفقيه الأمراء، وظريف الأدباء، وأديب الظرفاء؛ فمهما تَصِفه صِفْ وأَكْثِر؛ فإنه لأعْظَمُ مما قلت فيه وأكثَر؛ فأجزتُ له معوِّلاً عليه، أحسنَ الله إليه، أن يرويَ عنّي ما ليَ من منظوم ومنثور، ومسموع ومسطور، بشروطه المعتبرة، وقواعده المحرّرة عموماً».

ثم ذكر ما له من تصنيف وتأليف وأسماء مشايخه ببلاد الشرق وبالبلاد الشأمية، وقد ذكرنا ذلك برمّته في ترجمته في تاريخنا «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي»، أضربنا عن ذكره هنا خوفَ الإطالة؛ فكان مما قاله في أواخر هذه الإجازة من النظم، أبيات مع ما في اسم يوسف: [الرّمل]

---

(١) وجود ياء النسبة المشدّدة في آخر اللقب ترفع منه درجة. فلقب العالميّ هو أرفع من لقب العالم، وهكذا. ـ انظر في ذلك صبح الأعشى: ٥/٤٧١ ـ ٤٧٣، طبعة دار الكتب العلمية.

(٢) يرد هذا الاسم عادة باسم «تَغْري بردي». والمثبت هنا عن طبعة كاليفورنيا، وهو الرسم الأقرب إلى لفظه الأصلي التركي. وهذا الاسم بالتركية هو تنجري ڤردي أو تنكَري ڤري Tengri verdi. وهو مؤلّف من كلمتين: الأولى «تنكري» وتعني عند ترك آسيا الوسطى والعثمانيين السماء أو الإلٓه؛ والثاني «ڤردي» فعل بمعنى أعطِ أو هَبْ. وهذا يعني أن اسم تغري بردي يكاد يعادل بالعربية اسم هبة الله أو عطاء الله. (انظر المؤرّخ ابن تغري بردي: ص ١٢٩).

(٣) كذا في الأصول. ولعلّ الصواب: «دابه» بدون همز وبنفس المعنى انسجاماً مع طريقته هنا في التسجيع. وقد وردت في بعض النسخ: «ذابه» محرّفة.

وجهُك الزاهي كَبَدْرٍ فوق غُصْنٍ طَلَعَا
واسمُك الزَّاكي كمِشكاةٍ سَناها لَمَعا
في بيوت أذن اللّـه لها أن تُرْفَعَا
عَكْسُها صَحِّفْهُ يُلْفى[1] الحُسْنُ فيه أجْمَعَا

وتوفي الأميرُ سيف الدين جانِبَك بن عبد الله النَّوْرُوزي، المعروف بنائب بيروت، بعد أن ابتُلي وعزل عن نيابة صِهْيَوْن، وعاد إلى القاهرة، فمات بالعريش. وكان أصله من مماليك الأمير نَوْرُوز الحافظي، وممّن تأمَّرَ ـ في دولة الملك الظاهر جَقْمَق ـ عشرةً؛ ثم خرج إلى البلاد الشأمية وصار من جملة أمراء طرابلس، ثم وَلِيَ نيابة صِهْيَوْن، فابتلي بداء الأسد[2]، واستعفى. وأراد قدومَ القاهرة، فمات في طريقه. وكان مشهوراً بالشجاعة لا بأس به.

وتوفي الأمير سيف الدين سُودون السُّودوني الظاهري الحاجب، في يوم الأحد العشرين من شعبان، وهو في عشر التسعين. وأصله من مماليك الملك الظاهر برقوق؛ ثم تأمّر بعد موت الملك الناصر فرج، وصار في الدولة الأشرفية من جملة الحجّاب؛ ثم صار حاجباً ثانياً في الدولة الظاهرية جَقْمَق؛ ونُفي غيرَ مرة، وهو يعود إلى دونِ رتبتِه أولاً؛ ولا زال يتقهقر إلى أن صار من جملة الحجّاب الأجناد. وكان شيخاً مسرفاً على نفسه مهمَلاً لم يُشهر بتديّن ولا شجاعة ولا كرم، عفا الله عنه.

وتوفي القاضي زينُ الدين عبد الباسط بن خليل بن إبراهيم الدِّمَشْقي الأصل والمولد والمنشأ المصري الدار والوفاة، ناظر الجيوش المنصورة بالديار المصرية، بطّالاً، بها في يوم الثلاثاء رابع شوّال بداره، في وقت المغرب بخُط الكافوري، وَدُفن من الغد بترتبه التي أنشأها بالصحراء خارج القاهرة. ومولده بعد التسعين وسبعمائة أو في حدودها[3]، وَنشأ بدمشق، وَخدم القاضيَ بدرَ الدّين بن الشهاب

---

(١) في بعض النسخ: «... تلقَ الحُسْنَ فيه جُمعا».

(٢) داء الأسد: صنف من الجذام، سمّي بذلك لمشابهة وجه صاحبه وجه الأسد.

(٣) ذكر السخاوي أن مولده كان عام ٧٨٤ هـ. قال: ونُقل عنه أنه في سنة تسعين أو التي قبلها، والأول أشبه.

محمود، وبه عُرِفَ بين الناس؛ ثم اتصل بخدمة الملك المؤيد شيخ وهو على نيابة دمشق، ولازمه إلى أن قُتل الملكُ الناصر وقَدِمَ معه إلى القاهرة، وسكن بالقرب منّا بالسبع قاعات، وهو فقير مملق. فلما تسلطن الملك المؤيد شيخ، قرّبه وأدناه، وولّاه نظرَ الخزانة، فانتقل من داره إلى دار أخرى بالقبّ منها. ولما عظُم أمرُه، سألَنا في السُّكْنى في بعض دُورنا، فأجبناه إلى ذلك، فسكنها عدّة سنين؛ ومن يومئذ أخذ أمرُه في نموّ وزيادة، وعظُم في الدولة، وعمّر الأملاك الكثيرة، ثم أنشأ مدرستَه بخُط الكافوري تجاه داره، ثم وَلِيَ نظرَ الجيوش المنصورة بالديار المصرية بعد عزل المقرّ الكمالي ابن البارِزي في الدولة الظاهرية طَطَر. وَلمّا وَلِيَ نظرَ الجيش، بعد ابن البارِزي، قال المقريزي، وتمثّل بقول أبي العلاء المعرّي: [الطويل]

ويا نفسُ جِدّي إن دهرَكِ هازلُ[1]

ودام عبدُ الباسط في وظيفته نظرِ الجيش سنين؛ وعظُم في أوائل الدولة الأشرفية، ثم أخذ أمرُه في إدبار عند الأشرف، وهو يُحسن سياستَه لا يظهر ذلك، ويبذل الأموالَ في رضى الأشرف بكل ما تصل قدرته إليه؛ يعرف قولي هذا مَن كان له رتبة تلك الأيام وملازمة بخدمة الملك الأشرف بَرْسْباي، مع أنه لم يَصْفُ له الدهرُ في خصوصيَّته عند الأشرف السنة الواحدة، بل كان كلما زال عنه واحد انتشأ له آخر؛ فالأول جانِبَك الدوادار الأشرفي، كان عبدُ الباسط وغيرُه بين يديه كالأغنام في حضرة الراعي؛ ثم انتشأ له البدرُ بن مزهر كاتبُ السرّ، فحاشَرَه فيما هو فيه، وضيَّق خناقه، إلى أن مات؛ ثم جاءه الصَّفَوِيُّ جوهرُ القُنُقْبَائي الخازندار، فكان عليه أدهى وأمرّ، ولا زال به حتى أوقعه في أمور وغرمات. ثم حمَّله [الأشرف] الوَزَر ثم الأسْتَادّارِيَّة، فلا زال يحجل في الأستادّارية مع ما يلزمه من الكلف مع ذلك، إلى أن مات الأشرف؛ وتسلطن ولدُه الملكُ العزيزُ يوسف، فقاسى في الدولة العزيزية خطوباً من

---

(١) هذا هو الشطر الثاني من بيت أبي العلاء:

فيا موتُ زُرْ إن الحياة ذميمةٌ ... ويا نفسُ جِدّي إنَّ دهرَكِ هازِلُ

وهو من قصيدته المشهورة التي مطلعها:

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعِلُ ... عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ

بهدلة المماليك الأشرفية له بكل ما تصل قدرتهم إليه، واستعفى في تلك المدة غيرَ مرة، إلى أن تسلطن الملكُ الظاهر جَقْمَق، وقَبض عليه بعد أشهر وسجنه وصادره، وأبرز ما كان عنده من الكوامن منه في الأيـام الأشرفيـة، حسبما ذكـرناه في تـرجمة الملك الظاهر جَقْمَق، فكان ما لَقِيَه أولاً كالمجاز بجنب هذه الحقيقة، ولسان حاله ينشد: [الكامل]

مـا إن وصـلتُ إلـى زمـانٍ آخـر   إلاّ بـكـيتُ عـلى الـزمـانِ الأوّل

ثم أُطلق عبدُ الباسط بعد أن حُمِّل جملةً كبيرة من الذهب نحو الثلاثمائة ألف دينار، حرّرناها في أصل الترجمة، وتوجّه إلى الحجاز ثم إلى دمشق، ثم قَـدِمَ إلى القاهرة مرة أولى وثانية، استوطن فيها القاهرة، إلى أن حجّ ثانياً، ومات في التاريخ المقدّم ذكره.

وكان عبدُ الباسط مليح الشكل متجمّلاً في ملبسه ومركبه، وحواشيه إلى الغاية، وله مآثر وعمائر في أقطار كثيرة معروفة به، لا تلتبس بغيره، لأننا لا نعلم مَن سمّي بهـذا الاسم قبله ونـالتْه السعـادةُ غيـرَه. وكـان لـه كـرم على أُنـاس، وبخـل على غيرهم[1]؛ وبالجملة إنه كان عُدّ بآخرةٍ من الرؤساء الأعيان، على شراسة خلق كانت فيه، وحدة، مع طيش وخفّة وجبروت وظلم على مماليكه وأتباعه، مع بذاءة لسان، وسفه زائد، وشمم وجهل مفرط بكل علم وفن إلى الغاية، رحمه الله تعالى.

وتوفي الأمير سيف الـدين أَرْكَماس بن عبـد الله الظاهـري، الدوادار الكبيـر، بَطَّالاً، بالقاهرة، في يـوم الجمعة ثـامن عشرين شـوّال، وسِنُّه زيـادة على سبعين سنة. وأصله من أصاغر مماليـك الظاهـر برقـوق؛ وترقّى في دولـة الملك الظاهـر طَطَر، وصار نائبَ قلعةِ دمشق، إلى أن أنعم عليه الملكُ الأشرف بَـرْسْباي بـإمرةِ مائةٍ وتقدمةِ ألفٍ بالديار المصرية؛ ثم ولاّه رأسَ نوبة النُّوَب بعد القبض على الأمير تَغْرِي بَرْدي المحمـودي؛ ثم نقله إلى الدواداريـة الكبرى بعـد مَسْك الأمير أُزْبَك

(١) والذي ذكره السخاوي في التبر المسبوك عن عبد الباسط هذا أنه كان «ملجأ للناس، متصلاً إحسانه بمَن يعرفه ومَن لا يعرفه، وما قصده أحدٌ إلاّ ورجع بمأموله من غير تطلّع منه لمال ونحوه».

المحمدي ونفيه إلى القدس بَطَّالاً؛ فدام في الدوادارية إلى أن عَزله الملك الظاهر جَقْمَق؛ ثم أخرجه بعد مدة إلى دِمْياط؛ ثم استقدمه بعد سنين إلى مصر، فأقام بها بَطَّالاً إلى أن مات.

وكان ساكتاً عاقلاً قليل الكلام فيما يعنيه وفيما لا يعنيه، متوسّط السيرة في غالب أحواله. كان لا يميل لخير ولا لشر، ولا يتكرّم على أحد، ولا يطمع في مال أحد، ولا ينهر أحداً، ولا يكرم أحداً، وقِس على هذا في غالب أموره. وكان عارياً مهملاً منقاداً في أحكامه إلى دواداره ورأس نوبتِه وَمُوَقِّعه؛ فمهما قالوه طاوعهم؛ فإن قصدوا الجنةَ سار معهم، وإن دخلوا النار دخل معهم، ومهما أشاروا عليه به لا يخالفهم. وَكان إذا كلّمه مَن لا يعرفه يظنه أنه قَدِمَ في أمسه من بلاد الجارْكَس، لغُتْمة كانت في لسانه باللغة التركية، فلعمري كيف يكون كلامُه باللغة العربية! غير أنه كان متديناً ويعفّ عن المنكرات والفروج، رحمه الله تعالى.

وتوفي قاضي القضاة وليّ الدين محمد بن أحمد بن يوسف السَّفْطي الشافعي، قاضي قضاة الديار المصرية، وصاحب العظمة في أوله والأهوال في آخره، في يوم الثلاثاء مستهلّ ذي الحجة ودفن من الغد بعد أن مرض يوماً واحداً؛ وقد تقدّم من ذكره وما وقع له نبذةٌ كبيرة في ترجمة الملك الظاهر جَقمق، تُعرف جميع أحواله بالقرائن؛ ونذكر الآن من أحواله شيئاً يسيراً من أوائل أمره إلى آخره على سبيل الاختصار.

كان أصله من سَفْط الحِنَّاء بالوجه البحري من أعمال القَاهرة، ونشأ بالقاهرة، وحفظ عدّة متون، وطلب العلم، واشتغل في مبادىء أمره. وناب في الحكم عن قاضي القضاة جلال الدين البُلْقيني مدة سنين. ثم تنزه عن ذلك وتردّد إلى الأكابر، ومال إلى طلب الدنيَا وتحصيل الدرهم؛ واجتهد في ذلك، مع ما ورثه من أبيه، حتى أثرى وكثر ماله، وصار كلما كثر ماله عظم حرصه، إلى أن جاوز الحدّ من زيادة المال وعظم البخل حتى على نفسه وعياله. وكان دأبه الركوب على فرسه، والتردّد إلى الأكابر، لشبع بطنه؛ فكان من الناس مَن يأكل عنده ويتوجّه إلى حال

سبيله، ومنهم مَن كان يأتي عنده، ثم يأخذ بيده صحناً من الطعام ويرسله إلى عياله من غير أن يستقبح ذلك؛ وشوهد أخذُه الطعامَ من بيتِ الصاحبِ بدر الدين بن نصر الله ناظر الخاص غير مرة.

فلما تسلطن الملكُ الظاهرُ جَقْمق، ترك السّفطي مَن دونه، ولزمه، حتى عظُم في الدولة وصار له كلمة نافذة، وعظمة زائدة، وتردّد الناس إلى بابه لقضاء حوائجهم، فنال بذلك من الوجاهة وجمْع المال ما لم ينله غيره من أبنَاءِ جنسه؛ كلّ ذلك وهو على ما هو عليه من الشحّ والطمع وسقوط النفس، كما كان أولاً، وزيادة؛ فإنه كان أولاً لا يتوصل إلى مقصوده من الأخذ إلّا بالتملّق والإطراء وغير ذلك، وقد صار الآن لا يأخذ إلّا بالسطوة والمهابة والتهديد؛ هذا من أعيان الدولة وأكابرها؛ وأما ما أخذه من الأصاغر، فكان عَلَى شبه أخذ الجالية[1].

ثم تولّى من الوظائف عدّةً كبيرةً، مثل نظر الكسوة، ووكالة بيت المال، عَلَى ما كان بيده من مشيخة الجماليّة، وغيرها من الوظائف الدينية. ثم وَلِيَ نظرَ البيمارستان المنصوري، وتدريس قبّة الإمام الشافعي رضي الله عنه. ولما انتهى أمره، تولّى قضاء الشافعية بالديار المصرية، بعد عزل قاضي القضاة شهاب الدين [أحمد] بن حَجَر في يوم الخميس رابع ذي القعدة من سنة إحدى وخمسين وثمانمائة، فأساء السيرةَ في ولايته، لا سيما عَلَى الفقهاء ومُباشِري الأوقاف؛ فإنه زاد وأمعن في أذاهم وبهدلتهم بالضرب والحبس والتراسيم، وقطع مَعَاليم[2] جماعة كبيرة من الطلبة المرتبة عَلَى الأوقاف الجارية تحت نظره.

ولقي الناسُ منه شدائدَ كثيرة، وصار لا يمكّن المرضى من دخول البيمارستان للتمرُّض به إلّا برسالة، ثم يُخرج المريضَ بعد أيام قليلة. وأظهر في أيام عزّه وولايته من شراسة الخلق وحدّةِ المزاج والبطش وَبذاءات اللسان أموراً يُستقبح ذِكرها؛ هذا مع التعبّد والاجتهاد في العبادة ليلاً ونهاراً، من تلاوَة القرآن، وقيام

---

(١) الجالية هي الجزية. ـ راجع فهرس المصطلحات.

(٢) معاليم: جمع معلوم، وهو الراتب الشهري أو المخصّص.

الليل والتعَفّف عن المنكرات والفروج، حتى إنه كان في شهر رمضان يختم القرآن الكريم في كل ليلة في ركعتين؛ وأما سجودُه وَتضرعه فكان إليه المنتهى. وكانت له أوراد هائلة دواماً؛ فكان بمجرد فراغه من وِرده يعود إلى تسلُّطه على خلق الله وعباده؛ ولا زال على ذلك حتى نفرت القلوب منه، وكثر الدُّعاء عليه، حتى لقد شاهدتُ بعض الناس يدعو عليه في المُلتَزَم بالبيت العتيق في هدوء الليل.

فلما زاد ذلك منه، سلَّط اللَّهُ عليه أقلَّ خلقه، أبا الخير النحّاس، مع توغّر خاطر السلطان عليه في الباطن؛ فلا زال أبو الخير يذكر للسلطان مساوئَه، ويعرّفه معايبَه، إلى أن كان من أمره ما ذكرناه في أصل هذه الترجمة، من العزل والمصادرة والحبس بالمَقْشَرَة، والاختفاء المدةَ الطويلةَ، ثم ظهوره بعد نكبة النحّاس، إلى أن مات، عفا الله عنه. وقد ذكرنا أحواله في تاريخنا «حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور» مفصّلاً باليوم والوقت، وذكرناه أيضاً في «المنهل الصافي» بأطول من هذا، فليُنظر هناك.

وتوفي العلّامةُ قاضي القضاة بهاءُ الدين أبو البقاء محمد ابن قاضي القضاة شهاب الدين أحمد ابن الشيخ الإمام العلّامة ضياء الدين محمد بن محمد بن سعيد بن عمر بن يوسف بن إسماعيل الصَّاغاني الأصل، المكّي المولد والدار والوفاة، الحنفي المذهب، قاضي قضاة مكة وعالِمها ومُفتِيها ومُصنِّفها، في تاسع عشرين ذي القعدة. وتولّى أخوه أبو حامد القضاءَ من بعده. وكان مولد القاضي بهاء الدين في ليلة التاسع من محرّم سنة تسع وثمانين وسبعمائة بمكّة؛ ونشأ بها وطلب العلم، واشتغل حتى برع في عدّة علوم، وأفتى ودرَّس وصنَّف، وأفنى عمره في الاشتغال والإشغال.

حكى لي الشيخُ أبو الخير بن عبد القوي، قال: أعرف القاضيَ بهاءَ الدين نحو الخمسين سنة، وأزيد، ما دخلتُ إليه فيها إلّا وجدته إما يكتب، أو يطالعُ، رحمه الله تعالى.

وتوفي الأميرُ سيف الدين تَغْرِي بَرْمَش بن عبد الله الزَّرَدْكَاش اليَشْبَكي، أحدُ

أمراء الطبلخانات، وزَرَدْكاشُ السلطانِ، بمكة، في أواخر هذه السنـة، وسنُّه نيّف على الثمانين سنة. وخلَّف مالاً كبيراً وأملاكاً كثيرة معروفة بأملاك الزَّرَدْكاش. وكان توجَّه إلى مكة المشرّفة مجاوراً. وأصله من مماليك الأمير يَشْبَك بـن أُزْدَمُر؛ وترقّى من بعده حتى صار أميرَ عشرة، ثم زَرَدْكَاشاً في الدولة الأشرفية بَرْسْباي؛ ودام على ذلك إلى أن أنعم عليه الملكُ الظاهر جَقْمَق بزيادةٍ على إقطاعه، وجعله من جملة أمراء الطَّبْلَخَانات، إلى أن مات. وكان مُسْرِفاً على نفسه، غير أن له غزوات كثيرة من الفرنج؛ ومات بتلك البُقعة الشريفة، فلعلّ الله يغفر له ذنوبه بمنّه وكرمه.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّة أذرع وخمسة عشر أصبعاً. مبلغ الزيادة خمسة عشر ذراعاً وسبعة أصابع؛ وهي سنة الشراقيّ العظيم.

* * *

السنة الرابعة عشرة من سلطنة الملك الظاهر جقمق على مصر

وهي سنة خمس وخمسين وثمانمائة.

وفيهـا كان تـزايد الغـلاء حتى خـرج عن الحـدّ، وبيـع القمـح بنحـو ألف وخمسمائة درهم الإردب، والفول والشعير بألف درهم الإردب، ثم تزايد بعد ذلك على ما حرّرناه في الحوادث.

وفيهـا تُوُفِّيَ الخليفـةُ أمير المؤمنين المستكفي بـالله أبو الـرّبيع سليمـان ابن الخليفـة المتوكـل على الله أبي عبد الله محمـد بالقـاهرة، في يـوم الجمعة ثـاني المحرّم؛ وقد تقدَّم ذكرُ نسبه إلى العباس في ترجمة أخيه المعتضد داود من هـذا الكتاب؛ وتولّى الخلافةَ بعده أخوه حمزة بغير عَهْدٍ منه، ولُقِّب بالقائم بأمر الله.

ونـزل السلطانُ الملكُ الظاهـرُ للصـلاة عليـه بمصـلاة المؤمني، ومشى في جنازته إلى أن شهد دفنه، وربما أراد حمل نعشه في طريقه. ومات المستكفي وهو في عشر الستين، بعد أن أقام في الخلافة تسع سنين ونحو عشرة أشهر. وكان ديِّناً

خيِّراً، مُنْجَمِعاً عن الناس بالكُلِّيَّة، كثير الصَّمت، قليل الكلام. ذكر عنه أخوه أمير المؤمنين المعتضد داود ـ وكان شقيقه ـ عندما عهد له بالخلافة في مرض موته، أنه لا يعرف عليه كبيرةً في مدة عمره ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ القاضي جمالُ الدين عبد الله [بن محمد بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله](١) بن هشام الحنبلي الفقيه، أحد نوّاب الحكم بالقاهرة، في العشر الأخير من المحرّم. وكان فقيهاً فاضلاً مشكورَ السّيرة في أحكامه ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الرئيسُ مجد الدين عبد الرحمن [بن عبد الغني](١) بن الجيعان، ناظرُ الخزانة الشّريفة السّلطانية وكاتبُها، في يوم الخميس تاسع عشرين المحرّم، بعد قدومه من الحجاز متمرّضاً. وخلّف عدّة أولاد، أُمّهاتُهم أُمهاتُ أولادٍ جوارٍ بيضٌ مسلمات.

وتُوُفِّيَ القاضي شمسُ الدين محمد [بن أحمد بن محمد](١) المعروف بابن زُبَالة الشّافعي المصري الأصل والمولد، قاضي قضاة مدينة اليَنْبع، بها في هذه السنة. وكان مولده بباب البحر خارج القاهرة؛ ثم انتقل إلى الينبع بعد أمور، ووَلِيَ قضاءها إلى أن مات. وكان له سمعة وصيت بتلك البلاد.

وتُوُفِّيَ السلطانُ خَوَنْدكَار مُراد بَك ابن السلطان محمد بَك كِرْشَجي(٢) بن أبي يزيد(٣) بن عثمان، متملِّك بُرصا(٤) وأَدِرْنابولي(٥)، وما والاهما من ممالك الرُّوم، في سابع المحرّم بمملكة الروم. وتولّى المُلْك من بعده ولدُه السلطان محمدُ بنُ مُراد بَك، واقتدى بسُنَّة أبيه في الجهاد والغزو، ونكاية العدوِّ، وأخذ البلاد والقلاع

---

(١) زيادة عن الضوء اللامع.

(٢) كرشجي: معناه بالتركية الوتري، نسبة للوتر. وسمّي بذلك لكون أبيه مازحه يوماً قائلاً له: ما حالك مع إخوتك بعدي؟ فقال: أخنقهم بالوتر، فضحك وأعجبه، وقال: عافية كرشجي. (الضوء اللامع).

(٣) أي بايزيد.

(٤) أي بورصة. وقد سبق التعريف بها ـ راجع فهرس الأماكن.

(٥) وهي أدرنة. واسمها بالرومية «أدريانا بوليس» نسبة للإمبراطور أدريان الرومي المتوفى سنة ١٣٨ م والذي أجرى فيها عدة تحسينات أوجبت إطلاق اسمه عليها. (تاريخ الدولة العلية العثمانية: ٤٤).

من يد الفرنج. ومات السلطان مراد بَك وهو في أوائل الكهولية[١]، وكان خير ملوك زمانه شَرْقاً وغَرْباً، مما اشتمل عليه من العقل والحزم والعزم والكرم والشجاعة والسؤدد. وأفنى عُمْرَه في الجهاد في سبيل الله تعالى، وغزا عدَّةَ غزوات، وفتح عدَّة فتوحات، وملَكَ الحصونَ المنيعة، والقلاعَ والمدنَ من العدوِّ المخذول. على أنه كان مُنْهمكاً في اللذات التي تهواها النفوس، ولعلّ حاله كقول بعض الأخيار ـ وقد سُئِلَ عن دينه ـ فقال: «أُمَزِّقه بالمعاصي، وَأُرَقِّعُه بالاستغفار». فهو أحقُّ بعفو الله وكرمه، فإن له المواقف المشهورة، وله اليد البيضاء في الإسلام ونِكاية العدوّ، حتى قيل عنه إنه كان سِيَاجاً للإسلام والمسلمين ـ عفا الله عنه، وعوّض شبابه الجنّة ـ فلقد كَان بوجوده غاية التجمّل في جنس بني آدم ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الشيخ شمسُ الدين محمد [بن محمد بن علي بن محمد][٢] بن حسّان، الفقيه الشافعي، شيخ خانقاه سعيد السعداء، في يوم السبت أول شهر ربيع الأول. وكان فقيهاً ديّناً مشكورَ السّيرة؛ وتولّى مشيخة سعيد السُّعداء من بعده الشيخ خالد.

وتُوُفِّيَ الشيخُ شمسُ الدين محمد [بن محمد بن إسماعيل بن يوسف بن عثمان بن عماد][٢] الحلبي [الأصل][٢]، المعروف بالحجازي، ابن أُخت السخاوي، في يوم الخميس ثالث عشر ربيع الأول. وكان أديباً، وهو ممّن عُرِف في هذه الدولة بخاله خليل السخاوي، وعُدَّ من بياض الناس، على أنه كان قليل البضاعة من العلوم والفضيلة.

وتُوُفِّيَ الشيخُ شمسُ الدين محمد[٣] الحنفي الرومي الأصل والمولد، المصري الدّار والوفاة، المعروف بالكاتب، في يوم الأحد ثالث عشرين شهر ربيع

(١) ولد سنة ٨٠٦ هـ. وكان عمره لّما توفي ٤٩ سنة. وكانت مدة حكمه ٣٠ سنة.

(٢) زيادة عن الضوء اللامع.

(٣) هكذا ذكره أيضاً السخاوي دون ذكر اسم والده وبقيّة نسبه. ويتكرّر هذا الأمر في ترجمة مَن أصلهم غير عربي ولا تعرف سلسلة نَسَبهم.

الأوّل، بعد أن نال حظًّا من ملوك مصر، لا سيما من الملك الظاهر جَقْمَق؛ فإنه عظم في دولته إلى الغاية ونالته السعادة، وعُدَّ من الرؤساء، ولم يكن لذلك أهلاً؛ غير أن ملوك زماننا كالعميان، يضع الواحدُ يده على كتف الواحد، فمهما تحرَّك الأوّل بحركةٍ تحرّك الثاني بمثله. فأول مَن قرّب شمسَ الدين هذا الظاهرُ طَطَر، فاقتدى جميعُ مَنْ جاء بعده من السلاطين به من تقريب شمس الدين هذا، ولا يَعْرِفُ أحدُهم لِم قرَّبه واختصَّ به غيرُ الظاهر طَطَر، فإنه كان له مقاصد لا يعرفها هؤلاء؛ ثم انحطّ قدرُه، ونُكب وصودِر، وادُّعي عليه عند القضاة بدعاوى اقتضت تعزيره وحبسه بسجن الرَّحْبَة، وقاسى أهوالاً؛ كلُّ ذلك بأمر السلطان الملك الظاهر جَقْمَق لَمَّا تغيّر عليه، نكالاً من الله؛ فإنه كان واسطة سوء مع دهاءٍ ومكرٍ، وعقلٍ تامّ، فإنه اتصل لمّا اتصل. ولم يَقْتَنِ دابّةً يركبها، بل كان كلما أراد أن يطلع القلعة ركب من الشيخونية حمالاً مكارياً بالكري[1]، وطلع إلى القلعة، واجتمع بالسلطان، ثم نزل وعاد على الحمار المذكور إلى داره بالشيخونية، في كل يوم على ذلك.

وكان قليل العلم، إلّا أنه كان له مشاركة ومحاضرة ومعرفة بمداخلة الملوك، محظوظاً عندهم. كان مُرَتَّبه في اليوم على الجوالي[2] فقط دينارَيْن؛ وله أشياء غير ذلك. وكان شكلاً مهولاً، طوالاً، ذا لحية كبيرة، وعلى رأسه عمامة هائلة، وقُبع جوخ كبير جداً، ويَلُفُّ عليه أزيد من ثوب بعلبكي رفيع، وقيل ثوبان، عوضاً من الشاش. ومع تقرّبه من الملوك كان عنده عفَّةٌ عن أموال الناس، وعدم طمع بالنسبة إلى غيره ـ رحمه الله.

وتُوُفِّيَ الشيخُ المعتقدُ محمد السفاري[3]، نزيل جامع عمرو بن العاص، في

---

(١) أي بالكراء، وهو الأجرة. والمكاريّ هو الذي يؤجّر الدواب.

(٢) المراد أنه كان يأخذ مرتّبه من أموال الجوالي، وهي الأموال التي كانت تجبى من أهل الذمّة. ولعلّه كان موظفاً (كاتباً) في ديوان الجوالي، فقد عُرف بالكاتب.

(٣) ذكره السخاوي في الضوء اللامع باسم «محمد بن محمد بن محمد الشمس الهُوّي السفاري الشافعي» ولم يذكر سنة وفاته. قال: «وهو ممّن سمع منّي». وذكر ابن دقماق برية سفري من الأعمال السيوطية (الانتصار: ٥/٢٣).

يوم الجمعة حادي عشر جمادى الأولى. وقد ذكرنا واقعته مع الملك الظاهر جَقْمَق في «الحوادث»؛ وملخصها أنه كان وقع من بعض فقرائه ما أوجب إحضاره، فامتنع، فألحَّ السلطانُ على الوالي بإحضار الشيخ محمد المذكور، فلما حضر إليه ثانياً أفحش في الجواب للوالي، ثم تكلم في الملأ بكلام يدلّ على موت السلطان في سابع عشر جمادى الأولى، وشاع ذلك بين الناس، فمات الشيخ قبل ذلك اليوم، أعني يوم سابع عشر جمادى الأولى بستة أيام، فتعجَّب الناسُ من ذلك. والذي أظنُّه أن الشيخَ ما قال إلّا عن نفسه، فتوهمت العامّةُ أن الشيخ يشير بذلك عن السلطان، والله أعلم، وعلى كل حال واقعة غريبة ـ رحمه الله.

وتُوُفِّيَ السّيدُ الشريفُ هَلْمان بن وَبير بن نَخبار أمير مدينة الينبع بها في أواخر جمادى الأولى، وهو في أوائل الكهولية. وكان شابّاً مليح الوجه، مشكور السّيرة، لولا أنه على مذهب القوم ـ عفا الله عنه. وتولّى بعده إمْرَةَ اليَنْبُع أخوه سُنْقُر. وكانت ولاية هَلْمان المذكور، بعد عزل ابن أخيه مَعز بن هجَّان بن وبير بن نخبار، في سنة تسع وأربعين وثمانمائة ـ اهـ.

وتُوُفِّيَ السيدُ الشريفُ أمْيَان بن مانع الحسيني المدني، أمير المدينة الشريفة النبوية ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ في جمادى الآخرة بها، وتولّى إمْرَةَ المدينة من بعده زُبَيْر بن قَيْس بن ثابت.

وتُوُفِّيَ الأميرُ ناصرُ الدين محمد الحلبي، الحاجب الثاني بحلب، المعروف بابن ألْتُغَا، في يوم السبت سابع عشرين شهر رمضان بالقاهرة، غريباً عن أهله وعياله. وكان أصله من بعض قرى حلب، وتَرَقّى في الخِدَم حتى لبس زيَّ الجند، وخدم أستاداراً عند بعض أعيان حلب، وتموّل، وتَرَقّى بالبذْل حتى صار حاجباً ثانياً بحلب، وهو لا يعرف كلمة مركَّبة باللغة التركية، ويتلفَّظ في كلامه بألفاظ فلّاحي القُرى إلى أن مات؛ غير أنه كان مشكورَ السّيرة، كريمَ النفس ـ رحمه الله.

وتُوُفِّيَ القاضي تاجُ الدين محمدُ ابن قاضي القضاة جلال الدين عبد الرحمن ابن شيخ الإسلام سراج الدين عمر البُلْقِيني الشافعي في يوم السبت سابع عشرين

شهر رمضان، ودُفن من الغد عن ثمانٍ وستّين سنة. وخلّف مالاً كثيراً، وكان مسيكاً بخيلاً، وإليه أشار الحافظُ ابنُ حَجَر بقوله: [السريع]

مات جلالُ الدين، قالوا: ابنُه يَخْلُفُه، أو فالأخُ الراجحُ
فقلتُ: تاجُ الدين لا لائقٌ لمنصبِ الحُكْم، ولا صالحُ

أراد بتاج الدين هذا في الأول ثم بالتورية قاضي القضاة علم الدين صالح البُلْقِيني.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين يَشْبُك بنُ عبد الله السيفي سُودُون الحمزاوي نائب صَفَد بها في ليلة السبت تاسع عشرين شهر رمضان. وكان يَشْبُك المذكور وَلِيَ دواداريّة السلطان بحلب سنين، ثم وَلِيَ نيابة غَزَّة؛ ثم نُقل إلى نيابة صَفَد إلى أن مات بها. وكان مشكورَ السّيرة، لم تسبق له رئاسةٌ بالديار المصرية. وتولّى الأمير بَيْغُوت المؤيَّدي بعده نيابةَ صَفَد ثاني مرّة - رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الأميرُ شهابُ الدين أحمد ابن أمير علي بن إينال اليوسفي الأتابَكي، أحد مقدّمي الألوف بالديار المصرية، في ليلة الثلاثاء سابع عشرين ذي القعدة؛ وحضر السلطانُ الصلاةَ عليه بمصلاة المُؤمني؛ ودفن بتربة جَدِّه الأتَابَك إينال؛ ومات وسنّه نحو خمسين سنة تخميناً؛ وإلى والده أمير علي ينتسب الملكُ الظاهرُ جَقْمَق بالعلائي؛ وقد تقدّم ذكر ذلك كله في أوّل ترجمة الملك الظاهر جَقْمَق، وكيف أخذه الملكُ الظاهرُ بَرْقُوق منه.

وكان أحمد المذكور أميراً ضخماً عاقلاً، رئيساً دَيِّناً خَيِّراً، متواضعاً، عارفاً بأنواع الفروسية، وعنده محبة للفقراء وأرباب الصلاح؛ وكان سميناً جداً، لا يحمله إلّا الجياد من الخيل؛ وكان ممَّن رقّاه الملك الظاهر جَقْمَق، وأمَّره عَشْرَة في أوائل سلطنته، ثم ولّاه نيابةَ الإسكندرية، وزاده عدَّة زيادات على إقْطَاعِهِ، ثم أنعم عليه بإمْرَةِ مائة وتَقْدِمةِ ألْف، عِوَضاً عن الأمير إينال العَلَائي بحكم انتقاله إلى الأتَابَكِيّة بعد موت يَشْبُك السُّودُوني المُشِدّ، فدام على ذلك إلى أن مات؛ وتأسَّف الناس عليه لحُسْن سيرته بالنسبة إلى أخيه محمد، وإلى الشهابي أحمد بن نَوْرُوز، شَادّ الأغنام،

فإنهما كانا أسوأ حواشي الملك الظاهر جَقْمَق سيرةً، بخلاف الشِّهَابي أحمد فإنه لم يكن له كلمة في الدولة إلّا بخير ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ السيّد الشريف إبراهيم بن حسن بن عَجْلان الحَسَني، المقبوض عليه مع أخيه علي بن حسن قبل تاريخه بمكة. و[كان قد](١) حُمل إلى القاهرة، وحُبس بالبُرج من القلعة مدّةً طويلة، ثم أُخرج مع أخيه إلى ثغر دِمْياط، فَدَامَ به بعد موت أخيه عليّ إلى أن مات في هذا التاريخ.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيف الدين تِمْراز بن عبد الله من بَكْتَمُرْ المؤيَّدي، المصارع، شادّ بَنْدَر جدَّة، قتيلاً بالحُدَيْدَة من بلاد اليمن، في خامس عشرين شهر رمضان، بعد أن فرَّ من جُدَّة بمال السلطان عاصياً عليه، فلم يحصل له ما قصد؛ وقد أوضحنا أمره وما وقع له من يوم خروجه من جدّة إلى يوم موته في أصل هذه الترجمة، سِيَاقاً في أواخر ترجمة الملك الظاهر هذا.

وتُوُفِّيَ قاضي القضاة شيخ الإسلام بدر الدين أبو الثناء، وقيل أبو محمد، بدرُ الدين محمود ابن القاضي شهاب الدين أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين بن يوسف بن محمود العيْنتابي(٢) الحنفي، قاضي قضاة الديار المصرية، وعالِمها ومؤرِّخها، في ليلة الثلاثاء رابع ذي الحجة، ودُفن من الغد بمدرسته التي أنشأها تجاه داره بالقرب من جامع الأزهر. ومولده بِعَيْنتاب في سنة اثنتين وستّين وسبعمائة؛ ونشأ بها، وتفقَّه بوالده بعد حفظه القرآن الكريم؛ وكان أبوه قاضي عَيْنتاب، وتُوُفِّيَ بها في شهر رجب سنة أربع وثمانين وسبعمائة؛ ثم رحل ولده القاضي بدر الدين هذا بعد موته إلى حلب، وتفقَّه بها، وأخذ عن العلاّمة جمال الدين يوسف بن موسى المَلَطي الحنفي وغيره؛ ثم قَدِمَ لزيارة بيت المقدس فلَقِيَ به العلاّمة علاء الدين العلاء بن أحمد بن محمد السيرامي الحنفي شيخ المدرسة الظاهرية ـ بَرْقُوق ـ وكان أيضاً توجّه لزيارة بيت المقدس، فاستقدمه معه إلى القاهرة في سنة ثمانٍ وثمانين وسبعمائة،

(١) زيادة يقتضيها السياق.

(٢) ويقال أيضاً: العيني. وهو أستاذ المؤلّف.

ونَزَّله في جملة الصُّوفية بالمدرسة الظاهرية ـ بَرْقُوق ـ ثم قرّره خادماً بها. ثم وقع له بعد ذلك أمور حكيناها في ترجمته في المنهل الصافي، إلى أن عُرِفَ بين الطلبة، وفَضُل في علوم، وصحب الأمير جَكَم من عوض، والأمير قَلَمْطَاي العثماني الدّوَادار، وتَغْري بَرْدِي القَرْدَمي، إلى أن تُوفِّيَ الملك الظاهر بَرْقوق في سنة إحدى وثمانمائة، فوَلِيَ حسبةَ القاهرة في مستهل ذي الحجة من السنة، بسفارة هؤلاء الأمراء، عوضاً عن الشيخ تقي الدين أحمد المقريزي، فمن يومئذ وقعت العداوة بينهما إلى أن ماتا. ثم صُرِفَ بعد أشهر؛ وتولّى حِسبة القاهرة غير مَرّة؛ وآخرُ ولايته للحِسبة في سنة ست وأربعين وثمانمائة عوضاً عن يَرْعَلي الخُرَاسَاني ـ انتهى.

فنعود إلى ما كنّا بصدده: ثم وَلِيَ القاضي بدرُ الدين هذا نظرَ الأحباس في الدولة المؤيَّدية؛ ولما تَسَلطنَ الملك الأشرف بَرْسْبَاي صَحِبه وَعَظُمَ عنده إلى الغاية، وصار ينادمه، ويقرأ له التواريخ من أيام السلف من الوقائع والأخبار، ويعلّمه دينَه: كان يقرأ له التاريخ باللغة العربية ثم يفسّره له باللغة التركية، وكان فصيحاً في اللغتين. وكان الملك الأشرف يسأله كثيراً عن دينه وعمّا يحتاج إليه من العبادات وغيرها، فيجيبه القاضي بدر الدين المذكور بعبارة تقرب من فهمه، حتى لقد سمعت الأشرف يقول غير مرة: «لولا العَيْنتَابي لكان في إسلامنا شيء». وولّاه قضاء الحنفية مرّتيْن. ومات الأشرفُ وهو قاضٍ، فعُزل في الدولة العزيزية بالشيخ سعد الدين سعد الدَّيْرِي، ولزم داره على نظر الأحباس مدة سنين إلى أن سعى علاء الدين عليُّ بن آقْبَرْس فيها ووَلِيَها، فاستقبح الناسُ عليه ذلك من وجوهٍ عديدة، ثم مات بعد ذلك بمدةٍ يسيرة.

وكان إماماً فقيهاً أُصوليّاً، نحويّاً، لغويّاً، بارعاً في علوم كثيرة، وأفتى ودرّس سنين، وصنَّف التصانيف المفيدة النافعة، وكتب التاريخ، وصنّف فيه مصنفات كثيرة ذكرناها مع جملة مصنفاته في «المنهل الصافي»، يطول الشرح في ذكرها هنا.

ولمّا انتهينا من الصلاة على قاضي القضاة بدر الدين هذا بجامع الأزهر، وخرجنا إلى مشاهدة دفنه، قال لي قاضي القضاة بدر الدين محمد بن عبد المنعم

البغدادي الحنبلي: «خلا لَكَ البَرُّ فَبِضْ وأصفر»(١) فلم أرُدَّ عليه؛ وأرسلتُ إليه بعد عَوْدي إلى منزلي ورقةً بخط العَيْني هذا يسألني فيه عن شيء سُئل عنه في التاريخ من بعض الأعيان، ويعتذر عن الإجابة بكبر سنّه وتشتّت ذهنه، ثم بَسَط القولَ في الشكر والمدح والثناء إلى أن قال: «وقد صار المعوّلُ عليك الآن في هذا الشأن، وأنت فارسُ ميدانه، وأستاذُ زمانه، فاشكر الله على ذلك». وكان تاريخ كتابة الورقة المذكورة في سنة تسع وأربعين وثمانمائة ـ انتهى.

وتُوُفِّيَ السيدُ الشريفُ عفيفُ الدين أبو بكر محمد [بن محمد بن عبد الله](٢) الأيْكي(٣) العَجَمي الشافعي نزيلُ مكة المشرّفة بِمِنًى في ثاني يوم من التَّشريق، وحُمل إلى مكة، ودُفن بها، وكانت جنازتُه مشهودة. وكان الناس في أمره وصلاحه على أقسام. رأيتُه بمكّة واجتمعتُ به مجلساً خفيفاً ـ رحمه الله.

وتُوُفِّيَ الشيخُ المعتقد الصالح أحمد التُرابي المصري فجأة، في يوم الجمعة حادي عشر ذي الحجة، ودُفن بزاويته من الغد، بالقرب من تربة الشيخ جَوْشَن خارج

---

(١) وهو من قول طرفة بن العبد: «... خلا لكِ الجوُّ فبيضي واصفري» وقد ذهب مثلاً. والمؤلّف يشير هنا إلى تصدّره زعامة المؤرّخين المصريين في القرن التاسع الهجري بعد موت أستاذه بدر الدين العيني. والواقع أن أبا المحاسن يحتل مركز الصدارة بين مؤرّخي مصر المملوكية، خاصة في عصر دولة الجراكسة. أما تاريخ مصر الإسلامية فإن الراية فيه معقودة للشيخ تقي الدين المقريزي بلا منازع، لما تميزت به كتاباته من العمق والإحاطة والمنهجية. أما المؤرّخ بدر الدين العيني صاحب «عقد الجمان» فإنه لم يبلغ شأو معاصره المقريزي في كتابته لتاريخ مصر الإسلامية بشكل عام، كما أن تلميذه ابن تغري بردي تفوّق عليه في تأريخه للمماليك. ولقد كان ابن تغري بردي تلميذاً لكلٍّ من المقريزي والعيني، وهو يجلّهما ويُنوّه بذكرهما في عدة مواضع من هذا الكتاب الذي بين أيدينا. غير أننا نلاحظ لدى المؤلّف ميلاً واضحاً للعيني وافتئاتاً في بعض الأحيان على المقريزي، بالرغم من أن أكثر نقول أبي المحاسن كانت عن المقريزي. ولعلّ ذلك يعود ـ فيما يعود، حسب ملاحظتنا ـ إلى أمرين: الأول اتفاق كلٍّ من العيني وأبي المحاسن في المذهب (الحنفي) وقربهما معاً من سلاطين دولة الجراكسة، والثاني اختلاف كلٍّ من المقريزي وأبي المحاسن في المذهب (المقريزي شافعي) وابتعاد المقريزي عن أجواء السلاطين ونقده الشديد لسياستهم الفاسدة. ـ (انظر كتابنا: أبو المحاسن مؤرّخ مصر في العصر المملوكي ـ دراسة ونصوص، دار الكتب العلمية، بيروت).

(٢) زيادة عن الضوء اللامع.

(٣) في الضوء اللامع: «الإيجي».

باب النصر. وكان رجلاً صالحاً ديِّناً خيِّراً معتقداً، وكنت أصحبه، وكان لي فيه اعتقاد ومحبة ـ رحمه الله تعالى.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربعة أذرع وخمسة عشر إصبعاً. مبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعاً وثمانية أصابع.

* * *

السنة الخامسة عشرة من سلطنة الملك الظاهر جقمق على مصر

وهي سنة ست وخمسين وثمانمائة.

فيها أخذ الغَلاء في انحطاط من الديار المصرية وأعمالها.

وفيها تُوُفِّيَ الشيخُ الإمامُ العلَّامة علاءُ الدين عليٌّ ابن الشيخ قُطْب الدين أحمد القَلْقَشَنْدي الشافعي، أحد فقهاء الشافعية، في يوم الاثنين مستهل المحرّم، ودُفن من الغد في يوم الثلاثاء خارج القاهرة. ومولده بالقاهرة في ذي الحجة سنة ثمانٍ وثمانين وسبعمائة، ونشأ بها، وحفظ عِدَّة متون في مذهبه، وتفقَّه بعلماء عصره، مثل شيخ الإسلام السِّرَاج البُلْقيني، وولده قاضي القضاة جلال الدين، والعلّامة عزّ الدين بن جَماعَة، أخذ عنه المعقول، وعن الشيخ الإمام العلّامة فريد عصره علاء الدين محمد البُخَاري الحنفي، وقاضي القضاة شمس الدين محمد البُسَاطي المالكي، وغيرهم. وبرع في عدة علوم، وأفتى ودرَّس، وتولّى عِدَّةَ تداريس، ورُشِّح لقضاء الديار المصرية غير مرّة، وسُئِل بقضاء دمشق فامتنع، وتصدَّى للاشتغال سنين، وانتفع به جماعةٌ من الطلبة ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الإمامُ المقرىء ناصر الدين محمد بن كُزُل بُغا الحنفي، إمام المدرسة الأشرفية بالعَنْبَرِيِّين، في يوم الأحد تاسع عشر صفر، وهو في عشر الخمسين. ومات ولم يخلف بعده مثله في القراءات وحُسْن التأدِّي، لا سيما في قراءة المِحراب فإنه

كان من الأفراد في ذلك؛ وكان أبوه من مماليك الأمير أَلْطُنْبُغَا الجُوبَاني نائب دمشق ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ عظيمُ الديار المصرية وعالِمها ورئيسها كمال الدين أبو المعالي محمد ابن العلاّمة القاضي ناصر الدين أبي المعالي محمد ابن القاضي كمال الدين محمد بن عثمان بن محمد بن عبد الرحيم بن هبة الله البَارِزِي الحَموِي الجُهَني الشافعي، كاتب السرِّ الشريف بالديار المصرية، وابن كاتب سِرّها، وصِهر السلطان الملك الظاهر جَقْمَق، بداره بخط الخَرَّاطين[1] من القاهرة، في يوم الأحد سادس عشرين صفر، وحضر السلطانُ الصلاةَ عليه بمصلاة المُؤمني، ودُفن عنده والده بالقَرَافة الصُّغْرى تجاه شباك الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه.

سأَلته عن مولده، فقال: بحَمَاة في ذي الحجة سنة ستّ وتسعين وسبعمائة.

قلتُ: ونشأَ بها تحت كَنَف والده، وحفظ القرآن العزيز، وصلّى التراويح بالناس في الدّيار المصرية لمّا قَدِمَ مع والده سنة تسع وثمانمائة، ثم عاد مع والده إلى حَمَاة، وحفظ التمييز[2] في الفقه، وقَرَأَهُ على الحافظ برهان الدين إبراهيم الحلبي المعروف بالقوف[3].

ثم قَدِمَ إلى الديار المصرية مع والده أيضاً بعد قتل الملك الناصر فَرَج في سنة خمس عشرة وثمانمائة، وتفقّه بقاضي القضاة وليّ الدين أحمد العِرَاقي، وأخذ المعقول عن العلاّمة عزّ الدين بن جَمَاعَة، وعن تلميذه ابن الأديب، وأخذ أيضاً عن قاضي القضاة شمس الدين البُسَاطي المالكي، وعن العلاّمة البارع الزاهد علاء الدين محمد البُخَاري الحنفي، ولازمه كثيراً وانتفع بدروسه، وأخذ النحو في مبادىء أمره

---

(١) خط الخرّاطين: كان يُعرَف قديماً بعقبة الصباغين ثم عُرِفَ بسوق القشّاشين. وكان فيما بعد دار الضرب والوكالة الآمرية والمارستان، ثم عُرِفَ بالخرّاطين. ومكانه حالياً شارع الصنادقية وما جاوره من الجانبين. (خطط المقريزي: ١٠٣/٢؛ وخطط علي مبارك: ١١٦/٢).

(٢) التمييز في فقه الشافعية، لشرف الدين هبة الله بن عبد الرحيم بن البارزي الحموي المتوفى سنة ٧٣٨ هـ. (كشف الظنون).

(٣) هو إبراهيم بن محمد بن خليل المتوفى سنة ٨٤١ هـ. (الضوء اللامع).

عن الشيخ يحيىٰ العجيسي المغربي وغيره، وسمع البخاري من عائشة بنت عبد الهادي. واجتهد في طلب العلم، وساعده في ذلك الذكاء المُفرِط والذهن المستقيم والتصوّر الصحيح، حتى برع في المنطوق والمفهوم، وصارت له اليد الطولى في المنثور والمنظوم، لا سيما في الترسّل والإنشاء والمكاتبات، فإنه كان إمام عصره في ذلك، هذا مع ما اشتمل عليه من العقل والعراقة والسكون والسؤدد والكرم والإكرام وسياسة الخلق وحُسْن الخلق، والرئاسة الضخمة، والفضل الغزير.

وباشر كتابة السرّ في أيام والده نيابة عنه، وعمره نيّف على عشرين سنة. ثم استقل بالوظيفة نيّفاً على ثلاثين سنة، على أنه صرف عنها غير مرة المُدّة الطويلة.

وأول ولايته لكتابة السرّ في يوم السبت خامس عشرين شوّال سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة في الدولة المؤيَّديَّة شَيْخ؛ تلقَّاها عن والده القاضي ناصر الدين بعد موته، واستمرَّ في الوظيفة إلى أن صُرِفَ عنها بصهره علم الدين داود بن الكُوَيْز ناظر الجيوش بالديار المصرية؛ واستقرَّ القاضي كمال الدين هذا في وظيفة نظر الجيش عوضاً عن علم الدين المذكور - أعني أن كلًّا منهما أخذ وظيفة الآخر - وذلك في محرّم سنة أربع وعشرين، فباشر وظيفةَ نَظَر الجيش إلى أن صُرِفَ عنها بعبد الباسط بن خليل الدمشقي في يوم الاثنين سابع ذي القعدة من سنة أربع وعشرين المذكورة؛ فلزم القاضي كمالُ الدين هذا دارَه على هيئة عمله من الحَشَم والخَدَم والإحسان لمَن يَرِدُ عليه من كلِّ طائفة، وأكبَّ على الاشتغال وطلب العلوم مدّة سنين إلى أن طلبه الملكُ الأشرف بَرْسباي في يوم سابع شهر رجب سنة إحدى وثلاثين، وخلع عليه باستقراره في كتابة سرِّ دمشق بعد موت بدر الدين حسين؛ فتوجّه إلى دمشق وباشر كتابةَ سِرِّها مدّة إلى أن قَدِمَ القاهرة صُحْبَةَ الأمير سُودون مِنْ عبد الرحمن نائب دمشق؛ وعُزل سُودون وتولّى جَارقُطْلُو نيابةَ دمشق، فَخَلَعَ السلطانُ عليه بقضاء دمشق مضافاً لكتابة سرِّها، وكان ذلك في يوم الأربعاء مستهل شعبان سنة خمس وثلاثين، فباشر الوظيفتَيْن معاً، وحَسُنَتْ سيرتُه وأحبَّه أهل دمشق.

ومن غريب ما اتفق في ولايته لقضاء دمشق أن العلاَّمة علاء الدين البخاري

كان إذا وَلِيَ أحدٌ من طلبتِهِ القضاءَ أو الحِسْبَة يغضبُ عليه ويمنعهُ من دروسه؛ فلمَّا بلغه ولايةُ القاضي كمال الدين هذا فَرِحَ، وقال: «الآن أمِنَ النـاسُ على أموالهم ونفوسهم»، وناهيك بقول الشيخ علاء الدين هذا في حقِّه.

واستمر على وظيفتِه بدمشق إلى أن طُلب إلى الديار المصرية، وولي كتابةَ سِرِّها بعد عزل الصاحب كريم الدين عبد الكريم بن كاتب المَنَـاخ في يوم السبت العشرين من شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين وثمانمائة، فباشر الوظيفةَ مدَّةً إلى أن صُرِفَ عنها بالشيخ محبِّ الدين بن الأشْقَر في يـوم الخميس سابـع شهر رجب سنة تسع وثلاثين. . .

ولزم المقرُّ الكَمالي دارَه إلى أن أُعيد إلى قضاء دمشق مسؤولاً في ذلك في يوم الثلاثاء مستهل شهر رجب سنة أربعين وثمانمائـة، فباشـر قضاء دمشق ثـانياً، وخَـطَبَ بالجـامع الأموي، وكتب إليه الشَّـرَفِي يحيىٰ بنُ العطَّار(١) وهـو بدمشق: [البسيط]

يـا سَيِّـداً جَـدَّ بـالـنَّـوَى لـي وطـال مـا جـاد بـالـنَّـوالِ
مِـنْ مُنْـذُ سـافـرتَ زاد نـقصـي يـا طـولَ شَـوْقي إلى الـكمـال

فأجابه القاضي كمال الدين المذكور ـ وأنشـدنيها من لفظه لنفسه ـ رحمـه الله تعالى: [الطويل]

خَيَـالُـكَ في عَيْنَيَّ يؤنِسُ وحْـدَتي على أنَّ داءَ الشوْقِ في مهجتي أعْيَا
فإن مات من فَرْطِ اشتياقي تَصَبُّـري أُعلّله بـالوَصْـلِ من سيدي يحيىٰ

ومن شعره ـ رحمه الله ـ أيضاً ما كتبه على سيرة ابن ناهض(٢) بعد كتابة والده القاضي ناصر الدين: [الرجز]

---

(١) هو يحيىٰ بن أحمد بن عمر بن يوسف التنوخي الحموي المتوفى سنة ٨٥٣ هـ. (الضوء اللامع).

(٢) هو محمد بن ناهض بن محمد بن حسن، شمس الدين الجهني الحلبي: أديب له اشتغال بالتاريخ. سكن القاهرة وتوفي سنة ٨٤١ هـ. وقد ألّف «سيرة المؤيد شيخ» وهي المشار إليها أعلاه بسيرة ابن نـاهض. (الأعلام: ١٢٢/٧).

مَـرَّتْ على فهمي، وحلو لفـظهـا مكـرَّرٌ، فمـا عـسى أنْ أصْـنَعَـا
ووالـدي دَامَ بـقَـاه سـؤدُده لم يُبْق فيهـا للكمـال مَـوْضِعَـا

وله أشياء غير ذلك ذكرناها في غير هذا المحل.

واستمر [القاضي كمال الدين][1] على قضاء دمشق إلى أن طُلِبَ من دمشق إلى الدّيار المصرية في الدّولة العزيزية ـ يوسُف ـ فحضر بعد سلطنة صِهْرِه الملكِ الظاهرِ جَقْمَق، وطلع إلى القلعـة بعد أن احتفـل وجوه الـدولة إلى مـلاقاتـه، وخُلع عليـه بـاستقراره في كتـابة السـرّ على عادتـه بعد عـزل الصـاحب بـدر الـدين حسن بن نصر الله، وذلك في يوم الثلاثاء سابـع عشر شهـر ربيع الآخـر سنة اثنتين وأربعين، وهذه ولايته الثالثة لكتابة السرّ.

واستمر في الوظيفة على أمور وقعت له ـ ذكرناها في الحوادث ـ إلى أن مات في التاريخ المقدّم ذكره بعد أن باشر الوظيفة على طريق وزراء السّلف من الملوك في الإنعام والعطايا والبرّ والصدقات والرواتب والإحسان للفقهاء والفقراء، بل وإلى غالب مَنْ ورد عليه وتردَّد إلى بابه كبيراً كان أو صغيراً، غنيّاً كان أو فقيراً، حتى شاع ذكرُه وبَعُدَ صيتهُ، وقَصَدَهُ الناسُ من الأقطار، وهو مع ذلك لا يَكِلُّ ولا يَملُّ، بل يجود بما هو في حاصله، وبما عساه يدخل إليه.

ولقد حدَّثني غير مرّة أنه لم يُستَحَقّ عليه منذ حياته زكاة عَيْن، قلت: فللَّه دَرُّه، لقد استحق قول الشيخ جمال الدين بن نُبَاتـة في ممدوحـه الملك المؤيَّد إسمـاعيل صاحب حماة حيث قال: [الرجز]

لا ظلمَ يُلْقى في حِمـاه العـالـي إلاّ عـلى الـعـداة والأمـوال

ولمّا حجَّ في سنة خمسين وثمانمائة، وحجّت في تلك السنة أيضاً كريمته خَوَنْد زوجة السلطان الملك الظّاهر جَقْمَق، وسافرا معاً في الرَّكْب الأوّل، فظهر للناس من علوِّ همّته، وغزير مروءته، وعظيم إحسانه، مـا لعلَّه يُذكـر إلى الأبد. ولقـد حدَّثني

---

(١) زيادة للتوضيح.

بعضُ أعيان مكة أنه كان إذا وقف على أخبار البَرَامكةِ وغيرهم ينكر ذلك بقلبه، حتى رأى ما فعله القاضي كمال الدين هذا من الإحسان إلى أهل مكة وغيرهم، فعند ذلك تحقَّق ما قِيل في سالف الأعصار. قلت: «وهو أعظم مَنْ رأينا وأدركنا، ولله الحمد والمنَّة على إدراكنا لمثل هذا الرّجل الذي مات ولم يخلف بعده مثله ـ رحمه الله تعالى وعفا عنه».

وتُوُفِّيَ الشيخُ الإمامُ العالِم زين الدين طاهر بن محمد بن علي النُّوَيْرِيّ المالكي، أحد فقهاء المالكية بالقاهرة، في يوم الاثنين خامس شهر ربيع الأول، وسِنُّه نيِّف على ستّين سنة تقريباً. وكان إماماً عالِماً فقيهاً ديِّناً صالحاً ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّي الملكُ الكاملُ خليل بن الملك الأشرف أحمد بن الملك العادل سليمان، صاحب حصن كَيْفا من ديار بكر، قتيلاً بيَد ولده في شهر ربيع الأول. وتولى ولدُه المذكور المُلْكَ من بعده، ولُقِّب بالملك الناصر، ودام في مملكة الحصن إلى شهر رمضان من السنة المذكورة، فوثبَ عليه ابنُ عمّه الملك حسن وقتله، وسلطن أخاه أحمد، ولقَّبه بلقب أبيه المقتول الملك الكامل.

وكان الملك الكامل خليل ـ صاحب الترجمة ـ مَلَكَ الحِصْنَ بعد قتل أبيه الملك الأشرف في سنة ست وثلاثين وثمانمائة، وقد ذكرنا واقعةَ أبيه الأشرف في ترجمة الملك الأشرف بَرْسْبَاي لما أرادَ القدوم عليه، وقُتل بيد أعوان قَرايُلُك ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيف الدين أُلْطُنْبُغَا بن عبد الله الظاهري المعلّم اللفَّاف، أحد أُمراء الألوف بالدّيار المصرية، بَطَّالاً، في يوم الاثنين عاشر شهر ربيع الآخر. وكان أصلُه من صغار مماليك الملك الظاهر بَرْقُوق، وطالت أيّامه في الجنديَّة إلى أن عُمِّر وتسلطن الملك الظاهر جَقْمَق، فقرَّبه وأنعم عليه بإقطاعٍ هائل، بعد مسك قَلَمْطَاي الإسْحَاقِي، ثم بعد مدة يسيرة أمَّره عَشرَة، ثم زاده زيادات كثيرة، وولّاه نيابة الإسكندرية، ثم عزله بعد مدّة، وجعله من جملة مقدّمي الألوف بالديار المصرية،

فباشر ذلك إلى أن عجز عن الحركة لكبر سِنّه واستعفى، فأخرج السلطانُ إقطاعَه لولده المَقام الفَخْري عثمان زيادةً على ما بيده، فلم تَطُلْ مدّةُ أُلْطُنْبُغا هذا بعد ذلك ومات. وكان عاقلاً ديّناً خبيراً عارفاً بأنواع الفروسيّة، رأساً في لعب الرُّمْح مُعَلِّماً فيه، ولهذا كان شُهرته بالمُعَلِّم ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الأمير سيف الدين بَرْسْبَاي بن عبد الله السّاقي المؤيَّدي، أحد أمراء العشرات، في يوم الجمعة سابع عشرين جمادى الأولى؛ وأنعم السلطان بإمْرَتِهِ على الأمير جَانَم الظاهريّ السّاقي. وكان بَرْسْبَاي رجلاً عاقلاً ساكناً حَشِماً وَقُوراً ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الأمير جمال الدين يوسف بن يَغْمُور نائب قلعة صَفَد بها في أوائل شعبان؛ وكان مولدُه بالقاهرة، وتشتَّت بالبلاد إلى أن قَدِمَ القاهرة بعد موت الملك المؤيَّد شَيْخ، وترقَّى إلى أن وَلِيَ نيابة قلعة صَفَد؛ ثم نُقل إلى أتَابَكِية صَفَد، ثم أُعيد إلى نيابة قلعتها ثانياً، إلى أن مات. وكان عارفاً مدبِّراً سَيُوساً عاقلاً ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الإمام العالِم العلاَّمة زينُ الدين عمر ابن الأمير سيف الدين قُدَيْد القَلَمْطَاوِي بمكّة المشرّفة في مجاورته في ثامن عشر شهر رمضان، وسنُّه ثمانٍ وستّون سنة. وكان إمامَ عصره في النحو والعربيّة والتَّصريف، وله مشاركة كبيرة في فنون كثيرة؛ وكان يتزيّا بِزِيِّ الأجناد، ويتقلَّلُ في ملبسه، ولا يتعاظم في أحواله، ويركب الحمار مع عراقته في الرِّياسة وتَبَحُّرِهِ في العلوم، حتى إنه مات ولم يخلف بعده مثله في علم العربيّة والتَّصريف.

وتُوُفِّيَ الأميرُ الطَوَاشِي زينُ الدين خُشْقَدم الرُّومي اليَشْبُكي، مُقَدَّم المماليك السّلطانيّة، بطّالاً، بداره التي أنشأها بالقرب من قنطرة طُقُزْ دَمُر خارج القاهرة، في ليلة الأربعاء ثامن عشر شوّال، وسنُّه نيّف على سبعين سنة. وكان أصلُه من خُدَّام الوالد، وقدَّمه في سنة تسع وتسعين إلى الملك الظّاهر بَرْقُوق في جملة خُدَّام

ومماليك، فأنعم به الظاهر على فارس الحاجب؛ ثم ملكه بعد فارس الأمير يَشْبُك الشَّعْبَاني الأَتابكي وأعتقه؛ ثم اتَّصل بعد موت أستاذه بخدمة السلطان، وصار من جملة الجَمدَاريَّة الخاص؛ ثم نقل إلى نيابة المقدّم(١)، ودام بها سنين إلى أن وَلِيَ تقدمة المماليك السلطانية بعد موت الافتخاري(٢) ياقوت الأرْغُونْ شَاوِي، في سنة ثلاث وثلاثين، فدام على ذلك إلى أن قبض عليه الأتابك جَقْمَق العلائي، وحبسه بثغر الإسكندرية مع مَن حبس من الأمراء الأشرفية وغيرهم. ثم أطلق، وتوجَّه إلى دِمْياط، فدام بها مدّة، ثم نُقل إلى المدينة الشريفة، وبعد مدّة قَدِمَ إلى القاهرة فدام بطَّالاً إلى أن مات.

وكان طوالاً حَشِماً متعاظماً، صاحب سطوة ومهابة وحُرْمة زائدة، مع طمع كان فيه وشَمَم، مع عدم فضيلة ـ رحمه الله تعالى.

وتُوُفِّيَ الأميرُ سيفُ الدين طُوغَان السَّيْفي آقْبَرْدِي المِنْقَار، نائب الكَرَك، قتيلاً بيد العُرْبان في هذه السنة. وهو من الأصاغر الذين أنشأهم الملك الظاهر جَقْمَق في أوائل دولته، ولم أعرفه قبل ذلك ولا أعرف مُعْتِقَه؛ بل قيل إنه من مماليك آقْبَرْدِي المِنْقَار، وقيل نَوْرُوز الحافظيّ، والأوّل أقرب.

وتُوُفِّيَ القاضي جمالُ الدين يوسفُ بن الصَّفي الكَرَكيّ المالكي القِبْطي بطَّالاً بدمشق في هذه السّنة، عن سنٍّ عالٍ، بعد أن وَلِيَ نظر جيش طَرَابُلُس وكتابة سرِّ مصر في بعض الأحيان بعد موت عَلَم الدين داود بن الكُوَيْز، ثم عُزِل عنها لعدم أهليّته. ووَلِيَ عدة وظائف بالبلاد الشّاميّة إلى أن كَبرَ سِنُّه وعجز عن المباشرة، فتعطَّل إلى أن مات. وقد قدَّمنا من ذكره نبذةً عند ولايته كتابة السِّرّ بمصر في ترجمة الملك الأشرف بَرْسْبَاي، فليُنظر هناك.

وفرغت هذه السّنة والملك الظاهر جَقْمَق مريضٌ مَرَضَهُ الذي مات منه بعد

---

(١) أي وظيفة نائب مقدّم المماليك، كما في الضوء اللامع.
(٢) أي كان لقبه افتخار الدين.

خَلْعِه في صفر حسبما تقدَّم ذكرُه، رحمه الله تعالى، وتَسَلْطَنَ ولدُه الملكُ المنصورُ عثمان في حياته.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمسة أذرع وأربعة وعشرون إصْبعاً. مبلغ الزيادة تسعة عشر ذراعاً واثنا عشر إصبعاً.

المصادر والمراجع
الجـــــزء الخامـس عشـر

- **أبو المحاسن مؤرّخ مصر في العصر المملوكي**، تأليف محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢.
- **الأعلام**، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٦.
- **الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة في العصور الوسطى**، إبراهيم طرخان، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، العدد ٨.
- **الألقاب الإسلامية**، حسن الباشا، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧.
- **الإلمام بأخبار مَن بأرض الحبشة من ملوك الإسلام**، المقريزي، القاهرة ١٨٩٥.
- **إنباء الغمر بأبناء العمر**، ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٦.
- **الانتصار لواسطة عقد الأمصار**، ابن دقماق، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، ابن إياس، كتاب الشعب، القاهرة ١٩٦٠.
- **بلدان الخلافة الشرقية**، لسترانج، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عوّاد، بغداد ١٩٥٤.
- **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، محمد فريد بك المحامي، دار الجيل، بيروت ١٩٧٧.
- **تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل**، أحمد السعيد سليمان، دار المعارف. القاهرة ١٩٨٤.
- **التبر المسبوك**، السخاوي، المطبعة الأميرية، القاهرة ١٨٩٦.
- **التحفة السَنِيّة بأسماء البلاد المصرية**، ابن الجيعان، بولاق ١٨٩٨.
- **تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور**، ابن عبد الظاهر، تحقيق مراد كامل ومحمد علي النجّار، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٦١.
- **التعريف بمصطلحات صبح الأعشى**، محمد قنديل البقلي، الهيئة المصرية العامّة، القاهرة ١٩٨٤.

- **تقويم البلدان**، أبو الفداء إسماعيل صاحب حماة، باريس ١٨٤٠.
- **جمهرة الأمثال**، العسكري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، المؤسسة العربية الحديثة، ١٩٦٤.
- **حُسن المحاضرة**، السيوطي، مطبعة إدارة الوطن، القاهرة ١٢٩٩ هـ.
- **حوادث الدهور**، ابن تغري بردي، تحقيق محمد كمال الدين عزّ الدين، عالم الكتب، بيروت ١٩٩٠.
- **الخطط التوفيقية الجديدة**، علي باشا مبارك، الهيئة المصرية العامّة، القاهرة ١٩٨٠ - ١٩٨٦.
- **الخطط المقريزية (المواعظ والاعتبار)**، أحمد بن علي المقريزي، دار صادر، بيروت.
- **الدارس في تاريخ المدارس**، النعيمي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٠.
- **دائرة المعارف الإسلامية** (النسخة العربية)، إصدار كتاب الشعب، القاهرة.
- **الدرّ المنتخب في تاريخ مملكة حلب**، ابن الشحنة، دار الكتاب العربي، دمشق ١٩٨٤.
- **الروض المِعطار في خبر الأقطار**، محمد بن عبد المنعم الحميري، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٤.
- **زبدة كشف الممالك**، خليل بن شاهين الظاهري، باريس ١٨٩٤.
- **السلوك لمعرفة دول الملوك**، أحمد بن علي المقريزي، (جـ١ - ٢)، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٥٨؛ (جـ٣ - ٤)، تحقيق سعيد عبد الفتّاح عاشور، القاهرة ١٩٧٠ - ١٩٧٢.
- **شذرات الذهب**، ابن العماد الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، القلقشندي، طبعة المؤسسة المصرية العامّة، القاهرة ١٩٦٣؛ وطبعة دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧.
- **صفة جزيرة العرب**، الهمداني، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، دار اليمامة، الرياض ١٩٧٤.
- **الضوء اللّامع**، السخاوي، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- **في التراث العربي**، مصطفى جواد، بغداد ١٩٧٥.
- **كشف الظنون**، حاجي خليفة، دار الفكر، بيروت ١٩٨٢.
- **لسان العرب**، ابن منظور، دار صادر، بيروت.

- **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، ابن فضل الله العمري، تحقيق دوروتيا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، بيروت ١٩٨٥.
- **معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي**، تأليف المستشرق زامباور، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة ١٩٥١.
- **معجم البلدان**، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت ١٩٨٤.
- **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة**، عمر رضا كحّالة، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٥.
- **معجم متن اللغة**، الشيخ أحمد رضا، مكتبة الحياة، بيروت ١٩٥٨.
- **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية، القاهرة.
- **المفيد في أخبار صنعاء وزبيد**، عمارة اليمني، تحقيق محمد بن علي الأكوع الجوالي، صنعاء ١٩٦٧.
- **الملابس المملوكية**، ل.أ. ماير، ترجمة صالح الشيتي، القاهرة.
- **منطلق تاريخ لبنان**، كمال الصليبي، نيويورك ١٩٧٩.
- **المؤرّخ ابن تغري بردي** (مجموعة أبحاث)، الهيئة المصرية العامّة، القاهرة ١٩٧٤.
- **الموسوعة العربية الميسّرة**، إشراف محمد شفيق غربال، دار الشعب، القاهرة ١٩٦٥.
- **الموسوعة الفلسطينية**، إعداد أحمد المرعشلي وعبد الهادي هاشم وأنيس صايغ، دمشق ١٩٨٤.
- **النجوم الزاهرة**، ابن تغري بردي، طبعة كاليفورنيا للمستشرق وليم بوبر، مطبعة دار الكتب المصرية.
- **نزهة النفوس والأبدان**، الخطيب الجوهري، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٧٠.
- **نظم دولة سلاطين المماليك**، عبد المنعم ماجد، مكتبة الأنجلو المصرية.
- **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب**، القلقشندي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٤.
- **نهر النيل في المكتبة العربية**، محمد حمدي المنّاوي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٦.
- - **معجم دوزي**:

Supplement aux Dictionnaires arabes - 2 vols. Paris - Leyden 1927.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

